أ. د. حسين حسن سليمان

السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية

بين النظرية والتطبيق



السلـــوك الانسانـــــي
والبيئة الاجتماعية

أ. د. حسين حسن سليمان
أستاذ الرعاية الاجتماعية والبحوث
كلية الخدمة الاجتماعية
جامعة جنوب إلينوي
الولايات المتحدة الأميركية

السلـــــوك الإنســـاني والبيئـة الاجتماعية

بين النظرية والتطبيق

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1425 هـ ـــ 2005 م

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت ـــ الحمرا ـــ شارع اميل اده ـــ بناية سلام ـــ ص.ب. 113/6311

تلفون 791123 (01) ـــ تلفاكس 791124 (01) بيروت ـــ لبنان

بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb

ISBN 9953-427-95 -X

فهرس موجـــــز

مقدمـــة الكتـــاب

يـــتعرض هـــذا الكتاب لقضية هامة ترتبط بكيفية تفسير السلوك الإنساني وتفهمـــه، وبشـــكل عـــام فلقد حلل علماء علم النفس منذ فترة طويلة السلوك الإنساني وطبيعته وأوضحوا أن السلوك الإنساني يتأثر بطبيعة الشخصية ومكوناتها، إلا أن عـــلماء عـــلم الاجـــتماع أكدوا فيما بعد أن السلوك الإنساني هو محصلة للظروف الاجتماعية والبيئية التي يعيش فيها الإنسان بما تتضمنه من تقاليد وعادات وظـــروف اجتماعية وبيئية. وبشكل أساسي فإن هذا الكتاب يبرز حقيقة جوهرية وهـــي أن السلوك الإنساني يتأثر بطبيعة التفاعل بين الجوانب الشخصية والظروف البيئـــية التي تحيط بالإنسان، هذا التفاعل يبدو مستمراً ومتأججاً فنرى على سبيل المـــثال أن الظـــروف الاقتصادية وحالة الكساد قد تسبب في ظهور حالات اليأس والاحـــباط لدى الشباب، بينما نجد أن غياب الاستقرار وفقدان الشعور بالأمن قد يظهر نوع من الاضطرابات السلوكية وحالات الخوف الشديد بين الأطفال.

وبشـــكل عـــام فإن هذا الكتاب يهدف إلى تزويد القارئ بالحقائق العلمية والمفاهـــيم الأساســـية التي ترتبط بالسلوك الإنساني والعوامل البيئية والاجتماعية والثقافـــية التي تدفع هذا السلوك وتوجهه، ولقد نتج عن التطور العلمي، والتقدم التقني، أن بدأ الإنسان يفكر في حقيقة سلوكه والقوى الداخلية والخارجية التي تؤثر في هذا السلوك بشكل أو بآخر. فعلى الرغم من أن البيئة المادية الاجتماعية تشكل الجانـــب الأساســـي في تشـــكيل هذا السلوك، إلا أن الإنسان – ككائن حي – يتشـــابه في الجوانـــب البيولوجـــية والنفسية والقدرات العقلية التي تشكل الإطار الخارجي لكيانه ودوافعه وطموحاته. ومن هنا فإن هذا الكتاب يساعد القارئ على تفهم وتفسير كافة العوامل البيئية والبيولوجية والنفسية التي تشكل السلوك الإنساني وتؤثر في نموه وتطوره وذلك وفقا للمرحلة العمرية التي يمر بها الفرد وارتباطا بطبيعة وظروف المجتمع الذي يعيش فيه الفرد.

وســـوف يســـتفيد من هذا الكتاب كافة المهتمين بدراسة السلوك الإنساني وطبيعـــته كذلـــك المتخصصين في الرعاية النفسية والاجتماعية والعاملين في مجال التربـــية والتأهيل النفسي والاجتماعي، وكذلك فإن هذا الكتاب سوف يمنح كافة القـــراء فرصة للتعرف على حقائق علمية هامة ترتبط بحياتهم وطبيعة التفاعل بينهم وبـــين الآخرين، فنرى أن الآباء قد يستفيدون من الحقائق التي يقدمها هذا الكتاب في كيفية تفهم سلوك الأبناء ودوافعه، كذلك فإن الأبناء من صغار السن قد يجدون في هذا الكتاب فرصة للتزود بالمعارف الأساسية عن طبيعة الإنسان ومراحل النمو بشـــكل عام، وبالإضافة إلى ذلك فقد يرى الشباب في هذا الكتاب مرجعا علميا يشـــرح طبيعة التحديات والمتطلبات المتعلقة بمرحلة الشباب. أما عن الأفراد الذين يعيشون المرحلة المتوسطة من العمر فلقد وضح الكتاب طبيعة هذه المرحلة ونوعية التحديات التي يواجهها الأعضاء خلال هذه المرحلة، وأخيرا فإن أعضاء المجتمع من كـــبار الســـن سوف يستفيدون من هذا الكتاب في فهم طبيعة مرحلة النضج من العمـــر وكيفـــية مواجهـــة هذه المرحلة من خلال التعود على أنواع جديدة من الســـلوكيات تمـــنحهم الأمل والسعادة للإستمتاع بهذه المرحلة الهامة والحيوية من حياة الإنسان.

وبشـــكل عام فإن دراسة السلوك الإنساني والبيئة قد أصبحت جزءاً أساسياً في كافـــة مناهج التعليم الجامعي المتخصص في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فإن كلـــيات التربية والعلوم النفسية، والخدمة الاجتماعية في الدول المتقدمة قد اعتبرت مساق السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية جزءاً أساسياً في مناهجها التعليمية نظراً لأهمـــية توجـــيه الطالب لدراسة وتفهم السلوك الإنساني في إطار المحددات البيئية والـــتفاعل التبادلي المستمر بين الأنساق الإنسانية والبيئة التي ينتمون إليها، وتستند الحقـــائق المرتبطة بهذا الكتاب على استعداد القارئ لتفهم المعارف الأساسية لعلم النفس العام، وعلم الاجتماع والتي تشكل القاعدة الأساسية لتفهم ارتباط السلوك الإنساني بالبيئة الاجتماعية.

فعـــلى ســـبيل المـــثال فلقـــد أقر مجلس تعليم الخدمة الاجتماعية CSWE بالولايـــات المـــتحدة الأمريكية مساق السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية كأحد المساقات الأساسية في تعليم الخدمة الاجتماعية على مستوى مرحلتي البكالوريوس

والماجستير حيث تضمنت السياسة العامة لمناهج الخدمة الاجتماعية التي أقرها المجلس واعتبرها متطلباً أساسياً للاعتماد العلمي والأكاديمي لبرامج الخدمة الاجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية والذي يعدُ نموذجاً لمناهج الخدمة الاجتماعية يُحتذى في معظم الجامعات العريقة في العالم. وفيما يلي جزء من هذا التوجه:

"على برامج الخدمة الاجتماعية أن توفر منهجاً دراسياً حول نظريات ومعارف النمو الاجتماعي البيولوجي النفسي Bio-psycho-social والتي تتضمن النظريات والمعارف التي ترتبط بالأنساق الاجتماعية التي يتعامل معها الأفراد: (الأسر، والجماعات،والمؤسسات، والهيئات والمجتمعات)، حيث يركز منهج السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية على تفهم التفاعلات بين الجوانب البيولوجية والنفسية والأنظمة الثقافية والتي تؤثر وتتأثر بالسلوك الإنساني(CSWE, 2000)".

وفي إطار تطوير وتحديث مناهج الدراسية في الجامعات العربية فلقد تم وضع هذا الكتاب وفقاً للمعايير الحديثة للكتاب الجامعي والتي تقوم على الأسس الفنية لمحتوى الكتاب وأساليب عرض المعلومات:

أولاً- المحتوى:

1 - اعتمد الكتاب على نظرية الأنساق العامة والمفهوم البيئي كإطار نظري لمناقشة الموضوعات.

2 - تضمن الكتاب حقائق علمية ومعارف اجتماعية مستمدة من مجموعة من النظريات والنماذج العلمية لُيثري المناقشة ويُفيد القارئ في التعرف على جوانب النمو المختلفة برؤى متعددة.

3 - اعتمد الكتاب في مناقشة تطور حياة الفرد ونموه، على النظرية الاجتماعية النفسية "لأريكسون"، مع الاستعانة بمفاهيم وتصورات من نظريات أخرى مثل النظرية الإدراكية/المعرفية "لبياجيه" ونظرية النمو الأخلاقي "لكولبرج" ونظرية نمو البالغين "لساشي" وغيرها.

4 - حـــدد الكتاب العوامل البيولوجية والنفسية والأنساق الاجتماعية التي تؤثر في مــراحل النمو المختلفة، مع مناقشة تأثيرات البيئة الاجتماعية على جوانب النمو ووظائفه في كل مرحلة.

5 - تعــرض الكتاب لموضوعات حديثة، وواقعية في كل مرحلة من مراحل النمو المخـتلفة مــع توضـيح وتحليل الأبعاد الاجتماعية لهذه الموضوعات والقضايا الاجتماعية المعاصرة.

ثانياً – العرض:

الـتزم الكـتاب بالمعـايير الحديثة للكتاب الجامعي والتي تشكل المتطلبات الأساسية لنشر الكتاب الجامعي في مؤسسات ودور النشر العالمية حيث:

1 - تضمن الكتاب مقدمة عامة لأهداف الكتاب وأهميته وارتباطه بالمنهج التعليمي للعلوم الإنسانية.

2 - وضـع المؤلـف نوعـين من الفهارس لمحتوى الكتاب: المختصر والتفصيلي؛ ليسـاعد القارئ على استطلاع محتوى الكتاب والفصول التي تحتوي على هذه المعلومات.

3 - تم تقسـيم الكتاب فصولاً أساسية متسلسلة وفق مراحل النمو الطبيعية لحياة الإنسـان وقـد وضحنا ذلك في مقدمة كل فصل؛ لمساعدة القارئ على تناول فصول الكتاب بشكل متناغم ومترابط ومتكامل.

4 - تم وضـع مجموعـة من الأهداف العملية كمخرجات دراسية يسعى الفصل الدراسي لتحقيقها، وذلك التزاماً بالمعايير الحديثة.

5 - اسـتعان المؤلف بالصور والجداول والرسومات البيانية والأشكال التي تساعد القارئ على تفهم المادة العلمية.

6 - وضـع المؤلـف ملخصاً في نهاية الفصل؛ ليمنح القارئ فرصة لتلخيص المادة العلمية والمحتوى الذي تم عرضه.

7 - أردف المؤلف في نهاية كل فصل حالة دراسية ترتبط بالمعلومات النظرية التي تم عرضها؛ لقياس مدى تفهم القارئ لمحتويات الفصل.

8 - ناقش المؤلف مجموعة من الموضوعات البحثية المهمة التي تشجع القارئ على الاستعانة بالقراءات الخارجية، والاستزادة من المعارف المتصلة بهذه الموضوعات كأسلوب تعلم ذاتي يعطي الفرصة للدارس لأن يطلع على هذه الموضوعات في مصادرها الرئيسة.

هذا ولقد اعتمد المؤلف على النموذج التحليلي في عرض المعلومات وتوضيح علاقة بعض جوانب السلوك الإنساني بالأقسام الأساسية لمناهج العلوم الإنسانية بمفاهيمها الحديثة.

وأدعو الله – تعالى – أن أكون قد وفقت في تزويد الدارسين والمهتمين بالعلوم الإنسانية، بالأبعاد النظرية للسلوك الإنساني بمفهومه الحديث، والتي تركز على رؤية النماذج الإنسانية كأنساق الاجتماعية، مع التركيز على التفاعل المستمر والمتبادل بين هذه الأنساق والبيئة الاجتماعية.

مع أطيب التمنيات للعاملين والمهتمين بحقل العلوم الإنسانية بمزيد من التطور والرقي والنهوض بدور هذه المهنة في دعم وتحقيق أهداف المجتمع في التنمية المتوازنة والشاملة. والله أسأل أن ينفع به، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

حسين حسن سليمان
كاربونديل – إلينوي
أغسطس 2004

الفصل الأول

مقدمة السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية

Introduction to Human Behavior & The Social Environment

أهداف عملية Objectives:

تتمثل الأهداف العملية التي يركز هذا الفصل على تحقيقها في الأمور التالية:

- التعرف على مفهوم السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية.
- تفهم علاقة هذا المفهوم بدراسة منهج الخدمة الاجتماعية.
- التعرف على أهم النظريات التي ترتكز عليها دراسة السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية.
- تحديد الأنساق التي يتعامل معها الأخصائي الاجتماعي وتفاعل هذه الأنساق معاً.

مقدمة Introduction:

بدأ "أحمد هلال" عمله كأخصائي اجتماعي بمستشفى جامعي في أحد المدن الرئيسة، ونتيجة لاجتهاده الشخصي وشغفه للتعلم، طلب منه رئيس قسم الخدمة الاجتماعية بالمستشفى، العمل في عيادة الإدمان التابعة لقسم الصحة النفسية تحت إشراف رئيس قسم التأهيل الاجتماعي والنفسي.

وقد ظهرت فكرة إنشاء قسم لعلاج حالات الإدمان منذ سنتين تقريبا؛ نتيجة للزيادة المضطردة في أعداد المترددين على المستشفى لعلاج أعراض ومشكلات الإدمان، ولقد نصح رئيس قسم التأهيل "أحمد هلال" بالانتظام في

دورة إعداد تدريبية عن علاج وتأهيل مرضى إدمان المخدرات، وبمرور الوقت بدأ "أحمـــد هلال" في اكتساب المعرفة والخبرة في التعامل مع حالات إدمان المخدرات وتقديم الخدمات والرعاية التأهيلية لهم.

ومـــن خـــلال هـــذه التجربة تعلم "أحمد هلال" أن رعاية حالات الإدمان بالعـــيادة تنقســـم إلى قســـمين أساسيين: الأول (التدخل الطبي والتأهيل النفسي والاجـــتماعي)، ويتلخص التدخل الطبي في تخليص الجسم من السموم الناتجة عن تعـــاطى المخدر Detoxification وذلك باستخدام الأدوية والمحاليل الطبية لتعويد الجســـم على التخلص من الأعراض الانسحابية Withdrawal Symptoms والتي تنشـــأ نتيجة لاحتياج الجسم للمخدر عن طريق التعود على تلقى جرعاته بكميات معيـــنة في أوقات محددة. أما الآخر فيتمثل في الخدمات التأهيلية Rehabilitative Service والـــتي تتبع التدخل الطبي، ويتم من خلالها دراسة حالة المريض وظروفه وإمكاناته الشخصية والبيئية والعمل على تنظيم خطة لمساعدة المريض على التوقف عن تعاطي وإدمان المخدرات.

ومن سجلات الأخصائي "أحمد هلال" انتقينا الحالات التالية:

الحالة الأولى:

م. أ.طفل عمره 14 سنة بدأ منذ عامين تجريب تدخين البانجو (الماريوانا) ولقد اعـــتقد في البداية أنه –فقط– يجاري زملائه وأنه يستطيع أن يتوقف عنها في أي وقت يحبه، ولكن مع مرور الوقت اكتشف م. أ. أنه يدخن البانجو بشكل منتظم ولا يستطيع أن يستغني عـــن المخدر بل إنـــه قد بدأ في زيادة كمية البانجو التي يدخنها مع السجائر حتى يستطيع أن يحافظ على مستوى التأثير الذي يشعر بـــــه، ولقـــد بدأت أســـــرة م. أ. في ملاحظـــــة بعـــض التغيرات التي حدثت على سلوكيات الابن ومزاجه بشكل عام، فلقد أدركت الأسرة أخيراً بعض التغيرات التي حدثت على شهية م. أ. وقدراته الجسمانية ومواعيد نومه واستيقاظه. وعند مواجهة الأب لـــ م. أ. بشكوكه اعترف الأخير بأنه يدمن تدخين البانجو وأنه غير قادر على الاستغناء عنه، ولقد نتج عن هذه المواجهة اضطراب شديد في الأسرة وتبادل الأب والأم الاتهامـــات بالتقصير في رعاية الابن وبناء على نصيحة أحد المعارف قامت الأم باحضار م. أ. إلى عيادة الإدمان بالمستشفى.

الحالة الثانية:

م. ع. عمـــــره 27 سنة وهو طالب جامعي حضر إلى المستشفى طالبا مساعدته بعد أن فشلت جميع محاولاته المتكررة للشفاء من إدمان المخدرات، فعلى سبيل المثال بدأ م. ع. في العام الماضي تجريب أنواع جديدة من المخدرات وبدأت حالته الصحية تســـوء بعد انغماسه في شـــم الكوكايين، وعندما التقى الأخصائي الاجتماعي "أحمد هلال" بالحالة اكتشف أن م. ع. قد تم فصله من الجامعة نتيجة عدم انتظامه ورسوبه لعدة سنوات في الصف الثاني الجامعي، ويشعر م. ع. بالخزى لأنه قد سبب كثيرا من المشاكل لأسرته والتي انتهت بسرقته لحلى ذهبية مـــن أختـــه والتي تلقتها عند زفافها كشبكة زواجها، ولقد سبب احتياج م. ع. للمخدر في مشـــكلات كـــبيرة بينه وبين والده الذي يتهمه بالاستهتار وعدم تحمل المسؤولية ولقد هدده والـــده بطـــرده من البيت إذا لم يتوقف عن تعاطى المخدرات الأمر الذي دفع والدته وأخوته لإحضاره إلى المستشفى.

الحالة الثالثة:

ر. ع. عمره 53 سنة ولديه تاريخ طويل في إدمان وتجارة المخدرات. حضر ر. ع. إلى المستشفى بعد أن تدهورت صحته بشكل كبير نتيجة إدمان الهيروين. بعد خروج ر. ع. من السجن منذ ستة أشهر حاول أن يبتعد عن المخدرات ولكنه جلس في بيت أخيه التاجر لا يفعل شيئاً، الأمر الذي جعله يشعر بالفراغ الكبير، إلى أن التقى ببعض الأصدقاء القدامى الذين دعوه لزيارالهم، ومن هنا بدأ يتعاطى الهيروين معهم إلى أن أصبح غير قادر على الامتناع عنه، وعند ملاحظـــة أخـــيه الأصغر الذي هو من المعروفين في المجتمع وله دور كعضو في المجلس الشعبي بالمديـــنة، شـــعر الأخ بأن ر. ع. سيسبب إحراجاً شديداً له خاصة أنه يعيش في أحد بيوته ويستغل البيت في إحضار بعض أصدقائه المدمنين لزيارته، لذلك قرر الأخ أن يحضر ر. ع. إلى المستشـــفى على أن يتحمل بنفسه كافة تكاليف العلاج حتى يستطيع ر. ع. أن يتخلص من الإدمان ويصبح قادرا على الاعتماد على نفسه.

عـــند دراسة هذه الحالات الثلاثة نجد أن هناك معلومات كثيرة مطلوبة حتى يتثنى لنا تكوين فهم كامل عن كل حالة مع الإلمام بمفاهيم وديناميكية الإدمان قبل أن نســـتطيع مســـاعدة كـــل حالة على حدة، وهناك أيضا ضرورة لفهم الأبعاد المرتـــبطة بالمـــرحلة السنية والتنموية لكل حالة، وعلى الرغم من اشتراك الحالات

الـــثلاثة في المعانـــاة من أعراض الإدمان إلا أن هناك فروقا كبيرة بين كل حالة من ناحية الظروف الاجتماعية والشخصية والتنموية المرتبطة بالمرحلة السنية لكل حالة، لذلـــك فـــإن تفهـــم طبـــيعة كل مرحلة عمرية والمتطلبات الجسمانية والانفعالية والادراكـــية والسلوكية المرتبطة بها سوف يكون له تأثير كبير في كيفية دراسة كل حالة وأسلوب تنفيذ عمليات الخدمة الاجتماعية الأساسية والتي تتكون من التقدير Assessment والتخطيطPlanning والتدخلIntervention والتقييم Evaluation .

ومن هنا يتضح أن عمليات المساعدة في العلوم الإنسانية يجب أن تقوم على حقائق وأسس علمية وفهم لطبيعة العميل والمرحلة العمرية التي يمر بها، مع ضرورة تفهم الظروف البيئية والمجتمعية التي قد يكون لها تأثير كبير على الجوانب الشخصية والـــتي قد تؤثر على تطور الموقف الإشكالي وطبيعته. وبمراجعة الأمثلة السابقة نجد أن تقديم الخدمات والرعاية التأهيلية لكل من م. أ الطفل ذو الـــ 14 سنة و م. ع. الشـــاب ذو الـــ 27 سنة و ر. ع. ذو الـــ 53 سنة سوف تختلف نتيجة لارتباط كـــل مـــنهم بمرحلة عمرية معينة وظروف تنموية مختلفة، فضلا عن الاختلافات الموجودة والمرتبطة بظروف كل حالة والبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها كل منهم.

أهمية مساق السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية

ترى Hutchison (2003) أن الهدف الأساسي من دراسة السلوك الإنساني والبيـــئة الاجتماعية هو استكشاف القوى المحركة Dynamics التي توجه السلوك الإنســـاني وتدفعـــه في مسارات معينة سواء أكانت هذه القوى مرتبطة بالنواحي الشخصـــية للفرد أم مرتبطة بالظروف البيئية المحيطة به. وبالنسبة للعاملين في المجال الاجـــتماعي والنفســـي الذين سيتم إعدادهم وتأهيلهم لممارسة المهنة فإن مساق الســـلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية يساهم في تزويد الدارس بمجموعة من العلوم والحقـــائق الأساســـية الـــتي ستؤدى بالضرورة إلى تنمية قدراتهم على تفهم أبعاد شخصـــية العمـــيل ودوافعـــه وأساليب تفكيره والاتجاهات والقيم التي تؤثر على سلوكياته وتصرفاته وعلاقاته.

وتعـــتقد Milliken (2004) أن على الدارس للعلوم الإنسانية أن يتعرف عـــلى مجموعـــة الحقـــائق التي توضح وتشرح مفهوم البيئة الاجتماعية ومكوناتها وأبعادهـــا وخصائصها ومدى تأثيرها على سلوكيات العميل وقدراته على التعامل مـــع المواقف الاجتماعية المختلفة، وهنا يجب أن ندرك أنه أحيانا ما تنشأ المشكلة الاجتماعية نتيجة التأثير المباشر للبيئة الاجتماعية، ولذلك فإن التعامل معها يتطلب تفهمـــا حقيقيا لأبعادها حيث أن حل المشكلة يرتبط بمستوى وفاعلية التعديل في البيـــئة الاجتماعـــية وظروفها، فنرى أحيانا أن بعض المشكلات الصحية التي تعاني مـــنها الأســـــــرة قد تنتج عن ارتفاع مستوى التلوث Pollution الموجود في البيـــئة. وكذلك فقد يتعرض الأطفال لخطر المخدرات نتيجة لسهولة تواجدها في المنطقة أو الحي الذي يسكنون فيه والضغوط التي يمارسها بعض الأفراد في الشارع عـــلى الصـــغار لتجريـــب المخـــدرات، ومن هنا يتضح أن محاولة حل مثل هذه المشكلات لا يتأتى بدون وجود فهم وخطة للتدخل من أجل تعديل ظروف البيئة.

وفي هذا السياق ترى Kirst-Ashman (2000) أن دراسة السلوك الإنساني والبيئـــة الاجتماعية تركز على تفهم الأنساق الاجتمـــاعيـــة Social Systems الموجـــودة في المجـــتمع والمرتبطة بالموقف الإشكالي الذي يتعامل معه العميل مثل (مجلـــس الحي – المؤسسات الخدَمية – جمعيات الأنشطة ... الخ)، فنجد أن طبيعة وتكوين هذه المؤسسات وأساليب التعامل بها وقوانينها قد تسبب بعض المشكلات للأفراد والأسر وباقي الأنظمة التي تتعامل معها، وبذلك تنشأ بعض المشكلات التي تعطـــل الفـــرد أو الأسرة أو الحي من الاستفادة من الخدمات والبرامج التي تقدمها هـــذه المؤسسات، لذلك يضطلع مساق السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية بتفهم المؤسســـة الاجتماعية وفلسفتها وطبيعة عملها وأنشطتها. لذلك فإن تفهم دارس/ دارســـة الخدمـــة الاجتماعية لهذه المؤسسات يعتبر أساسيا من أجل توضيح طبيعة التفاعل بين العميل بمستوياته المختلفة والمؤسسة الاجتماعية حتى يتمكن من التعرف عـــلى طبيعة المشكلة ومعدل الخلل الموجود، الأمـــــر الذي يساهم في إيجاد خطة تدخل بناءة وعملية لمواجهة الموقف وحل المشكلة.

بعـــد أن تم اســـتعراض مفهوم السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية وعلاقته بالعلوم الإنسانية ومناهجها فسوف يناقش هذا الفصل النقاط التالية:

- أهمية القاعدة العلمية بالنسبة لعمليات المساعدة النفسية والاجتماعية.
- عرض لمفاهيم نظرية النسق العام General System Theory.
- تقديم نموذج Framework للتفاعل بين المستويات المعروفة لأنشطة وبرامج المساعدة النفسية والاجتماعية والتأهيلية.
- مناقشة مبسطة لأدوار الأخصائي النفسي والأخصائي الاجتماعي وأخصائي التأهيل في التعامل مع هذه المستويات الثلاث.

تقوم تطبيقات المساعدة النفسية والاجتماعية والتأهيلية على خطوات أساسية تتضمن:

1 - **التقدير**: ويعني تحليل وتفهم الموقف الإشكالي للعميل.

2- **التخطيط**: ويركز على إعداد خطة للعمل تتضمن أهداف محددة للتعامل مع الموقف الإشكالي يتم اختيارها بدقة وبوضوح.

3 - **التدخل**: ويتناول الترجمة الفعلية للخطة والأهداف إلى أنشطة وعمليات محددة من أجل تغيير الموقف الإشكالي مثل تعديل بعض سلوكيات العميل أو بعض المفاهيم والأفكار التي تساهم في خلق المشكلة وتدعم استمرارها، بالإضافة إلى العمل على تغيير بعض سياسات أحد المؤسسات التي يتعامل معها العميل والتي قد تعطل قدرته على الاستفادة من خدماتها بشكل فعال.

4- **التقييم**: ويتضمن التعرف على مدى فعالية التدخل وتأثيره في تحقيق أهداف الخطة ومدى التغيير في الموقف الإشكالي مثل تعديل سلوكيات أو أساليب تفكير العميل أو تغيير في سلوكيات المؤسسة التي يتعامل معها العميل من أجل الحصول على خدمة معينة.

وحتى تتضح هذه الأمور نعرض للحالة التالية:

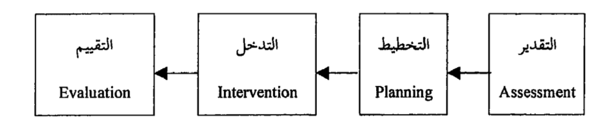
حالة محمود عبد اللطيف

محمود عبد اللطيف عمره (39) سنة يعمل كمشرف فني في أحد المصانع متزوج وعنده ثلاثة أطفال (10) سنوات و (6) سنوات وسنة. قبل ستة أشهر أصيب محمود في أثناء عمله وذلك نتيجة لسقوط قطعة من الحديد على كتفه ممّا سبب وقوعه على سطح العنبر وإصابة ركبته اليمنى بكسر. بعد أن انتقل محمود إلى المستشفى في أثناء فترة العلاج تم تقييم حالته ووجد أنه مصاب بعجز قدر بـــ (60%) بعد الحادثة. تلقت الأسرة خطاباً يفيد تحويل محمود إلى عمل إداري وتحميله مسؤولية الإصابة لإهماله في اتباع خطوات الأمن الصناعي المتبعة، أصيب محمود بالإحباط نتيجة هذا التقرير خاصة عند معرفته بأن قيمة التعويض المادي ستكون قليلة وأن إدارة التأمينات قد تأخرت في إعداد الأوراق اللازمة لصرف التعويضات التأمينية. تأثرت حالة أسرة محمود نتيجة لانخفاض الدخل الشهري وعدم قدرتها على مواجهة أعباء المعيشة وتأخر صرف التعويضات اللازمة. بعد خروج محمود من المستشفى داوم على العلاج بوحدة العلاج الطبيعي والتي تركزت على تحسين قدرته على الوقوف والمشي. يشعر محمود الآن بالإحباط واليأس نتيجة حالته الصحية وعدم قدرته على المشي واعتماده بشكل أساسي على الكرسي المتحرك في حركاته وتنقلاته، تحملت زوجة محمود جانب كبير من أعباء الأسرة وبدأت في قضاء احتياجات المنـــزل من شراء الطعام وتوصيل الأبناء إلى المدارس بالإضافة إلى مصاحبة محمود في انتقالاته للمستشفى لتلقي العلاج.

ولقد سببت هذه الظروف في شعور الزوجة بالإرهاق خاصة أنها لم تتلق الدعم الكافي مـــن الأهـــل في المرحلة الأخيرة. ونتيجة للتغيرات في الظروف الاجتماعية للأسرة ولإحساس الأبـــناء بالتوتر والحزن لإصابة والدهم لاحظت المدرسة تغيير في سلوكيات الابن الأكبر علاء وتدهور مستواه الدراسي وهروبه من المدرسة الأمر الذي أدى إلى فصله لمدة أسبوع واستدعاء والـــدة الطفل إلى المدرسة لمناقشة هذه التغييرات، ولقد أدت هذه الظروف إلى زيادة إحساس محمود بالأسف والاكتئاب وشعوره بالذنب نتيجة التغيرات التي حدثت للأسرة على المستوى المادي والنفسي والاجتماعي.

كما يبدو من الحالة السابقة أن هناك بعض الأحداث والتطورات قد حدثت للعميل نتيجة لظروف بيئية وشخصية أثرت بالضرورة على المستوى الوظيفي للأسرة وسببت بعض التغيرات في سلوكيات أفراد الأسرة وأحاسيسهم ومشاعرهم تجاه أنفسهم وتجاه الآخرين، إلاّ أن تطور الموقف الإشكالي قد تأثر بردود أفعال أنظمة أخرى مثل إدارة المصنع، ومؤسسة التأمين الاجتماعي، والمدرسة التي يدرس بها الطفل، ولذلك فإن مساق السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية يعطي بالضرورة أهمية كبيرة للظروف البيئية ومدى تأثيرها على الموقف الإشكالي الذي يعيشه العميل، كذلك فإن دراسة طبيعة المؤسسات التي يتعامل معها العميل وأسلوب تعاملها مع العملاء والشروط المرتبطة بالخدمات التي تقدمها يعطينا فكرة واضحة عن مدى تأثير المؤسسة وسلوكياتها على الموقف الإشكالي الذي يتعامل معه العميل. وعلى ذلك فإن التدخل Intervention لمساعدة العميل على التعامل مع ظروفه ومشكلاته يتطلب بالضرورة تقدير شامل Comprehensive Assessment لكل أبعاد المشكلة وظروف العميل لأن الخطة العلاجية المطلوب إعدادها يجب أن تعد على أسس سليمة حتى تساهم بالضرورة في إيجاد حلول عملية وواقعية للمشكلة.

شكل رقم (1)
الجوانب الأساسية في عمليات المساعدة



ويرى (1996)، Rooney & Larsen, Hepworth ، أن التقدير يتطلب تجميع معلومات كافية عن كافة ظروف المشكلة بشقيها (الشخصي والبيئي) ومدى التفاعل بين هذين الشقين. ومن ثم فإن مساق السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية يزودنا بحقائق علمية محددة عن العميل والبيئة. فتركز دراسة

العميل عن المرحلة التنموية والسنية للعميل والمتطلبات المرتبطة بالمرحلة التنموية والتي تتضمن الوظائف البيولوجية والإدراكية والانفعالية والاجتماعية والأخلاقية. لذلك فإن أي خلل في أحد هذه الوظائف قد يساهم في تبني العميل لسلوكيات معينة قد تؤدي إلى تفاقم المشكلة. فبالنسبة للوظيفة البيولوجية فإن أي خلل في أجهزة الجسم مثل الغدد أو القدرات الحسية قد يؤدي إلى مشكلات مثل العصبية والحركة الزائدة الانفعالية Hyperactivity، كذلك فإن الخلل في الوظيفة المعرفية الإدراكية Cognitive عند العميل مثل التفهم والاستنباط والتحليل والابتكار والتذكر قد يساهم في عدم قدرة العميل على فهم الأمور بطريقة واضحة أو عدم قدرته على تحليل ودراسة الموقف مما يؤدي به إلى اتخاذه قرارات غير موضعية أو خاطئة تؤثر في حياته وحياة أسرته وعلاقاته أو قدرته على التعامل مع الآخرين وأداء دوره كعامل أو موظف.

ومن هنا تظهر أهمية تعرف الأخصائي النفسي/الاجتماعي/ التأهيلي على معلومات أساسية عن العميل وشخصيته وطبيعة المؤسسات التي يتعامل معها قبل البدء في التعامل مع الموقف الإشكالي ولدراسته دراسة جيدة، إلاّ أن عملية التدخل التي تهدف إلى تغيير سلوكيات أو اتجاهات معينة أو تغيير الظروف البيئية التي قد ساهمت في خلق المشكلة. إن بدء عملية التدخل يتطلب خلق علاقة مهنية مع العميل تؤدي بالضرورة إلى الحصول على ثقته وتأكيد رغبته في عرض وشرح ظروفه الخاصة للأخصائي ومن ثم تبدأ عملية الاتصال الفعال Effective Communication بين العميل والأخصائي لكي يعملا معاً كفريق عمل Teamwork أو كشركاء Partners لمواجهة المشكلة، هذه العلاقة المهنية تتطلب من الأخصائي فهماً ومعرفة لطبيعة المرحلة التنموية (السنية) للعميل والمتطلبات والظروف والتحديات المرتبطة بكل مرحلة، وتأتي هذه المعارف والعلوم من دراسة مساق السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية.

نظرية النسق العام (System Theory)
والمنظور البيئي (Ecological Perspective)

نظـــراً لأهمـــية فهم البيئة ومدى تأثيرها في السلوك الإنساني فإن هناك أهمية لـــتفهم طبـــيعة التفاعل بين الفرد والأنظمة المختلفة التي يتعامل معها خلال البيئة الاجتماعـــية المحيطة به. لذلك فإن الأخصائي يحتاج إلى إطار نظري يزوده بفكرة رمزية أو صورة عامة تساعده على فهم العالم الذي نعيش فيه، وتعطي نظرية النسق العـــام رؤيـــا واسعة تساعد على تفهم وتحليل الأمور وتشرح طبيعة التفاعل بين الأنظمـــة المخـــتلفة (الأســـرة، الحـــي، المؤسسة، المجتمع الصغير، المجتمع الكبير) (Barker, 1995). وبالإضـــافة إلى ذلك فإن عرض المفاهيم المرتبطة بالمنظور البيئي تســـاعد الأخصـــائي الاجتماعي على تفهم تأثير البيئة في الموقف الإشكالي الذي يتعامل مع العميل .

هـــناك فكـــرة أساسية تؤكد أن البشر يتفاعلون بشكل مستمر مع أنساق مخـــتلفة في البيـــئة. هـــذه الأنظمـــة تتضمن الأسرة والأصدقاء، ومكان العمل، ومؤسســـات الرعاية الاجتماعية، وأماكن العبادة، والأندية الرياضية، والجماعات الاجتماعـــية. وتؤكـــد نظرية الأنساق العامة أن الأفراد يتعاملون بشكل متفاعل وديناميـــكي مـــع مجموعـــة من الأنساق من أجل إشباع الاحتياجات الإنسانية والاجتماعـــية والاقتصادية المختلفة، ومن ثم فإن دور المهن الإنسانية والاجتماعية هـــو العمل على تحسين وتنمية التفاعل بين الأفراد والأنساق المعنية، ولذلك فإن نظرية الأنساق العامة تزودنا بمجموعة من المفاهيم تساعدنا على تفهم وتحليل طبيعة التفاعل بين الفرد والأنساق المختلفة وتساهم مفاهيم النظرية في تحليل هذه الأنساق والتعرف على مكنوناتها مما يؤدي إلى تحديد الخلل في هذه الأنساق وعملية التفاعل بين الأفراد والأنساق الأخرى.

ويهمـــنا أن نعـــرف معنى النسق قبل أن نسترسل في التعرف على وظائفه ومفاهيمه حيث يعـــرف Zastrow (2000) النسق بأنه " مجموعة من الأجزاء التي تنضـــم معـــاً بطريقة مرتبة وتتفاعل كلها معاً حتى تصبح كوحدة وظيفية فعالة " (صفحة 6).

ولكي نفهم نظرية الأنساق العلمية فإن علينا أن نتعرف على بعض المفاهيم الأساسية التي سيتم عرضها وتفسيرها : وتتضمن المفاهيم الأساسية كل من المحددات Boundaries المدخلات Inputs المخرجات المقترحة Proposed Outputs المخرجات Outputs الارتباط التبادلي Interface عمليات التغيير Conversion operations النظام الأشمل Superasystem المرجعات (التغذية الراجعة) Feedback.

المحددات Boundaries:

تمثل المحددات الإطار الخارجي أو الخصائص الخاصة التي تحدد نوعية وذاتية النسق، وترتبط المحددات بطبيعة العلاقات داخل النسق والتي تجعله متفرداً في خصائصه بحيث تخلق له كياناً خاصاً لا تشاركه فيه أية أنسقة أخرى. ويوضح Norlin, et al. (2002) أن " المحددات تعرف النسق وتحدد الأدوار التي سيتم تبنيها بواسطة أعضاء هذا النسق، وأن أحد أهداف هذه المحددات هو حماية النسق ضد أية تأثيرات خارجية قد تؤثر تأثيراً سلبياً على قدرته على تحقيق وظائفه " (صفحة 180).

وتتضمن المحددات نوعين أساسيين حيث يمثل النوع الأول المحددات المادية التي تتضمن الخصائص المادية والتي يمكن ملاحظتها بالحواس الإنسانية وتفصل المحددات النسق عن الأنساق الأخرى. فعلى سبيل المثال فإن عائلة "المسلمي" يمكن التعرف عليها كنسق عن طريق الاسم الذي تنتمي إليه والبيت الذي تقطن فيه والسمات البدنية لأفراد الأسرة ونوع العمل أو التجارة التي تنشغل فيه. كذلك فإن المحددات لها نوع ثان معنوي يتضمن مجموعة القيم والمبادئ التي يشترك فيه النسق وتميزه عن الأنساق الأخرى، فأسرة المسلمي مثلاً قد تنفرد ببعض القيم مثل حب المشاركة في فعل الخير والتطوع في مساعدة الآخرين أوالتبرع في أعمال الخير واهتمامهم الكبير بتعليم الأبناء وحبهم واحترامهم للعمل، وهذه المبادئ قد تشترك فيها أسر أخرى ولكن درجة التفعيل والتمثل بهذه المبادئ قد تختلف من أسرة لأخرى فلذلك يمكن لأعضاء الجيران والحي أن يميزوا أسرة المسلمي عن الأسر الأخرى.

المدخلات Inputs :

تتضـــمن المدخلات كافة المصادر والإمكانيات التي تتوفر للنسق، وتضمن ذلـــك الإمكانـــيات الماديـــة والبشرية والقيم المعنوية والأخلاقية وخبرات أعضاء النسق، فمؤسسة الرعاية الاجتماعية كنسق يتوفر لها المبنى الذي تشغله والميزانية التي تخصـــص لها من الدولة لرعاية الأطفال وكذلك التبرعات التي تتلقاها من الآخرين، كذلـــك فـــإن الأثـــاث والسيارات والغرف ومقاعد الدراسة والدواليب وقاعات الأنشـــطة كل هذه تكون المدخلات، بالإضافة إلى ذلك فإن الإمكانات البشرية الـــتي تتمـــثل في خـــبرات العـــاملين والمعونات الفنية والكتب التي تتلقاها تعتبر كمدخـــلات أساســـية للنسق، أما عن الإمكانات المعنوية فتتضمن طاقة العاملين بالمؤسسة والدعم والتشجيع الذي تتلقاه من أعضاء المجتمع، بالإضافة إلى ذلك تأييد الخبراء وممثلي الحي، ويتم توظيف كل هذه المدخلات لخدمة أغراض المؤسسة .

المخرجات المقترحة Proposed Output:

وتمـــثل المخرجات المقترحة مجموعة الأهداف التي يسعى النسق إلى تحقيقها، وتشـــمل الآمـــال المرجوة الذي يحددها النسق ويعمل على بلوغها في زمن ووقت محـــدد، فـــإذا ما نظرنا مثلاً إلى قسم الخدمة الاجتماعية في الجامعة فإننا سنجد أن الهـــدف المقترح للقسم هو إعداد الطلاب والطالبات المتقدمين وتزويدهم بالعلوم والمهارات والقيم المرتبطة بمهنة الخدمة الاجتماعية حتى يصبحوا قادرين على ممارسة المهنة بكفاءة وفاعلية، كذلك فإن من الأهداف المرجوة هو تخريج نفس العدد من الطـــلاب والطالـــبات الذين التحقوا بقسم الخدمة الاجتماعية بدرجة 100% فلو كان عدد الطلاب الجدد هم 80 طالب وطالبة فإن المرجو أن يتخرجوا جميعاً بنهاية الفترة الزمنية للبرنامج وحصولهم على شهادة التخرج، وإن كانت هذه المخرجات المقـــترحة تمـــثل أهدافاً بعيدة مجردة فإن الوصول إليها يتطلب الجد والعمل الدائم الذي يحرص النسق على تنظيمه والوصول إليه.

العمليات التحويلية Conversion Operations:

يقوم كل نسق ببذل الطاقة Energy والجهد Effort لتحويل المدخلات Inputs إلى أنشـــطة وعملـــيات وبـــرامج حتى يمكن تحقيق المخرجات المقترحة Proposed Outputs الـــتي تمـــثل الأهداف المرجو تحقيقها، فعلى سبيل المثال فإن مـــدرس اللغـــة العربية في المدرسة الابتدائية يسعى بكل جهده لإكساب الطلاب وتعليمهم مجموعة من المعارف المرتبطة بفهم قواعد واستخدامات اللغة، لذلك فإن هذا الهدف المحدد يتم الوصول إليه من خلال مجموعة من الأنشطة تحول المدخلات الموجودة (قاعة الفصل، الكتب الدراسية، السبورة، خبرات المدرس، والوقت المحدد لمـــادة اللغة العربية) إلى علم ومعرفة باللغة العربية يكتسبها الطلاب مع نهاية العام الدراسي، فنرى أن العمليات التحويلية تحدث في الفصل في أثناء حصة اللغة العربية وتتمـــثل في شرح المدرس للدرس، واستخدام الوسائل التوضيحية لعرض المعلومة، وقيام التلاميذ بحل التمارين داخل الفصل، وكتابة الواجبات من موضوعات إنشاء وخلافـــه، وممارسة وتطبيق اللغة عن طريق إعداد مجلة الفصل والمشاركة في الإذاعة المدرســـية، وتعـــد كـــل هذه الأنشطة ببساطة كتحويل الإمكانات إلى الأهداف (المخرجات) المقترحة. وتتشابه هذه العمليات مع تحويل المادة الخام إلى منتج نهائي يمكن استخدامه والانتفاع به.

المخرجات Outputs:

عـــلى الرغم من أن النسق يسعى بكل جهده للوصول إلى مخرجات مقترحة إلا أنـــه قد لا يستطيع أن يبلغها أو يحققها كلها نتيجة ظروف كثيرة، لذلك ينتهي النســـق بالوصول إلى مستويات ودرجات محددة من هذه الأهداف، ولا يعني ذلك تقصـــيراً مـــن النسق لأن هناك عوامل مختلفة تتعلق بالأحداث التي يعيشها النسق واخـــتلاف القـــــدرات والمهـــارات ومستوى المصادر والإمكـــانات المتـــاحة، فرئيس قسم التدريب فـــي قسم الحاسب الآلي Computer Department يأمل في إكســـاب جمـــيع المتدربين مجموعة من المهارات والمعارف بدرجة (100%)، ولكن نظـــراً لضيق الوقت وكثرة المعلومات المطلوب أن يتعلمها المتدربون فإنهم قد يتقنوا في نهايـــة الدورة مهارات الحاسب وبرامجه بدرجة (90%)، وقد يتدخل في حدوث

ذلـــك مســـتوى كفـــاءة المدرب وخبراته أو مدى توازن المنهج التدريبي ودرجة صـــعوبته أو معدل ذكاء قدرات المتدربين وخبراقم والذي يؤثر في درجة تفهمهم للمادة العلمية بالسرعة والدقة المتوقعة.

ومن الناحية العملية نجد أن النسق قد لا يستطيع في معظم الأحيان التوصل إلى كـــل الأهداف (المخرجات) المقترحة نتيجة لظروف كثيرة وتعتبر نسبة الفاقد بين المخرجات المقترحة (100%) والمخرجـــات الفعلية (90%) كطـــاقة ضائعـــة (Entropy)، وهـــو الفاقد من الطاقة الذي لم يتم توظيفه بشكل أمثل، فعدم فهم المتدرب لكل المعلومات والمهارات المقدمة في التدريب يمثل فاقد كان يجب توظيفه ولكنه لم يحدث نتيجة لظروف كثيرة ذكرنا بعضا منها منذ قليل.

ويســـعى كل نظام إلى تقليل نسبة الفاقد Entropy إلى أقل قدر ممكن عن طـــريق توظيف المدخلات Inputs التوظيف الأمثل، وذلك يعني الوصول إلى فاقد ســـلبي Negative Entropy، فكلما زادت نسبة الفاقد السلبي فإن أعلى نسبة من المخـــرجات Outputs قد تم تحصيلهـــا، وعكس ذلك فـــإن الفاقد الإيجابي يعني ارتفاع نسبة الفاقد Entropy لذلك فإن ارتفاع نسبة الفاقد الإيجابي من (10%) إلى (30%) يعـــني فقـــدان كثيـــراً من الطاقة وعدم الحصول على المخرجات المقترحة Proposed Outputs بشكل كبير.

ولكـــن كيف يمكننا أن نزيد من نسبة المخرجات Outputs ونصل إلى فاقد سلبي Negative Entropy؟ وللإجابة عن ذلك فإنه يجب دراسة الظروف التي تؤثر عـــلى تحويـــل المدخـــلات Inputs إلى مخرجات Outputs أو بمعنى أدق المراجعة الدقـــيقة للعمليات التحويلية Conversion Operations للتعرف على مدى كفاءة هـــذه العملـــيات، ولذلك فإن تقييم هذه العمليات للتعرف على الأخطاء والخلل وإصلاحه قد يساعد النسق في الوصول إلى جميع أهدافه بشكل كبير.

المرجعات (التغذية الراجعة) Feedback:

تتمـــثل المرجعات في بيان بالمعلومات والنتائج التي تعود إلى النسق لتوضح مـــدى قدرتـــه على تحقيق أهدافه، فنجد مثلاً أن الشهادة الدراسية التي يتسلمها

الطالـــب مـــع نهاية العام الدراسي تمثل مرجعات Feedback عن مستوى تحصيله وإنجازاتـــه خلال العام الدراسي وفي المواد المحددة التي درسها، يستفيد النسق كثيراً مـــن هذه المرجعات لأنه يتعرف إلى مدى تحقيقه للأهداف فيتم التعرف من خلال هذه المعلومات على الأهداف التي حققها بكفاءة والأهداف التي لم تحقق ومعدلات التقصـــير، لذلك فإذا ما أراد النسق أن ينمو ويتطور فإنه يجب عليه أن يركز على تدعـــيم الإنجازات ومعالجة التقصير، ولكن النسق لا يستطيع أن يفعل ذلك قبل أن يتلقى هذه النتائج المتمثلة في الـــ Feedback. وهناك نوعان من المرجعات الداخلية Internal Feedback والمرجعات الخارجية External Feedback:

أما عن المرجعات الداخليـــة Internal Feedback فيتعرف عليها النسق من خلال الأجهزة والأعضاء المشاركين في عمليات النسق وذلك من خلال الملاحظة الـــتي تـــترجم إلى معلومات شفوية أو مكتوبة كذلك شكوى وملاحظات أعضاء النســـق للعلاقـــات الداخلـــية أو مـــدى كفاءة أعضاء النسق وعملياته في تحقيق الأهداف.

أما عـــن المرجعـــات الخارجيـــة External Feedback فتـــأتي عن طريق الملاحظات والمراجعات التي تصل إلى النسق من أنساق أخرى خارجية، وفي العادة فإن هذه الأنساق قد تتعامل مع النسق الأساسي بشكل متواصل. فعلى سبيل المثال نجد أن الأسرة ترسل أبناءها إلى المدرسة أو النادي للتعلم أو ممارسة أنشطة محددة، وترسل المدرسة إلى الأسرة خطابات أو شهادات تمثل تقييمها لسلوك وأنشطة الابن في المدرسة، فإذا ما خالف الابن بعض التعليمات أو مارس سلوكاً غير مقبول مثل الغياب أو المشاجرة مع زملائه فإن خطاب المدرسة أو المكالمة التلفونية التي تتلقاها الأســـرة هـــو نـــوع من المرجعات التي تعني أن هناك خللاً معيناً في نسق الأسرة وعملـــياته التحويلية (تربية الأبناء) قد تؤدي إلى فشل الابن في اتباع التعليمات أو الالتزام بسلوكيات معينة ويمثل ذلك Negative Feedback (مرجعات سلبية)، أما إذا تلقـــت الأســـرة خطـــاب شكر أو تلقى الابن جائزة التفوق العلمي أو اختير كطالـــب مـــثالي أو تلقى شهادة التميز في الأنشطة فيمثل ذلك مرجعات إيجابية Feedback Positive وهـــــذه إشـــارة بأن نسق الأسرة قد نجح في تربية الأبناء ورعايـــتهم وتـــزويدهم بالمفاهيم والقيم والسلوكيات الحميدة، لذا نرى أن بعض

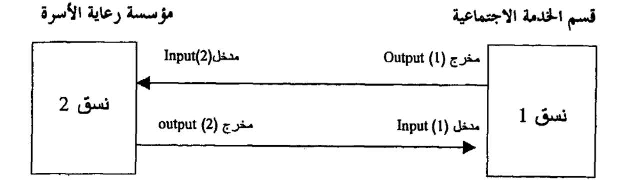
الأنســـاق تضطرب كثيراً إذا ما تلقت مرجعات سلبية وقد تتخذ خطوات سريعة لـــتعديل مســـار ووظائف النسق لمعالجة الخلل، أو ربما تهمل الأسرة المرجعات التي تلقتها من الأنساق الأخرى فيكرر الخلل وتتعقد المشكلات.

الارتباط التفاعلي Interface:

الأنســـاق لا يمكـــن أن تستمر إذا ما كانت معزولة بمفردها لأنها تعيش في حركة وتفاعل مستمر مع الأنساق الأخرى، فنجد أن كل نسق يتبادل المدخلات Inputs والمخرجات Outputs مع الأنساق الأخرى بشكل دائم ومتواصل:

شكل رقم (2)

الارتباط التفاعلي بين الأنساق



فمـــا يخرجه النسق رقم (1) على هيئة مخرج Output يعتبر للنسق رقم (2) كمدخـــل Input. والعكس صحيح فما يخرجه نسق رقم (2) يعتبر كمدخل لنسق رقـــم (1)، وهـــناك مثال يوضح طبيعة الارتباط التفاعلي بين الأنساق Interface، فلـــو نظرنا إلى قسم الخدمة الاجتماعية كنسق ومؤسسة رعاية الأسرة كنسق آخر نجـــد أن هـــناك ارتباطاً تفاعلياً بين هذين النسقين. فمع بداية كل عام يرسل قسم الخدمـــة الاجتماعية طلابه ليتدربوا في مؤسسة رعاية الأسرة، وبذلك فإن الطلاب بنفســـهم يعتـــبرون كمخرج Output لقسم الخدمة الاجتماعية، وأيضاً كمدخل Input لمؤســـسة رعاية الأسرة لأن هؤلاء الطلاب يتم إعدادهم وتدريسهم مواد معيـــنة داخـــل قســـم الخدمة الاجتماعية تجعلهم لحد معين مؤهلين للتدريب في المؤسســـات الاجتماعـــية. وفي نفس الوقت فإن هؤلاء الطلاب يعتبرون كمدخل Input لمؤسسة رعاية الأسرة لأنهم يمثلون مصدراً هاماً للمؤسسة لما سيقدمونه من

خدمـــات للمؤسســـة عن طريق مشاركتهم في تقديم خدمات الرعاية الاجتماعية لعملاء المؤسسة.

وإذا مـــا نظـــرنا إلى مؤسســـة الأسرة فإنها تمنح الطلاب الفرصة للتدريب وتعـــلمهم خـــبرات العمل مع الأسر لذلك فهم كمخرج Output للمؤسسة وفي نفس الوقت يعتبرون كمدخل Input لقسم الخدمة الاجتماعية لأنهم يعودون إليه بعـــد أن اكتســـبوا الخبرة والمهارات التي يعرضونها على بعضهم ويتناقشون معاً ما تعـــلمونه مـــن خبرات جديدة في كل مؤسسة فيكتسب الجميع معلومات كثيرة وخبرات جدية.

لذلـــك نجد أن كل نسق يشترك في عمليات مستمرة من الارتباط التفاعلي Interface مـــع أكـــثر من نسق من أجل أن يستمر في قيامه بدوره المخصص له وبالتالي تحقيق أهدافه المقترحة Proposed Outputs.

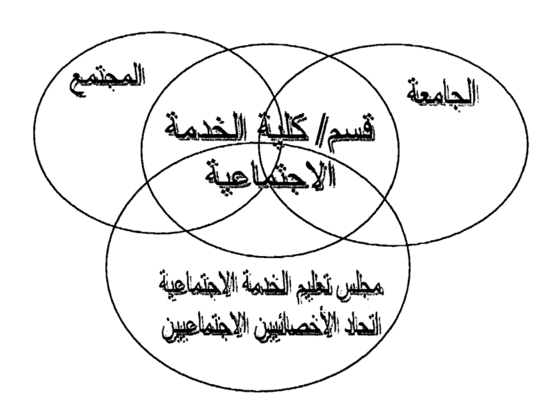
النظام الأشمل Suprasystem:

يرتبط النسق بأنساق أخرى أكبر وأشمل تزوده بالاعتراف Sanction وتمنحه المشـــورة والخـــبرات المختلفة. لذلك فإن استمرار أي نسق في العمل يتوقف على الارتباط الوثيق بالنسق الأكبر الذي يقع في محيطه ويرتبط به، فعلى سبيل المثال فإن قســـم الخدمة الاجتماعية بالجامعة يرتبط بمجموعة من الأنساق الأشمل التي تمنحه الاعتراف وتزوده بالموارد والخبرة لكي يستمر في أداء وظائفه الرئيسة.

ونجـــد أن الأنساق الأشمل Superasystem لقسم الخدمة الاجتماعية تتكون مـــن إدارة الجامعـــة التي تتبنى القسم وتضمه تحت هيكلها العام وتمنحه الميزانيات والمباني والمشورة الفنية وما إلى ذلك.

شكل رقم (3)

الأنساق الأشمل لقسم الخدمة الاجتماعية



وهـــناك أيضاً المجتمع المحلي الذي يعتبر كنظام أشمل Superasystem والذي يقـــع فـــيه قسم الخدمة الاجتماعية لأنه يعترف بدور قسم الخدمة الاجتماعية في تدريـــس وتعليم الطلاب فنجده يمنحهم التأييد وينشئ القوانين التي تساعد القسم على الاستمرار في مهمته.

وهـــناك أيضـــاً مجلس تعليم الخدمة الاجتماعية الذي يخطط ويتابع مستوى تعلـــيم الخدمة الاجتماعية فيراقب ويشرف على المناهج التي تدرس ويعطي الموافقة على استقرار القسم كمؤسسة تعليمية وذلك بما يعرف بالتوثيق Accreditation، ويمكـــن أيضاً اعتبار اتحاد الأخصائيين الاجتماعيين الموجود بالبلد كنظام أشمل لما يقدمه من اعتراف بالقسم تنظيم اختبارات للخريجين تساعدهم على الحصول على رخصـــة مزاولة المهنة، ومن هنا يتضح أن أي نسق لا يمكن أن يتواصل في مهمته بدون أن يتعامل ويتفاعل مع أنسقة أشمل تيسر له تحقيقه لوظائفه.

ولقد وضح من العرض السابق أهم مفاهيم نظرية النسق العام والتي يمكن استخدامها في تحليل أيّ نظام على مستوياته المختلفة وتحديد أوجه القصور والخلل التي قد تؤثر بالضرورة في أداء (النسق) لوظائفه على شكل أمثل، ولمعرفة كيفية استخدام مع هذه المفاهيم فهناك ضرورة لإعداد بعض التدريبات لتطبيقها والاستفادة منها خلال أنشطة الفصل الدراسي.

النموذج البيئي ومفاهيمه The Ecological Model:

على الرغم من أوجه التشابه بين نظرية النسق العام General System Theory والنموذج البيئي Moran & Gillett-Netting, (2000), Ecological Perspective إلا أنهما يسعا معاً إلى ترقية تفكير الأخصائي الاجتماعي وتوجيهه ناحية إدراك حقائق الأمور. إن هذين النموذجين يشكلان الإطار النظري العام والأساسي لتوجهات مهنة الخدمة الاجتماعية وتطبيقاتها الحديثة، فيستفيد الأخصائيون الاجتماعيون من الحقائق والمفاهيم الأساسية التي يعرضها كل من نظرية النسق العام والنموذج البيئي في الإجابة عن بعض الأسئلة الهامة والأساسية عند تعاملهم مع كل من العميل (بمستوياته المختلفة) والموقف الإشكالي بظروفه المتعددة:

- كيف يمكننا رؤية وتحليل العالم الذي نعيش فيه؟
- ما هي الجوانب التي يجب أن نقدرها (Assess) عند محاولتنا حل مشكلة ما؟
- ما هي القواعد الأساسية التي يجب أن ندركها عند التعامل مع مشكلة متعددة الجوانب؟

يتضح من العرض السابق لنظرية النسق العام وتطبيقاتها والعرض التالي للنموذج البيئي أن هناك فائدة كبيرة وأساسية من استخدام مفاهيمهما وفروضهما في فهم مدى تأثير الفرد وعلاقاته بالأنظمة التي يتعامل معها والبيئة التي يعيش فيها.

فبداية نجد أن النموذج البيئي The Ecological Model يزودنا بمنظور محدد للعالم تتناسب مع مفاهيم الخدمة الاجتماعية بشكل عام، ويركز هذا المنظور على

ديناميكـــية التفاعل بما يتضمنه من المشاركة الإيجابية والمستمرة بين الأنساق، فعلى سبيل المثال نجد أن الناس ينغمسون بشكل متواصل في علاقات متبادلة بينهم وبين البيـــئة التي يعيشون فيها من أجل إشباع احتياجاتهم وتحقيق أهدافهم، بينما يركز الـــنموذج البيئي على شكل ونوعية التفاعل والمشاركة المتبادلة بين الأفراد بعضهم البعض وبين الفرد والأسرة، نجد أن نظرية النسق العام تركز على مستوى أكبر من الـــتفاعل بـــين الأنظمة بمستوياتها المختلفة، لذلك يمكننا الاستعانة بمفاهيم النموذج البيـــئي لتحليل ديناميكية العمل في مؤسسة اجتماعية أو مدينة ما أو مجتمع معين. ويمكنـــنا أيضـــاً استخدام أي من هذين الإطارين في تفهم السلوك الإنساني لأنهما يمـــثلان القـــاعدة النظرية لتحليل موقف معين ومعرفة وتوضيح الأسباب التي تدفع الأفـــراد لتبني أو الانغماس في سلوكيات معينة. ونظراً لوجود بعض الارتباط بين الإطارين المعروضين فمن الضروري أن نناقش المفاهيم الأساسية للنموذج البيئي مع طرح بعض الأمثلة لتبين خصوصية ومساهمة هذا النموذج بشكل أوضح.

البيئة الاجتماعية Social Environment:

يتعلق مفهوم البيئة الاجتماعية بالظروف والأحوال والتفاعل الإنساني الذي يرتبط بحياة البشر ونجد أنه من أجل أن يستمر الإنسان ويتواصل وجوده في الحياة فـــإن عليه أن يخلق وينشغل في علاقات اجتماعية فعالة وإيجابية مع البيئة المحيطة به، وتتضمن البيئة الاجتماعية الجوانب المادية (Physical Environment) من شوارع ومـــباني وأراضي زراعية ومناطق صناعية وأودية ومجاري مائية، والتي قد وجدت بشـــكل طبيعي أو أنشأها وصنعها الإنسان، وتتضمن البيئة الاجتماعية – العمل أو الوظيفة التي يشغلها- كمية النقود التي يحصل عليها كدخل- بالإضافة إلى القوانين والأعراف التي يلتزم بها الفرد، وتتضمن البيئة الاجتماعية أيضاً الأفراد والجماعات والمؤسســـات والأنظمة التي يتعامل معها الفرد بما تمثله من أسرة وأصدقاء وجماعة عمـــل والإدارة المدنية ومجلس الحي أو القرية أو المدينة كذلك الحكومة التي يتبعها وتشـــكل الســـلطة التنفيذية، كذلك فإن البيئة الاجتماعية تمثل طبيعة التفاعل مع مؤسســـات الخدمـــات التي يتعامل معها الفرد والتي تشمل المستشفيات والهيئات الصـــحية وإدارة الإســـكان والـــتعمير ومكاتـــب الرعاية الاجتماعية والأنظمة والمؤسسات التعليمية من مدارس ومعاهد وكليات ومراكز تدريب وما إلى ذلك.

ونجد أن المهن الانسانية بشكل عام تهتم كثيراً بتفهم تركيبة ومحتويات البيئة الاجتماعية من أجل التعرف على أدوارها وقدرتها على التأثير في حياة الفرد والجماعات، لذلك فإن الأخصائي الاجتماعي يجب أن يتعرف على البيئة الاجتماعية التي يعيش ويعمل بها العميل ومدى تأثيرها على قيم وسلوكيات وقدراته.

التفاعل التبادلي Transactions:

يستخدم اصطلاح Transactions في البنوك والتحويلات المالية ولكن بالنسبة للنموذج البيئي فإن هذا المصطلح يشير إلى التبادل والتفاعل الذي يحدث بين الناس بشكل طبيعي ومستمر. لذلك فإن هذا النوع من التفاعل يعتبر ديناميكياً وفعالاً حيث أنه يوضح أن هناك شيئاً قد تم تحقيقه بين الأفراد عن طريق الاتصال والتبادل، لذا نجد أن التفاعل التبادلي هو شيء إيجابي، ولكن هذا التفاعل التبادلي قد يكون له نتائج إيجابية أو سلبية، فعلى سبيل المثال فإن التفاعل بين مجموعة من أبناء الحي الواحد وتنظيم جهودهم نحو إنشاء حديقة أو مكتبة تخدم أطفال الحي هو تفاعل إيجابي، بينما نجد أن التفاعل الذي يحدث بين مجموعة من المنحرفين لتكوين عصابة تعتدي على ممتلكات الأفراد هو تفاعل سلبي مع البيئة لما قد ينتج عنه من الاعتداء على حقوق الآخرين وتعريضهم للخطر ولذلك فهو يخالف الأعراف والتقاليد والقوانين الوضعية.

الطاقة Energy:

يعبر مفهوم الطاقة عن القوى الطبيعية التي تنتج عن التفاعل المشترك بين الأفراد وبيئاتهم، ويمكن أن نحصل على الطاقة من المدخلات Inputs أو المخرجات Outputs.

فبالنسبة للمدخلات فإن الطاقة تمثل الموارد التي تدخل إلى حياة الفرد فتجعله قادراً على الحياة فيستخدمها من أجل خلق شيء جديد أو تأدية مهمة معينة مطلوبة، فعلى سبيل المثال فإن اشتراك الأخصائي الاجتماعي في حلقة تدريبية عن نظرية أو وسائل علمية جديدة للتعامل مع نوع معين من المشاكل يعتبر كمدخلات

أو مـــوارد جديدة يستخدمها الأخصائي الاجتماعي في أداء وظيفته بطريقة جديدة وتـــترجم إلى جهـــود وممارسات وأسلوب جديد لخدمة العميل ولذلك فإنها تعد كطاقة جديدة وفعالة.

أمـــا عن المخرجات Outputs فإنها طاقة تخرج من الفرد أو الأسرة أو أي نـــوع مـــن الأنساق ويمكن ملاحظتها وتقديرها، فعلى سبيل المثال فإن الطاقة التي تـــبذلها الأســـرة في تربية أبنائها وتعريفهم بقيم وسلوكيات ومهارات أساسية تبني شخصية الطفل بشكل إيجابي وفعال، هذه الطاقة يمكن أن نعرفها كمخرج والذي يتمثل في سلوكيات الطفل من أدائه لواجباته الدراسية أو مشاركة الأسرة في تحقيق واجباتها أو المشاركة في خدمة الحي مثل تنظيف وتجميل ورعاية الأشجار أو التبرع في جماعات خدمة الأفراد ذوى الحاجات الخاصة.

التكيف Adaptation:

يشير مفهوم التكيف إلى قدرة النسق على التوائم مع الظروف البيئية المحيطة، لذلـــك فـــإن مفهوم التكيف يشير إلى التغيير Change الذي يجب أن يتبناه النسق حـــتى يستطيع التعامل مع الظروف الجديدة بشكل عملي وإيجابي لكي يستمر في تأديـــة وظائفه، وبشكل خاص فإن التكيف هو المفهوم أساسي بالنسبة للمساعدة المهنـــية لأن الأخصـــائي يـــتعامل وبشكل مستمر مع أفراد ومستويات مختلفة من العمـــلاء يواجهون تحديات صعبة في الحياة، لذلك فإن عدم قدرة الفرد أو الأسرة، أو المؤسسة على إحداث التغيير المطلوب قد يسبب تفاقم وتدهور للمشكلة ويؤدي إلى استمرار معاناة الفرد من مثل هذه الظروف.

ولقـــد بينـــت الحقيقة العلمية أن التغيير في حدّ ذاته يعتبر كحالة ضاغطة تسبب التوتر Stress، فربما يستطيع النسق أن يتواءم مع الظروف الجديدة فيغير من بعض أنماط سلوكه وأسلوب تفكيره ليستمر في أداء واجباته بشكل إيجابي وفعال، وربما يفشل النسق في الوصول إلى هذه التغييرات المطلوبة مما يسبب زيادة الضغوط والتوتر والقصور أو الفشل في تأدية الوظائف المنوطة به.

فنجد أن الأخصائي قد يواجه حالات بين حديثي الزواج الذين يعانون من مشـــكلات في العلاقات والتفاهم، فقبل الزواج نجد أن كل من الشاب والشابة قد

تعـــودوا في أثناء حياهم مع أسرهم على سلوكيات وقيم معينة، ولكن بعد الزواج تـــتفاقم المسؤوليات وتظهر الحاجة لأن يقوم الشاب والشابة بتغيير بعض أفكارهم وسلوكياهم (مثل مسؤولية شراء مستلزمات المنـــزل، أو أداء المهمات المنـــزلية، أو الـــتفاهم والمناقشـــة قـــبل اتخاذ بعض القرارات). وقد يسبب هذا التغير بعض الضـــغوط عـــلى العلاقة الزوجية أو يخلق نوعاً من إساءة الفهم أو الإحساس بعدم التقدير وبذلك تبدأ المجادلات ثم الخصومات وما إلى ذلك، لذلك يجب على الزوج والـــزوجة تفهـــم طبـــيعة التغيرات الاجتماعية التي طرأت على حياهما وتبني قيم وســـلوكيات جديـــدة تساعدهم كأسرة على التعامل مع المسؤوليات والمتطلبات الجديدة ومن ثم الاستمرار في الحياة وأداء الوظائف المتعلقة بهذا التغيير.

المجابهة Coping:

تعتبر المجابهة كنوع من أنواع التكيف Adaptation والتي تشير إلى المجاهدة والكفاح من أجل التغلب على المشكلة التي يواجهها النسق بمستوياته المتعددة، وقد يمثل التكيف ردود فعل النسق على المواقف والظروف الجديدة التي يواجهها، إلاّ أن المجابهة تركز على الطريقة التي يتعامل بها النسق مع الموقف الإشكالي.

ولقد حدد Barker, (1995) خمسة أنواع من مهارات المجابهة والتي يجب أن يقوم الأفراد بإدراكها وتنميتها :

1 – **الحاجـــة إلى المعلومات** : وتتمثل في أهمية حصول النسق الذي يواجه موقف ضاغط على معلومات دقيقة وصحيحة حتى يمكن تفهم كافة جوانب الموقف. فالشـــخص المريض الذي يحتاج إلى عملية جراحية، فإنه يدرس طبيعة العملية ومـــدى خطورها وتأثيرها على صحته بشكل عام وتكلفتها ومدة النقاهة التي تتـــبعها وكيفـــية الاتصال والتعامل مع الجهة الصحية التي سيتم إجراء العملية فيها.

2 – **مهـــارات المجابهة المتعلقة بالتخطيط:** ولمواجهة الموقف الضاغط المتوتر نجد أن هناك ضرورة لمعرفة الخطوات التي يجب أن يفكر فيها النسق من أجل الوصول إلى حل فعال يؤدي إلى تغيير الظروف الجديدة التي يتعامل معها. فالعامل الذي

فقـــد وظيفـــته يجب أن يفكر في الخطة التي يجب أن يتوصل إليها لمجابهة هذه الظروف والبحث عن عمل جديد والتي قد تتضمن متابعة صفحة الإعلانات، أو الانضـــمام إلى بـــرنامج تدريـــبي لاكتساب مهارات جديدة، أو تغيير نوع الوظيفة أو الانتقال إلى مدينة جديدة للبحث عن العمل.

3 - **الـــتحكم في العواطف والمشاعر**: إن طبيعة الموقف والضغوط الجديدة تؤثر عـــلى الحالة الانفعالية للنسق والتي تظهر في صورة غضب أو يأس أو حزن أو الإحســـاس بالضـــياع والعجز في مواجهة هذه الظروف، ولكن الانغماس في الانفعال أو التأثر الشديد قد يؤدي إلى تعطل قدرة الفرد على التفكير المنطقي الواضـــح. لذلـــك فـــإن قدرة النسق على تحجيم أو التعامل مع هذه المشاعر يساعده على اتخاذ قرارات فعلية وعملية هامة لمواجهة هذه الظروف وإحداث أنواع من التغيرات في السلوكيات والقيم لإيجاد حلول فعالة. فعلى سبيل المثال فإن وفاة عائل الأسرة قد يؤدي إلى أنواع مختلفة من المشاعر تتراوح من الحزن الشـــديد والاكتئاب وفقد القدرة على التفكير والتغيرات البدنية مثل الإحساس بالضـــعف وفقـــد الشهية والنوم وما إلى ذلك، إلا أن الانغماس في الانفعالات والحـــزن لأوقات طويلة قد يعطل الأسرة عن أداء مهامها الضرورية مثل رعاية الأبناء واستمرارهم في دراستهم والقيام بأعباء الأسرة ومهماتها .

4 - **الســـيطرة على الرغبة في إشباع الاحتياجات بشكل فوري**: هناك ضرورة للنســـق لإحداث التوازن بين أنواع الاحتياجات. فإذا كانت هناك حاجة لبناء بيـــت يتســـع لعدد أفراد الأسرة بعد وصول مولود جديد فإن هذه الرغبة في إنفـــاق كافـــة مدخرات الأسرة والحصول على قرض لتحقيق هذا الغرض قد يـــتعارض مـــع احتياج الأسرة لتغطية مصروفات الأبناء الذين سيبدؤن عامهم الدراســـي بالجامعة. لذلك فإن إحداث التوازن وتنظيم الأولويات لدى النسق قـــد يعفيه من الوقوع في مشكلات جديدة في أثناء قيامه بمواجهة تحدي معين الأمر الذي قد يسبب ظهور ضغوط وتوترات جديدة.

5 - **إيجـــاد بدائل واختيارات لمواجهة الموقف**: هناك ظاهرة طبيعية تتمثل في لجوء الأنساق إلى مجموعة معينة من الاختيارات لمواجهة مشكلات معينة، فمثلاً نجد

أن بعض الأفراد يلجؤون إلى المادة لحل معظم مشكلاتهم، وربما ينجح هذا الأسلوب في بعض الأحيان إلا أنه قد يفشل في ظروف أخرى. فعلى سبيل المثال فإن وجود خلاف بين الابن وأبيه نتيجة ضعف العلاقات وتوترها أو لقلة الوقت الفعلي الذي يمضيه الأب مع ابنه للحديث والتفاهم قد لا يحل بالمادة. فإن منح الأب لابنه للنقود كوسيلة لحل الخلاف قد يكون حلاً غير موضوعي أو قد يسبب نوعاً آخراً من المشكلات مثل استخدام الابن للمال في أغراض أخرى سلبية مثل إدمان المخدرات وما إلى ذلك، فنجد أن مثل هذه المشكلة التي تمثل في ضعف العلاقات قد يتطلب اختيارات أخرى أكثر فاعلية، مثل تنظيم وقت معين للقاء الأب مع الابن والاشتراك في أنشطة اجتماعية واحدة مثل زيارة الأقارب أو الرحلات، أو الاستعانة بأحد المتخصصين لمناقشة المشكلة وتفهم أبعادها والعمل مع كل من الأب والابن لمواجهة هذه الظروف، وبشكل عام فإن اختيار أسلوب واحد لحل كل المشكلات قد يكون أسلوباً غير فعال.

تفاعل الإنسان مع أنساق متعددة

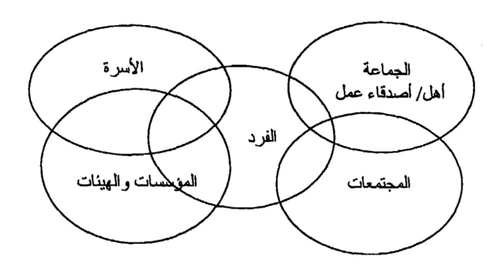
لا شك أن تفاعل الإنسان مع أنساق متعددة في البيئة يؤثر تأثيراً كبيراً على السلوك الإنساني، لذلك فإن نظرية الأنساق العامة توفر لنا قاعدة وفروض لدراسة وتفسير التفاعل بين الإنسان وبيئته الاجتماعية، ولقد ذكرنا سابقاً أن الإنسان يتفاعل بشكل مستمر وديناميكي مع البيئة الاجتماعية من خلال أنشطة متكررة واتصالات والدفعة نحو التغيير. وبالنسبة للمهن الإنسانية فإن هناك سؤالاً عاماً نسعى للإجابة عنه: **ما هي الأسباب التي تؤدي إلى حدوث مشكلة ما واستمرارها على الرغم من رغبة العميل في حلها وتغيير هذا الموقف الإشكالي ؟**

ومن أجل الإجابة عن هذا السؤال فعلينا أن نستعين بنظرية الأنساق العامة التي تزودنا بمنهج لتقدير جوانب كثيرة من الموقف الإشكالي، فإذا ما اتفقنا أن العميل بأنظمته المتنوعة يتعامل مع أنساق متعددة بشكل متواصل وديناميكي فإن هذه الأنساق التي تتواجد في البيئة الاجتماعية تتضمن الأسرة والجماعات والمؤسسات والهيئات والمجتمعات.

ويوضـــح الشكل التالي مدى التفاعل المستمر بين الفرد ومجموعة متعددة من الأنساق الموجودة بالبيئة الاجتماعية:

شكل رقم (4)

التفاعل المتبادل بين الفرد والأنساق المتعددة في البيئة



مستويات الممارسة الثلاثة

ومن أجل تبسيط وتفهم أنواع وأبعاد هذه الأنساق فإن هناك تقسيماً مجرداً Abstract لمستويات العميل تتضمن المستوى الأصغر Micro والمستوى الأوسط Mezzo والمستوى الأشمل Macro.

أ- المستوى الأصغر Micro System:

يتضـــمن هذا المستوى الفرد كوحدة أو كعضو في أسرة أو جماعة، فإذا ما اتفقـــنا على تعريف النسق بأنه "مجموعة من الأجزاء التي ينتمي بعضها إلى بعض لـــتخلق كـــلاً أو شكلاً له وظائف معينة"، فإن المستوى الأصغر يمكن أن يتضمن الفـــرد كنســـق اجتماعي يتفاعل مع أنسقة أخرى موجودة مثل الأسرة ومجموعة العمـــل والأهـــل والجيران وجماعة الأنشطة وما إلى ذلك، فالفرد بنفسه كوحدة

بيولوجــية لا يمــثل نسقاً إلا إذا بدأ في التفاعل مع أنسقة أخرى موجودة وبشكل مستمر، ولأن خاصية التفاعل هي التي تعطي للنسق ميزة استمرارية الحياة، لذلك نجــد أن النســق يجــب أن يكون منفتحاً Open من أجل أن يتفاعل مع الأنسقة الأخــرى Interaction عن طريق تبادل المدخلات Inputs والمخرجات Output. لذلــك فإن النسق المنغلق أو المنطوي Closed لا يمكن أن يستمر أو أن يعيش وأن النتيجة الحتمية هي فناؤه.

ومــن ضمن نماذج المستوى الأصغر System Micro نجد الأسرة، لأنها كمــا يوضــح التعريف، تتكون من أجزاء متفاعلة ومترابطة بدرجة ما (الأب، الأم، الأبــناء، الأقارب). ويتم خلال التفاعل الداخلي Interaction Internal بــين أعضاء الأسرة أو التفاعل الخارجي مع أنسقة أخرى في المجتمع External Interaction انتقال الخبرات والمعلومات والمشاعر Exchange خلال عمليات تبادلية متواصلة Transactions تتبادل خلالها الطاقة Energy حتى يحدث النمو Development والتغير Change.

وإذا مــا اعتبرنا أن الفرد نسق اجتماعي فإنه يسعى إلى تحقيق التوازن في مجموعة الوظائف المتنوعة (العاطفية Emotional، الادراكية المعرفية Cognitive، البدنية Biological، السلوكية Behavioral، الأخلاقية Moral) . لــذلك فإن اســتمرارية الــتفاعل مــع أنساق أخرى (الأسرة، مكان العمل، الأصدقاء...) تساعد على تحقيق نمو النسق بشكل متواصل حتى ينتقل النسق من مرحلة تنموية Development Stage إلى أخــرى خلال منظــور زمنــي Chronological Perspective، لذلك فإن الأخصائيين في الوقت الحالي يتم توجيههم إلى تفهم وتــدارك مجموعة الوظائف المتنوعة التي تتفاعل داخل الفرد ومدى تأثيرها على الموقف الإشكالي.

ب- المستوى الأوسط Mezzo System :

يشــير هــذا المستوى إلى المجموعات الصغيرة التي ينضم إليها الفرد ويتعامل معهــا، وتنقســم هــذه الجماعات إلى جماعات للأنشطة مثل الانضمام إلى فريق رياضي أو العمل مع مجموعة معينة مثل مجلس الحي أو مجلس الأباء أو الانضمام إلى

أحد الجماعات الثقافية والفنية، كذلك فإن الارتباط بأحد الجماعات الاجتماعية يؤدي إلى تزود الفرد بالعلاقات الاجتماعية وقضاء أوقات ترويحية طيبة مع مجموعة الأصدقاء والجيران والأهل والمشاركة في تبادل المودة والمحبة بين أفراد المجموعة.

أما عن جماعات العمل والتي يرتبط بها الفرد بحكم وظيفته فإنها تمثل الاشتراك في علاقات محددة تهدف إلى تحقيق أغراض ومصالح العمل. ونرى أن الفرد يؤثر في هذه الجماعات ويتأثر بها بشكل متواصل حسب درجة ارتباطه ومدى تفاعله مع الجماعة. أما عن النوع الأخير من الجماعات فهي الجماعات التعليمية والعلاجية والجماعات النوعية التي تنشأ نتيجة الاهتمام بموضوع ثقافي أو بيئي يؤدي إلى استفادة الأعضاء والمجتمع. ويركز النوع الأخير من الجماعات على أنشطة معينة تهدف إلى تحقيق نوع من التغيير في سلوكيات أو اتجاهات أعضاء المجتمع وتزويد الأعضاء بمعلومات ومهارات تساعدهم على مواجهة مواقف إنسانية معينة.

ج- المستوى الأشمل Macro System:

ويتضمن هذا المستوى الأنساق الأشمل التي تؤثر في حياة الفرد بشكل مباشر مثل المؤسسة الاجتماعية أو التعليمية والحي والمحافظة والدولة التي ينتمي إليها النسق. أما عن كيفية تأثير هذه الأنساق في شؤون الأفراد والمواطنين، فنجد على سبيل المثال أن وزارة العمل تضع القوانين الخاصة بتوظيف الأفراد وظروف عملهم وحقوقهم والتأمينات الاجتماعية التي تضمن مستقبلهم، هذه الهيئة لها تأثير مباشر على كل فرد يعيش في المجتمع في مرحلة ما عند بدئه للعمل في أي مؤسسة أو هيئة أو مصنع، وهناك تعريف للمستوى الأعم Macro System يشير إلى " الجوانب الاجتماعية والسياسية والتاريخية والقوى البيئية التي تؤثر على الظروف الإنسانية العامة والتي قد تسبب مشكلات للأفراد أو تمنحهم الفرصة لإشباع احتياجاتهم وتحقيق طموحاتهم"(Barker,1991 p.136)، لذلك فإن ممارسة الخدمة الاجتماعية على المستوى الأعم تعني إحداث تحسينات وتطورات وتغيير الظروف والعلاقات في المجتمع الأعم.

وهـــناك ضرورة لحدوث التفاعل المتواصل بين المستويات الثلاثة (الأصغر، الأوسط، الأعم) حتى يتم بشكل مستمر، فالفرد الذي هو عضو في جماعة تتكيف ســـلوكياته وفقـــاً للظـــروف الاجتماعـــية والبيئية والأنظمة التي تضعها الهيئات والمؤسسات لتنظيم شؤون المجتمع. لذلك فإن هذا التفاعل بين المستويات الثلاثة يتم تحـــت مظلة البيئة الاجتماعية التي تشملهم والقوى الاجتماعية التي تؤثر على هذه البيئة.

شكل رقم (5)

حركة التفاعل بين مستويات الأنساق الثلاثة

(الأصغر – الأوسط – الأعم)

القوى الاجتماعية
السياسة
الاقتصادية
البيئة
المعتقدات

البيئة الاجتماعية

النسق الأوسط
الجماعة

النسق الأصغر
الفرد - والأسرة

النسق الأعم
(ثقافات- مجتمعات صغيرة-
هيئات - مؤسسات)

يوضـــح الشـــكل طبيعة التفاعلات بين الأنساق الثلاثة تحت مظلة البيئة الاجتماعـــية. فنجد أن النسق الأصغر بما يتضمنه من فرد وأسرة يتفاعل بشكل متـــبادل مع الجماعات التي ينتمي إليها الفرد أو تنتمي إليها الأسرة، فعلى سبيل المـــثال فإن أحد أبناء الأسرة قد يتعامل مع جماعة من الأصدقاء في المدرسة وقد تؤثـــر هذه الجماعة في سلوكيات الابن بشكل إيجابي (كتعلم هوايات الرسم أو ممارســـة رياضـــة معينة)، أو قد تؤثر الجماعة على الابن بشكل سلبي (مثل تعلم تدخـــين السجائر من سن صغيرة أو التغيب عن المدرسة)، أما عن النسق الأعم فإنه يضم هذه المؤسسات والهيئات والمجتمعات كالحي والمدينة والثقافات التي لها تـــأثير مباشـــر على الفرد والأسرة أو على الجماعة. إلاّ أن البيئة الاجتماعية قد تـــنظم مـــثل هذه التفاعلات بين المستويات الثلاثة، فعلى سبيل المثال إذا كانت هـــناك بيـــئة متدنية ومحافظة فإن مستويات وطبيعة هذه التفاعلات سوف تتأثر بالقـــيم والتقالـــيد الموجودة في المجتمع، والعكس صحيح فإذا كان هناك مجتمع مـــتحرر يغلب عليه الطابع الفردي والتنافسي والانغماس في المصالح الذاتية فإن علاقـــات الفـــرد بالجماعة سوف تتأثر بذلك. فنرى أن الفرد ربما يقيس مدى استفادته من الجماعة قبل أن يساهم فيها ويصبح عضواً بها. وكذلك فإن الهيئات والقوانـــين والثقافات في مثل هذا النوع من المجتمعات سوف تحمي حقوق الفرد وحريـــته المطلقة على حساب حرية المجتمع، لذلك نرى أن القوى الاجتماعية بما تدرجه من سياسات ومجالس وبرلمانات ونظم اقتصادية في المجتمع الغربي تشجع استقلالية الفرد وتمنع أي قيود على حريته وتصرفاته حتى لو أثرت هذه الحريات في سلامة وأمانة المجتمع مثل حرية امتلاك الأسلحة بشكل مفتوح وبدون قيود.

ملخص الفصل

عرضنا في هذا الفصل مفهوم السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية وأهميته بالنســـبة لإعـــداد الأخصائي النفسي/ الاجتماعي/ التأهيلي بما توفره من قاعدة علمية قد تساعد على فهم الجوانب الشخصية وتأثيرها بالبيئة الاجتماعية، ولقد راعيـــنا توضـــيح أهمية دراسة نسق السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية وعلاقته بالمـــناهج التعليمية للعلوم الإنسانية، ولقد تم بشكل مبسط عرض الإطار النظري

العام والذي يتضمن مفاهيم نظرية النسق العام والمنظور البيئي وكيفية الاستفادة مـــن الحقـــائق التي تعرضها كل نظرية في تفسير وتحليل السلوك الإنساني، ولقد كانـــت هناك ضرورة لتعريف المستويات الثلاثة للأنساق وعملية التفاعل بينهم وكيفية تأثيرها وتأثرها بالبيئة الاجتماعية المحيطة بها.

الأسئلة التطبيقية

1- ما الحقائق والمفاهيم الأساسية المرتبطة بدراسة السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية التي يمكن أن تساعد الأخصائي النفسي/ الاجتماعي/ التأهيلي على أداء أدوارهم بطريقة أكثر فاعلية في مساعدة العميل؟

2- كـــيف يمكـــن استخدام مفهوم المحددات Boundaries للتعرف على مؤسسة رعاية الطفولة والأمومة في المجتمع؟

3- كيف يمكن تفهم وتحليل حالة محمود عبد اللطيف عن طريق تحليل التفاعل بين المستوى الأصغر Micro والمستوى الأوسط Mezzo والمستوى الأعم Macro؟

الفصل الثاني

نظريات السلوك الإنساني

Theories of Human Behavior

مقدمـــة:

في الفصـــل السابق تعرضنا لأهمية دراسة موضوع السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعيـــة، ولقـــد وضحنا الأطر النظرية Theoretical Framework التي تقوم عليها فكرة السلوك الإنساني وأبعاده مع مناقشة ارتباط موضوع السلوك الإنساني والبيـــئة الاجتماعـــية بالمســـتويات الثلاثة لعمليات المساعدة النفسية والاجتماعية والتأهيلـــية، وســـوف نناقش في هذا الفصل أهم النظريات التي تحاول إلقاء الضوء عـــلى السلوك الإنساني وتقدم الفروض من أجل تفسيره وتوضيح مفاهيم السلوك ودوافعه.

الأهداف العملية Objectives:

سوف يركز هذا الفصل على تحقيق الأهداف العملية التالية:

- توضيح معنى السلوك الإنساني.
- مناقشة موجزة للنظريات التي تفسر السلوك الإنساني.
- تفهم كيفية تأثر السلوك الإنساني بمتغيرات شخصية وبيئية متنوعة.
- توضـــيح الاســـتفادة مـــن مفاهـــيم السلوك الإنساني في تطبيقات المساعدة الاجتماعية والنفسية والتأهيلية.

إن معـــرفة الأســـس التي يقوم عليها السلوك الإنساني تساعدنا كأخصائيين نفسيين واجتماعيين وتربويين من جوانب عديدة:

1 - يمكننا أن نضع توقعات حقيقية لنمو الأطفال والمراهقين والبالغين فنجد أن علم النمو النفسي يوضح لنا متى يبدأ الطفل الكلام؟ ومتى يستطيع أن يفكر تفكيراً تجريدياً Thinking Abstract؟ وما هي الموضوعات التي سيتم مناقشتها مع الأبناء عندما يصلون إلى سن المراهقة؟

2 - إن معرفة محددات السلوك الإنساني تساعدنا على التعامل بصورة واضحة مع سلوكيات الأفراد، فيمكننا مثلاً التفاهم مع الأبناء وهم يبدون رغبتهم في الاستقلالية الكاملة حتى وإن لم يكن لديهم الفهم والقدرات والمهارات التي تؤهلهم للاعتماد الكلي على أنفسهم.

3 - تستطيع علوم السلوك الإنساني أن تضع لنا تصوراً عن السلوك بأشكاله الطبيعية وما يمكن أن نعتبره سلوكاً غير طبيعي، فمثلاً إذا لم يبدأ الطفل في الكلام حتى سن الثالثة فهل يعتبر ذلك غير طبيعي؟ وعندما يعبر الشخص المقدم على الزواج عن مشاعر القلق وعدم فهمه لطبيعة مسؤولياته كزوج، فهل ذلك يعتبر طبيعياً أو لا؟

4 - توضح علوم السلوك الإنساني الأساليب الممكنة لفهم تأثيرات البيئية على سلوك الفرد في المراحل المختلفة، فمثلاً نجد أن في مناطق الريف يشعر الطفل بسهولة الارتباط الاجتماعي والوجداني بأفراد الأسرة، بينما قد يعاني طفل المدينة والحضر من قلة الاحتكاك بأفراد أسرته والذين هم منشغلون معظم الوقت بأعبائهم ومسؤولياقم المتعددة.

5 - إن علوم السلوك الإنساني تساعد الأخصائي والباحث والتربوي على تفهم مشكلات التفاعل بين الفرد والبيئة وتجعلهم أكثر رغبة في مساعدة الأفراد الذين يعانون من مشكلات معينة. فنجد أن الأخصائي النفسي والاجتماعي والتأهيلي سوف يتفهم من خلال هذه المعلومات أحاسيس الطفل الذي يعاني من الإعاقة العقلية أو المراهق الأصم أو الشاب الذي أصيب بالشلل نتيجة حادثة معينة، هذا الفهم سوف يساعد على تقديم الخدمات لهذه الفئة وتبني قضاياهم ومشكلاقم ومراعاة ظروفهم البدنية والنفسية والاجتماعية.

مفهوم السلوك الإنساني

يعتقـــد كـــل مـــن Wodarski & Dziegielewski (2002) أن السلوك الإنساني في مفهومه البسيط هو عبارة عن الأنشطة والتفاعلات التي يقوم بها الفرد لتحقيق غايات معينة، فتكون بعض هذه الغايات مقصودة ومخططة وبعضها بسيط وغـــير شـــعوري، وبشكل عام فإن سلوك الفرد يمكن للآخرين ملاحظته بواسطة الحـــواس الخمســـة حيـــث يمكننا على سبيل المثال أن نسمع بكاء الطفل الرضيع ونشاهد حركاته كتعبير عن حاجته للغذاء الذي يتمثل في الرضاعة، وعلى الجانب الآخـــر يمكنـــنا أن نشـــاهد الطالب يداوم في الحضور إلى المدرسة بشكل متكرر ويذاكـــر دروســـه ويـــؤدي الواجـــبات بأســـلوب معين، كل هذه المنظومة من الســـلوكيات تســـتهدف حصول الطالب على شهادة دراسية معينة وتعلم خبرات محـــددة تســـاعده على الحصول على وظيفة ما وتحقيق الاستقلالية المادية. في هذا النوع من السلوك نجد أنه يتسم بالتعقيد والتكرار والاستمرارية حيث أن الغاية التي يسعى الفرد إلى تحقيقها تحتاج إلى المداومة والمتابعة لتحقيق غرض بعيد.

وكمـــا يوجـــد سلوك إيجابي يهدف إلى تحقيق أغراض مقبولة يوافق عليها المجتمع وتتبع لنظام معين، نجد أن هناك سلوك سلبي يسعى أيضاً إلى تحقيق أغراض معيـــنة ولكـــن المجـــتمع لا يوافق عليها أو على الطريقة والنهج المتبع في تحقيقها، فالطالـــب الذي يداوم على الدراسة من أجل الحصول على شهادة دراسية تؤهله للحصول على وظيفة سوف يصل إلى نتيجة إيجابية مقبولة يقرها المجتمع، أما الفرد الـــذي يســـعى للحصول على المال ولكن عن طريق استخدام سلوكيات لا يوافق عليها المجتمع ولا تقرها قوانينه مثل السرقة أو الغش أو الاحتيال فإنه قد يدرك عدم مشـــروعية هذه السلوكيات ولكنه لا يرغب في بذل الجهد وقضاء أعوام طويلة في الدراســـة مـــن أجل الحصول على شهادة تؤهله لوظيفة ما ومن ثم الحصول على مرتب يساعده في إشباع احتياجاته.

إذاً فالســـلوك الإنساني يعتبر كنشاط موجه ومقصود لتحقيق غايات محددة، ولكـــن السلوك الإنساني يرتبط بقدرة الفرد وتفهمه لمعنى السلوك والنتائج المرتبطة به، حيث يختلف الأفراد في مدى تفهمهم لحقيقة السلوك ومدى وعيهم بموضوعية

السلوك وقدرتهم على تعديله وتنميته وتطويره من أجل الحصول على الأهداف بطريقة مثلى وبنتائج كبيرة. فالعامل الذي يقوم بأداء مهمة معينة قد يتعلم من خلال التجربة أن أداء العمل بدرجة من الإتقان والمهارة قد يؤدي إلى تحقيق مستوى أعلى من الفائدة الذي يمكن ملاحظته في نوعية المنتج الذي يحصل عليه في النهاية.

هناك ارتباط كبير بين ظهور السلوك الإنساني وتطوره وطبيعة مراحل النمو التي يعيشها الإنسان، حيث أن درجة تفهم السلوك ومستوى أداؤه يرتبط بقدرة الفرد على تفهم السلوك وتحليله ومهارته في تنمية السلوك وتعديله وتوظيفه بطريقة فعالة، ومن هنا نجد أن هناك ارتباط وثيق بين السلوك الإنساني والمرحلة العمرية والتنموية التي يعيشها الإنسان. وبشكل مبسط فإن مصطلح النمو Development يشير إلى التغييرات بعيدة المدى خلال فترة حياة الإنسان والأنماط التي تتخذها هذه التغيرات (Seifert, Hoffnung & Hoffnung, 1997). إلا أن هناك أهمية لوضع تعريف إجرائي للسلوك الإنساني يشتمل على:

1 – أن السلوك الإنساني يتأثر بمجموعة متوازنة ومتفاعلة من 1) الجوانب الشخصية عند الفرد وما تتضمنه من أنشطة بيولوجية وانفعالية وإدراكية/معرفية، 2) الجوانب البيئية والظروف المتعلقة بها والتي يعيشها الإنسان وما تتضمنه من (أبعاد جغرافية ومناخية وتاريخية وعادات وتقاليد ونماذج وأعراف وما إلى ذلك).

2 – أن الفرد يتعلم السلوك من خلال احتكاكه اليومي والمستمر مع البيئة وما تتضمنه من أنساق مثل (الأسرة – الجيران – الحي – المدرسة – دور العبادة – أماكن العمل.. إلخ).

3 – أن السلوك الإنساني يعتبر نشاط موجه ومقصود يسعى إلى تحقيق أهداف معينة مثل إشباع الاحتياجات الإنسانية أو تحقيق غايات معينة مثل الحصول على شهادة دراسية أو وظيفة أو تحقيق نوع من التفاعل مع الآخرين.

4 – أن السلوك الإنساني يمكن تعلمه Learn it من الآخرين والبيئة المحيطة كما يمكن في نفس الوقت التخلص منه De-learn it إذا لم يتم تقبله من الآخرين

وإذا مــــا تفهم الفرد الصعوبات التي يسببها هذا السلوك له وتكون لديه الإرادة والدافعية على التخلص منه.

5 – أن تعــلم الســلوكيات الإيجابــية يحتاج أيضاً إلى نوع من التوجيه والإرشاد والــنمذجة حيــث تقوم الأنساق الطبيعية مثل الأسرة بهذه المهمة، ولكن هناك أنساق أخرى تُعنى بتوجيه وتعليم السلوك مثل المدرسة والنادي الاجتماعي.

6 – إن التخلص من السلوكيات السلبية التي يرى المجتمع أنها غير مقبولة ولا تتواءم مــع تقالــيده وقــيمه، يحتاج إلى معاونة المهنيين والمتخصصين لتوجيه وتعديل الســلوك أو الــتخلص مــنه وتتضمن قائمة المهنيين كل من (المعلم – المرشد الاجــتماعي والأخصــائي الاجتماعي – المعالج النفسي – القائمون على تنفيذ عمليات التأهيل النفسي والاجتماعي).

وتقدر فائدة نظريات السلوك الإنساني بما تساهم به في تنظيم وتوضيح كم كــبير مــن المعلومات التي قد تكون متضاربة في بعض الأحيان، لذلك فنظريات تفســير السلوك تساعدنا على إيجاد بعض الأجوبة لأسئلة مهمة، فعلى سبيل المثال كيف نقرر إذا ما كان إرسال الأطفال الصغار إلى الحضانة Daycare فكرة ملائمة مــن ناحية النمو أم لا؟ وإذا كانت فكرة صحيحة فما هو النوع الملائم والأفضل مــن الحضــانات للأطفــال؟ هل فكرة إرسال العجائز إلى دور المسنين هي فكرة صــحيحة ؟ أو أنهــا تســبب تأثيراً سلبياً على حياتهم ومشاعرهم؟ ما هي أفضل الوسائل في تربية الأطفال ورعايتهم؟ وكيف نتعرف على التغييرات التي تحدث عبر مــراحل العمــر؟ وكــيف يمكــن عبور هذه المراحل بشكل فعال دون حدوث مشكلات كبيرة؟

في إطــار تفهم السلوك الإنساني وكيفية تفسيره سوف نقوم بالاعتماد على ثلاث أنواع من النظريات تهدف تقسم مؤثرات السلوك الإنساني إلى:

أ. تفسير السلوك الإنساني عن طريق نظريات المستوى الأصغر؛

ب. تفسير السلوك الإنساني عن طريق نظريات المستوى الأوسط؛

جـ. تفسير السلوك الإنساني عن طريق نظريات المستوى الأعم؛

أولاً- تفسير السلوك الإنساني عن طريق نظريات المستوى الأصغر

Micro Theories

يتضـــمن هذا القسم التعرف على مجموعة من النظريات التي تفسر السلوك الإنســـاني من خلال التركيز على الجوانب الشخصية والنفسية التي توضح كيفية تعـــلم السلوك ومعدلات تطور ونمو السلوك والتفسيرات المختلفة لهذه العمليات، وبشـــكل عام فإن هذه المجموعة من النظريات تعطي تفسيراً واضحاً ومنطقياً عن الإنسان وسلوكياته في البيئة التي يعيش فيها، وكذلك تمكننا من الحصول على إطار نظري لوصف وتفهم الأحداث والتجارب المصاحبة لنمو السلوك وتغيراته والمبادئ والأســـس التي تتحكم وتؤثر على هذه التغيرات، وهناك عدد كبير من النظريات التي تناقش السلوك الإنساني وتطوره عبر المراحل السنية. وحتى نعطي للقارئ بعض الأفكار عن تفسير السلوك الإنساني والنمو فقد اخترنا النظريات والمفاهيم التالية:

1 - نظرية النشوء البيولوجي Biological Evaluation:

تفســـر نظـــرية النشوء والارتقاء كيف تطورت أنواع كثيرة من المخلوقات وأصـــبحت مختلفة ومفردة لتعيش وتمر بمراحل أكثر تعقيداً وأكثر تطوراً. وتفترض نظرية النشوء البيولوجي لـــ Charles Darwin أن القوانين الطبيعيـــة التي تنطبق على النباتات والحيوانات تنطبق على الإنسان، وترجع أهمية هذه النظرية في دراسة الســـلوك الإنســـاني إلى إشـــارتها إلى مدى التشابه بين تطور الإنسان البيولوجي والمخلوقـــات الأخـــرى الـــتي تمر بمراحل مشابهة من النمو والارتقاء، لذلك فهذه النظرية رغم المعارضة الشديدة الموجودة لبعض مفاهيمها تؤكد أن النمو والارتقاء يخضـــع إلى القـــوى البيولوجية التي توجهه بصورة تدريجية وتدفعه لتبني سلوكيات معينة تساعده على التعايش والتوافق مع البيئة الطبيعية بظروفها المختلفة.

الاختيار الطبيعي Natural Selection:

اعتـــبر داروين أن الاختيار الطبيعي هو الآليات التي يتم من خلالها تحقيق الـــتعديلات والتغيرات المختلفة حتى يستطيع الكائن أن يتعايش Survive في بيئات مخـــتلفة لفـــترات زمنية كبيرة. ولقد اعتبر داروين أن الاختيار الطبيعي يعمل على

مستوى الجينات التي يتم توارثها في المخلوقات من جيل إلى جيل عن طريق التناسل والعوامل الوراثية والتي قد تجعل الفرد أكثر قدرة Fitness على الاستمرار في الحياة ومعايشـــة عوامل البيئة القاسية ونقل صفاته الوراثية إلى أجيال قادمة. فهذه النظرية تفترض وجود اختلافات طبيعية بين مخلوقات الجنس الواحد وذلك ما يعطي بعض المجموعات من نفس الجنس والنوع فرصة أكبر على الاستمرار في الحياة Survival، ولكن بعض المخلوقات ربما تواجه ظروف بيئية قاسية مثل الحرارة الشديدة ونقص الغـــذاء أو المـــاء الأمـــر الذي يستدعي أن تتواءم مع الظروف الطبيعية من أجل الاستمرار في البقاء، ولقد أطلق Herbert Spenser على هذا المفهوم Survival of The Fittest "البقاء للأقوى".

ارتقاء الجنس البشري:

إن الصـــورة التي بدأت في الوضوح بناء على المفهوم البيولوجي للسلوك أن الإنسان القديم عاش على الأرض ونزح من مكان إلى مكان ولكن هناك مجموعات كانت لها القدرة على السيطرة على المخلوقات الأخرى بشكل سريع وقوي نتيجة الارتقاء الثقافي والذي نتج عنه اكتشاف واختراع أجهزة معقدة وأساليب متطورة اســـتخدمها الإنسان في الزراعة وتصنيع المواد والأدوات، وبذلك كانت لهم الغلبة والنفوذ على الفئات التي لم تتطور، فنجد على سبيل المثال أن مجموعات البشر التي اســـتطاعت اختراع السهام والسيوف والبنادق والأسلحة المتطورة استطاعت أن تتغلب على المجموعات الأخرى وتبسط نفوذها بل وتستغلها كما رأينا في أساليب الرق والإقطاعية الزراعية.

ومن المعطيات التي نتفـــهمها من المفهوم البيولوجي للنمو نجد:

- أن تركيبة كف الإنسان تتيح له فرصة التعامل مع الأشياء وتدويرها وإمساكها بأصابعه.
- إن كـــل أفـــراد الجنس البشري، بغض النظر عن تنوع ثقافاتهم، يشتركون في نفس الخصائص الجسمية والتي تجعلهم يتحدون معاً كمخلوقات واحدة.

- إن البشـــر جمـــيعاً يتخاطبون من خلال لغات ومعاني وإشارات رمزية ولديهم القدرة على حفظ واستدعاء المعلومات وتناقلها من جيل إلى جيل. وكذلك فإن أعضـــاء الجـــنس البشـــري لديهم الوعي والإيحاء الذاتي فيتساءلون عن ظروف ميلادهم وينشغلون بمسألة موتهم ومعانيها.

تطبيقات على السلوك الإنساني:

1 - إن كل الأحداث التي تقع خلال مراحل النمو قد تحدث بشكل متوتر يرتبط بمـــدى تـــأثير الظروف الاجتماعية والعادات والتقاليد والعرف وكافة مكونات الجوانب الإنسانية على السلوك.

2- إن كل مجتمع يختلف عن الآخر طبقاً للمفاهيم السائدة والتوقعات المطلوبة من أعضـــائه في كل مرحلة سنية معينة، فنجد أن الشباب مطلوب منهم أن يتخذوا قرارات صعبة خاصة باختيار نوع التعليم ونوع الوظيفة والمسؤوليات الاجتماعية العائلية التي عليهم أن ينجزوها.

3 - كلما ارتبطت هذه المتطلبات والتوقعات بفترات عمرية معينة كلما أثرت على ســـرعة ودرجة حياة الفرد وسلوكياته. فالمجتمعات الغربية تتوقع من الشاب أن يستقل عن أسرته بعد الانتهاء من المرحلة الثانوية من التعليم، الأمر الذي يشكل نوعاً من الضغوط الذاتية على الشباب للبحث عن عمل ومصدر كاف يحقق له مـــثل هـــذا الاستقلال، وفي المقابل نجد أن المجتمعات الشرقية تتوقع من الشاب سرعة الارتباط العائلي وتكوين أسرة مما يسبب نوعاً آخراً من الضغوط.

4 - إن الأفـــراد الذين ينتمون إلى مجموعات عرقية صغيرة عليهم أن يتعرفوا على نوعـــين من الثقافات: ثقافة المجتمع العرقي الذي ينتمون له وثقافة المجتمع الكبير الذي يعيشون فيه.

2 - النظرية الاجتماعية النفسية Erickson's Psychosocial Theory:

لقد تفرعت هذه النظرية من نظرية التحليل النفسي عندما درس "أريكسون" صـــاحب هـــذا الاتجاه مع ابنة فرويد "آنـــا"، ويرى "أريكسون" (1983) أن نموّ الشخصـــية هو محصلة عمليات اجتماعية نفسية تجمع ما بين عوامل نفسية داخلية

وعوامـــل اجتماعية خارجية، وأن تغيرات النمو تحدث بشكل متواصل خلال حياة الإنسان وتتأثر بثلاث عوامل متفاعلة وأساسية:

1 - العوامل الجسمـــية والبيولوجية بقوتها وضعفها.

2 - الظـــروف الحياتية للفرد وتاريخ النمو بما يتضمنه من (تجارب الأسرة المبكرة ودرجة النجاح في حل مشكلات النمو في بداية حياة الفرد).

3 - المشـــكلات والـــتحديات الاجتماعية والثقافية والتاريخية التي يمر بها الإنسان خـــلال حـــياته (مـــثل الاضـــطهاد العنصري — والتغير التكنولوجي السريع والحروب).

مراحل النمو الاجتماعي النفسي وتأثيرها على السلوك:

يقســـم "أريكسون" مراحل النمو إلى (8) مراحل تبدأ بمرحلة الميلاد وتنتهي بمـــرحلة الشيخوخة. وتعرف مرحلة النمو باسم الصراع الاجتماعي النفسي الذي يســـودها. فتوضح هذه النظرية أن كل فرد يجب أن ينجح في حل الصراع المرتبط بكـــل مـــرحلة حـــتى يمكنه أن يعبر إلى المرحلة التالية. لذلك فإن النجاح في حل الصـــراع الغالب في مرحلة ما يقود إلى تقوية الشخصية واكتسابها لتجارب مختلفة تمكن الفرد من مواجهة التحديات والصراعات المرتبطة بالمراحل التالية.

طـــبقاً لتصـــور "أريكسون" فإن كل مرحلة من مراحل العمر يحدث فيها صراع معين وربما لا يتم التوصل إلى حلول ناجحة أو نهاية لهذا الصراع، وفي الجزء القـــادم نعرض بطريقة مبسطة الصراع المرتبط بكل مرحلة ومدى تأثيره على النمو ومن ثم على السلوك الإنساني بأشكاله، وكما ذكر "أريكسون" فإن الصراع يكون لـــه طـــرفان (إيجابي وسلبي) يمثلان نهاياته وأبعاده. فنجد أن درجة النجاح في حل الصـــراع تـــتوقف عـــلى قدرات الفرد وطبيعة الظروف والتجارب الإنسانية التي يعيشها، ولذلك تختلف قدرات الأفراد على تحقيق درجة معينة من النجاح في حل هذه الصراعات والتحديات.

جدول رقم (1)

مراحل النمو النفسي الاجتماعي (أريكسون)

المرحلة الاجتماعية النفسية	نوع الصراع	العمر بالتقريب بالسنة	الوصف
مرحلة بداية العمر	الثقة — عدم الثقة	(صفر- 2) (أمل)	نشأة علاقة ثقة وحب بين الرضيع والشخص الذي يوفر له الرعاية.
الطفولة المبكرة	الاستقلالية — الخجل والشك	(2-4) (إرادة)	التركيز على عملية التحكم في عضلات الجسم وتعلم الإمساك بالأشياء والمشي. (الاستقلالية وضبط الذات).
مرحلة ما قبل المدرسة	المبادرة بالنشاط — الشعور بالذنب	(4-6) سنوات (هدف)	تتم عمليات التحكم في الحواس وتناسقها معاً — تأكيد الذات وتجريب القدرات وتوجيه الأنشطة ناحية أهداف معينة.
مرحلة الطفولة المتأخرة	التفوق المهاري — الإحساس بالنقص	(6-12) (كفاءة)	التركيز على التفوق والكفاءة والنجاح في تحقيق مهمات وتعلم مهارات أساسية مختلفة. (الجدية في التعلم).
مرحلة المراهقة	تكوين الذات — أزمة الهوية	(12-18) (دقة)	التركيز على تحقيق الذات والتوصل إلى فهم متكامل لأبعادها الاجتماعية والجنسية والأخلاقية. (صورة متكاملة للذات).
مرحلة الشباب	الفة المشاعر- الانعزالية	(18-25) (المشاعر)	التركيز على النجاح في العلاقات الشخصية (الزواج) وبدء التخصص والوظيفة.
المرحلة المتوسطة (الرشد)	الإنتاجية — الركود	(25-50) (الرعاية)	التركيز على تحقيق الأهداف من خلال أنشطة مبتكرة ومنتجة تساهم في توجيه الأجيال القادمة.
الشيخوخة	تكامل الذات — اليأس	(50 فأكثر) (الحكمة)	التركيز على الوصول إلى تمامية وكمال التجربة الشخصية بما تتضمنه من نجاح وفشل.

طبقاً لتصور "أريكسون" فإن كل مرحلة من مراحل العمر يحدث فيها صراع معين وربما لا يتم التوصل إلى حلول ناجحة أو نهاية لهذا الصراع، وفي الجزء القادم نعرض بطريقة مبسطة الصراع المرتبط بكل مرحلة ومدى تأثيره على النمو ومن ثم على السلوك الإنساني بأشكاله، وكما ذكر "أريكسون" فإن الصراع يكون له طرفان (إيجابي وسلبي) يمثلان نهاياته وأبعاده. فنجد أن درجة النجاح في حل الصراع تتوقف على قدرات الفرد وطبيعة الظروف والتجارب الإنسانية التي يعيشها، ولذلك تختلف قدرات الأفراد على تحقيق درجة معينة من النجاح في حل هذه الصراعات والتحديات.

المرحلة (1) الثقة – عدم الثقة (Trust Vs. Mistrust):

تتمثل أشكال الثقة في سلوكيات الرضيع وقدرته على النوم والأكل والتبرز بطريقة سهلة ومريحة، وبذلك فإن الآباء الذين يستجيبون لهذه الاحتياجات بشكل مريح ومعتاد يوفرون للرضيع الفرصة للإحساس بالثقة في العالم المحيط به، ولذلك فإن وجود نوع من التوازن في إشباع احتياجات الطفل تولد عند الرضيع الإحساس بالأمان والأمل، والأمل هنا يعني تولد شعور مستمر لدى الطفل بأنه على الرغم من التوتر الذي حدث في أثناء ميلاده فإن هناك فرصة لوجود نوع من الاستقرار في مواجهة احتياجاته بدون الإحساس بالمعاناة والآلام. لذلك فإن عدم الثقة قد تتولد من حدوث ظروف معينة تسبب خللاً أو عدم انتظام في عملية إشباع الاحتياجات الأساسية. فمثلاً إذا ما مرض الرضيع مرضاً خطيراً يؤثر على عملية الرضاعة أو النوم فإن مشاعر عدم الثقة والأمان قد تتولد لديه، وكذلك فإن انفصال الرضيع عن الأم في هذه الفترة قد يسبب الخوف وعدم الأمان أو فقدان **الأمل** في الوصول إلى مستقبل مستقر يوفر إشباع هذه الاحتياجات بشكل مرضٍ.

المرحلة (2) الاستقلالية – العار والشك

(Autonomy Vs. Shame & Doubt)

يسعى الطفل في هذه المرحلة إلى تنمية القدرة الاستقلال والاعتماد على الذات في تأدية سلوكيات وأنشطة معينة مثل اللعب والحركة، ومن هنا فإن توازن عملية التحكم الذاتي مع الاعتماد على الآباء يمثل نوعاً من الخطوات المؤدية إلى

الوصـــول إلى الاســـتقلالية. فالطفل يسعى إلى الحركة والمشي لتحقيق الاستقلالية وحرية الحركة ولكنه يلاحظ دائماً وجود الأم ويتابعها ويتأكد من وجودها حوله حتى تقوم بإنقاذه إذا ما تعثر، ولذلك فإن بكاءه في ذلك الوقت هو تعبير عن طلب الـــنجدة والرغـــبة في طلب مساعدتها. وعلى الجانب الآخر فإن العار والشك قد ينـــتجا مـــن فشـــل الطفل في الوصول إلى الثقة النابعة من عدم قدرته على مقابلة المســـتويات والطموحـــات التي يرغب في تحقيقها، فنجد أن في فترة التدريب على المشـــي فـــإن وقوع الطفل المتكرر وفقدان التوازن قد يجعله يشعر بالفشل والعار. ولكن وجود نوع من التشجيع والتأكيد من الآباء وتفهمهم لفشله في الوصول إلى مهـــارة المشـــي قد يشجع الطفل على تخطي الشعور بالعار والشك. ولذلك فإن النجاح في تخطي هذا الصراع قد يعطي الطفل الإرادة التي تعني النجاح في اكتساب مهارات معينة والتفوق فيها.

المرحلة (3) المبادرة – الشعور بالذنب (Initiative Vs. Guilt):

تســـبق هـــذه الفترة مرحلة التعليم المنتظم ويكون تركيز الطفل على تحقيق الـــنجاح في تعـــلم ســـلوكيات ومهارات جديدة مثل التخاطب والرسم واللعب والإحســـاس بـــالقدرة على ممارسة أنشطة معينة. أما عن الصراع في هذه المرحلة فيتدرج من تحقيق المبادرة الذاتية إلى الشعور بالذنب، وتحتوي المبادرة على القدرة عـــلى استكشـــاف وممارســـة أنشطة وأفكار جديدة تساعده على تحقيق مهمات وإنجازات معينة، وإذا ما لاحظنا لعب الطفل بنماذج السيارات فإننا نجده يُرتبهم في طابور واحد، ثم يضعهم على ظهورهم في خط أفقي واضعاً السيارات الكبيرة قبل الســـيارات الصـــغيرة ثم فجـــأة يقـــرر أن يَقلـــبهم على ظهورهم وكأنه يقوم بإصـــلاحهم.وقد يؤلف الطفل أصواتاً كالموسيقى التصويرية تبدأ عند بداية سباق السيارات، وبذلك فإنه يبني عالماً خاصاً به يمثل فكرة ذاتية عن تنظيم أنشطة مختلفة للعـــب بالسيارات. أما عن الإحساس بالذنب فينبع من انتقاد الطفل وتأنيبه لنفسه عـــند فشـــله في تحقيق توقعات آبائه، فإذا لم يستطع الطفل رسم صورة أو تلوين كـــتاب وفقاً لتوقعات أمه فإنه قد يشعر بفشله في إنهاء وإنجاز المهمة ومن هنا يأتي الإحساس بالذنب، ونجد أنه إذا ما أهمل الآباء مشاعر الطفل المتناقضة ما بين الحب

والكـــره، الرغـــبة الأكيدة والطبيعة لتحقيق الاستقلال الذاتي، أو فإن ذلك يخلق أحاسيس هدامة تجاه نفسه وتجاه العالم المحيط به.

المرحلة (4) (التفوق المهـــاري- الإحساس بالنقـــص)

(Industry Vs. Inferiority)

في هذه المرحلة يبدأ الطفل بالابتعاد عن ارتباطه الشديد بالأسرة ويدخل إلى عالم المدرسة، ولذلك فإن هناك ضرورة لأن يتمرّس الطفل على ممارسة مجموعة من المهارات العقلية والاجتماعية حتى يستطيع أن يكمل المهام التي تطلب منه بنجاح. ولذلـــك فـــإن مسألة تعلم الحروف والكلمات وقراءة وحفظ الأرقام تعني التفوق واكتســـاب القدرات بينما الفشل في تعلم هذه الأشياء يسبب الإحساس بالنقص، فالطفل الذي يفشل في تعلم بعض الدروس قد يشعر بالانعزالية عن الآخرين وعدم القدرة على اكتساب تقدير واعتراف المجتمع.

المرحلة (5) (تكوين الهوية – أزمـــة الـــذات والأدوار)

(Identity Vs. Role Confusion)

تـــتزامن هـــذه المرحلة مع حدوث التغيرات الفسيولوجية والبيولوجية التي تحـــدث للطفـــل عند بدايات البلوغ (التي تتمثل في التغيرات الظاهرة في الصوت والطـــول والوزن....). ونجد أن المحك الأساسي في هذه المرحلة هو تكوين الذات (الهويـــة)، وتعني الهوية مستوى الثبات والتكامل الذي يشعر به المراهق عن حقيقة ذاتـــه بـــناء على الأدوار المتعددة التي يلعبها، ولذلك فإن المصطلح تشوش الأدوار Role Confusion يعني فشل المراهـــق في تحقيق التماثل والتكامل بين هذه الأدوار ومن ثم بناء شخصية ذاتية ذات معالم واضحة.

ينشغل المراهق في هذه المرحلة بتقييم هويته الذاتية والتغيـــرات التي تحدث له والتي تتضمن الجوانب الفسيولوجية والعقلية والدينية بالإضافة إلى تفكيره الدائم في أنـــواع السلوكيات والوظائف التي يجب أن يمارسها ويتخصص فيها في المستقبل، وتتمـــثل خطـــورة هـــذه المرحلة في عودة ظهور بعض الصراعات التي حدثت في مـــراحل سابقة. ولذلك فإن النجاح الحقيقي في عبور هذه المرحلة يتمثل في قدرة المراهق على التمسك ببعض القيم التي يؤمن بها والتي تعطـــي له الإحساس بالتفرد

بـرغم الصـراعات والمواقـف المتضاربة التي تحدث في العالم المحيط مثل الأسرة والمدرسة والعالم الخارجي.

المرحلة (6) (الالفة في المشاعر– الانعزالية) (Intimacy Vs. Isolation):

يشـكل الجانـب العـاطفي جزءاً كبيراً في هذه المرحلة. فنجد أن تكوين علاقات حميمة مع الجنس الآخر يشغل حيزاً كبيراً من اهتمام الفرد، لذلك نجد أن نمـو قـدرة الفـرد على بناء علاقات متماسكة وعميقة مع الآخرين والتعامل مع الخـوف مـن عدم النجاح في المجال العملي أو فقدان الهوية والذاتية قد يؤدي إلى حدوث بعض الصراعات الذاتية.

المرحلة (7) (الإنتاجية – الركود) (Generatively Vs. Stagnation):

تتسم هذه المرحلة بالنضج العقلي والوجداني للفرد. ومن أبرز خصائص هذه المرحلة توصل الإنسان إلى مستوى ملائم من الإنتاجية والنجاح، أما عن الإنتاجية فـتأتي مـن إحسـاس الفرد ببلوغه لدرجة الإتقان وتحقيقه للأهداف المرجوة في الواجبات والأنشطة التي يمارسها. لذلك يشعر الفرد أن حياته والواجبات والأعمال الـتي يؤديهـا تسـاهم بشكل مباشر في تحقيق أهدافه وتساهم في تحقيق الارتقاء للأجيال المقبلة. وعلى الجانب الآخر نجد أن فشل الإنسان في تحقيق مستوى ملائم من الإنتاجية يجعله يشعر بأن حياته ليس لها فائدة وأن أنشطته والأعمال التي يقوم بها أو يساهم فيها تكون غير مجدية.

المرحلة (8) (تكامل الذات – اليأس) (Ego Integrity Vs. Despair):

تحدث هذه المرحلة مع وصول الإنسان لسن الشيخوخة ويتسم النجاح فيها بـتحقق نـوع من الشخصية يتسم بالحكمة والتعقل، ويعني ذلك تماسك الذات ومراجعة الفرد لحياته وتجربته بما تتضمن من جوانب قوة وضعف مما يسبب شعور الفـرد بالرضى والإحساس بالامتنان الأمل والحكمة. ونجد أن الإحساس بالضياع واليأس يأتي من الخبرات التي يعيشها الفرد في هذه المرحلة بما تتضمنه من مشكلات صحية وهبوط مستوى الدخل نتيجة الخروج على المعاش والعزلة الاجتماعية نتيجة وفـاة الـزوج/ الـزوجة أو بعض الأصدقاء والأقارب، وربما يتولد شعور الفرد

بالضياع نتيجة عدم انشغاله بعمل جاد يستطيع أن يقوم بها بعد الإحالة إلى المعاش مما يجعله يشعر بعدم الإنتاجية والمنفعة.

يعتقد "أريكسون" Erickson أن الأزمة النفسية والاجتماعية التي يمر بها الفرد في كل مرحلة من مراحل حياته قد لا يتم حلها بشكل كامل. ولذلك نجد أن نتيجة خبرة كل فرد وتجاربه في الحياة، سوف يحقق درجة عالية أو منخفضة من تحقيق متطلبات كل مرحلة مثل التفوق المهاري/ الإحساس بالذنب - الهوية/أزمة الذات - الفة المشاعر/ الانعزالية - الإنتاجية/ الركود - تكامل الذات/ اليأس. ويرى "أريكسون" أن الصراع الذي يرتبط بالمراحل الأولية قد يؤثر على النمو الاجتماعي والنفسي خلال المراحل المتأخرة.

إن مراجعة مفاهيم النظرية النفسية الاجتماعية يبين ارتباط كل مرحلة من مراحل العمر بمجموعة من خصائص النمو المتفردة التي تساهم الجوانب البيئية والثقافية بشكل كبير في اكتمالها وتوفر الظروف الملائمة لدعم قدرة الفرد على التعامل مع الصراع. فعلى سبيل المثال فإن رؤية المجتمع وتوقعاته بالنسبة لسلوكيات المراهقين والفرص المتاحة لهم من أنشطة اجتماعية وثقافية ورياضية تساهم بالضرورة في مساعدتهم على اكتساب الهوية وتحقيق التوازن في جوانب النموّ المتنوعة (إدراكية - سلوكية - شعورية - جسمية). وعلى الجانب الآخر تؤدي التوترات ومشكلات الفقر والحروب والخلافات العنصرية وعدم توفر فرص مزاولة الأنشطة المتنوعة وغياب الدعم الاجتماعي بالإضافة للتأثير السلبي لأجهزة الإعلام، كل ذلك يساهم لدى المراهق بالاغتراب الذاتي واضطراب الهوية.

3 - النظريات السلوكية التعليمية:

توضح نظريات السلوك والتعلم أن السلوك الإنساني يرتبط بعمليات التعلم والتغيرات المصاحبة لهذه العمليات والتي ينتج عنها تعود الفرد وممارسته لسلوكيات معينة. وخلال حياة الفرد فإنه يتعرض لخبرات أسرية واجتماعية متنوعة تؤثر بالضرورة في مراحل النموّ وتغيراته. ولذلك فإن أساليب وخبرات التعلم المتاحة توفر الفرص والتجارب الجديدة التي تساهم في تعديل مستويات النموّ الشخصي.

أ. نظريات التعلم السلوكي Behavioral Learning Theory:

وضـــحت نظـــرية "بافلوف" Pavlov "الاشتراط الكلاسيكي" دور المؤثر والارتـــباط الشـــرطي في خـــبرات التعلم، فلقد قام "بافلوف" بتجربته المشهورة باســـتخدام رنين الجرس قبل تقديم الطعام لكلبه، وسبب ذلك سال لعاب الكلب بشكل ارتباطي عند سماعه للجرس حتى عندما توقف عن تقديم الطعام للكلب بعد سمـــاع الجرس، لذلك فلقـــد سميت هـــذه التجربة بالارتباط الشرطي Classical Conditioning حيـــث إن ســـيل لعـــاب الكلب عن سماع الجرس تعد كرد فعل شـــرطيConditioned Response . وأن الطعام يعد كمثير غير شرطي وأن لعاب الكلـــب يعد كرد فعـــل غير شرطي Unconditioned Response، لذلك نجد أن المصطلح الأخير يوضح الارتباط بين الطعام كمثير ورد فعل الكلب المتمثل في لعابه كانعكـــاس طبـــيعي لاشـــعوري، وبذلـــك فإن بعض الانعكاسات الطبيعية تأتي لاشـــعورية وتؤثـــر في سلوكيات الإنسان، فالطفل الذي يتعلم الرضاعة الطبيعية وسلوك مص ثدي الأم يأتي بشكل لا شعوري، وكذلك فإن صوت الأم أو شكل زجاجـــة الرضاعة يعطي للطفل المثير والذي ينعكس في وضع الجزء البلاستيكي في مقدمة الزجاجة في فمه وبدايته لمص هذا الجزء للحصول على الرضعة.

عـــرض "ثورندايـــك" (Kakkar,1995) نظـــرية الاشـــتراط الأدائـــي Instrumental Conditioning التي تقـــوم على مفهـــوم تعلم السلوك من خلال الـــتكرار، ولإثـــبات هـــذا المفهوم قام "ثورندايك" بوضع قط في قفص وبه باب بمزلاج، ثم وضع الطعام خارج القفص كمثير، فبدأ القط في محاولته للاستجابة لهذا المثير بمحاولة فتح الباب عن طريق تحريك المزلاج، واستمرت هذه المحاولة لمدة (40 دقيقة) وعندما تكررت التجربة بدأت محاولات القط لتحريك المزلاج، وفتح الباب تأخذ وقتاً أقل ومع التكرار تناقصت مدة المحاولة إلى أن وصلت إلى دقيقة واحدة، وبذلك فإن التكرار يعد عاملاً مهماً في التعلم.

ب. نظرية التعلم الاشتراط الاجرائي Operant Conditioning:

يرى "سكينر" Skinner (1938) أن السلوك الإنساني يقوم بشكل أساسي عـــلى مفهوم التدعيم Reinforcement، ويعني ذلك أن فرصة تكرار أية استجابة

قد تزداد عندما يتبعها مثير معين، ويسمى ذلك بالتدعيم الإيجابي للسلوك. فالطفل الـــذي يحاول الكلام لينطق بعض الحروف (دا دا) وتمثل ابتسامة الأم لهذه المحاولة نـــوع من المكافأة - أو التدعيم الإيجابي Reward الأمر الذي يشجع الطفل على تكـــرار هـــذا السلوك مرة أخرى فيستمر في نطق هذه الحروف دا دا دا، وعلى العكـــس فإن التدعيم السلبي Negative Reinforcement يعني عدم تكرار سلوك معـــين إذا ما كانت الاستجابة له سلبية، فنرى أنه إذا قام طفل عمره أربع سنوات باللعب بالكبريت فإن صياح أمه لمنعه من ذلك ونظرة القلق على وجهها تمثل مثيراً ســـلبياً وبذلك يفهم الطفل أن سلوكه بالرغم من الإثارة التي يمثلهـــا له قد يسبب عـــدم رضـــا الأم وتلقـــى اســـتجابة سلبية، وقد يحاول الطفل مرة أخرى اللعب بالكـــبريت ليتأكد إذا ما كان سيتلقى نفس المثير السلبي (تحذير أو عقاب) أم لا. ولذلـــك نـــرى أن العقاب Punishment قد يضعف أو يمنع فرصة تكرار السلوك نتيجة المحصلة التي تتمثل في الرد الغير سار أو النتيجة التي تسبب ألماً جسمياً ونفسياً لصـــاحب السلوك. لذلك نرى أن حرمان المراهقين من رؤية التليفزيون أو الخروج للقـــاء أصـــدقائهم يمثل عقاباً نفسياً على بعض سلوكياتهم التي تخرج عن النطاق المقـــبول مـــثل (الـــتأخر خارج البيت- أو الإهمال في الدروس والاستذكار أو المشـــاجرة مـــع الأخ أو الأخـــت)، ومن هنا يرى "سكينر" Skinner أن مفهوم الانطفاء أو الانتهاء Extinction يعني اختفاء الاستجابة بشكليها الإيجابي والسلبي بعـــد زوال السلوك وتوقفه. فالأم قد لا تصيح على الطفل إذا ما توقف عن اللعب بالكبريت.

وأخيراً فإن التحسين Shaping يتبع تلقي استجابة ما وذلك بمحاولة تعديل وتحسين السلوك حتى يصل إلى الشكل المطلوب والمتقبل من الآخرين. فالأب الذي يشـــجع ابـــنه على الكتابة فيمدحه يعطي للابن دفعة إلى إعادة كتابة نفس النص بشـــكل أفضل فيعدل من أسلوب كتابة الحروف، ويحسن من خطه حتى يصل إلى أفضل وأحسن مستوى من الكتابة يرضى هو عنه وكذلك أبوه ومدرسه.

4 – النظرية الإداركية/المعرفيـــة الاجتماعية

Social Cognitive Learning Theory

يعـــتقد "باندورا"Bandura (1991) أن تغيرات السلوك تحدث بشكل كبير من خلال التعلـــم بالمـــلاحظة Observational Learning أو التعلم عن طريـــق ملاحظـــة الآخرين، وبذلك فإن التعلم يتم عن طريق محددات متبادلة Reciprocal أي من خـــلال التفاعل الذي يحدث بين الطفل (بما يتضمنه من سلوك وعمليـــات إدراكـــية وقـــدرات جسمية) وبين البيئة المادية والاجتماعية، ولقد قدم "باندورا" مفهوم التعلم بالعبرة Vicarious Conditioning وذلك نتيجة لتجربة قام بها حيث إنـــه عرض فيلماً سينمائياً على مجموعة من الأطفال وفي الفيلم شخص راشد ولعبة كبيرة، ويبدأ الشخص بثقب اللعبة ورفسها وإخراج الحواشي من داخلها ثم يضرب اللعبة على رأسها بمطرقة وهو يردد مجموعة من الألفاظ. ولقد كرر "باندورا" هذه الـــتجربة على ثلاثة مجموعات من الأطفال ولكن في كل مرة كانت نسبة السلوك الغريب للراشد تقل. ولقد وضحت نتيجة التجربة أن المجموعة الأولى من الأطفال والـــتي شاهدت إتيان الشخص الراشد لسلوكيات الاعتداء بدرجة أكبر قد عبرت تلقائـــياً عن مظاهر أكثر عدوانية من المجموعات الأخرى، ولذلك سمي "باندورا" هذا النوع من التعلم بالتعلم بالعبرة.

أمـــا عـــن التعلم بالملاحظة فإنه يأخذ شكلين أساسين : التقليد Imitation والتمثـــيل النموذجي Modeling. أما عن التقليد فإن الطفل على سبيل المثال يتعلم سلوكيات معينة عندما يشاهد الآخرين ويحاول أن يماثلهم في سلوكهم، فإذا ما تم تدعيم هذه السلوكيات إيجابياً Positive Reinforcement فإن الطفل يحاول إتقان السلوك ليصبح بعد ذلك جزءاً من مخزون السلوكيات لديه. وفي التمثيل النموذجي Modeling يتعـــلم الطفـــل سلوكيات الكبار عن طريق ملاحظتهم والاستجابات الإيجابية التي يتلقاها، ويحدث ذلك بطريقة غير مباشرة، فإذا لاحظ الطفل أن أحد الأفـــراد يلقي خطبه في موضوع معين وأنه قد نال الإعجاب والتصفيق بعد إلقائه للخطـــبة فـــإن الطفل قد يحاول تقليد هذا الشخص حتى يحظى بمثل هذا التشجيع والـــتقدير. ويشـــير "بانـــدورا" إلى أن فاعليـــة أسلوب التعلم عن طريق التمثيل الـــنموذجي تتوقف على عدة عوامل منها علاقة الطفل بالشخص الذي يحاول أن

يتمـــثل به وصفات الشخص النموذج وكيفية إدراك الطفل لكل هذه الصفات. إن نمو الطفل من الناحية الإداركية/المعرفية يتأثر بقدراته على الملاحظة والتذكر وتكرار السلوك بعد فترة معينة بعد مراقبته، ولقد استخدم منهج الإدراك المعرفي الاجتماعي في تفســـير بعـــض السلوكيات والظواهر فيقوم المرشدون النفسيون باستخدام هذا المـــنهج لـــتفهم طبيعة العلاقة بين الأبناء والأباء ومشكلات تكيف الأطفال على بيئات وظروف اجتماعية معينة.

5 – نظريات النمو الإدراكي/المعرفي:

أ . نظرية بياجية للإدراك المعرفي Piaget's Cognitive Theory:

لقد عرف "بياجيه" كأحد العلماء الكبار في النمو النفسي Developmental Psychology حيـــث غيرت أفكاره تفهمنا للنمو العقلي والتفكيري وأساليب حل المشـــكلة والإدراك. وتقوم نظرية "بياجيـــه" على مبادئ أساسية مهمة، توضح أن الـــتفكير ينمو من خلال مجموعة من المراحل المُعقدة يتم خلالها اكتساب وتعديل الأفكار التي تم التعرف عليهـــا في المراحل السابقة. وتضم هـــذه المراحل كل من المـــــرحلة الشعورية الحـــركية Sensorimotor ومرحلـــة مـــا قبـــل العمليات Proportional Formal operational.

بـــناء عـــلى هذه النظرية فإن عمليات نمو السلوك وتطوره تتضمن كل من الأنظمـــة البدائية للتفكير – المخططات العقلية – قدرة حل المشكلة – بناء الواقع، وهـــي عمليات فطرية يولد الإنسان بها بشكل طبيعي ولكنها تكون على مستوى بدائي، وكنتيجة لعمليات النضج والخبرة فإن التفكير ينمو عن طريق تجمع الخبرات والإنجـــازات التي يتمرس عليها الفرد خلال مراحل حياته. وتتم هذه التغييرات من خـــلال عملـــيات الـــتماثل Assimilation الذي تحل فيه المشكلات باستخدام المخططـــات العقلـــيـــة Schemes والتلاؤم Accommodation حيث يتم تعديل المخططـــات العقلـــية لمواجهة أيّ تحديات جديدة. وتقوم هذه العمليات معاً بخلق التوازن في الإدراك المعرفي ممّا يحدث زيادة في قدرة الفرد على تحقيق التوائم المتوازن والمتناغم مع البيئة التي يعيش فيها.

ويـــرى بياجـــيه أن هناك ثلاث عمليات أساسية تحدث في كل مرحلة من مراحل العمر وتسبب نمو التفكير وقدرة حل المشكلة:

a. التعلم المباشر؛ b. التحول الاجتماعي؛ c. النضج.

جدول رقم (2)

مراحل النمو الإدراكي/المعرفي (بياجيه)

التوصيف	العمر بالتقدير	المرحلة الإدراكيه/المعرفية
التنسيق بين الطاقات والأنشطة الحسية والحركـــية: تحقيق القدرة المستمرة على التعامل مع الأدوات.	من الميلاد حتى سنتين	Sensorimotor الحسية الحركية
اســتخدام الألفـــاظ وتعلم الكلمات والرموز والوصول إلى فهم ذاتي للعالم.	2 إلى 7 سنوات	Pre-Operation ما قبل العمليات
حـــل مشـــكلات مـــتقدمة من خلال اســتخدام عمليـات التفكير المنطقي. تطـــور عمليـات التجميع والتصنيف وتكوين المفاهيم.	7 إلى 11 سنة	Concrete Operational العمليات المادية
الحلـــول المـــنظمة لمشكلات واقعية أو فرضـــية باســـتخدام عمليات التفكير المجـــردة. استخدام التعليل الاستقرائي والإحكامي والاستنتاجي في التفكير.	11 سنة حتى مرحلة النضج	Formal Operational العمليات المجردة

يحدث التعلم المباشر عندما يستجيب الفرد بشكل فعال إلى ظاهرة أو سلوك جديـــد أو يحلـــل مشكلة ما أو خبرة معينة باستخدام نماذج من المخططات العقلية Schemes، والمخطـــط العقـــلي هو منظومة من الأفكار والأحداث وأساليب حل المشـــكلة التي تساعد الفرد على مواجهة تحدي فكري معين أو موقف محدد، وبناء على هذا المفهوم فإن الطفل حديث المولد يتفهم العالم المحيط به بناء على عدد محدد مـــن المخططـــات العقلية Schemes التي تتضمن عدداً من المنظومات غير المرتبطة ببعضـــها والـــتي يولد بها الطفل مثل المص والشد والنظر. وتتغير هذه المخططات ســـريعاً وتَتعدل نتيجة تجربة الطفل لنماذج ومواقف جديدة يواجهها ويتعامل معها باستخدام عمليات التمثل Assimilation والتلاؤم Accommodation.

التمـــــثل **Assimilation**: هي العمليات التي يستخدمها الطفل للتحليل والرد على تجربة أو خبرة جديدة باستخدام مخطط عقلي Scheme معين موجود لديـــه. فالطفل حديث المولد الذي تقـــدم له زجاجة الرضاعة سوف يعتمد على المخطط العقلي الموجود لديه والذي يتعلق بعملية مص ثدي الأم كوسيلة للحصول على اللبن. ولذلك فإن تعامله مع زجاجة الرضاعة يقوم على المخطط العقلي الذي يعرفه عن الرضاعة الطبيعية، وبذلك فإن التعامل مع زجاجة الرضاعة يعتبر كتمثيل لموقـــف جديد يواجهه فيستخدم معه مخطط عقلي كامن لديه ويعرفه مما يؤدي إلى قـــيامه في الـــنهاية بمص زجاجة الرضاعة. أما عن الطفل ذو الـــ 3 أعوام فإنه قد يسمى نموذج سيارة النقل المقدم له للعب به "سيارة" لأنه لعب بنموذج سيارة من قـــبل ويعـــرف شكلها وطريقة سيرها على أربعة عجلات فيستدعي هذا المخطط العقـــلي الذي يعرفه فيسمي سيارة النقل سيارة. وفي التلاؤم Accommodation يغـــير الطفل المخطط العقلي Scheme الموجود لديه عندما يواجه فكرة جديدة لا يســـتطيع التعامل معها. وهنا يرى بياجيه أن عمليات النمو الفكري والذهني تقوم على التبادل بين فكرة التمثل والتلاؤم والذي عرفه بالتكيف Adaptation. ويحدث التكـــيف عندما تتعمق وتتسع المخططات العقلية Schemes عند الفرد عن طريق اســـتمرارية عملـــيات التمثل والتلاؤم مع مواقف متعددة تحدث بشكل يومي وفي مجالات مختلفة (Piaget،1983).

قامـــت مجموعـــة من العلماء بتطوير وتعديل أفكار "بياجيه" الخاصة بالنمو الإدراكي/المعرفي - فنرى كاس (1991) Case يؤمن بأن النمو الإدراكي (المعرفي) ينتج عن زيـــادة المساحة العقليـــة Mental Space التي تنتـــج عن الزيادة في عدد المخططـــات العقلـــية Schemes التي يستطيع الفرد أن يستخدمها في وقت معين. لذلـــك فإن الطفل في المراحل الأولى من العمر يتمتع ببناء عقلي محدد، فهو يرسم بأقلام الرصاص مثلاً ثم يرمي بالكرة أو يزيح بعض أجزاء اللعبة التي يلعب بها، هذا البناء العقلي Mental Structure الذي يوجه سلوكيات الطفل يتناسق مع بناءات عقلية أخرى موجودة لديه نتيجة خبرات سابقة تساعد على التوصل إلى مستويات عقلية أكثر نمواً وتعقيداً تؤدي على بلوغ مستويات التفكير المجرد والتفكير الرمزي (Case, 1991). ويوافق فيشر Fisher على فكرة "بياجيه" الأساسية المتعلقة بمراحل

النمو الإدراكي/ المعرفي ولكنه يرى أن هناك مهارات محددة هي التي تصف البناء العقلي للطفل بدلاً من المخططات العقلية Schemes التي يعتمد عليها "بياجيه"، فيرى فيشر أن المهارات العقلية التي يعتمد عليها الطفل لحل أو تفسير لغز أو موقف معين تعتمد على مستوى نضج مركز الأعصاب المركزي Central Nervous لدى الطفل ومدى وصول هذا الجهاز مستويات متقدمة نتيجة الاحتكاك المستمر بالبيئة والتعرض لأبعادها المختلفة (Fischer & Pipp, 1984).

ب . نظرية تنظيم وتشغيل المعلومات Information - Processing Theory:

يرى "كلهر" (1989) Klahr أن هناك ضرورة للتركيز وبشكل دقيق على تفصيلات الخصائص أو الخطوات المتعلقة بالأنشطة العقلية، وبذلك يشبه العقل بجهاز الحاسوب Computer الذي يحتوي على أجزاء محددة تساهم وبشكل متفرد في التفكير بترتيب معين. ويوضح الشكل رقم (6) نموذجاً لتنظيم المعلومات في التفكير الإنساني.

فعندما يحصل الفرد على بعض المعلومات من البيئة بواسطة حواسه فإن هذه المعلومات تبقى في جهاز تسجيل الإحساس لفترة قصيرة ويعتبر جهاز تسجيل الإحساس كمخزن المعلومات الأول، حيث تخزن المعلومات فيه بالشكل والصورة التي تم استقبالها. ولكن هذه المعلومات تصنع وتمحي من هذا الجهاز بسرعة إذا لم يقوم الشخص باستخدامها. فنجد أن المعلومات ذات الأهمية لدى الفرد مثل درس معين في اللغة أو معلومة متعلقة بالعمل يتم إيداعها في جهاز الذاكرة قصيرة المدى الذي يستطيع فقط أن يحتفظ بكمية صغيرة تقدر بسبع قطع من المعلومات. وبعد قضاء (20) ثانية في جهاز الذاكرة قصيرة المدى فإن هذه المعلومات تنسى تندثر ما لم يتم تشغيلها وتوجيهها إلى جهة أخرى. ونظراً لأهمية بعض المعلومات للفرد فإنها تتحول من جهاز الذاكرة قصيرة المدى إلى جهاز الذاكرة طويلة المدى (LTM) Long Term Memory وهو مخزن المعلومات رقم (3)، وتخزن هذه المعلومات لمدة طويلة في جهاز الذاكرة طويلة المدى ولكنها تحتاج من وقت لآخر إلى بعض الخطوات والأنشطة التي تدعم بقائها واستمرارها مثل التدريب والبروفات

Rehearsing. ولزيادة إمكانية احتفاظ الفرد بهذه المعلومات يتم تنظيمها وحفظها بشكل مألوف متعارف عليه الأمر الذي يمكن استدعائها بشكل سريع.

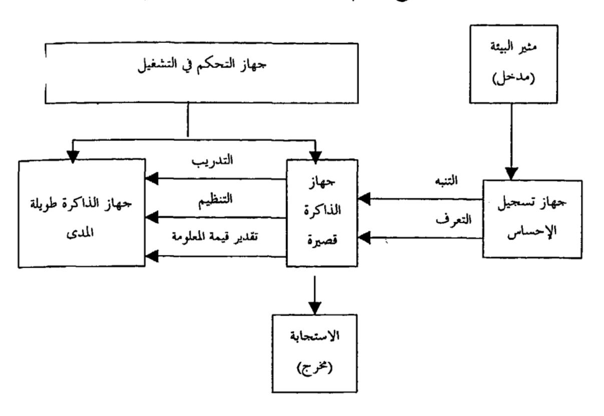
ويمكننا ملاحظة هذه الفكرة عندما يستعد طلاب الثانوية العامة للامتحان النهائي. فتجدهم يبدؤون في المذاكرة مع بداية العام ولكنهم يُعاودون مراجعة هذه المعلومات من فترة لأخرى حتى تنتعش المعلومات في الذاكرة ولا تندثر، ثم يتم بشكل معين تنظيم الموضوعات في الذاكرة فتجد المعلومات المتعلقة بالمواد النظرية تخزن وتخصص علامات إرشادية للاستدلال عليها وتذكرها وكذلك المعلومات الخاصة بالمواد العلمية لها أماكنها في الذاكرة بحيث يمكن استدعاءها والتعرف عليها عن طريق رموز معينة أو أفكار استدلالية محددة.

ولذلك فإن النمو الإدراكي/المعرفي للطفل يتعلق بالتغيرات العقلية التي يمر بها خلال المراحل الأولية في حياته، فنجده يكتسب معلومات جديدة ويعمق الأفكار التي اكتسبها ويعدلها بشكل أكثر فاعلية وبطريقة أكثر تعمقاً ودقة، وأخيراً نجد أنه لكي يمكننا تنظيم وتشغيل المعلومات فإننا نحتاج إلى جهاز تحكم لعمليات التشغيل Control Processes، حيث يقوم هذا الجهاز بتوجيه نظر الفرد إلى معلومات معينة تعمل كمداخل عن طريق جهاز التسجيل الحسي، ويقوم جهاز التحكم أحياناً بربط معلومات تم اكتسابها وتخزينها في جهاز الذاكرة قصيرة المدى بمعلومات موجودة ومخزنة في جهاز الذاكرة طويلة المدى، فنجد أن الفرد عندما يعلم بحقيقة معينة أو خبر جديد فإنه يربط بين ذلك وتجربة سابقة كانت مخزنة في جهاز الذاكرة طويلة المدى.

وبناء على هذه النظرية فإن التغييرات في قاعدة المعلومات تحدث بشكل متدرج وتراكمي، فالفرد يتعلم حقائق خاصة بمهنة معينة أو تخصص معين عن طريق جمع معلومات عن هذا الحقل الجديد بشكل متدرج يبدأ من المعلومات البسيطة العامة وينتهي إلى المعلومات الأكثر تقدماً وتعقيداً. وعن طريق تراكم المعلومات والخبرة يستطيع الفرد أن يصبح خبيراً في مجال معين بعد أن تتولد لديه القدرة على تنظيم وتشغيل وترتيب المعلومات والربط بينها بصورة منتظمة ومرتبة.

شكل رقم 6

نمــوذج تنظيم المعلومات في التفكير الإنساني



ج - التركيب الثقــافي والنمــو الإدراكــي/المعرفي

Cultural Context & Cognitive Development

يــرى "فيجوتسكي" أن النمو الإدراكي هو بناء محدد وأنه لكي نفهم هذا الــنمو وتــأثيره عــلى السلوك فإن علينا أن ندرك كافة أبعاده والعمليات الثقافية والاجتماعية والتاريخية المتعلقة بحياة الفرد اليومية (Vygotsky, 1978)، لذلك فإن الأفراد الذين يعيشون في بيئة أو ثقافة متغيرة تختلف أساليبهم في التفكير وطرق حل المشــكلات. وتختلف هذه الرؤية عن مفهوم "بياجيه" الذي يرى أن النمو العقلي للإنســان لــه صفة العالمية، بمعنى أن تفكير الإنسان وأساليبه تتشابه بين مجموعات الأفراد أينما وجدوا في العالم وأن الجوانب المعرفية عند الأفراد تنمو خلال مراحل عقلية متشابهة بغض النظر عن انتماءاتهم البيئية أو الثقافية، ويدل على ذلك ملاحظة "بياجيه" للأطفال الذين يعيشون في بيئة صناعية ومدى التشابه بين خصائص النمو العقلي لديهم. ولقد لاحظ "فيجوتسكي" الاختلاف بين الأطفال من ناحية نموهم

العقلي ومدى تأثير البيئة والثقافة على درجات هذا النمو، فيرى أن الأطفال الذي ينمون في بيئة لا تعطى لهم فرص الالتحاق بالتعليم الأساسي قد يمضون فترة أطول حتى يصلوا إلى مرحلة "العمليات المادية" Concrete Operational Stage وبالتالي يصعب عليهم الوصول إلى مرحلة "العمليات المجردة" Formal Operational Stage.

ولقد لاحظ "كول" (Cole, 1990) أن قدرة الأطفال على إنهاء مهام عقلية معينة تختلف من بيئة إلى بيئة ومن ثقافة إلى ثقافة، فعلى سبيل المثال فإن تصنيف الأطفال لأشياء معينة ووضعها في مجموعات يختلف من مجتمع لآخر، فالطفل الذي يعيش في المجتمعات الغربية يميل إلى تصنيف الأشياء في مجموعات نوعية (بمعنى أنه يضع الحيوانات في مجموعة واحدة ويضع أصناف الأطعمة في مجموعة أخرى، ثم يضع أدوات العمل مثل المفكات والمفاتيح في مجموعة منفصلة)، أما الأطفال من ثقافات أخرى فيقومون بتصنيف المواد وفقاً لوظائفها واستخداماتها.

ثانياً: تفسير السلوك وفقاً لنظريات المستوى الأوسط Mezzo Level

تعنى هذه المجموعة من النظريات بتفهم كيفية نمو السلوك وتطوره من خلال التفاعلات التي تحدث بين الفرد والأنساق المحيطة به بشكل مباشر ومستمر، ومن النظريات التي تعنى بتفسير السلوك في إطار مجموعة العلاقات والتفاعلات الإنسانية التي تحدث بين الفرد والجماعات التي ينتمي إليها يمكننا اختيار كل من نظرية التبادل الاجتماعي ونظرية التفاعل الرمزي:

1- نظرية التبادل الاجتماعي Social Exchange Theory

تقوم نظرية التبادل الاجتماعي على مسلمة أساسية تقول أن العلاقات الإنسانية تتم من خلال سلوكيات تبادل المنفعة حيث إن الفرد يسعى بشكل شعوري إلى تحقيق غايات معينة، ولكن تحقيق هذه الغايات يتم في إطار تبادل المصالح بين الفرد والأفراد الآخرين فيتم الاستفادة عن طريق تبادل المنفعة. وارتباطاً بهذا المفهوم نجد فكرة الحاجة حيث أن الإنسان في خلال سعيه لإشباع احتياجاته فإنه يعمل على تنمية وتدعيم مجموعة من العلاقات مع الآخرين، هذا العلاقات

يجب أن تتسم بالاتزان والثبات والاستمرارية، ومن هنا كان تبادل المصالح والارتباطات هو الإطار التي يدور حوله ومن خلاله كافة نماذج السلوك الإنساني.
ويرى أصحاب نظرية التبادل الاجتماعي (Homans, 1958; Johnson, 1977) أن الأشياء على اختلاف أنواعها ومقاديرها لها قيمة، هذه القيمة قد تكون مادية مثل البيت والسيارة والملابس وقد تكون على شكل خدمات يتم تبادلها بين الأفراد، وقد تكون الأشياء على هيئة دعم وتأييد نفسي وعاطفي بتبادله الأفراد فيما بينهم. ولكن عملية التبادل لا تأخذ المعنى المادي الدقيق فلا يمكن تقييمها على أساس مادي في معظم الأحيان، حيث أن زيارة المريض والعمل على رفع معنوياته أو مواساة الزوجة التي فقدت زوجها لا يمكن أن يتم تقديره بقيمة مادية ولكن يكون له قيمة معنوية تؤثر في الأفراد وتخفف من آلامهم أو تشجعهم على اكتساب الثقة وتحقيق أهدافهم. وهناك بعض الفروض التي تقدمها نظرية التبادل الاجتماعي لتفسير السلوك الإنساني والأسس التي يقوم عليها عملية تبادل المنافع وإشباع الاحتياجات:

1 - أنه يمكن تفهم سلوكيات البشر كنوع من العمل على إشباع الاحتياجات عن طريق تبادل الأشياء بين الأفراد حيث إن هذه الأشياء لها قيمة معينة تتضمن القيمة المادية أو الخدمية وتحقيق المصالح أو القيمة المعنوية.

2 - أنه في إطار تبادل الأشياء بين الأفراد تبدأ العلاقة الإنسانية والتي تخلق نوعاً من الالتزام بين الأفراد في تحقيق مهمات متبادلة، فالشخص الذي يقدم الخدمة يتوقع أن يتسلم شيء آخر في المقابل قد يكون هذا الشيء مادي أو خدمة مقابلة أو حتى تأييد أو تشجيع معنوي.

3 - أن عملية التبادل للأشياء تعني أن هذه الأشياء لها قيمة متساوية يقدرها الأفراد ويتفقوا عليها ويتقبلوها، ومن هنا يخلق التوازن في عملية التبادل.

4 - أن عملية التبادل للأشياء تعني التوائم ما بين التكلفة Cost والمكافأة Reward بحيث إن الفرد قد يستمر في عملية التبادل للأشياء طالما أن تكلفتها تتساوى مع نتائجها أو العائد الذي ينتج عنها.

5 – وبشكل أساسي فإن هذه النظرية تفترض أن الفرد في سعيه لإشباع احتياجاته المختلفة يحاول أن يزيد من درجة الفائدة ويقلل من الجهد والتكلفة التي تتطلبها، وبذلـــك فإن الفرد ينشغل في حسابات عقلية مستمرة لمدى الفائدة التي ستعود علـــيه من شيء معين، وإن كان يتساوى الجهد أو الثمن المبذول مع الفائدة التي ستعود عليه من هذا الشيء.

ويســـتخدم الفـــرد كما يقول أصحاب هذه النظرية هذه الفروض في تقييم تفاعلاته وعلاقاته بالجماعات الإنسانية التي يرتبط بها سواء كانت هذه الارتباطات تـــتعلق بعلاقـــات طبيعية مثل علاقة الفرد بالأسرة أو كانت علاقات مع جماعات مكونة مثل جماعة الأصدقاء أو الجيران أو زملاء العمل. فنرى على سبيل المثال أن الفـــرد يسعى إلى تكوين أسرة لإشباع مجموعة من الاحتياجات الإنسانية، ولكن عملية تكوين أسرة قد تتطلب أموالاً كثيرة لإعداد مسكن الزوجية ونفقات الزواج ومـــن بعد ذلك تأتي مسؤوليات الإنفاق على الأسرة ورعاية الأبناء، ولكن الفرد يـــرى أن العـــائد مـــن ذلـــك والذي يكون في معظم الأحيان ذو شكل عاطفي واجتماعي يساوي التكلفة الكبيرة لعملية إنشاء الأسرة ورعايتها.

ويـــأخذ بعض الباحثين على هذه النظرية الصياغة المادية والاقتصادية لعملية تـــبادل المـــنافع والموازنـــة الصرفة ما بين التكلفة والمكافأة (العائد)، إلا أن أنصار هومانس يؤكدون أن سلوك الإنسان وسعيه تجاه إشباع احتياجاته يخضع في معظم الأحيان لعملية تحقيق التوازن ما بين التكلفة والفائدة. ولكن الفائدة قد تظهر على أنهـــا مادية ولكن في حقيقة الأمر فإنها تأخذ أشكالاً عديدة، ومن هنا تأتي تساهم رؤية المجتمع وثقافته في وضع القيمة التي ترتبط بجهود الفرد والمنافع التي تنتج عنها. بينما نجد أن بعض المجتمعات تضع قيمة كبيرة على تعليم الأبناء، ومن ثم فإن جهود الأســـرة في توفير التعليم لأبنائها يتم النظر إليها على أنها هامة وفعالة وتستحق كل هذا الجهد والمعاناة، ولذلك يقدر أفراد المجتمع أسرة ما لأن جميع أبنائها موفقين في دراستهم ويحصلون على وظائف هامة في المجتمع.

2- نظرية التفاعل الرمزي Symbolic Interaction Theory:

ترتكز هذه النظرية على بعض المفاهيم المنبثقة من النظرية السلوكية الاجتماعية حيث قام (Mead, 1934) في كتابه التاريخي بوضع الأساس لتحليل السلوك الإنساني. وبشكل مبسط يرى أصحاب هذه النظرية (Cooley, 1956) أن الفرد يحصل عن طريق عمليات الاتصال التي تحدث بينه وبين الجماعات المحيطة به على صفاته الذاتية والخاصة، ويتشكل السلوك من خلال التفاعل المستمر مع الجماعات الأولية Primar Groups مثل الأسرة والجماعات الأخرى خلال مشوار حياته. وتعتمد هذه النظرية على بعض المفاهيم الأساسية مثل مفهوم الرمز Symbol والذي يعني أن الأفراد يتعاملون ويتصلون بعضهم البعض من خلال مجموعة من الرموز المتفق عليها وأن هذه الرموز لا تصف (الشيء) الكيان نفسه ولكنها تصف الخواص المتعلقة بالكيان، ولذلك فإن هذه الرموز تصف الأشياء المادية والنفسية والشعورية حيث ارتبط سلوك الأفراد بمجموعة من الرموز التي تعكس مجموعة من المعاني والمفاهيم والتصورات التي يتم استخدامها لتحقيق عمليات الاتصال وتبادل المنافع ومن ثم إشباع الاحتياجات.

ويتم تعلم هذه الرموز والمعاني من خلال عمليات التهيئة الاجتماعية Socialization والتي تحدث للفرد على مدار حياته من خلال مجموعة من العمليات العقلية وعمليات التعلم الذاتي. فعلى سبيل المثال نجد أن جهاز الحاسوب Computer قد اصبح جزءاً أساسياً من حياتنا حتى أن الأجيال السابقة بدأت تدرك معناه وأهميته سواء توفرت لها الفرصة لاستخدامه أم لا، ولكنها بدأت في التعود على رمز الكمبيوتر كوسيلة من وسائل التهيئة الاجتماعية التي حدثت لمجموعة من الأفراد خلال المراحل المتأخرة من العمر.

وتقدم نظرية التفاعل الرمزي مجموعة من الفروض التي تساعد على تفسير السلوك الإنساني:

1 - يتمتع الإنسان دون بقية المخلوقات بقدرات عقلية ونفسية وسلوكية متميزة ومتفردة تجعله قادر على التخاطب والتفاعل والملاحظة بدرجات متطورة تؤكد قدرته على التواصل والتخاطب والتعبير والتفاهم والانتماء الفعال مع بقية أفراد

البشـــر، الأمـــر الذي يؤدي إلى نمو مجموعة من السلوكيات الهادفة إلى إشباع الاحتياجات الذاتية وتفجير قدرات الإبداع والابتكار والاختراع.

2 - إن الإنســـان يسعى خلال مشوار حياته إلى تطوير ذاته وتأكيد هويته في إطار من الاعتراف والتدعيم المجتمعي.

3 - إن قـــدرة الإنســـان عـــلى التفكير والتخاطب تستند على استعداده الطبيعي للتعـــلم، والاحتفاظ بالمعلومات واستخدامها بطريقة مركبة تقوم على التحليل والاســـتنباط، وتـــتم هذه العمليات من خلال تهيئة الفرد لتعلم الرموز والمعاني المرتـــبطة بها. ولذلك فإن تنظيم الرموز والمعاني بطريقة بنائية ومتقدمة يؤدي إلى تطـــور أساليب الاتصال بين الأفراد بعضهم وبعض وبين الفرد والمجموعات التي ينتمي لها.

4 - إن العلاقـــة ما بين الملاحظة والتفكير والإحساس والتعبير هي علاقة ديناميكية تحـــدث على شكل دائري ومتبادل، لذلك فإن السلوك الإنساني يعتبر كعمليات اجتماعية تبدأ عندما يقوم الفرد (الذات) بنشاط أو تعبير معين، ولكن من خلال الوعي بالذات والآخرون يقوم هذا الفرد بالتحكم والتعديل في هذا السلوك حتى يستطيع تنفيذه بشكل متكامل وفعال، وهذا يعني أن النشاط الذي يقوم به الفرد (السلوك) يتم تعديله وتغيره وتنقيحه بشكل مستمر، ويتم أيضاً من خلال متابعة الفرد لردود أفعال الآخرون الذين يلاحظون هذا السلوك ويستجيبون له، حيث إن ملاحظـــاتهم وتفســـيراتهم وانتقاداتهم أو استحسانهم لهذا السلوك والذي قد يـــؤدي إلى تغـــييره أو تأكيده أو حتى إلغاؤه لتجنب ردود الأفعال السلبية التي تتمثل في الإدانة أو الاستهجان.

5 - إن القـــاعدة الـــتي يســـتند عليها السلوك الإنساني تنبع من قدرة الفرد على استخدام التفكير الرمزي والقدرة على تخيل المواقف والأحداث المستقبلية والتي تؤثـــر بشكل كبير على قيام الأفراد بممارسة سلوكيات معينة من أجل الوصول إلى هـــذه الأحـــداث المستقبلية، فنجد على سبيل المثال أن الطالب الذي يبدأ دراســـته في كلـــية الحقـــوق قد يخلق صورة مستقبليـــة له وهو يمارس القانون كمحـــامٍ أو كقاضٍ وتساهم هذه الصورة في تشجيع الطالب على تبني مجموعة

مـــن السلوكيات التي سوف تجعله قادراً على تحقيق هذه الصورة المستقبلية عن طـــريق الاســـتذكار والدراسة والقراءة وهذه كلها سلوكيات تنبع من الشعور والدافعية لتحقيق الذات.

6 – إن سلوك الأفراد لتحقيق غايات بعيدة ينطبق على جميع الوحدات والمنظمات الاجتماعـــية، فالأســـرة تبذل كل الجهد في تربية أبناؤها ورعايتهم لأن الآباء يتخـــيلون أبنائهم في صورة نجاحهم في الدراسة والحصول على مناصب هامة في المجتمع.

ثالثاً: تفسير السلوك وفقاً لنظريات المستوى الأعم

Macro Level Theories

يتأثر السلوك الإنساني أيضاً بالظروف البيئية والمجتمعية والتجارب التي يمر بها الإنســـان عـــبر حـــياته والمفاهيم التي يرثها من الأجيال السابقة. ولذلك كان من الضـــروري أن نـــراجع مجموعة النظريات والمفاهيم التي تعمل على تفسير السلوك الإنســـاني وربطه بالأحداث والخبرات التي يعيشها خلال تفاعله مع الأنساق الأعم في المجـــتمع، ونقصـــد بهـــذه الأنساق المؤسسات والمنظمات الموجودة في المجتمع، بالإضافة إلى التشكيلات الاجتماعية مثل المجتمع الكبير والذي يتمثل في الإمارة أو المملكـــة أو الدولـــة التي ينتمي لها الفرد والتي تصدر سياسات وتشريعات وقوانين تؤثر بشكل مباشر في سلوكيات الفرد واتجاهاته وتفاعلاته اليومية. ويجب أن نشير هـــنا إلى تـــأثير الثقافة العامة التي ينتمي لها الفرد والثقافة الخاصة التي ترتبط بمنطقة معينة أو ولاية أو مجموعة قبائل أو عشائر أو قرى أو منطقة سكنية، حيث تساهم هـــذه الثقافات في تشكيل سلوك الفرد وتفاعلاته الإنسانية وكذلك رؤيته وتحليله للأحداث والمواقف التي يعيشها وتمر به بشكل يومي.

تأثير المؤسسات الرسمية على السلوك الإنساني Formal Organization:

يتعامل الفرد منذ بداية حياته مع مجموعة من المؤسسات التي تشكل أسلوب تفاعلـــه معها وبالتالي تؤثر في كيفية إشباعه لحاجاته الأساسية Kirsy- Ashman (2000)، فـــنرى على سبيل المثال أن اعتراف المجتمع بقدوم الإنسان إلى هذا العالم

يرتــبط بشهادة ميلاد تصدرها الجهات الرسمية المنوطة بتسجيل المواليد والتي تتبع نظاماً معيناً، وتتدخل المنظمات الرسمية في كافة تعاملات الإنسان مثل التسجيل في المــدارس وإصــدار رخصة لقيادة السيارات والتقدم للحصول على وظيفة أو حتى قــرض مــن البــنك. ولان المؤسسات الرسمية قد نشأت في المجتمع لتنظيم عملية استفادة الأفراد من الخدمات المتاحة وتقديم الخدمات التي يحتاجها الأفراد فإن كل مؤسسة قد نشأت لتحقق غرض معين وإشباع حاجة محددة مثل الرعاية الصحية أو تعلــيم الأبــناء أو تنظيم الشوارع أو تجميع المخلفات والمحافظة على نظافة البيئة. ولذلــك نجد أن كل مؤسسة من هذه المؤسسات تنشأ بقانون ووفقاً لمعايير محددة ومــن ثم فــإن كــل منظمة تضع معايير ولوائح محددة تنظم وتحدد كيفية تقديمها للخدمات وتحقيقها للأهداف المنوطة بها والتي يكلفها المجتمع بتحقيقها.

ولــيس هناك شك في أن هذه المنظمات تساهم بحد كبير في تشكيل سلوك الأفراد وتوجههم إلى الطريقة التي يجب أن يتعاملوا بها معها والأنظمة التي يجب أن يتبعوها لتحقيق مصالحهم وحماية حقوقهم أثناء تعاملهم مع بعضهم البعض. ولذلك نجد أن هذه المنظمات تنقسم إلى:

أ - منظمات تشريعية مثل المجالس التشريعية والبرلمانية والفدرالية والتي تعنى بوضع الدســاتير والقوانــين التي توضح حقوق أفراد المجتمع وهيئاته وتبين الواجبات والمسؤوليات المرتبطة بكافة أفراد المجتمع وجماعاته ومنظماته.

ب - مــنظمات قضــائية والتي تقوم بوضع الأحكام واللوائح والعقوبات وتقوم بتطبــيق القوانــين عــن طريق الهيئات القانونية والقضائية، فتقوم بالفصل في الخلافــات وتفسير القوانين ومحاسبة المخالفين للقوانين أو الذين يسببون الضرر للآخــرين عن طريق عدم منحهم الحقوق التي تنص عليها التشريعات الموضوعة وكذلك محاسبة الذين يخفقون في تنفيذ مسؤولياتهم والتزاماتهم تجاه أفراد المجتمع وهيئاته.

جــ. منظمات تنفيذية: وتستند هذه المنظمات على الأحكام والتشريعات وتقوم بتنفــيذ المهام المنوطة بها من تنفيذ الخدمات والرعاية لأفراد المجتمع، فتستخدم

الميزانـــيات التي تخصص لها بواسطة التشريعات في تقديم برامج الرعاية والتنمية للمجتمع.

العلاقـــات الوديـــة Gemeinschaft والعلاقـــات الرسمـــية Gesellschaft في المؤسسات:

وضّح (Toennies,1963) أن العـــلاقـــات الإنسانية الموجودة في المنظمات والمجـــتمعات تنقســـم إلى نوعين أساسين: علاقات ودية Gemeinschaft يشوبها التعاطف والود بين أعضاء الجماعة الموجودة في المؤسسة والمجتمع ويتميز بقدر كبير مـــن الـــتفاهم وتـــبادل المشاعر بين الأفراد فيكون الاتصال بينهم مباشراً (وجهاً لوجـــه)، ويستطيع الفرد خلال هذا النوع من العلاقات أن يعبر عن مشاعره ويجد الفرصـــة مـــن الآخرين للاستماع له ومناقشته. وعلى الجانب الآخر نجد أن هناك نوعـــاً آخـــر من العلاقات السائدة في المؤسسة والتي تتميز بالرسمية Gesellschaft حيـــث تخضـــع جميع التفاعلات بين الأفراد للوائح والتعليمات وفي معظم الأحيان يكـــون التخاطب بين الأفراد غير مباشر، فإذا ما احتاج أحد الأفراد لشيء ما فإن علـــيه أن يقدمه بشكل رسمي مكتوب وفقاً لنمط معين Form يشتمل على أسئلة وبـــنود محـــددة يجيب عليها الفرد ويقدم أدلة رسمية وموثقة تؤكد هذه المعلومات. ونجـــد أن هـــذا الـــنوع من التفاعلات يسود المؤسسات الرسمية فلا يتم التفاعل الشخصـــي بـــين الأفـــراد لأن الخدمات تقدم وفقاً لمعايير محددة، فإذا لم تكتمل الشروط لا يحصل الفرد على الخدمة أو المصلحة التي يسعى للحصول عليها.

ويـــتأثر ســـلوك الفـــرد بطبيعة تفهمه لنوع العلاقات السائدة في المؤسسة والمجتمع، فنجد على سبيل المثال أنه إذا ما كانت العلاقات الموجودة في مكان معين مثل غدارة الشئون الاجتماعية هي علاقات رسمية فإن الفرد الذي يسعى للحصول على خدمة معينة قد يواجه صعوبات كبيرة إذا ما مارس سلوكيات تعكس الجانب الـــودي فيطلب الخدمة لاحتياجه لها دون أن يقدم الأدلة والبراهين المطلوبة. وعلى الجانب الآخر إذا ما تعامل الفرد مع جيرانه بشكل رسمي وغير ودي فإنه قد يواجه بعض الصعوبات في خلق علاقات اجتماعية معهم.

النظرية البيئية للنمو Contextual Behavioral Theories:

يركز المفهوم البيئي على العمليات التبادلية والمنظمة والمتفاعلة بين الفرد والبيئة المادية والاجتماعية التي يعيش فيها، فنجد أن نظرية البيئة "لبرونفنبرنر" (Bronfenbrenner, 1979)، Ecological System Theory تفترض أن سلوك الفرد يتأثر بمستويات بيئية متفاعلة ومتداخلة:

1 - المستوى الأصغر Micro System ويتعلق بالتعامل المباشر بين الفرد والموقف المادي والاجتماعي والتي تؤثر بالضرورة على الفرد نفسه.

2 - المستوى المتوسط Mezzo System ويعني العلاقة والارتباط بين الفرد والمستويات الصغرى المتعلق بها مثل أفراد آخرين أو الأسرة.

3 - المستوى العرض Exo System ويتعلق بتعامل الفرد مع مجموعة العمل أو مجلس الحي أو مجلس إدارة المدرسة.

4 - ويتعلق المستوى الأعلى Macro System بالقيم والمبادئ والثقافة والسياسات الموجودة في المجتمع التي تعطي الإطار العام الذي ينظم حياة البشر بحيث يؤثر هذا الإطار بطريقة مباشرة وغير مباشرة في حياة الأفراد على شكل أنظمة وسياسات معينة مثل سياسة التأمين الصحي وسياسة التعليم وسياسة البيئة وما إلى ذلك. وتأكيداً لدور الثقافة والبيئة في النمو العقلي والإدراكي فإن "فيجوتسكي" يرى أن الوصول إلى أعلى مستوى من الإدراك العقلي المعرفي يتطلب وجود علاقات مفتوحة بين الآباء والأبناء والأفراد الآخرين الذين لهم تأثير كبير على حياة الطفل مثل رجل الدين والمدرب الرياضي والأخصائي الاجتماعي ومشرف جماعة الكشافة. فعن طريق هذه التفاعلات يقوم الطفل بدمج أساليب التفكير المتنوعة التي يتعرف عليها ويكتسبها لتصبح جزءاً أساسياً من وسائل التفكير وأساليب حل المشكلة التي يستخدمها. وقد تحدث هذه التغيرات العقلية والإدراكية من خلال اكتشاف الطفل واستطلاعاته لكافة الخبرات الموجودة في البيئة.

نظريات تفسير السلوك للبالغين Adulthood Behavioral Theories

هـــناك نظريتين أو نموذجين أساسيين مرتبطين بتطور السلوك الإنساني عند البالغين هما: النموذج المعياري للأزمة ونموذج توقيت الأحداث.

أ – نموذج النمـــو مـــن خـــلال الأزمـــة

Normative - Crisis Model of Development

يفـــترض هذا النموذج أن السلوك الإنساني ينشأ ويتطور من خلال مراحل متمـــيزة يتبعها كل الأفراد في شكل متسلسل ومتعاقب، وتتميز كل مرحلة بأنماط محددة تزداد في التعقيد والتعمق لتتضمن الإنجازات التي حدثت في المراحل السابقة، ويوضح هذا النموذج أن السلوك الإنساني يتأثر بمجموعة التجارب والأحداث التي يعيشـــها الفـــرد ويتأثر بها خلال حياته، ونجد أن "أريكسون" قد وضح في نظيرته أنواع الصراعات التي يمر بها الفرد خلال حياته وترتبط بشكل مباشر بمرحلة النمو الـــتي يمر بها، حيث يمكننا أن نصف هذا النوع من الصراع بالمعياري Normative لأنه يفترض أن جميع الأفراد سوف يتعرضون له خلال حياتهم.

ولكـــن "فيـــلانت" (Vaillant, & Vaillant ,1990) يعرض نوعاً آخر من الصـــراع يسمى بالغير معياري Non-normative والذي قد يتعـــرض لـــه بعض الأفراد دون الآخرين، وترجع أهمية هذا النوع من الصراع إلى أن الفرد الذي يمر به كجـــزء مـــن تجـــارب الحياة يكتسب قدرات خاصة على التكيف والتعامل مع صـــعوبات الحـــياة الأمر الذي سيكسبه الخبرات والمهارات التي تطور من أساليب تفكـــيره ومهاراته وتطور من سلوكياته وقدراته على التفاعل والتعامل مع المواقف والأفـــراد. ويمكننا أن نسمي هذه التجارب بالتكيف الناضج والذي ينمو مع الفرد ويؤثر على قدراته واتزانه عبر مشوار حياته، وقد تزيد هذه الأنواع من الصراع من نضـــج ســـلوك الفـــرد إلا أنها أيضاً تتطلب تمتعه بقدر ملائم من الصحة العقلية والعلاقات الشعورية المتعمقة مع الآخرين. ويقوم هذا المفهوم على افتراض أساسي يوضـــح أن الفـــرد يصـــل إلى النضوج عن طريق التجارب والأزمات والأحداث الصـــعبة الـــتي يعيشـــها والـــتي يتعـــلم منها كيفية التعامل والتكيف مع المشاعر والانفعـــالات التي تنتج من هذه الأحداث بشكل صحي وإيجابي، فالشخص الذي

يفصـــل من عمله قد ينطوي على نفسه ويعيش في ضيق ورفض لهذا الموقف فيعتبر ذلـــك تكيفاً سلبياً. أما التكيف الإيجابي فهو تفكير الفرد بتجربة فصله من الوظيفة ومراجعـــته للأسباب والسلوكيات التي أدت إلى هذه النتيجة والتعامل معها بشيء مـــن العقلانية بدلاً من الانغماس في الانفعال حتى يمكنه تعديل بعض السلوكيات والاتجاهـــات التي ساهمت في الوصول إلى فقدانه لعمله ثم يبدأ في البحث عن عمل آخر.

جدول رقم (3)
نموذج فيلانت لأدوار نمو البالغين

الأطوار	مستوى السن	التوصيف
البناء الذاتي	(20-30) سنة	زيـــادة الاستقلالية عن الآباء – الزواج – الأبوة بناء علاقات صداقة حميمة.
البناء المهني	(20-40) سنة	بناء وتقوية العلاقات الزوجية – البحث عن مهنة وتطوير الخبرات والمهارات – الإخلاص في العمل – الترقي في الوظيفة.
منتصف العمر	(40-50) سنة	تقديـــز رحلـــة الحـــياة وتقيـــيم ذاتي للخبرات والـــتجارب الســـابقة – زيـــادة الوعي بالذات واستكشـــاف النفس– الإحساس بالرضاء الذاتي عن الإنجازات السابقة.
ما بعد منتصف العمر	أكبر من (50) سنة	الإقـــلال مـــن المنافسة الشديدة في الجانب المهني والمساهمة في إعداد الأجيال الجديدة ونقل الخبرة لهم. زيادة الانعكاس الذاتي والمشاركة في تشجيع الآخـــرين – مشاركة نتائج التجارب الذاتية مع الآخرين.

استخدام مفهوم ثقافة البيئة في تفسير السلوك الإنساني:

يركز مفهوم ثقافة البيئة على الظروف المتنوعة التي تحدث في البيئة وتساهم في تشكيل وتوجيه السلوك الإنساني، ولذلك فإن مفهوم الثقافة يشير إلى منظومة المعاني ونماذج السلوك التي يتعلمها الأفراد والتي يشترك مجموعات من الناس في نقلها وتوارثها من جيل إلى جيل. أما عن الثقافة المادية فتتضمن الأشياء والتقنيات والأدوات والتركيبات والآثار المادية الأخرى مثل الزخارف والنقوش وأدوات الزينة وما إلى ذلك. وعلى الجانب الآخر نجد أن الثقافة الاجتماعية تتضمن الأعراف والقيم والمذاهب والتقاليد، وتركز دراسات الثقافة المقارنة Cross-Cultural Studies على تحليل السلوكيات التي يشترك فيها مجموعات من الأفراد بدلاً من التركيز على تحليل نمو الفرد داخل مجموعة ما، لذلك فإن دراسات الثقافة المقارنة تعمل على زيادة وعينا بكيفية تشكيل الثقافة لسلوكياتنا بالإضافة إلى تفهم سلوكيات أعضاء مجموعات ثقافية أخرى من البشر.

ويشير مصطلح المحددات الثقافية للسلوك Cultural Determinism إلى تأثير العادات والتقاليد والعرف وكل مكونات الحياة الإنسانية ومدى تأثيرها على تجربة الفرد وتكوينه النفسي والاجتماعي، ولقد أشار بعض العلماء إلى أن سلوك الأطفال سواء أكانوا بنيناً أم بناتاً يتأثر بشكل كبير بمحددات ثقافية وأنماط اجتماعية معينة تتضمن بعضها أساليب تقسيم العمل بين المرأة والرجل – مستوى الأعمال والواجبات التي تقوم بها الأم – ومستوى الدعم الاجتماعي Social Support الذي تتلقاه الأم من الآخرين خلال فترة انشغالها بتربية الأبناء.

ويمكننا أن نشير إلى مصطلحين أساسيين هما الثقافة العامة والثقافة الخاصة حيث أن الإنسان يتأثر بمعطيات ثقافية ترتبط بخبرة الحياة والصراعات التي واجهها الجنس البشري منذ أن وجد والتي تم انتقالها من جيل إلى جيل خلال المخطوطات والكتب والقصص والمخلفات الثقافية الأخرى مثل التماثيل والرسوم واللغات القديمة والاختراعات وما إلى ذلك. لذلك فإن الإنسان على اختلاف البيئات التي يعيش فيها يشترك مع بقية أفراد البشر خصائص بيولوجية وعقلية وشعورية تؤثر في سلوكياته بشكل مشابه، فجميع أفراد البشرية يعيشون في جماعات ينتمون إليها

فتمنحهم الصفة والهوية، وهم أيضاً يعملون في مهن متشابهة ويتحملون صعوبات مشتركة من أجل صراعهم لإشباع احتياجاقم الإنسانية.

أما عن الثقافة الخاصة فإنها تتعلق بالتجارب المنفردة التي يعيشها أفراد مجموعات معينة من البشر والتي تتأثر بالطبيعة الجغرافية وتضاريس المنطقة التي يعيشون فيها والمناخ الغالب على هذه المنطقة، بالإضافة للتجارب الخاصة التي يعيشون فيها من أنشطة متفردة مثل الطقوس واللغة التي يتكلمون بها والأنشطة الدينية التي يمارسونها، كذلك فإن بعض المجتمعات تمر بتجارب خاصة مثل الهجرات المحلية نتيجة الكوارث الطبيعية والحروب والصراعات بين القبائل والجماعات. كل هذه الخبرات تترك آثاراً واضحة على تفكير واتجاهات ومشاعر هذه المجموعات ومن ثم تؤثر بدرجة كبيرة على سلوكياقم وأساليبهم في التفاعل مع البيئة وكيفية خلق علاقات بين أفراد الجماعات والمجتمعات. ولقد وجد العلماء أن البشر على اختلاف بيئاقم وثقافاقم وملامحهم يشتركون لحد كبير في مجموعة كبيرة من السلوكيات والأنشطة، وفي أحوال معينة نجد أن سلوك الأفراد يتأثر بعوامل متفردة مثل تأثير الثقافة الخاصة التي ترتبط بمجموعات من الأفراد والبيئات فتتشكل السلوكيات طبقاً لمعايير وأنشطة معينة.

ب – نموذج توقيت الأحداث Timing of Events Theory:

يرى هذا النموذج أهمية وقوع أحداث الحياة في توقيتات زمنية صعبة، فترتبط الأحداث وتوقيتاقا بالمراحل العمرية التي يصل لها الفرد. فنرى أن الفرد يعرف التوقيت الاجتماعي الملائم لحدوث المواقف والتغيرات مثل التخرج من الجامعة– الإقدام على الزواج – البحث عن العمل والاستقلالية عن الأسرة. أما عن الجوانب الغير نموذجية للأحداث فيتم حدوثها في أوقات غير متوقعة وغير ملائمة مع تقاليد وثقافة المجتمع. فقد نرى أن أحد الأبناء يتزوج في عمر الـ (15) سنة ويصبح أباً في عمر (16) سنة أو يبدأ دراسته الجامعية في عمر الأربعين. وبذلك فإن هذه التوقيتات التي قد لا تتلاءم مع توقعات المجتمع تعطي انعكاساً بأن بعض الخبرات والتجارب لم تحدث في زمن ملائم نسبياً نتيجة ظروف معينة مثل زواج الشخص في عمر الأربعين بعد إنهائه للدراسات العليا.

لذلــك فإن نموذج توقيت الأحداث يعطي بعض التفسير لنقطتين أساسيتين تــتعلقان بقدرات الفرد وخبرات الحياة والتغيرات التي تحدث خلال مرحلة النضج والتي تختلف عن التغيرات التي تحدث في مرحلة المراهقة:

1 - إن التغيرات التي تحدث في فترات النضج تكون غير متعلقة بالتغيرات الجسمية والإدراكــية الكبيرة والسريعة التي تحدث في مراحل الطفولة والمراهقة، ولذلك فــإن تغيرات مرحلة النضج تكون أكثر ارتباطاً بالظروف الاجتماعية والنفسية والمواقف والخبرات التي يواجهها الشخص البالغ فتكون معظمها غير متوقعة.

2 - إن الشخص البالغ يستطيع أن يساهم ويشارك ويؤثر في معدلات النمو العقلي والجسمي والاجتماعي التي يمر بها. لذلك فهو أكثر وعياً بالتجارب التي يخوضها ويعرف إلى حدّ ما تأثير هذه التجارب على درجة نموّه ونضجه. فنجد أنه يتمتع بحــرية القــرار في مستوى مشاركته في أيّة تجارب اجتماعية فيشارك في بعضها بشكل كبير (مثل قبول وظيفة في مكان بعيد عن الأسرة) ويتحفظ عن المشاركة في الــبعض الآخر (مثل انضمامه لمجموعة معينة لها أنشطة ترويحية قد تشغله عن أداء وظائفه).

العلوم الإنسانية ونظريات السلوك الإنساني:

ممّــا لا شــكّ فيه أن نظريات السلوك الإنساني تقدم حقائق ومفاهيم عن عملــيات تكويــن ونمــو الفرد ومستوى تأثير التفاعلات البيئية على هذا النمو، وتشــكل هذه الحقائق والمفاهيم جزءاً أساسياً من القاعدة العلمية التي تقوم عليها كافــة المهــن الإنسانية، فلا نعتقد مثلاً أن يقوم الأخصائي النفسي/الاجتماعي/ التأهيلي أو التربوي بالعمل مع مشكلة معينة تتعلق بنسق معين بدون أن تكون لديه معــرفة ببعض الحقائق والمفاهيم التي تساعده على تفسير السلوك الإنساني وتفهم أبعــاده وجوانبه. وتساعد هذه الحقائق على تنفيذ عملية التقدير التي تتطلب تجميع معلومات محددة ودقيقة عن خصائص ومسارات السلوك الإنساني المتعلقة بالمشكلة.

وتســاهم هــذه القاعدة العلمية من المعارف في تهيئة الأخصائي والتربوي للعمل مع العميل والتوصل إلى مجموعة من الفروض عن أسباب المشكلة ومساراتها

ومدى تغلغلها وخطورتها في الوقت الحالي والمستقبل، وبدون هذه الحقائق والمفاهيم العلمية وتفهم نظريات السلوك الإنساني فإن قدرة الأخصائي على تقدير وتحليل واستنباط بعض الفروض وتكوين خطة التدخل تصبح محدودة، فالشخص الذي يقدم النصيحة للآخرين بدون فهم لديناميكية وأبعاد المشكلة ربما يجتهد ولكنه اجتهاد يكون قائماً على الخبرة والملاحظة وليس قائماً على فروض وحقائق علمية محددة، فهل نستطيع على سبيل المثال أن نعرف كيف نتعامل مع الابن المراهق إذا ما بدأ يناقش أوامر أسرته فيقبل بعضها ويرفض البعض الآخر قبل أن نتفهم الجوانب النفسية والبيولوجية والإدراكية/المعرفية والسلوكية لمرحلة المراهقة؟

يمكننا أن نعتبر العرض السابق لنظريات تفسير السلوك الإنساني كتقديم رمزي وموجز لنظريات علمية تتطلب الدراسة الطويلة والتفهم الكامل لما تحتويه من فروض ومفاهيم وتحليلات كثيرة، ولكن هذا العرض الموجز يهدف إلى تزويد طلبة العلوم الإنسانية والمهتمين بتفهم السلوك الإنساني وأبعاده بفكرة محددة عن كيفية تفسير وتحليل السلوك من خلال الاعتماد على مفاهيم مختلفة تساهم كلها في توضيح جوانب أساسية عن النمو الإنساني. فإذا ما نظرنا إلى سلوكيات الطفل ورغبته في تجريب أشياء معينة والاعتماد على ذاته فإن النظرية النفسية الاجتماعية "لأريكسون" ترى أن هذه السلوكيات تعكس فترة الاستكشاف والرغبة في النجاح في تأدية مهام معينة. بينما ترى المدرسة السلوكية التعليمية وتعلم السلوك من خلال التأييد الإيجابي يدفع الطفل إلى ممارسة واكتساب خبرات جديدة مهمة. أما عن المدرسة الإدراكية/المعرفية فيرى بياجيه أن هذا السلوك قريب من مرحلة العمليات المادية والتي يقوم الطفل خلالها بتنمية قدراته على التوصل إلى حلول لمشكلة ما عن طريق استخدام عمليات عقلية منطقية.

ويعطي المثال السابق فكرة عن أهمية التعرف على مفاهيم هذه النظريات الأساسية واستخدامها بشكل متكامل لتفهم وتفسير السلوك. وهنا نجد أن المنهج الانتقائي Eclectic يساعد الأخصائي والمعالج على تفهم أبعاد الموقف الإشكالي اعتماداً على المفاهيم الأكثر ملائمة وتطابقاً مع نوعية السلوك وكيفية تفسيره. ونظراً لضرورة تفهم المعاني والمبادئ والنماذج التي تلائم حقيقة الموقف الإشكالي،

فـإن الأخصـائي ينـتقي بعض الحقائق والمفاهيم التي تتضمنها نظريات السلوك ويستخدم منها ما يلائم طبيعة المشكلة.

وهناك أيضاً ضرورة لتفهم المعاني والمبادئ التي تبرزها كل من نظرية النسق العـام General System Theory والمنهج البيئي Ecological Perspective، لأن طالب العلوم الإنسانية الذي يستعد لمزاولة المهنة في المستقبل القريب يجب أن يكون لديه إطار فكري يزوده بالقدرة على تقدير الموقف وتحليل مجموعة العوامل المتفاعلة والتي تؤدي بالضرورة إلى الوصول إلى فهم متكامل وواضح لأبعاد المشكلة، فنجد أن نظـرية النسـق العام تنظر إلى كل نسق ككل متكامل يتضمن أجزاء متفاعلة تعطينا بالضرورة هوية جديدة لهذه الأجزاء. فالأسرة تتكون من مجموعة من الأفراد الذيـن يعيشـون معـاً ويتفاعلون معاً بشكل يومي ومتصل، ونظرية النسق العام تساعدنا على تفهم طبيعة العلاقات وديناميكية التفاعل والمحددات والمداخلات التي يتضمنها النسق ودور العمليات التحويلية في الوصول إلى مخرجات ملائمة تتناسب مع توقعات النسق وتتمتع بقبول وتأييد النظام الأشمل (المجتمع).

أمـا النظرية البيئية فتشرح لنا كيفية حدوث التفاعلات بين النسق (كفرد-كأسـرة-كجماعـة أو كمؤسسة) والبيئة المحيطة به. لذلك فإن النسق يستخدم عملـيات التكـيف والتعديل لكي يتوصل إلى تكوين علاقة تبادلية فعالة مع البيئة المحيطة به تساعده على تحقيق أهدافه والاستمرار في أداء مهامه وإشباع احتياجاته، فالبيـئة الاجتماعـية بشـكلها المادي والمعنوي تلعب أدواراً كبيرة في خلق المناخ الاجـتماعي الـذي يعطـي للأنساق الفرصة لأن تعمل وتتعايش وتتفاعل معاً، وتتضـمن البيئة كافة المؤسسات والأجهزة والقوانين والأعراف والأنشطة الثقافية والأنظمة الوضعية التي تنظم حياة الأفراد وتثري قدراتهم على النمو والتطور. ونجد أن المهـن الإنسانية بشكل عام قد بدأت من خلال الاهتمام بواقع البيئة وظروفها والعمـل عـلى تحسينها وأنشطتها وتنمية قدراتها حتى تكون مهيأة للتبادل المعرفي والنفعي لجميع أعضائها.

ملخص الفصل: طبيعة نظريات السلوك الإنساني

للنظريات فوائد كثيرة تتضمن تنظيم وتوضيح وتفسير عمليات التفاعل الإنساني والعوامل التي تؤثر فيه وتوجهه، وتختلف النظريات العلمية من حيث توجهاتها ودرجة تركيزها على جانب معين من السلوك الإنساني، فبينما تركز نظرية ما على حالة تأثر السلوك بعملية النضج والنمو والتي تحدث كظاهرة طبيعية، نجد أخرى تبرز أهمية الخبرات الحياتية، بينما نجد أن نظرية أخرى تبرز مفهوم الاستمرارية وانتقال السلوك من جيل إلى جيل خلال عمليات التفاعل والنمذجة. وبشكل عام فإن مجموعة النظريات التي تعنى بتفسير السلوك الإنساني تتفق على أن الفرد هو شخص نشط وفعال يساهم بشكل كبير في عمليات نموه وتعلمه للسلوكيات، بينما نرى أن بعض الأفكار تؤكد أن الفرد يعتبر كمشارك سلبي في عملية التفاعل والتطور والنمو. ويوضح "أريكسون" في النظرية النفسية الاجتماعية أن حياة الإنسان وسلوكياته تتأثر بطبيعة المراحل العمرية التي يعيشها حيث أن قدرات وملكات الإنسان البيولوجية والمعرفية تؤثر في كيفية نمو السلوك وتطوره. لذلك ركز أريكسون على دراسة هذه المراحل العمرية لمعرفة طبيعة التغيرات التي تحدث فيها ومدى تأثرها بالظروف البيئية والاجتماعية الموجودة.

ولقد ركزنا في هذا الفصل على توضيح كيفية نشأة وتطور السلوك الإنساني باستخدام المفاهيم والفروض التي عرضتها النظريات العلمية، ونظراً لأن السلوك البشري هو نتاج تفاعل الإنسان مع مستويات عديدة خلال مراحل حياته فلقد تم اختيار ثلاثة أنواع من النظريات على المستوى الأصغر والأوسط والأعم وذلك لمناقشة الجوانب الشخصية والجماعية والمجتمعية وارتباطها بالسلوك الإنساني.

أسئلة تطبيقية

1- وضح أهمية وجود مراحل للنمو في حياة الإنسان وما هو مفهوم الصراع الذي يتعامل معه الفرد في كل مرحلة؟

2 - نـــاقش مفاهيم "بياجيه" في النمو الإدراكي/المعرفي ومدى تأثيرها على فهمك لطبيعة هذا النوع من النمو (استعن بأمثلة).

3 - للبيـــئة دور كـــبير في عملـــيات الـــنمو، ناقش هذه العبارة مستعيناً بمفاهيم "برونفينبرنر" للأنساق البيئية.

الفصل الثالث

نمو السلوك الإنساني في مرحلة ما قبل الميلاد

The Development of Human Behavior in Pre-Birth Stage

مقدمـــة:

ينشـــأ السلوك الإنساني للفرد ويبدأ في النمو أثناء المراحل الأولى من الحياة والـــتي تـــبدأ مع بداية تكوين الطفل وقبل ميلاده، ولذلك يتأثر سلوك الجنين أثناء بقاؤه في رحم الأم بمجموعة من المؤثرات الجينية والفسيولوجية، بالإضافة إلى تأثير ســـلوكيات الآبـــاء على الجنين. وبشكل مباشر فلقد أثبتت الأبحاث أن الظروف البيئية تؤثر بشكل مباشر في تكوين الجنين بما يتضمنه من جوانب جسمية وانفعالية مزاجية ونفسية. وسوف يتعرض هذا الفصل لبعض هذه الجوانب بالتفصيل فيناقش العوامل الوراثية والبيئية والثقافية التي تؤثر على المراحل الأولى من التخليق (مرحلة الحمـــل). كمـــا يناقش الظروف البيئية والاجتماعية وتأثيرها على البناء الأساسي لجســـم الطفـــل خلال فترة التخليق وما قد يسببه من تأثيرات مختلفة على الفرد في حياته المستقبلية.

الأهداف العملية Objectives:

يهدف هذا الفصل إلى تعريف الدارس/ الدارسة بـــ:

- أهمية الجوانب الوراثية والجينات في تكوين الجنين.
- تأثير البيئة والثقافة وسلوكيات الآباء على تكوين الجنين.
- تفاعل الأسرة مع ظاهرة الإنجاب.
- تفاعل الأسرة مع البيئة وتأثيره على بيئة الجنين.

التطور البيولوجي للجنين وتأثره بخصائص الآباء البيولوجية

أولاً – الجينات كأساس للشخصية الفردية Genetic Source:

توضح دراسة الجينات (الصبغيات) أن أسباب الفروق الشخصية ترجع إلى تـــأثير العوامل البيئية والتجارب الحياتية في مستويات النمو. وبشكل أساسي فإن الفـــروق الشخصية ترتبط بشكل كبير بمفهوم الوراثة حيث إن كل زوجين لديهما الفرصـــة في إنجاب أطفال يتميزون بسمات مختلفة من ناحية الجينات، وهناك أربعة عوامل تتعلق بالمحددات الجينية وهي:

1 – معدّلات النموّ.

2 – السمات الشخصية.

3 – النموّ غير الطبيعي.

4 – النموّ الاجتماعي النفسي.

1- دور الجينات في معدّلات النموّ:

تـــتدخل الجيـــنات (الصبغيات) في تنظيم معدّلات وتسلسل عمليات النمو والنضـــج، وتلعـــب العوامل الجينية دوراً كبيراً في النمو السلوكي وما يتضمنه من مستويات مختلفة من التفكير المنطقي واللغة والاتجاهات الاجتماعية، لذلك نجد أن الأفـــراد يختلفون في مدى تحقيقهم لمستويات ودرجات التميز في المهارات الحركية والقـــدرات الإدراكية/المعرفية وتوقيتات النضج الجسمي. وتتأثر كلّ هذه الأنشطة التنموية بشكل مباشر بالجينات. فعلى سبيل المثال فإن مجموعة صغيرة من الجينات تؤثـــر في الكـــمّ الـــذي يمكن لخلية ما بواسطته أن تنقسم أو تتضاعف، ونجد أن الاخـــتلافات التصـــنيفية بين الأفراد من حيث الطول ولون البشرة ودرجة الذكاء تـــتعلق إلى حـــدّ مـــا بالعوامل الجينية التي تنظم وتحدّد استعداد بعض أنواع النموّ ودرجـــة مقاومتها وتأثرها بأنواع الضغوط البيئية المختلفة، لذلك فإن الجهل بعلوم الجيـــنات ومفاهيمهما قد ينتج عنه شعور الآباء بالإحباط عندما يرون أن ابناً لهم متأخر في النموّ أو في شعورهم بالسعادة لأن أحد أبنائهم ينمو بمعدل طبيعي.

ولقد تطورت حديثاً الأبحاث في مجال الجينات وذلك نتيجة لتقدم الدراسات في مجـــال المـــادة الوراثية (الحمض النووي) DNA فاستطاع العلماء التعرف على

الخريطة الجينية لجسم الإنسان والذي يفيد كما يعتقد العلماء في توقع حدوث أي خلـــل في بعـــض الأنسجة في المستقبل، ومن ثم يمكن استخدام العلاج الجيني لمنع حدوث هذه التطورات. وكمثال لهذا النوع من الدراسات وجدت أحد الدراسات أن فحـــص الخريطة الجينية للطفل يمكن أن يعطي أدلة عن احتمالية الإصابة بمرض الزهايمـــر Alzheimer والذي يصيب بعض الأفراد عند بلوغهم سن الشيخوخة، ولذلك فإن استخدام بعض العلاجات قد يساعد على تقليل احتمالية الإصابة بهذا المرض.

2- تأثير الجينات على السمات الشخصية:

يقول "نيومان ونيومان" Newman & Newman, (2002) إن الجينات تحمل معلومـــات محددة عن كم كبير من الصفات والخصائص الإنسانية مثل لون العين ومســـتوى الذكاء، الذي يتحكم في درجاته ومستوياته أعداد متداخلة ومركبة من الجيـــنات، عـــلى أن معظـــم هذه الصفات مثل الطول والوزن وفصيلة الدم ولون البشـــرة يـــتمّ تنظـــيمها بواسطة أنواع محددة من الجينات. بالإضافة إلى ذلك فإن عوامـــل الجينات تلعب دوراً كبيراً في الفروق في سمات الشخصية، حيث إن بعض الســـمات الشخصية مثل درجة المخالطة الاجتماعية Sociability ومستوى كبح الآخـــرين Inhibition والعصـــابية Neuroticism تتأثر بشكل أساسي بالمكونات الجينية.

3- تأثير الجينات على النموّ (العيوب الخلقية) Abnormal Development:

تؤثـــر الجيـــنات بشكل كبير على النموّ غير السوي للجنين، على أن أكثر المشكلات تحدث عند حدوث إجهاض للجنين قبل أن يكتمل نموّه. ونجد أن معظم التشـــوهات والعـــيوب الخلقية تحدث نتيجة الخلل في الكروموسومات الموجودة بالخلايا وكذلك نتيجة للتفاعل بين مستوى قابلية الآباء للاضطرابات الجينية وبعض أنواع التلوث البيئي، وعلى الرغم من أن بعض التشوهات أو العيوب الخلقية ليس لها علاج طبي أو أن الشخص المولود بها ربما يتمكن من التكيف معها، إلاّ أنها تؤثر وبالضرورة على إحساس الفرد بذاته وشخصيته.

وهـناك مجموعـة مـن الأبحـاث المتخصصـة في خلـل الكروموسوم Chromosome Disorders الذي يحدث خلال فترة محددة من الحمل. والمعروف أن المعلومات الوراثية يتمّ تحويلها من الآباء إلى الجنين عن طريق آلاف من الجينات الزوجية والتي تقع في (22) زوج من الكروموسوم وهو الرقم الطبيعي في البشر، أما زوج الكروموسـوم رقم (23) فيتكون من XX للإناث الطبيعيين و XY للذكور الطبيعـيين، ويحدث الخطأ في الكروموسوم أثناء تكوين خلايا التناسل ويعد خلل الـداون سيندروم Down Syndrome (الطفل المنغولي) مثالاً لخلل الجينات الذي يـتأثر به مولود واحد بين كل من (650) إلـى (1000) طـفل اعتماداً على الـتكـوين العُمـري في العيـنـة (Stratford,1994). ولقـد حدد العلماء الكروموسـوم رقم (21) كمصدر لهذا الخلل، ويحمل الأطفال المولودين بهذا الخلل خصائص خلقية في الوجه تجعلهم يشبهون بعضهم أكثر ممّا يشبهون أفراد عائلاتهم، ويعاني هؤلاء الأطفال من التخلف العقلي Mental Retardation وغالباً ما يعانون مـن بعـض العيوب الخلقية في القلب والعيون والأذن، إلاّ أن الخدمات الصحية المـتقدمة قد ساهمت في إطالة معدل الفترة التي يعيشونها إلى سن المحسرين. ويؤدي خلل الكروموسوم في بعض الحالات للإجهاض المبكر أو تعرض الجنين للتشوهات الخلقيـة وقد يتعرض المولود الجديد للموت بعد ميلاده بوقت قصير (Germain, 1991).

ثانياً – تأثير الوراثة على السلوك:

ترتـبط تأثيرات الجينات على السلوك حسب نوع الطراز العرقي الذي يمثل الخصـائص الوراثية للآباء والتي تتسم بدرجة معينة من احتمالية التأثر بالظروف البيئـية، فـنجد أنه خلال عملية التخليق يكون الآباء معرضين إلى أنواع التلوث والسـموم الموجودة في البيئة، فإذا ما زادت نسب التعرض إلى مستوى معين فإن نوعـية الجينات في جسم الجنين تتعرض وتتأثر بهذه الأخطار. ولقد أثبتت الأبحاث تأثـر السلوك المزاجي لحديثي الولادة نتيجة تعاطي الأم للمخدرات أو الكحوليات في أثـناء فترة الحمل، وهناك تأثيرات أخرى مثل اضطراب نقص الانتباه والنشاط الزائدAttention Deficit Hyperative Disorder والذي يظهر عند بعض الأطفال على شكل حركة زائدة ونقص في التركيز والانتباه Spane of Attentions .

ويمكــن في أثناء المرحلة الأولية من المدرسة اكتشاف الأطفال المصابين بهذا الخلــل. فعن طريق الملاحظة نجد أن هؤلاء الأطفال يتحركون كثيراً داخل الفصل ويتحدثون بدون إذن ولا يستطيعون التركيز في موضوع أو درس معين لفترة تزيد عــن دقــائق معــدودة، لذلك فإنهم يتلقون كثيراً من التأنيب والعقاب من بعض المدرســين الذيــن لا يعلمون أن حركة الأطفال الكثيرة وكلامهم بدون إذن هو نتيجة خلل في كيمياء الدماغ والتي ترتبط أيضا بتركيبة الجينات في الجسم. إلا أن الأطفال المصابين بهذا الخلل يتم الآن تشخيصهم وتقديم العلاج لهم وتخفيف حدة أعــراض هــذا الاضــطراب، وتشير الأبحاث أن أعراض اضطراب نقص الانتباه والنشاط الزائد تبدأ في الانحسار مع نمو الطفل ودخوله إلى مرحلة المراهقة.

ثالثاً – مراحل الحمل وتكوين الجنين:

تصــل فترة الحمل إلى 40 أسبوعاً من موعد آخر دورة شهرية للأم أو 38 أســبوعاً منذ حدوث التبويض. وتنقسم هذه الفترة إلى ثلاثة أجزاء من حيث نمو الجنين وتطوره ومن حيث الأعراض والتغيرات الجسمانية والنفسية التي تمر بها المرأة الحــامل. وتــتعرض المــرأة الحــامل إلى مجموعة من التغيرات العاطفية والمزاجية والشــعورية، وبشكل عام تشعر المرأة الحامل بالسعادة والترقب والإيجابية لحدوث الحمل حيث تحس بمشاعر الأمومة والسعادة نتيجة الاهتمام الذي تتلقاه من الأهل والأصــدقاء والأقارب ومتابعتهم لهذه التجربة. وتتضمن التغييرات الجسمانية التي تحــدث نتــيجة الحمــل بعض الأعراض الغير مريحة مثل زيادة الوزن والإحساس بالغثيان والضعف.

وتســتغرق عملــية نمو الجنين وتكوين أجهزة الجسم والحواس حوالي 38 أسبوعا حيث تتشكل أجهزته وحواسه الخمسة خلال ثلاث مراحل أساسية تعرف الاولى بالجيــرمنال (Germinal Stage) والتي تتــم خلال الأسبوعين الأولين من الحمل، والمرحلة الثانية تعرف بالأمبيرونيك (Embryonic Stage) والتي تبدأ من الأسبوع الثالث حتى الأسبوع الثامن، والمرحلة الثالثة تسمى الفيتال(Fetal Stage) وتبدأ من الأسبوع الثامن حتى الوضع وميلاد الجنين.

وتـــتكون خـــلال المرحلة الأولى من الحمل اللاحقة (Zygote) نتيجة التقاء البويضة وتلقيحها بالحيوانات الذكرية ثم تنفصل البرعمة المكونة للاحق إلى ثلاث طــبقات فتشكل من الطبقة العليا منها مكونات البشرة والطبقة الخارجية من الجلد والأظافـــر والأســـنان والشعر وكذلك أجهزة الإحساس وجهاز الأعصاب. ومن الطـــبقة السفلي اللاحقة يتخلق الجهاز الهضمي والكبد والبنكرياس والغدد اللعابية، وأمـــا الطـــبقة المتوســـطة والتي تتكون بعد فترة فيتخلق منها طبقة الجلد الداخلية والعضلات والهيكل العظمي والدورة الدموية ونظام التخلص من الفضلات. وبعد فـــترة قلـــيلة من بداية الحمل يتخلق الحبل السري والذي يوصل الغذاء إلى الطفل ويظهر بعد فترة الكيس التجويفي الذي سيعيش فيه الجنين حتى ميلاده. وبعد عدة أيام من عملية التلقيح تبدأ مرحلة الزرع حيث تستقر البرعمة على جدار الرحم.

وعـــند بدايـــة التلقـــيح تبدأ الدماغ والأوعية الدموية والجهاز الدوري في التكوين ويبدأ القلب في الخفقان، ويصل طول الجنين بعد أربعة أسابيع إلى عن 10 سنتمترات ويبدأ العمود الفقري واليدين والأرجل في التكوين، وفي هذه الفترة نجد أن صورة مبسطة من الجهاز الهضمي وجهاز الأعصاب والمخ قد بدأت في الظهور، أما في الأسبوع الخامس فإن الرئتين تبدآن في الظهور بشكل مبسط، وبالإضافة إلى ذلـــك فـــإن الدماغ يبدأ في النموّ ويصبح المخ على وشك الانتهاء وتصل الأيدي والأرجل والأقدام إلى شكل متطور من النموّ، أما عن ملامح الوجه والأصابع فإنها تبدأ في التحديد مع الأسبوع الثامن.

في أثناء المرحلة الثانية من الحمل فإن المشيمة Placenta التي تربط بين الجنين والأم وتقـــوم بتوصيل الغذاء والأوكسجين تكون جاهزة للعمل، أما الحبل السرّي والـــذي يـــتكون مـــن ثـــلاث أوردة رئيسة تعمل على توصيل الطعام وإخراج الفضـــلات، فإنه يبدأ في العمل على ربط الجنين بظروف الحياة، ويبقى الجنين في هـــذا الكيس محاطاً بسوائل تحميه من الجفاف وتوفر له كل أشكال العناية والحماية حتى نهاية فترة الحمل.

أما في المرحلة الأخيرة من الحمل فيتم حدوث النمو التشكيلي لأجزاء الجسم الدقيقة لتصبح أقرب لشكل الإنسان فنرى أن الأجزاء الداخلية للعين تبدأ في النمو حـــتى يتم اكتمالها في الأسبوع السادس والعشرين فيفتح الجنين عينيه وكأنه يرى،

وفي هــذه المرحلة أيضاً ينتهي نمو الهيكل العظمي فيستطيع الجنين أن يحرك اليدين والــرجلين، ومع بدايات الأسبوع الثاني عشر يستطيع الجنين تحريك أجزاء جسمه عــلى هيــئة حركات انعكاسية لاإرادية، ويصل طول الجنين في الأسبوع السادس عشر إلى (4 1/2 بوصات) وتنمو مراكز الإحساس لدية وتبدو في التوافق الحركي العصــبي بحيث أنه إذا ما لمس باطن كفه فإنه يضم أصابعه في حركة سريعة وكأنه يقــبض عــلى شيء، وإذا ما لمست أصابع قدمه فيقوم بفتح أصابع القدم فتراهم يــتعدون عن بعضهم، وإذا ما لمست إحدى شفاه الجنين فإنه يحرك فمه في صورة معينة وكأنه يمص شيئاً (فتبارك الله أحسن الخالقين).

يصــل الجنين في الشهر السابع إلى عمر الـــ (Age of Viability) والذي يعــني قدرة الجنين على الحياة بشكل طبيعي إذا ما تم ميلاده في هذا الوقت حيث يــبلغ وزنـــه من (5) إلى (7) أرطال (حوالي من 2 إلى 3 كيلو). ويمكن ملاحظة مجموعــة مـــن الســـلوكيات الطبيعية للجنين مثل البكاء والتنفس والبلع والهضم والإخـــراج والحـــركة ومص إبهامه، بالإضافة إلى ذلك فإن جسم الجنين في ذلك الوقت يكون قادراً على ضبط درجة حرارته نتيجة تكوينه لكمية من الدهون تخزن تحـــت الجلـــد. ومع بداية الشهر التاسع يصل وزن الجنين الطبيعي إلى حوالي سبعة ونصـــف أرطـــال ويصـــل طوله إلى حوالي (20) بوصة، عند ذلك يتوقف النمو ليستأنف بعد الميلاد. وفي هذه المرحلة يستعد الجنين للميلاد فتزداد ضربات القلب وتـــزداد كفاءة الأجهزة الداخلية والحواس. وهناك بعض الأبحاث التي تؤكد قدرة الجـــنين عـــلى الإحســـاس بالعـــالم الخارجي وتأثره بالأصوات التي تـــحدث في الخـــارج (De Casper, et al., 1994).

تأثر الجنين بسلوك أفراد الأسرة:

هـــناك عوامل كثيرة تؤثر في تكوين الجنين ونموه في أثناء الحمل وتتعلق هذه العوامـــل بالـــنواحي الفســـيولوجية والنفسية للأم الحامل بالإضافة للعوامل البيئية المحيطة. فعلى سبيل المثال يرى "ماكفارلان" (Macfarlane, 1977) أن تعرض الأم لفـــترات طويلة من الضغوط النفسية يزيد من حركة الجنين وتوتره وهيجه داخل الرحم وربما تستمر هذه الحالة المزاجية بعد ولادته على صورة مشكلات في تناول

الرضـــعات. ويتأثر الجنين عضوياً وعصبياً بشكل مباشر بسلوكيات الأم وتصرفاتها مثل تدخين الأم للسجائر أو المخدرات أو إدمان الخمور في أثناء فترة الحمل.

أمـــا مـــن الناحـــية الفسيولوجية فإن مراحل نمو الجنين تحدث في ترتيبات ومـــنظومات معيـــنة وبطريقة دقيقة، هذه العمليات تعرف بالقنوات التوصيلية أو Canalization والـــتي تعـــني الاستعداد الموجود لدى الجينات لتأخير أو إعاقة نمو بعض الخصائص السلوكية والبيولوجية عند الجنين وما يؤثر ذلك على ظهور نوع من الخلل أو الاضطراب عند الطفل في المستقبل (McCall, 1981).

وفي غالبـــية الأحـــوال فإن الآباء المتوقعين يتولد لديهم نوع من القلق على مســـتقبل الجـــنين واحتمالـــية تعرضـــه لأي مشكلات أو خلل في النمو، إلاّ أن الإحصائيات أظهرت أن (97.5%) من المولودين حديثاً ينمون نمواً طبيعياً ويولدون بدون عيوب خلقية، ولكن نسبة (2.5%) من المواليد تتعرض لبعض العيوب الخلقية مثل زيادة عدد أصابع اليد أو القدم إلى ستة أو ظهور علامات واضحة على الجلد. ولكن هنـــاك ما يعـــرف بعوامل الخطـــر Risk Factors التي تتضمن الخصائص البيولوجـــية لـــلأم مثل العمر والحالة الجسمانية ونسب تعرض الأم في أثناء الحمل للأمـــراض أو تعاطي المخدرات والتوترات والضغوط النفسية وأخطار البيئة بشكل عام مثل تلوث المياه والهـــواء، ويمر الجنين في أثناء تكوينه بفترات حرجة Critical Periods تحـــدث أثـــناء المراحل الانتقالية للنمو حيث تشكل هذه التغيرات فرصة كبيرة لحدوث مشكلات في النمو، وتعتبر الحالة الفسيولوجية والنفسية للأم من أهم العوامل التي تؤثر في هذه الفترات الانتقالية لنمو الجنين، فنجد أن تعرض الأم لأي صدمات أو مشكلات صحية أو ممارستها للسلوكيات الغير مسؤولة مثل التدخين وإدمان المخدرات يمثل خطورة كبيرة على الجنين، فنجد أن المصطلح Teratogen يعـــني فرصة وجود مواد أو ظروف بيئية تؤثر على نمو الجنين أو تعرضه للخطر في أثناء مراحل التكوين الأولى.

وهـــناك فترات زمنية في عمر الجنين يمكن أن يتعرض خلالها لحدوث عيوب خلقية رئيسة وفترات أخرى قد يحدث فيها عيوب خلقية ثانوية، وبشكل عام فإنه خـــلال المـــراحل الأولى من نمو الجنين تكون هناك فرصة أكبر للتعرض لمشكلات خلقية في جميع أجهزة الجسم ومراكز الأعصاب.

رابعاً – عمر الأم وصفاها الجسمانية وحالتها الصحية:

مما لا شك فيه أن هناك ظروف جسمانية تكون فيها الأم أكثر استعداداً لحمل الجنين وأقل تعرضاً لأخطار ومشكلات الحمل، وتتمثل هذه الظروف في عمر الأم ومدى استعدادها للحمل. فنجد أن حمل الأنثى في الفترة العمرية أقل من (14) سنة أو أكثر من أربعين سنة يسبب احتمالية حدوث مشكلات صحية في الحمل، فالأمهات صغار السن يكنّ عرضة لمشكلات نقص وزن الطفل عند الميلاد أو لحدوث – مشكلات في أثناء عملية الوضع – ومشكلات تتعلق بصحة الجنين واحتمالية إجهاضه أو وفاته قبل الوضع، حيث إن الحقائق العلمية تبين أن الأمهات صغار السن (أقل من 14 سنة) ما زالت أجسامهن في مراحل نمو وتكوين ولذلك فإن أجسامهن غير مستعدة لتحمل أعباء أخرى مثل تغذية الجنين في أثناء مراحل تكوينه حيث تحتاج الأم نفسها لمواد الغذاء الأساسية لتستكمل نموها، أما من الناحية الإدراكية فإننا نجد أن الأم صغيرة السن قد لا يكون لديها الخبرة والنضج لتفهم أعباء الحمل أو التعامل مع التغيرات النفسية التي تصاحبه.

ولقد وجد العلماء أن حالة الأم الصحية تؤثر على نمو الجنين وسلوكياته بشكل طبيعي وتزيد من فرص حدوث مشكلات مصاحبة للنمو، وهناك مجموعة من الأمراض يمكن أن تنقلها الأم المصابة إلى الجنين فيصبح أكثر تعرضاً للخطر. فعلى سبيل المثال وجد أن الأم المصابة بأمراض جنسية مثل السيفلس تنقل العدوى للجنين فيصبح (25%) منهم معرضاً للموت أثناء مراحل التكوين الأولى و (25%) من الباقين سوف يعانون من أعراض ومشكلات أخرى مثل الالتهاب الرئوي والأنيميا وأمراض الجلد. كذلك فإن ظهور مرض الإيدز AIDS وإصابة الأم الحامل به يشكل خطراً حقيقياً على الجنين (Seifert, Hoffnung, & Hoffnung, 1997) فنجد أن ثلاثة أرباع الأطفال المصابين بمرض الإيدز يصابون به في أثناء فترات النمو عن طريق الأم المصابة، ولقد دلت الأبحاث على أن إصابة الأم الحامل بالإيدز عن طريق استخدام المخدرات بواسطة الحقن الذاتي أو انتقال فيروس الإيدز لها عن طريق المعاشرة الجنسية يؤثر بدرجة كبيرة على صحة الجنين وينقل له العدوى مباشرة، ولقد وجدت الدراسات أن بعض المولودين حديثاً والمصابين بفيروس الإيدز تظهر عليهم أعراض المرض خلال السنة الأولى من

المـيلاد، ويواجه الأطفال المولودون بمرض الإيدز أخطاراً صحية كبيرة فضلاً عن الأضرار النفسية والاجتماعية مثل العزلة والوصمة المرتبطة بالمرض، فضلاً عن التيتم نتيجة وفاة الأم المصابة بالمرض.

خامساً - أخطار البيئة والظروف الأسرية على الجنين:

أظهـرت الأبحاث أنه مع تطور دور المرأة في المجتمع وخروجها للعمل فإن تجـربة الحمـل في أثناء اشتغالها ربما يعرضها لمشكلات صحية تأتي من بيئة العمل وتتضمن الآتي:

1 - أخطـار ماديـة مـثل الضوضاء والتعرض للإشعاعات الضارة والاهتزازات والأنشـطة البدنـية التي تسبب التوتر (مثل الوقوف على وضع معين لساعات طويلة، أو الحركة التكرارية لليد).

2 - أخطار بيولوجية مثل التعرض للفيروسات والفطريات والجراثيم والبكتريا.

3 - أخطار كيماوية مثل الغازات المخدرة والمبيدات والرصاص والزئبق.

4 - أخطـار الإشـعاعات بجميع أشكالها والتي قد تتضمن التعرض لأشعة X عند الفحوصات الطبية وفحوصات الأسنان.

أمـا عـن الأخطار التي تتعرض لها الحامل نتيجة الظروف الأسرية فتتضمن أنواعـاً كـثيرة مثل المشكلات والخلافات الزوجية والتي تسبب للحامل ضغوطاً نفسـية وعصـبية ممـا يؤدي أحياناً إلى إسقاط الجنين أو الإجهاض. وهناك أيضاً أخطـار متعلقة بظروف الأسرة المادية وتعرض الآباء لظروف اقتصادية قاسية مثل فقدان العمل أو الإفلاس التجاري وما يشبه ذلك.

التغذية المتوازنة الكافية:

لاشـكّ أن تجربة الحمل تتعلق بتخليق الجنين وتوفر الظروف الملائمة لنموه، وهـناك إجماع على أن صحة الأم ومستوى الغذاء المتوفر لها بأنواع كافية وملائمة يعتبر من أهم العوامل التي تساعد على نمو الجنين نمواً طبيعياً. فعلى سبيل المثال فإن الأم الـتي لا يـتاح لها الحصول على وجبات كافية وملائمة قد تتعرض لمشكلات صـحية مـثل فقر الدم Anemia، لذلك فإن وصول الغذاء للجنين عن طريق الأم

بشـــكل كـــاف وملائم يساعد على النمو الطبيعي، ولقد أكدت الأبحاث العلمية وجـــود علاقة ارتباطية بين مستوى الغذاء الذي تتناوله الأم ونوعية المشكلات التي يـــتعرض لها الجنين داخل الرحم أو بعد الولادة. ويشير لوزوف (Lozoff, 1989) إلى أن قلـــة الغـــذاء وعدم كفايته بالنسبة للأم الحامل يسبب نقصاً كبيراً في عدد خلايـــا المخ عند الجنين خاصة خلال الفترة الأخيرة من الحمل، وهناك بحث قدمه كل من براون وبوليت (Brown & Pollitt,1996) في جواتيمالا وجدا فيه أن الأم الحـــامل التي تنتمي إلى طبقة اقتصادية فقيرة ولكنها تواظب على تناول وجبة غذاء محلية من القمـــح والذرة تقلل من فرصـــة تعرض الجنين للوفاة بعد الولادة بنسبة (%69).

الرعاية الصحية قبل الوضع:

لقـــد أدى تطـــور العلوم والأبحاث الطبية إلى التقدم العلمي في رعاية الأم الحـــامل والذي يتضمن إجراء الفحوصات والكشف الطبي الدوري لها للتأكد من صـــحة الجـــنين وصحة الأم، هذه الأنواع المتقدمة من الرعاية التي تستخدم العلوم والتكنولوجـــيا الحديثة استطاعت أن توفر الرعاية للأم في أثناء فترات الحمل وتقدم لهـــا كافة الخدمات الصحية حتى تقلل من فرص تعرض الجنين للخطر في أثناء فترة الحمل، هذه الرعاية أصبحت مهمة في مجتمعات كثيرة ويتم تقديمها بشكل دوري ومنتظم نتيجة لانتشار الوعي الصحي واحتمال تعرض الجنين لمشكلات صحية ربما تـــؤدي إلى الوفاة المبكرة أو الإصابة بأي نوع من أنواع التشوهات. ولقد استطاع العـــلم الحديـــث أن يشخص مجموعة من المشكلات الصحية للجنين، وهناك الآن عملـــيات جراحـــية تجرى للجنين وهو في أحشاء الأم. وتتضمن ممارسات الرعاية الصـــحية للأم قبل الميلاد تقديم كافة المساعدات والخدمات الصحية والتعليمية حتى تزيد من قدرة الأم على تفهم ظروف وأطوار الحمل ومشكلاته.

تأثيرات الحمل على الحالة النفسية للأم:

تعتبر تجربة الحمل تجربة معقدة تتداخل فيها كافة العوامل الشخصية والبيئية ويـــتم الـــتعامل خلالها مع أنساق متعددة مثل الأسرة والمستشفى والمجتمع وقوانين وإجـــراءات الصحة والرعاية، لذلك فلقد تم بواسطة الدراسات إعطاء تجربة الحمل رقـــم (12) من بين (43) حدث إنساني يسبب التوتر، ومن بين الأعراض النفسية

رقـــم (12) من بين (43) حدث إنساني يسبب التوتر، ومن بين الأعراض النفسية المصاحبة للحمل نجد القلق والاكتئاب والخوف من التغيرات الجسمانية والأعراض الفسيولوجية المصاحبة للحمل بالإضافة للخوف والقلق على صحة الجنين وسلامته في المـــراحل المخـــتلفة للنمو، وتستمر الانفعالات المصاحبة لفترة الحمل حتى بعد مـــيلاد الطفـــل خاصة إذا ما تعرضت الأم في أثناء الولادة لبعض المشكلات أو تم وضع الطفل عن طريقة العملية القيصرية.

الكشف عن نوع الجنين

حالة هناء البوصيلي

تلقـــت الأخصـــائية الاجتماعية نادية مصطفى الشهابي مكالمة تليفونية من قسم الطـــوارئ عـــن حضـــور مريضة في حالة هلع واضطراب نفسي وهيج شديد، والتقت الأخصائية مع الطبيب الممارس الذي وضح لها أن المريضة هناء البوصيلي عمرها 28 سنة وهـــي حامل في الشهر الخامس وقد حضرت إلى المستشفى مع زوجها بعد أن دخلا في نقـــاش شديد نتج عنه إصابتها بحالة هيج عصبي وصراخ شديد أدى إلى إغمائها ومن ثم نقـــلها إلى قسم الطوارئ، تم إعطاء المريضة بعض العلاجات وبعد استيقاظها من الغيبوبة القصـــيرة بـــدأت في البكاء بشدة ورفضت أن تتحدث مع زوجها أو مع أيّ أحد، عبر الطبيـــب عن قلقه بشأن حالة الجنين إذا ما استمرت الزوجة في حالتها الانفعالية، ممّا قد يسبب الإجهاض . وفي أثناء الحديث مع الطبيب سمعت الأخصائية أصوات وصريخ قادمة مـــن صـــالة الانتظار أمام غرفة الطوارئ فتوجهت إلى مكان الصوت لتجد مجموعة من الأفـــراد في تبادل كلامي شديد وتهديد بالضرب الأمر الذي أدى إلى حضور أفراد الأمن وقـــيامهم بفـــض الـــنـــزاع، تعرفت الأخصائية على تفاصيل النـــزاع الذي جرى بين مصطفى الأعسر 32 سنة زوج المريضة هناء البوصيلي وبين اثنين من أخوتها حضرا لقسم الطوارئ بعد أن علما بحالة أختهم التي نتجت عن المواجهة بينها وبين زوجها.

تحدثت الأخصائية مع زوج المريضة الذي أخبرها أن المشادة حدثت بناءً على خلاف في الآراء وأن زوجـــته كانت غاضبة جداً ورفض مناقشة تفاصيل الخلاف، حضر إلى الغرفة علاء البوصيلي - أخو المريضة وقال: إنه يجب أن يوضح أن حالة أخته نتجت عن الأسلوب الـــذي يعاملها به زوجها وأهله والضغط الكبير الذي يسببونه لها. قال علاء: إن أخته لديها بنتان من زوجها (5) سنوات و (3) سنوات. وأن أهل زوجها يرغبون في أن تلد لهم ولداً وأن هذا هو خلاف قديم وجاري منذ خمس سنوات.

توجهـــت الأخصائية الاجتماعية إلى غرفة المريضة هناء البوصيلي والتي قد تم نقلها إلى قســـم الأعصـــاب تحـــت الملاحظة. رحبت المريضة بالأخصائية وقد بدأت تشعر بنوع من الاســـتقرار بعـــد أن تلقـــت العلاجات في قسم الطوارئ، قالت هناء البوصيلي: إنها منذ أن تزوجت وهي تعاني من ضغوط وتدخلات أسرة زوجها في حياتها وأن هذا الأمر أدى إلى سوء العلاقات بينها وبين حماتها. وبشكل محدد فإن إنجابها لابنتين جعل حماتها تصر على أن يتزوج ابـــنها من زوجة جديدة تنجب لها حفيداً ذكراً. ويبدو أن مصطفى الأعسر - الزوج لا يهتم كثيراً بنوع الأبناء ولكنه يمتثل لضغوط أهله، قالت هناء: إن خلال حملها الثاني فوجئت بحماتها تطلـــب منها مصاحبتها إلى عيادة أخصائي نساء وتوليد لإجراء أشعة ولتحديد نوع الجنين، وبعد مناقشة لرغبة حماتها وافقت هناء على رغبة حماتها ولكنها تتذكر المشكلات التي حدثت بعد أن أظهرت الأشعة أن الجنين أنثى.

لذلك فإنها عندما اقتربت من الشهر الخامس من حملها الثالث بدأ زوجها يطلب منها الذهاب لإجراء الأشعة ولكنها رفضت بشدة لإيمانها بأن كل الأبناء يتساوون عندهما مما سبب تهديد زوجها لها بالطلاق. وفيما بعد أخبرها زوجها بأن أمـــه تبحث له عن زوجة ثانية.

قالـــت هـــناء إنها أصبحت لا تهتم وأنها مصرة على أن لا تجري الأشعة تحت أي ظرف وأن زوجهـــا لـــه الحق في الاستمرار معها أو لا ولكنها لن تترك بناتها تحت أي ظرف وستطلب الطلاق فور ارتباط زوجها وزواجه. وعن تفاصيل المناقشة الأخيرة مع زوجها قالت هناء بأن زوجهـــا قـــد جرحها وأهانها باتهامه لها بأنها لا تستطيع أن تنجب ابناً ليحمل اسمه وأن هناء ســـوف تخرج من المستشفى إلى بيت أهلها إلاّ أنها قلقة على ابنتيها اللتين أخذهما زوجها إلى بيت أمه وذلك لتعلقه الشديد بهما.

ميــلاد الطــفل

تمــثل لحظة ميلاد الطفل حدث كبير للأم الحامل والأسرة والأقارب، بل إن لحظــة المــيلاد تعتــبر لحظة تاريخية للطفل نفسه والذي سيبدأ رحلة جديدة من رحــلات حياته تختلف تماماً عن فترة بقائه داخل رحم الأم واعتماده اعتماداً كلياً عليها. فيبدأ الطفل منذ لحظة الميلاد الدخول إلى عالم جديد يحمل فيه اسماً وشهادة مــيلاد تعبر عن اعتراف العالم به وانطلاقة في رحلة الحياة. أما بالنسبة للأم فتعتبر فترة وضع الطفل هي فترة خاصة ومثيرة مشحونة بالترقب والإثارة وغالباً ما تعاني الأم من القلق خاصة إذا ما كان الطفل الجديد يمثل أول خبرة لها. فحياتها قد مرت بــتغيرات كــبيرة مــن كونها فتاة إلى زوجة والآن هي أم. يقول العالم بوجدون (Bogdon, 1993): إن مــيلاد الطفل كان دائماً وعبر القرون يمثل حدثاً اجتماعياً هامــاً ولكن مع تطور الزمن أصبح كحالة صحية تتدخل فيها الجوانب والعمليات الطبــية والعلاجية، فقبل (100) سنة كانت مهنة المولّدة أو القابلة معروفة تقوم بها إحــدى الســيدات التي تكتسب خبرة خاصة في مساعدة الأم على وضع الطفل ولكن شيئاً فشيئاً بدأ التدخل الطبي في هذه المرحلة إلى أن أصبحت الآن المستشفى في دول وبلاد كثيرة هي المكان المتوقع لإجراء عملية الوضع (التوليد). والمعنى هنا أنــه في الوقــت الســابق كانــت الأم تضع طفلها داخل البيت في وجود الأهل والأقــارب الذيــن كــانوا يعيشون لحظة الميلاد بإثارتها وترقبها وتوترها وكانت صرخات الطفل المولود حديثاً هي تعبير عن وصول المولود ليشيع في البيت السعادة والبهجة والامتنان.

وعلى الرغم من أن التقاليد الجديدة نقلت لحظة ميلاد الطفل إلى المستشفى وحرمت الأسرة والأهل من استقبال المولود الجديد في البيت، إلاّ أن التدخل الطبي قــد ساهم في حل المشكلات التي ربما تحدث في أثناء الوضع وقلل من فرص الخطر الــذي ربما تواجهه الأم في أثناء الوضع. وتتضمن مشكلات الوضع أشكالاً كثيرة مثل صعوبة نزول الطفل من الرحم، والآلام الشديدة التي تعاني منها بعض الأمهات في أثــناء هــذه المــرحلة، ومشكلات هبوط الدورة الدموية للأم وتعرض بعض الأمهــات للمضاعفات الصحية مثل النــزيف، وأحياناً ما تحدث بعض المشكلات لــلمولود الجديــد في الفــترة التي تعقب الوضع مما يتطلب ضرورة التدخل الطبي

الفـوري لمعالجـة المضاعفات وتصحيح المشكلات الصحية، الأمر الذي يزيد من فرصة المولود في الحياة. وهناك بعض المفاهيم الخاصة بمشكلات ما بعد الميلاد والتي تعـرف بمعدل وفاة الطفل بعد الميلاد Infant Mortality Rare، فنجد أن الرعاية الطبيـة في أثـناء الحمل والتدخل الطبي في أثناء وبعد عملية الوضع تقلل كثيراً من هذه المعدلات وخاصة مع تطور طب الأطفال Pediatric Medicine.

يمـثل ميلاد الطفل نهاية مراحل الحمل التي تستمر لفترة (38) أسبوعاً يصبح الجنين عند نهايتها مستعداً من الناحية الفسيولوجية للعيش في البيئة الحياتية الطبيعية فيصـبح قـادراً عـلى التنفس الطبيعي وهضم الطعام والتخلص من الفضلات، ويستطيع الجنين في نهاية هذه المرحلة أن يواجه تجربة الوضع بمتطلباتها المختلفة.

وتـأخذ عملية الوضع في غالبية الأحوال شكلاً طبيعياً حيث ينقبض رحم الأم بشـكل تلقـائي ومنتظم ليدفع الطفل إلى قناة المهبل، ويستمر هذا الانقباض ويـتكرر بصـورة متوقعة ومنتظمة حتى يتم نزول الطفل لتتلقاه أيدي الطبيبة أو المولـدة. وبشـكل عام فإن عملية الوضع تتم بدون مشكلات طالما أن صحة الأم والطفـل جيدة وأن حوض الأم متسع بدرجة كافية لمرور الطفل إلى خارج جسم الأم.

ميلاد الطفل والأسرة:

إن حدوث الميلاد يمثل حدثاً سعيداً وتغيراً كبيراً لكل أفراد الأسرة، ونجد أن الإثـارة والبهجة تزداد إذا ما كان الطفل هو الأول فتصبح الزوجة أماً لأول مرة والزوج أباً لأول مرة وما يتضمنه ذلك من مشاعر وأحاسيس خاصة. أما عن الأم فإن تتبعها لكل التغيرات الجسمانية والنفسية التي تحدث لها وتجربتها مع الآلام التي حدثـت في أثـناء عملـية الوضع تنتهي بسماعها لصرخات الطفل بعد خروجه فتحتضـنه وتشـعر بالراحة الكبيرة، ومن هنا تبدأ مرحلة رعاية الأم للطفل والتي تستمر لفترات طويلة. ويشعر الأب بالسعادة والزهو لكونه مسؤلاً عن ابنه وما قد يعنـيه ذلك في بعض المجتمعات والأعراف من وصوله إلى الرجولة الكاملة فيناديه الأهـل والزملاء بـ يا أبا.... وهناك مشاعر متضاربة تحدث لأخوة الطفل خاصة الطفل السابق في الميلاد والذي ينتظر بترقب وصول هذا الشخص القادم والاهتمام الكـبير الذي يبديه كل أفراد الأسرة نحوه، وتبدأ مشاعر الغيرة والقلق نتيجة بداية

فقدان الطفل السابق للاهتمام الذي كان يتمتع به، لذلك فإن بعض الأسر تعد هذا الطفـــل نفسياً لقدوم الطفل الجديد وتربط ما بينه وبين الطفل القادم عاطفياً حتى يشعر بالأمان فيرتبط بالمولود القادم.

وهـــناك أعباء كثيرة ترتبط بقدوم الطفل الجديد والتي تتعلق بترتيبات نومه وغذائه تابعة صحته وما إلى ذلك. مما لا شك فيه أن ميلاد الطفل الجديد سيحدث تغـــييرات كثيرة في الأسرة ويصبح ذلك مهماً وأكثر إلحاحاً إذا ما أنجبت الأم توأماً من الأطفال.

ناقشـــت الدراسات تأثير الوراثة والتركيب الجيني للآباء على تكوين الجنين واحـــتمال حـــدوث عيوب خلقية للجنين في أثناء مرحلة الحمل والوضع، وإيماناً بأهمـــية تفهم الأخصائي الاجتماعي لهذه الجوانب فإن هناك ضرورة للتعرف على هذه الظروف والعوامل الموجودة في البيئة المادية والاجتماعية وتفهم درجة تأثيرها على عملية الحمل والوضع:

أ. **البيئة الماديـــة:**

تمثل البيئة المادية جانباً كبيراً في حياة الناس حيث تؤثر الظروف والإمكانات والمصـــادر الموجودة في البيئة بدرجة كبيرة في مرحلة الحمل والوضع. فعلى سبيل المثال فإن توفر الرعاية الطبية التي تتمثل في المستشفيات والوحدات الصحية يساعد عـــلى توفـــير الـــرعاية للأمهات في فترة الحمل ويقلل من فرص التعرض لأخطار الحمل، بالإضافة إلى ذلك نجد أن ارتفاع معدلات التلوث في العالم في الماء والهواء وعـــلى المسطحات يزيد من احتمالية تأثر الأم الحامل بالسموم والأكاسيد الضارة ومـــن ثم تنقـــلها إلى الجنين فتعرض حياته للخطر وتسبب تعرضه للعيوب الخلقية. لذلك فإن الأنشطة الوقائية التي تقوم بها الحكومات والدول تسعي إلى المحافظة على البيئة من التلوث والتخلص من الفضلات والمخلفات بشكل سليم.

ولقـــد أثبتـــت الدراســـات أن رش مبـــيدات الدي – دي – تي في بعض المجـــتمعات قـــد سبب تلوث الهواء ويساهم في ظهور بعض العيوب الخلقية عند الأطفـــال بعـــد المـــيلاد، عـــلى الرغم من أن رش المبيدات قد تم إلغاؤه في بعض

المجتمعات، إلا أنه – مع الأسف – لا يزال استخدامه كمعطرات للجو أو لإزالة الروائح منتشراً في مجمعات أخرى على الرغم من خطورته.

أجمعت الدراسات على أن توفر الغذاء المتكامل للأم الحامل يعتبر ضروري وهام في عملية تكوين الجنين، ولكن هناك مجتمعات لا تزال حتى الآن تواجه نقصاً كبيراً في المواد الغذائية بسبب نقص الموارد أو المجاعات نتيجة القلائل والصراعات والحروب الداخلية أو الحصار، الأمر الذي يشكل صعوبات للأمهات الحوامل ويؤثر بدرجة كبيرة على الأطفال بعد الولادة. ومن هنا كانت هناك ضرورة لتوفير التوازن البيئي وما يتطلبه من توفير الرعاية ووسائلها للأم الحامل حيث إن الأطفال يمثلون المستقبل واستمرارية الحياة على كوكب الأرض.

ب. البيئة الاجتماعية:

تمثل البيئة الاجتماعية منظومة العادات والتقاليد والقيم والسلوكيات التي يتفاعل معها الإنسان بشكل مستمر فتؤثر فيه ويتأثر بها. وفي إطار مرحلتي الحمل وميلاد الطفل نجد أن العادات والتقاليد تتحكم في عملية تكوين الطفل حيث إن إيمان الأسرة بضرورة المتابعة الصحية للأم الحامل يعتبر أساسياً، وينبع هذا الاهتمام من مشاركة أفراد الأسرة للأم الحامل وتقديم الدعم النفسي والاجتماعي لها والتقليل من الضغوط النفسية عليها. ولكن هناك بعض الأمهات الحوامل لا يجدن في المتابعة في أثناء الحمل ضرورة إما بسبب قلة الوعي أو بسبب عدم توفر الإمكانات.

ففي المجتمعات الفقيرة تنشغل الأم بأدوار كثيرة أو تهتم برعاية أسرة كبيرة بحيث لا يتوفر لها الوقت للقيام بالمتابعة. وهناك أيضاً ظروف الأسرة الفقيرة التي تدفع الأم للعمل مما يعرضها للأخطار المهنية والتي تتمثل في التلوث والجهد البدني والضغوط العصبية والنفسية الأمر الذي يمثل خطورة عليها وعلى الجنين.

وهناك أخطار أخرى تساهم فيها البيئة الاجتماعية تتمثل في مفهوم المجتمع للأسرة حيث نجد أن بعض المجتمعات تشجع تكوين أسره كبيرة العدد، ومن هنا أصبحت مسؤولية الزوجين إنجاب عدد كبير من الأبناء. ولكن الدراسات الطبية أثبتت أن الحمل المتكرر – في أوقات متقاربة – يمثل خطورة على صحة الأم

والجـــنين، ومـــن الناحية العلمية نجد أن الأم التي تحمل جنيناً تقوم بتزويده بالمواد الأساســية مثل الفيتامينات والأملاح والبروتينات والكالسيوم وأن حمل المرأة بعد فترة وجيزة من الحمل الأول لا يتيح لجسمها الفرصة لتعويض ما تم فقده في الحمل الســابق. بالإضافة إلى أن الأطفال الذين يولدون بعد عدد من الولادات لا يتوفر لديهم قدر كاف من هذه العناصر الأساسية.

ونظــراً لأن المــرأة في بعــض المجتمعات خرجت للدراسة والعمل كوسيلة لمســاندة الأســرة أو لتحقيق ذاتها وأهدافها، فإن هناك فرصة لتعرض المرأة الحامل للإجهــاد البدني والعصبي، حيث يتمثل الإجهاد البدني في ساعات العمل والانتقال في أثناء الحمل من مكان العمل إلى البيت أو مزاولة الأعباء والمسؤوليات الوظيفية، بيــنما يتمثل الجهد العصبي في محاولتها لتحقيق التوازن بين مجموعة من الأدوار التي تسبب ضغوطا نفسية وعصبية للأم. لذلك نجد أن كثيراً من المجتمعات قد وضعت تشريعات تمنح المرأة الحامل الفرصة للقيام بإجازات في أثناء مرحلة الحمل وبعدها، ولكـــن على الجانب الآخر سبب ذلك في قلة فرص العمل المتاحة للمرأة حيث إن كثيراً من أصحاب الأعمال يفضلون تعيين الذكور في الوظائف حتى لا يلتزموا بهذه القوانــين بحجـــة أن قيام المرأة بإجازات في أثناء فترات الحمل والوضع يؤثر على متطلبات العمل.

وفي موضـــوع آخر نجد أن الوعي الثقافي والاجتماعي يلعب دوراً كبيراً في مـــرحلتي الحمل والوضع حيث إن هناك أدلة علمية تشير إلى زيادة فرص حدوث الخلـــل في الـــتكوين الجيني للجنين نتيجة زواج الأقارب وانتقال هذه الصفات من الأجـــيال السابقة. ومن هنا نجد أن بعض الدول الغربية تحرم قانوناً زواج الأقارب مـــن الدرجة الأولى. والأمر المسبب للدهشة هو أن سلوكيات بعض الآباء قد تؤثر عـــلى صـــحة الأم الحامل حيث أثبتت الأبحاث أن تعرض الحامل لدخان السجائر وهـــو ما يسمى بالمدخن الثاني Second Smoker قد يزيد من المشكلات الصحية عند الجنين، حيث نجد في معظم الأحيان أن الأب هو المدخن الأول.

تعرض الأم للضغوط النفسية وتأثيره على نمو الجنين

علـــى الرغم من أن هناك إجماع حول تأثير الحمل المتكرر على صحة الأم والجنين، إلا أن المعتقدات السائدة في بعض المجتمعات لا زالت تدفع المرأة نحو زيادة عـــدد الأطفـــال وإنجاب الكثير من الأبناء، ومن هذا المنطلق فإن المرأة قد ترضخ للأفكار والمعتقدات السائدة وتتعرض للمعاناة في تحقيق التوازن بين عمليات الحمل وقيامها بدورها الأساسي في رعاية الأسرة والأبناء. ولقد رأينا في بعض المجتمعات الفقيرة ونتيجة للمعتقدات أن الأم قد لا تستطيع الإنجاب بشكل طبيعي، ومن هنا فإنهـــا تعتمد على التدخل الطبي لفتح البطن وإخراج الجنين كأسلوب طبي، وعلى الرغم من تحذير الأطباء للأم من أن تكرار هذه العملية يشكل خطرا مؤكدا عليها، إلا أن الأم تقوم بالحمل لأكثر من مرة نتيجة للضغوط الأسرية والمجتمعية.

وليس هناك شك في أن الأم الحامل تتعرض في كثير من الأحيان لمجموعة من الضـــغوط النفسية التي تؤثر على استقرار الحمل حيث تؤثر هذه العوامل على حالة الأم المزاجية والنفسية، وهناك مجموعة من الأبحاث تؤكد أن الجنين يشعر بما تشعر بـــه الأم من ضغوط وحالات إكتئاب وحزن. ففي حالة تولي الأم رعاية عدد من الأطفـــال وقيامها بعملية إعداد المترل وتنظيفه والإهتمام بمتطلبات الأسرة فإن ذلك يشكل ضغوطا كبيرة عليها، إلا أن هناك أبحاث جديدة تناقش تعرض الأم لأخطار ماديـــة كبيرة مثل آثار الحروب والمجاعات والهجرة العرقية والقسرية حيث تتعرض المـــرأة الحـــامل لدرجات مرتفعة من الضغوط تؤثر بالضرورة على حالتها النفسية وبالـــتالي ينـــتقل التأثير إلى الجنين، وعلى الرغم من أن هذه الأبحاث غير مؤكدة ولازالـــت في مراحـــلها الأولى، إلا أن ارتفـــاع نسب الإجهاض نتيجة للضغوط النفســـية يؤكـــد بشكل اساسي وجود تأثيرات على الأم والجنين نتيجة لمثل هذه الضغوط.

أمـــا عـــن أمثلة الضغوط الاجتماعية التي تتعرض لها المرأة الحامل فتتضمن الخلافـــات الأســـرية وتعرض الأم للإيذاء البدني والنفسي، حالات الطلاق وهجر الـــزوج، حالات تعرض الزوج للسجن والاعتقال، حالات الاضطراب المادي مثل تعـــرض الزوج للفصل من العمل والنقص الشديد في موارد الأسرة، ذلك بالاضافة لأنـــواع الضـــغوط الأخرى مثل الإصابة بالأمراض أو التعرض للحوادث وما إلى

ذلــك. وبالإضــافة إلى ذلك فإننا وبشكل عام قد نرى المرأة في المجتمعات الفقيرة تعمــل لساعات طويلة في ظروف غير صحية من أجل الحصول على الدخل الكافي لــرعاية الأســرة نتيجة لتواضع دخل الزوج أو لتولي الزوجة رعاية الأسرة نتيجة لغــياب الــزوج، وفي هــذه الأحوال فإن مسألة حصول الأم الحامل على الراحة النفســية والبدنية أثناء الفترات الحرجة من الحمل أو متابعة الطبيب للحمل قد لا تكون واردة نتيجة لعدم وجود الدخل الكافي أو لعدم قدرة المرأة على التغيب عن العمــل، ومن هنا تتعرض المرأة وبشكل أساسي لأخطار كبيرة ينتج عنها في بعض الأحيان مضاعفات الحمل أو تعرض الجنين لأنواع الضغوط النفسية والفسيولوجية ونقص العناصر الأساسية في الجسم.

ومــن هنا كان على الأخصائي النفسي والاجتماعي القيام بتحديد مصادر الضــغوط التي تتعرض لها الأم في فترات الحمل وتقديم المشورة والتعليم الكافي من أجل مساعدة الأم على تفهم التأثيرات الفسيولوجية والنفسية على الجنين، ومن هنا كــان على الأخصائي تحديد مصادر تمنح الأم نوع من الدعم المادي للتعويض عن نقــص الدخل وحاجة الأم للعمل. وهناك أيضا فرصة لتخفيف مثل هذه الضغوط خاصة إذا ما ارتبطت بطبيعة الخلافات الأسرية ونقص الدعم المتبادل داخل الأسرة وقــد يتطلــب ذلك من الأخصائي إشراك أعضاء الأسرة في تفهم طبيعة الضغوط والعمل على تقديم الدعم المادي والمعنوي للأم الحامل.

ملخص الفصل

ناقشنا في هذا الفصل البداية الطبيعية للسلوك البشري حيث تشير الدراسات أن الســلوك الإنساني يبدأ مع المراحل الأولى لتكوين الجنين والجوانب المختلفة التي تؤثــر في نمــوه بشكل طبيعي، ولقد أثبتت الأبحاث العلمية أن هناك مجموعة من العوامــل البيولوجــية والبيئية والاجتماعية التي تتفاعل معاً وتساهم في نمو السلوك الإنســاني في المــراحل الأولى من الحياة. ولقد تعرضنا إلى تأثير الوراثة والمكونات الجينية على تطور نمو السلوك خلال مراحل الحمل. وفي إطار الموضوع ناقشنا تأثير البيئة المادية والاجتماعية ومساهمتهما في توفير الرعاية الصحية والدعم لكل من الأم والجنين أثناء هذه المرحلة.

ولقد تعرضنا للأخطار والمشكلات التي تتعرض لها الأم والجنين والتي تؤثر بشكل أو بآخر على حياة الأم وعلى نمو الجنين بشكل متوازن، فعلي سبيل المثال فلقد أثبتت الدراسات أن تعرض الجنين - بدرجة معينة - لأخطار التلوث الموجود في البيئة قد يسبب حدوث العيوب الخلقية للحنين في طور التكوين، بالإضافة إلى ذلك فلقد ناقشنا مشكلات توفر الغذاء الكافي المتوازن لكل من الأم والجنين والظروف الاجتماعية والسياسية التي تعرض الأم للضغوط النفسية وما قد يسببه ذلك من مشكلات صحية للأم والجنين أثناء فترة الحمل. لذلك فإن توفر البيئة المستقرة التي تقدم للأم كافة أنواع الرعاية والدعم الاجتماعي والنفسي هو من أهم متطلبات هذه المرحلة.

أسئلة تطبيقية

- ناقش مع زملائك تأثير سلوك الآباء والتفاعل الأسري على تكوين الجنين وسلوكياته أثناء مرحلة ما قبل الميلاد.
- ناقش الحالة السابقة مع زملائك وحدد الاتجاهات السائدة في مجتمعك نحو رغبة الآباء في أن يكون المولود ذكراً أو أنثى.
- ما هي الإمكانيات التي يمكن أن يوفرها المجتمع الذي تنتمي إليه لمساعدة الأسرة على تحقيق ظروف ملائمة لميلاد الطفل؟
- ما هي الجوانب العلمية والثقافية والاجتماعية التي يجب أن يركز عليها الأخصائي الاجتماعي/النفسي عند تعامله مع مشكلات تحديد نوع الجنين وتأثيرها على نسق الأسرة؟
- ناقش طبيعة الأخطار التي تتعرض لها الأم الحامل وارتباط ذلك بطبيعة الظروف الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع الذي تعيش فيه.

الفصل الرابع

نمو السلوك خلال مراحــل الطفولة

The Development of Behavior through Childhood Stages

مقدمـــة

تعرفـــنا في الفصل السابق على أهمية حدث ميلاد طفل جديد في الأسرة، حيث يمثل هذا الحدث بداية رحلة العمر للطفل وما يتضمنها من تغيرات وتطورات كـــثيرة، وناقشنا تأثير ميلاد الطفل على الأسرة والتغيرات التي تتمثل في الواجبات والمســؤوليات الجديدة المتعلقة برعاية الطفل والاهتمام به. وبشكل عام فإن تأثير الثقافة والتقاليد في نمو الطفل يكون ظاهراً وواضحاً منذ اللحظة الأولى للميلاد.

الأهداف العملية Objectives:

عند الانتهاء من قراءة هذا الفصل فإنه من المتوقع أن يتفهم القارئ الجوانب التالية:

- مرحلة بداية العمر ومتطلباتها.
- دور الظروف البيئية وتأثيرها على نمو الطفل وكيفية إشباع احتياجاته.
- تفهم طبيعة الصراع الاجتماعي النفسي المرتبط بمراحل الطفولة.

يختلف التصنيف العمري لمرحلة الطفولة طبقاً للمفاهيم المستخدمة في تعريف هـــذه المرحلة، فنجد على سبيل المثال أنه من الناحية القانونية فإن مرحلة الطفولة تمـــتد حـــتى يصل الطفل إلى سن الثامنة عشرة لأنه في هذه الفترة يكون غير قادر عـــلى رعايـــة نفسه وتحمل المسؤولية، ومن هنا فإن الأسرة تعتبر هي المسؤولة عن

رعايـــته وحمايته، وفي حالة عدم قدرة الأسرة على تقديم الرعاية فإن المجتمع يتكفل بتقديمها عن طريق مؤسسات وبرامج حكومية وأهلية.

وهناك اتجاه آخر يعرف بالطفولة بما قبل البلوغ وهي الفترة التي لا يستطيع الفرد أن يكون مستعداً للزواج من الناحية البيولوجية. أما عن نظريات النمو فلقد حددت مرحلة الطفولة بالفترة منذ ميلاد الطفل حتى سن الثانية عشرة حيث تبدأ مرحلة المراهقة. ويتفق هذا التقسيم مـــع بعض الثقافات التي تسمي مرحلة المراهقة بمرحلـــة التين آجرز Teenagers والتي ينتهي فيها كتابة العمر في اللغة الإنجليزية بالـــحروف teen.. والتي تبدأ من Thirteen (الثالثة عشرة) حتى نهاية الـــ Nineteen (التاسعة عشرة).

ونجـــد أن مرحلة الطفولة تتسع لتضم الفترة ما بين ميلاد الطفل حتى بداية المـــرحلة الوســطى من التعليم في سن الثانية عشرة. ولقد قسم "أريكسون" هذه المـــرحلة إلى أربعـــة مراحل تبدأ بمرحلة بداية العمر (صفر إلى سنتين)، ثم مرحلة الطفولة الأولى (من سنتين إلى أربعة)، ثم مرحلة بداية المدرسة (من أربع سنوات إلى ســت ســنوات) وأخيراً مرحلة المدرسة الأولية (من ست سنوات إلى اثنتي عشرة سنة) (راجع جدول أريكسون للمراحل النمو في الفصل الثاني). وما يعنينا في هذه التقســيمات هـــو التحديد الذي وضع بناء على البحوث والدراسات التي توضح متطلبات وأنشطة النمو الجسماني والشعوري والإدراكي/المعرفي والخصائص المتميزة في كـــل مـــرحلة. ونظـــراً لتأثر عمليات النمو بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والبيئـــية في المجتمع فإن طلاب الخدمة الاجتماعية يعتبرون في أشد الاحتياج لتفهم طبـــيعة الـــتفاعل بـــين هذه الظروف والجوانب المتعددة المرتبطة بالنمو في مراحل الطفولة.

أ – مرحلة بداية العمر Infancy (من الميلاد إلى سنتين)

تتعلق هذه المرحلة بالأيام الأولى لميلاد الطفل حيث تلعب الغريزة دوراً كبيراً في ســـلوكيات الطفل بما تمثله من قدراته الطبيعية على إشباع احتياجاته الأساسية، حيث نجد خلال هذه المرحلة أن الطفل يصبح قادراً على التنفس بشكل طبيعي منذ الدقـــيقة الأولى لميلاده وذلك بعد أن يتلقى عدداً من الطرقات الرقيقة على ظهره حـــتى تـــبدأ الرئتان في العمل وبشكل غريزي. ويبدأ الطفل في عملية المص بفمه

فيـنعم بالرضاعة التي تصبح المصدر الجديد للغذاء، وأيضاً فإن الطفل يقوم بعملية التبرز والتبول بشكل طبيعي حتى تخرج الفضلات والسموم من جسمه. وتقوم الأم بـدور أساسي لتوفير الرعاية والمتابعة والعناية التي تتمثل في إرضاع الطفل وتنظيفه وتوفـير الحب والحنان حيث يتلقى الطفل من الأم اللمسات والهدهدة حتى يشعر بالدفء والأمان فينام معظم الوقت.

النمو الجسمي لحديث الولادة:

يـبدأ الطفـل بعد ولادته بالقيام ببعض الحركات والأنشطة مثل الالتفات بجسـمه نحـو مصدر الأصوات وتحريك رجليه ويديه ومسك الأدوات بأصابعه، والحقيقة أن الطفل تدرب على مثل هذه الأنشطة وزاولها قبل ميلاده وهو في رحم الأم. وهناك بعض الأنشطة الوظيفية التي كان يقوم بها قبل الميلاد حيث كان قلبه يـدق بانـتظام وكان يتنفس وكانت معدته تعمل وكبده وعضلات جسده فكان يشعر بما حوله ويفتح عينيه ويتثاءب وينام.

وعـند مـيلاد الطفل فإن وزنه يبلغ في المتوسط إلى (7,5) رطل أي حوالي ثـلاثـة كـيلوجرام تقريباً أما طوله فيصل إلى (20) بوصة أي حـوالي خمسون سنتيمتر. ويعتقد "هوفننج" (Seifert, Hoffnung,& Hoffnung 1997) بأن شكل وملامح الطفل لهما تأثير نفسي على الآخرين مما يجذب الآخرين نحوه فيرتبطون به، إلا أنّ الأم ترتبط بطفلها ارتباطاً طبيعياً لا يتأثر بلونه أو شكله أو حالته الصحية.

وتـتغير ملامـح الطفـل بسرعة بعد ميلاده حيث إن معظم الأطفال عند مـيلادهم تكون لهم جبهة عريضة وعيون واسعة نسبياً ومستديرة ووجنات مرتفعة وبـارزة. وفي هـذه المرحلة الأولى يتمثل الانجذاب العاطفي بين الطفل والوالدين وتـتوطد العلاقات بينهم مع تطور خبرات الحياة ونتيجة متابعة الآباء وملاحظتهم لحركاته وأنشطته التي تجلب السعادة والفرحة للآباء.

وفي الغالب فإن الطفل في أيامه الأولى يتم تغذيته عن طريق الرضاعة الطبيعية أو الصـناعية والـتي تبلغ من (5) إلى (8) مرات يومياً، ومع استمرار نموّه يبدأ في اسـتخدام الأكل السائل والمهروس والذي يبلغ ثلاث وجبات كاملة بالإضافة إلى عـدد من الوجبات الصغيرة المتفرقة. ومع اقتراب حديث الولادة إلى سن السنتين

فإنه يبدأ في جذب الأدوات مثل الملعقة فيحاول تغذية نفسه بنفسه باستخدام أصابعه في لمس الطعام ووضعه في الفم لتذوقه والتعود عليه. أما عن نوم الطفل في هذه المرحلة فإنه يصل في المتوسط إلى (16) ساعة في اليوم حيث يبدأ في الانحسار تدريجياً ليصل إلى (13) ساعة بالإضافة إلى فترات نوم قصيرة أثناء فترة النهار.

جهاز الإحساس والحركة:

هناك ضرورة لتفهم نمو الجهاز العصبي المركزي عند الأطفال حديثي الولادة حيث يشترك الأخصائي الاجتماعي والنفسي مع الأطباء في تقييم النمو الطبيعي للطفل والاكتشاف المبكر لبعض حالات الإعاقة الجسمانية والذهنية، وبشكل أساسي فإن الجهاز العصبي المركزي يتكون من المخ وخلايا الأعصاب الموجودة في العمود الفقري والتي تتحكم جميعها في عمليات الإدراك والحركات الارتدادية، ويعتبر المخ المركز الرئيسي للأعصاب حيث يبدأ في النمو بسرعة كبيرة قبل ميلاد الطفل ويستكمل نموه بشكل عضوي عند نهاية هذه المرحلة في عمر السنتين.

وتتمثل الحركة الارتدادية عند الطفل في الرد الأوتوماتيكي على المثيرات التي يشعر بها الطفل فنجد أن الطفل يلتصق بأمه عندما يشعر بالخطر والتي تتمثل في اقتراب شخص غير مألوف منه لمداعبته، وهناك بعض الحركات الارتدادية التي يمكن ملاحظتها مثل فتح وتغميض العينين بسرعة والتنفس والبلع وقبض الأصابع على أي شيء يلمس الكف. وتبدأ في هذه المرحلة نمو عضلات الذراعين والأرجل والجذع والوسط، وتتطور هذه الحركات عند الاقتراب من العام الأول فيستطيع الطفل عند بلوغه الشهر السادس أن يزحف بجسده ثم يبدأ في الوقوف على القدمين ثم يخطو خطوات قليلة بقدميه حتى يتعلم المشي بشكل متوازن. وهناك مجموعة من الحركات الأخرى التي يقوم بها الطفل في هذه المرحلة والتي تتمثل في استخدام الكفين والأصابع في الإمساك بالأشياء وشدها وملامستها. وعلى كل فإن مبدأ (سيفالوكودا) يعني قدرة الطفل على تحريك أجزاء جسمه العليا قبل الأجزاء السفلى فنجد أن الطفل يتعلم تحريك الرأس قبل تحريك القدمين، وعند بلوغ الطفل عمر السنتين يكون قد وصل إلى أعلى مستوى من النشاط البدني حيث يستطيع المشي وصعود السلالم زحفاً والقفز وأحياناً الجري اللعب وتحريك الأشياء بالإضافة لقدرته على التحكم في الإخراج والتحكم في التبول ويستطيع الطفل عند نهاية هذه

المرحلة أيضاً أن يأكل بنفسه فنراه يمسك بالطعام بيديه ثم يضعه في فمه بشكل متكرر.

النمو الإدراكي وقدرات الكلام:

يعتقد العالم "بياجيه" أن الطفل في هذه المرحلة يستطيع تعلم كثير من المعلومات عن طريق أجهزة الإحساس (اللمس – الشم – التذوق – السمع – البصر). ويتمثل ذلك في بدأ الطفل في استطلاع العالم المحيط به حيث ينظر إلى الأشياء ويتمعن فيها من أجل أن يكوّن صورة لملامحها تنطبع في ذاكرته. ويفرق العلماء بين الإدراك الحسي (Perception) والإدراك المعرفي العقلي (Cognition)، فبينما يمثل الإدراك الحسي العمليات الأقل تعقيداً والتي تتعلق بقدرة المخ على التنظيم والتفسير المباشر لما تدركه الحواس، نجد أن الإدراك المعرفي العقلي يتعلق بعمليات أكثر تعقيداً تتمثل في التفكير والأنشطة العقلية مثل الانتباه والتذكر والاستنتاج ومنهاج حل المشكلة، فالطفل في هذه المرحلة ومنذ بدايتها يتمرس على مزاولة مجموعة من الأنشطة الحسية والعقلية مثل تذكر الأفراد المألوفين لديه والتعبير عن سعادته بوجودهم بالابتسام لهم أو بالاندفاع نحوهم، إلا أنه يكون أكثر حرصاً في الاقتراب إلى الأطفال الذين في نفس عمره حيث يتأملهم ويلاحظهم بعناية ليتفهم طبيعة التشابه بينه وبينهم، أما من ناحية الإدراك الحسي فإن الطفل يركز على التعرف على الأشخاص من خلال النظر إلى وجوههم كأسلوب مبدئي لبناء صورة حسية في ذاكرته.

ويستطيع الطفل عند بلوغه شهرين أن يميز الأصوات عن طريق حاسة السمع فيوجه نظره ويديه ناحية مصدر الصوت، وعلى الرغم من طول الفترة التي تمر قبل الاستجابة للصوت إلى أن الطفل يستطيع أن يفرق بين صوت مألوف وآخر غير مألوف وبين صوت عادي وصوت مرتفع، وبين صوت هادئ وصوت مزعج وحاد، وتتمثل استجابة الطفل للأصوات الحادة والضوضاء في عدم الشعور بالارتياح والتي تبدو على هيئة البكاء الشديد والمفاجئ.

وبشكل عام فإن الطفل يتفاعل مع البيئة من خلال درجة تآلفه معها ومدى إحساسه بالآمان والاطمئنان، وحيث إن ذاكرة الطفل تعتبر محدودة بدرجة كبيرة

فإنه يتعامل مع البيئة المحيطة بنوع من الحذر ويسعى ببديهته وأحاسيسه الأولية لتقييم مدى إحساسة بالأمان أو الخطر وبالتالي تتشكل لديه مجموعة من ردود الأفعال الطبيعية، فنجد على سبيل المثال أن تجربة الآباء باصطحاب الطفل لأستوديو التصوير لالتقاط مجموعة من الصور له قد تكون تجربة صعبة حيث إن الطفل يرى أن هذا المكان غير مألوف لديه بالمرة، بل انه من خلال الاستطلاع العفوي للمكان قد يرى أجهزة غريبة ودرجات من الإضاءة التي لم يألفها من قبل، ومن خلال ذلك فإن محاولة المصور لجذب إنتباه الطفل والحصول على تعبير مريح لوجهه قد تكون تجربة صعبة على الرغم من قيام المصور باستخدام أشياء وألعاب لجذب إنتباه الطفل وقيام أحد الآباء أو كليهما بمعاونة المصور.

ومن هنا يتضح أن الطفل يدرك بحواسه المواقف والبيئة التي تحدث فيها فيتفاعل معها شعورياً ويترجم أحاسيسه إما بالبكاء والصريخ أو بالابتسام والشعور بالراحة والأمان، فعلى سبيل المثال فإن زيارة أحد الأصدقاء للأسرة قد تعتبر تجربة أخرى للطفل وربما يكون رد فعله الطبيعي هو الخوف من الشخص والوجه غير المألوف حيث يعبر عن ذلك ببكاءه ورغبته في الابتعاد عن هذا الشخص، إلا أن الطفل وبعد فترة وجيزة قد يألف الشخص القادم فيقترب منه بحرص ولكنه يحتفظ بنوع من الحذر والترقب، فربما يسعى إلى العودة إلى الأم وعدم الاستمرار مع الشخص القادم.

وعلى كل فإن الطفل خلال هذه المرحلة من النمو يعتمد على حواسه بشكل كبير لتفهم العالم القريب، منه ويلي ذلك مرحلة الاستطلاع Exploration حيث يبحث ويتأمل في العالم والأشياء المحيطة به، فتراه يمسك بالأشياء ويتحسس ملمسها ليعرف أبعادها (طول - سمك - عرض)، ثم يستطلع تكوينها (مستديرة - مربعة) ثم يلقيها بعيداً عنه، وقد يرجع إليها مرة أخرى إذا ما تكون لديه اهتماماً معيناً بها أو طرأت له فكرة عن استخدامها بشكل أو أسلوب معين. أما عن تطور واستخدام اللغة والتعبير بالألفاظ فإن هذه المرحلة تشهد بدايات التعود على أفراد الأسرة المقربين والتعرف على أصواتهم وأشكالهم، ويعبر الطفل عن معرفته بهم بوصفهم برموز لفظية وأصوات معينة حيث نجد الطفل ينطق "ماما" بعدة أصوات

ويصف الأشياء بلفظ "ده أو تـــه". ولكن مع نهاية هذه المرحلة فإن الطفل تتجمع لديه مجموعة من الكلمات تصل إلى (300) كلمة بالإضافة إلى قدرته على تكوين بعض الجمل التي تتكون من كلمتين.

وعلينا أن ندرك في أن البيئة الاجتماعية المحيطة قد تكون مشجعة لتعامل الطفل مع اللغة اعتماداً على درجة التفاعل بين الطفل والأفراد المحيطين به وقدرتهم على تنمية التعلم لديه عن طريق التدريب والاستمالة واستخدام أساليب التدعيم الإيجابي. فنجد مثلاً أن محاولة الطفل لنطق كلمة معينة قد يعقبها تصفيق الآباء أو صياحهم الإعجابي الذي يمثل نوعاً من التدعيم الإيجابي الذي يدفع الطفل إلى مزيد من المحاولة والتعلم، والعكس صحيح فإن قلة الاحتكاك والتجربة لا يعطي للطفل حوافز تشجيعية لتعلم كلمات جديدة.

النمو العاطفي والشعوري:

يعتقد العلماء أن مراحل النمو الشعوري لدى الطفل تبدأ بردود أفعاله للحظة الميلاد والتي تتضمن مشاعر مثيرة ومتباينة، ولكن مع نمو الطفل يبدأ في تجربة المشاعر المتناقضة عند بلوغه ثلاثة شهور مثل الشعور بالانقباض والإحساس بالراحة. وتتحول هذه المشاعر عند بلوغه ستة شهور إلى مشاعر الخوف والغضب والاشمئزاز ثم تتحول إلى مشاعر السعادة والتعلق العاطفي عند بلوغه اثني عشر شهراً، ولكن بوصول الطفل إلى عمر السنتين تبدأ مشاعر الخوف لديه من الافتراق عن الأم أو الابتعاد عنها ولكنه يسعد باهتمام الآخرين به الأمر الذي ينقلب إلى الإحساس بالغيرة إذا ما استقبلت الأم طفلاً جديداً ليكون أخاً أو أختاً له.

وتعتبر نظرية الارتباط الاجتماعي Social Attachment (Bowlby, 1969) من النظريات المهمة التي تبحث مسألة الارتباط العاطفي بين الطفل وبين الأفراد المحيطين به، ويعرف الارتباط العاطفي بالعمليات التي ينتج عنها تنمية الأفراد لمشاعر وعواطف ارتباطية بأشخاص معينين. وتترتب هذه المشاعر على مجموعة من الإشارات والاستجابات ما بين الطفل والأفراد المحيطين به والتي تؤدي إلى تنمية علاقات نشيطة ينتج عنها نمو علاقة ثقة ما بين الطفل والشخص المحيط به.

جدول رقم (4)

مراحل الارتباط العاطفي

المرحلة	عمر الطفل	سلوكيات وأنشطة الارتباط
الأولى	3 شهور	الرضاعة – جذب الأشياء – الابتسام – المتابعة النظرية للأم حتى يستمر البقاء قريباً من الأشخاص القائمين على رعايته.
الثانية	3 - 6 شهور	اهتمام خاص واستجابة بعدد محدود من الأشخاص (الأم– الأب– الجدة).
الثالثة	6 - 9 شهور	الحرص على البقاء قريباً من الشخص الذي يرتبط به الطفل عاطفياً.
الرابعة	9 - 12 شهر	نمو علاقة الارتباط العاطفي مع شخص معين (المسؤول الأول عن رعاية الطفل).
الخامسة	خمس سنوات	سلوك مقصور وتعمدي لاستمرار العلاقة والقرب من شخصية الارتباط العاطفي.
السادسة	ست سنوات	تنمية استراتيجيات جديدة للبقاء قريباً من الأشخاص أو الأشياء المستهدفة بالارتباط العاطفي.

منظومات الارتباط العاطفي

1– ارتباط عاطفي آمن:

وفي هذا النوع من الارتباط فإن الطفل يبكي عندما يفترق عن الأم ولكنه يقترب منها ويحييها عند عودها، ونجد أن الطفل يشعر بالأمان عندما يبتعد عن الأم أمتاراً قليلة حيث إنها تمثل له شخصية الارتباط العاطفي ولكنه يبتعد عنها مؤقتاً ليستكشف العالم المحيط به. ويحصل الطفل من هذا الارتباط العاطفي على الثقة

والأمان حيث إنه يتوقع أن يكون الشخص القائم على رعايته متواجداً بشكل دائم للقيام بتوفير الاستجابة التي يتوقعها لرغباته.

2– ارتباط عاطفي متوتر وتجنبي:

يتجنب الطفل في هذا النوع من الارتباط الشخص المسؤول عن رعايته عندما يعود له بعد تركه لفترة حيث إنه يتوقع أن يقوم هذا الشخص برفضه، وينتج هذا النموذج من الارتباط عندما يمضي الراعي وقتاً أقل مع الطفل أو عندما يكون تفاعله مع الطفل سلبياً وغير مريح.

3– ارتباط عاطفي مقاوم ومتوتر:

يقاوم الطفل، في هذا النوع من الارتباط، شخصية الراعي ويحاول الابتعاد عنه، ولا يمكن تعويض الطفل عن غياب الراعي عنه ولذلك يكون الطفل أكثر حرصاً على الابتعاد عن الأشخاص والأماكن التي لا يألفها أو لا يستريح لها، وقد تنتج هذه المشاعر والعلاقة السلبية ما بين الطفل والراعي (الكفيل) عن عدم انتظام الراعي في تعامله مع الطفل ونتيجة لعدم الاستمرارية في هذه العلاقة.

Kochanska, G., & Coy. K. (2002). Child emotionality and maternal responsiveness as predictors of reunion behaviors in the strange situation links mediate and unmediated by separation distress. Child Development, 73, (13) 28-247,

تعرض الدراسة اشتراك مجموعة من الأمهات وأطفالهن (عمر سنة) في تجربة عملية لاختبار مدى التفاعل بين الأطفال وأمهاتهم، ومدى استجابة الأم لهذا التفاعل الذي سينعكس أفعال الطفل عند رؤيته لها بعد غياب قصير. ولقد وجدت الدراسة أن درجة الارتباط والتفاعل الموجودة بين الطفل والأم ومستوى استجابتها له تؤثر على إحساسه بالأمان وبالتالي فإنها تقلل من التوترات التي قد يعاني منها الطفل عند غيابها، وبذلك فإن وجود ارتباط عاطفي آمن بينهما سوف يقلل من معدل الاضطرابات والتوترات ومشاعر الرفض التي قد تنشأ عند لقاء الطفل بالأم بعد عودتها.

الصراع الاجتماعي النفسي (الثقة من عدم الثقة):

يصنف "أريكسون" متطلبات كل مرحلة سنية ويحدد نوعية التحدي والصراع الذي يواجهه الطفل. وفي الظروف الطبيعية نجد أن الطفل يكتسب الثقة نتيجة لنمو علاقة متوازنة ومستمرة ولصيقة مع راعي الطفل أو كفيلته. وتعكس ثقة الطفل بالآخرين والعالم المحيط به إحساسه بأن هذا الارتباط العاطفي سوف يساعده على مواجهة أي مشكلات في الحاضر أو المستقبل. بمعنى آخر فإن الطفل يتولد لديه الإحساس والانطباع بأن علاقته مع شخصية الارتباط العاطفي سوف تستمر وسوف تتخطى أية عقبات ممكن أن تمر به مثل خلافات الأسرة أو رحيل أحد الآباء، وترتبط هذه المشاعر بإحساس الطفل بأن احتياجاته سوف يتم إشباعها وأن شخصية الارتباط العاطفي تعتز به وتقدره الأمر الذي يعطي للطفل إحساساً بالامتنان والأمان والراحة النفسية، وبذلك فإن الطفل في هذه المرحلة يتفاعل بإيجابية مع شخصية الراعي بدون مشكلات وبصورة إيجابية ومضطردة.

أما **عدم الثقة** فإنها تتضمن الإحساس بالحذر والانسحاب وعدم التقدير الذاتي. وتنتج عدم الثقة لدى الطفل في هذه المرحلة من ثلاثة مصادر رئيسة:

1 - الإحساس بالحذر الذي يؤدي إلى الحركات الارتدادية للجسم كرد فعل طبيعي للأصوات الحادة المزعجة.

2 - عدم القدرة على الاستجابة لاحتياجات الطفل أو تفهمها.

3 - الغضب الذي ينتج عن المشاعر العميقة بالشك في مدى حب الراعي له.

ونجد أن عدم الثقة قد ينتج من معايشة الطفل لخبرات اجتماعية غير مريحة تتميز بالقلق وعدم الاستقرار أو الثقة في ظروف الحياة الحالية، وتتمثل هذه الظروف في الانتقال المفاجئ للأسرة - الخلافات الأسرية والمناقشات الحادة بين الآباء والتي تحدث أمام الأطفال أو تعرض شخصية الراعي — الأم- للخطر المتمثل في المرض المفاجئ أو الضغوط النفسية والبدنية.

أما عن العمليات الأساسية في هذه المرحلة فتتمثل في التبادلية Mutuality والارتباط بشخصية الراعي وتنمو عملية التوحد ارتباط شخصين (الطفل والأم - الراعي) وتبادل إشباع الاحتياجات بينهما ومشاركتهما لمشاعر الامتنان والحب

المتبادل، فالأم تحتضن الطفل وترضعه وتربت عليه وتشعره بالدفء والأمان فيسبب ذلك شعور الطفل بأحاسيس جميلة وطيبة ومريحة، وفي نفس الوقت فإن الأم تشعر بالسعادة لإشباعها لغريزة الأمومة لديها وإحساسها بالعطاء والقدرة على تحمل مسؤولية شخص ينتمي لها ويرتبط بها ويعتمد عليها. ولذلك فإن تبادلية المشاعر تنتج عن الارتباط المستمر والدائم عندما يستجيب الراعي (الأم) لاحتياجات الطفل بشكل ملائم، حيث تنمو لدى الأم القدرة على تفهم إشارات الطفل فتستجيب لهذه الإشارات بشكل سريع حتى تقلل من إحساس الطفل بالتوتر بسبب حاجة فسيولوجية مثل الجوع الذي يؤدي إلى بكائه أو مؤثر معنوي مثل ترك الطفل وحيداً فيشعر بالرهبة والخوف. وكنتيجة لهذا التفاعل الطبيعي بين الطفل وشخصية الراعي ينشأ الارتباط العاطفي المتبادل وينمو فيشبع احتياجات كل منهما.

البيئة الاجتماعية ومرحلة بداية العمـــــــــر:

تختلف البيئة الاجتماعية في مستويات استجابتها لحاجات الأطفال حديثي الولادة حيث إن النمو المتوازن للطفل خلال هذه المرحلة يتطلب توفر قدر ملائم من الاستقرار الاجتماعي والعاطفي للطفل، وبشكل عام فإن الاحتياجات الأساسية للطفل خلال هذه المرحلة تتلخص في توفر الغذاء الملائم والرعاية الصحية الكافية والدعم العاطفي المستقر. أما عن الغذاء فإن الطفل خلال هذه المرحلة يعتمد على الرضاعة من الأم كمصدر أساسي للغذاء. ولكن هناك بعض العوامل الفسيولوجية التي ربما تؤثر على قدرة الأم على القيام بإرضاع الطفل بالإضافة إلى تفضيل بعض الأمهات لتغذية الطفل باستخدام الرضعات والمحاليل الصناعية، ولقد أثبتت الأبحاث الطبية أن الرضاعة الطبيعية تمثل أفضل العناصر والوسائل لتغذية الطفل وتوفير العناصر الأساسية، ولقد نتج عن ذلك ظهور بعض البرامج في دول كثيرة لتشجيع وتوعية الأمهات على الرضاعة الطبيعية، حيث وجدت الدراسات النفسية أن عملية الرضاعة الطبيعية توفر نوعاً من الارتباط العاطفي والشعوري بين الأم والطفل الرضيع.

وهناك أسباب بيئية واقتصادية تؤثر في توفير القدر الملائم من الغذاء للطفل خلال هذه المرحلة، حيث إن عدم الاستقرار والصراعات والحروب تشكل نوعاً من الضغوط البيئية التي لا تتيح للأسرة توفير الغذاء الكافي للطفل، فنجد على سبيل

المثال الحروب الداخلية وتعرض الأفراد للهجرة نتيجة الانتماء لجنس معين أو عرق معين يسبب التوتر والمعاناة والنقص الشديد في مصادر الغذاء المتاحة للأم ومن ثم للطفل الرضيع، كذلك فإن الفقر الشديد والمجاعات تعتبر من أهم الأخطار التي تواجهها بعض الشعوب والبلدان مما يسبب تعرض الأطفال للجفاف نتيجة النقص الشديد في مصادر الغذاء.

أما عن العنصر الثاني فيتمثل في توفر الرعاية الصحية والمتابعة والإشراف الطبي للطفل حديث الولادة. وتهتم الدول والحكومات الآن بإنشاء مراكز الأمومة والطفولة التي تقدم الرعاية الصحية المجانية للطفل والتي تستفيد من تقدم العلوم والدراسات في مجال طب الأطفال. وبشكل أساسي فإن هذه المراكز توفر المتابعة بالكشف الدوري على الطفل وتسجيل المقاييس المطلوبة (وزن – طول – محيط الرأس...). ويعتبر التطعيم ضد الأمراض من أهم الخدمات الوقائية التي تقدمها هذه المراكز للطفل وذلك بالإضافة إلى برامج التثقيف والإرشاد الصحي للأمهات عن كيفية العناية بالأطفال ورعايتهم، وبشكل أساسي فإن المتابعة الصحية تساعد على الاكتشاف المبكر لمشكلات النمو وحالات التخلف الجسمي والذهني عند الأطفال حيث يؤكد الأطباء أن الاكتشاف المبكر لمثل هذه المشكلات يساعد على تفادي تفاقم الحالة وتقديم البرامج التأهيلية في وقت ملائم، ومن هنا فإن بعض هذه المشكلات تتمثل بحالات الفشل في النمو والتطور عند الأطفالFailure to Thrive (Woolston,1993) والتي توجد فحوص معينة لتحديد الأعراض الجسمية والإدراكية المرتبطة بهذا الاضطراب، ولنا أن نتخيل أن عدم توفر مثل هذه الخدمات الصحية وبرامج رعاية الأطفال حديثي الولادة وأمهاتهم قد يؤثر في قدرة الطفل على النمو بشكل متوازن واستطاعته تنمية قدراته الحركية والشعورية والإدراكية.

أما عن الدعم العاطفي الذي يتطلبه الطفل في أثناء هذه المرحلة فيتمثل في الارتباط الشعوري الذي ينمو بين الطفل وشخصية مقدم الرعاية والتي تتمثل في الأم في معظم الأحيان، حيث تنمو بينهما علاقة استجابة واهتمام تمثل الجانب الرئيسي في عملية الإشباع النفسي لدى الطفل، ومن هنا فإن وجود بيئة اجتماعية مستقرة تنعم بالتأييد المتبادل بين أفراد الأسرة في جو من الحب والاهتمام وبعيداً

عن الصراعات والخلافات والتوترات يمثل البيئة الاجتماعية الملائمة للنمو العاطفي لدى الطفل، ولكن مستوى التفاعل بين الطفل والأفراد المحيطين به يمثل نوعاً من الحافز والمثير لنمو القدرات العقلية للطفل فتهيئ البيئة الطبيعية للطفل لاستطلاع العالم المحيط به والتعرف على عناصره والتدريب على تفهم العلاقات بين هذه العناصر والأدوات.

ويتلخص دور الأخصائي النفسي والاجتماعي والتربوي في تفهم تأثيرات البيئة على نمو الطفل خلال هذه المرحلة. فالأخصائية الاجتماعية التي تعمل في مراكز الأمومة والطفولة تدرس احتياجات الأم والطفل من الناحية المادية والاجتماعية وتساهم في دعم الأسرة وتوجيهها نحو توفير المناخ الاجتماعي الملائم لإشباع احتياجات الطفل ونموه بشكل طبيعي. أما عن الأخصائية الاجتماعية التي تعمل في مكتب الاستشارات الزوجية فتضع نصب عينيها الاحتياجات الأساسية للطفل حديث الولادة عند تعاملها مع المشكلات الأسرية فتوضح للزوجين تأثير الضغوط والخلافات على عملية توفير المناخ النفسي والاجتماعي الملائم والمستقر الذي يدعم نمو الطفل بشكل طبيعي. وبذلك فإن تفهم الأخصائي الاجتماعي لطبيعة هذه المرحلة السنية والمتطلبات المرتبطة بها ونوعية الصراع الاجتماعي النفسي الذي سوف يواجهه الطفل خلال هذه المرحلة يساعد على تشجيع الأسرة لتفهم مثل هذه الحقائق والتعرف على الوسائل والسبل التي تدعم الطفل في هذه المرحلة الحرجة من النمو.

ويرى كل من Ashford, Le Cory, & Lortie (2004) أن هناك ضرورة للتعرف على الأبعاد الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية المرتبطة بالفرد في إطار من البيئة المادية والاجتماعية المحيطة، ويعتقد أصحاب هذه المدرسة الـ biopsychosocial أن تفهم هذه الأبعاد بشكل منفصل قد لا يساعد على تحليل الموقف والسلوك الاجتماعي، لذلك فإنهم يرون ضرورة التعرف على هذه الأبعاد الثلاثة بشكل متفاعل حيث تؤثر الجوانب الجسمية الفسيولوجية على الأبعاد النفسية للفرد، ومن ثم فإن ظروف المجتمع وتقاليده وتوقعاته تؤثر بشكل مباشر على نوعية السلوك التي يتبعها الأفراد، وهكذا يستمر التفاعل بشكل ديناميكي

ومتصل لتنتج عنه مجموعات من السلوكيات المختلفة للفرد، والتي يمكن تفسير بعضها ولا يمكن تفسير البعض الآخر منها.

التكيف مع أسرة بديلة

حالة الطفل حسام فرحات

حضرت إلى مؤسسة رعاية الطفل السيدة سعاد الأنصاري وهي أم بديلة قامت منذ أسبوعين باستلام الطفل حسام فرحات وعمره (11) شهراً من المؤسسة وقد أنهت الإجراءات الخاصة بكفالة الطفل وضمه إلى رعايتها. تشتكي السيدة سعاد من بكاء الطفل المستمر وعدم قدرتها على إسكاته حيث إنها تبذل كل الجهد لتوفير الغذاء والرضاعة والنوم المريح له ولكن الطفل ينام فترات قليلة ويستأنف بكاءه فور استيقاظه. قالت الأم البديلة إنها قد استشارت عدداً من الأمهات عمّا يمكن أن تقوم به للتقليل من بكاء الطفل ولكن كل الحلول لم تأت بنتيجة. تشعر السيدة سعاد بالقلق على مستقبل الطفل حيث إنه متوتر وعصبي وأن البكاء يسبب تعباً جسمانياً للطفل وإجهاداً على صدره وقلبه.

قامت الأخصائية النفسية بالمؤسسة بالتحدث مع الأم البديلة وأخبرتها بظروف الطفل منذ حضوره إلى المؤسسة وهو في عمر أيام، حيث إن الطفل تم تسليمه لوحدة الرعاية التي تضم (3) غرف كل غرفة بها ستة أطفال. وقد عاش الطفل مع مشرفات الوحدة لفترة (10) شهور تقريباً، ولكنه كان يعاني أحياناً من الخوف والقلق فيبكي بعض الوقت وينام معظم الوقت. ولقد نما الطفل نمواً طبيعياً إلاّ أنه كان أقل من الوزن الطبيعي بكيلو جرام. تعلق الطفل حسام بإحدى مربيات الوحدة والتي كانت تبذل كل جهدها لتجعله يشعر بالراحة. خلال عدة لقاءات مع الأخصائية الاجتماعية والأخصائية النفسية وطبيب الوحدة تم إعطاء الأم البديلة سعاد الأنصاري بعض النصائح والمعلومات التي كانت مفيدة للغاية حيث إن الطفل بدأ يشعر بالهدوء والتجاوب مع البيئة الجديدة.

ملــف الطفـــل حُسام: تتضمن المعلومات السرية للطفل أنه قد وجد في مدخل أحد العمارات في أحد أيام شهر يناير حيث عثر عليه أحد السكان عند ذهابه إلى عمله في حوالي السادســة والنصف صباحاً وكان الطفل ملفوفاً ببطانية وكوفرته حرير ولقد كان الطفل عند العثور عليه في حالة بكاء شديد ربما نتيجة لشعوره بالبرد في ذلك الوقت رجح التحقيق الذي أجرته الشرطة أن الطفل قد ترك بمدخل البيت منذ العاشرة مساء اليوم السابق الأمر الذي يعني أنــه قــد أمضى حوالي ثمان ساعات وحيداً، ولقد أظهر الفحص الطبي أن الطفل قد تعرض لنــزلة برد شديدة وآلام نتيجة عدم الرضاعة لفترة طويلة.

- ناقش العمليات المرتبطة بتغيير حضانة الطفل والرعاية البديلة.
- كيف ترى تأثير تغيير البيئة على الجوانب الشعورية والنفسية للطفل حسام؟
- من واقع نظرية الارتباط الاجتماعي Social Attachment ناقش تجربة الطفل حسام المبكرة وظروف الليلة التي عاشها قبل العثور عليه.

ب – مرحلة الطفولة المبكرة (2-4 سنوات)

تُعَدُ هذه المرحلة حاسمة بالنسبة لنمو الطفل وتعلمه خبرات كثيرة عن الحياة، ويتم في هذه المرحلة ظهور الارتباط المتبادل بين النمو الجسمي والنمو العقلي حيث ينتج عن هذا الارتباط البعد الثالث والذي يعرف بالنمو الاجتماعي النفسي، ويعتبر العلماء أن هذه المرحلة مهمة لمستقبل الطفل وذلك لحدوث التوازن في النمو بين الأبعاد الثلاثة (الجسمي – العقلي – والاجتماعي النفسي)، ويعتبر دور الآباء في هذه المرحلة مهماً وكبيراً في مساعدة الطفل على تنمية مداركه ومهاراته الذاتية. ومن السلوكيات التي تتسم بها هذه المرحلة أن الطفل يسأل الآباء أسئلة كثيرة حول طبيعة الأشياء التي يراها ولماذا ومتى وأين وكيف تعمل هذه الأشياء؟ ويتوقف دور الأب والأم على مستوى الإجابة عن أسئلة الطفل التي لا تتوقف لمساعدته على تفهم كثير من الحقائق وتفسيرها حيث ترتبط درجة المساعدة في هذا المجال بمدى استعداد الآباء وثقافتهم وخبراتهم وتوفر الوقت والطاقة لديهم.

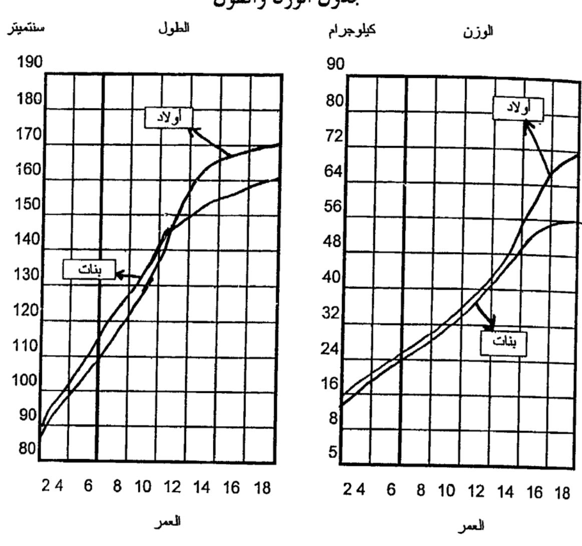
ويصف عدد من العلماء هذه المرحلة بفترة التعلم والتعرف على جوانب الحياة حيث نجد إن مجتمعات كثيرة توفر البرامج والأنشطة للأطفال في هذه السن المبكرة نتيجة انشغال الآباء بالعمل والاعتماد على دور رعاية الأطفال للقيام بمهام الآباء في تقديم العناية والرعاية للأطفال، فنجد مثلاً أن حضانات الأطفال وبرامج التعليم المبكر تتيح للطفل الفرصة للتعرف على بيئة المجتمع ونوعية الأنظمة الموجودة فيها، فيتعرف الطفل خلال هذه التجربة على أشخاص جدد يدخلون حياته ويؤثرون فيها بدرجة أو بأخرى مثل المربية ومشرفة الحضانة. إلاّ أن هذه التجربة قد تكون مريحة للطفل فيتكيف معها ويحبها وينسجم مع التغيرات المرتبطة بها وقد تكون تجربة قاسية وصعبة فيرفض الطفل الذهاب إلى دار الحضانة ويستنكر رغبة الأم في تركه مع هؤلاء الغرباء من أطفال ومشرفين فيبكي ويستعطفها للعودة معها إلى البيت حيث إن عالمه الشخصي سوف يحميه من الالتقاء بأناس لا يعرفهم ولا يفهمهم.

النمو الجسمي الطبيعي:

يزن الطفل عند بلوغه العام الثاني حوالي (12) كيلو جرام ولكن وزنه يزداد إلى أن يصل إلى (18) كيلو جرام عند بلوغه الخامسة. أما عن الطول فنجد أن متوسط طول الطفل في عمر السنتين هو (85) سنتيمتر ويصل إلى (105) سنتيمتر عندما يبلغ الخامسة. وتبين هذه الأرقام أن هذه الفترة هي فترة نمو كبيرة للطفل. إلاّ أن النمو الإدراكي والعقلي الذي تحدث عنه "بياجيه" يتم بمعدلات تختلف من طفل لطفل ومن بيئة إلى بيئة، وبشكل عام فإن النمو الجسمي في هذه المرحلة يتمثل في الزيادة المضطردة في الوزن والطول وكمية العضلات، ويتمثل النمو في هذه المرحلة في ظهور خصائص متنوعة ترتبط بكيفية توائم وتناسق الحركة والتركيز عند الطفل وتناسق الأنشطة الجسمانية مثل الجري والقفز والانحناء وركل الكرة وتنظيم الخطوات في إيقاع معين، فالطفل في هذه المرحلة لديه طاقة كبيرة وقدرة على التحكم في أجزاء جسمه والاستعداد البدني لتعلم حركات ومهارات جديدة مثل تعلم السباحة والرقص وركوب الدراجات وممارسة بعض الألعاب البسيطة التي تتطلب التناسق بين اليدين والعين.

شكل رقم (7)

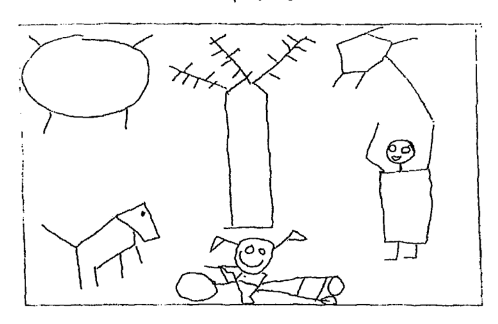
جدول الوزن والطول



أما عن النمو الإدراكي/المعرفي فالطفل في هذه المرحلة وبناء على نظرية "بياجيه" يصبح قادراً على أداء مجموعة من الوظائف العقلية التي تتطور من المرحلة الحسية إلى المرحلة العملية، ومن هنا تبدأ قدرة الطفل على الابتكار وتخيل الصور والأشكال فنجد الطفل ينشغل في ألعاب خيالية مستخدماً أشياء وأدوات مختلفة ويستطيع تأليف مواقف وتمثيليات تعتمد كلية على الخيال، وقد يتطلب الأمر إشراك طفل أو طفلين آخرين في الإعداد والإخراج وتمثيل قصة وهمية يتدربون عليها فيجيدونها وينسجمون معها. وهناك موضوع الصديق الخيالي الذي يخترعه الطفل ويدخل معه في حوار متواصل وأحياناً ما نسمع الطفل يتحدث مع هذا الصديق ويأمره بتنفيذ أشياء معينة وبذلك فهو يمارس نفوذه وقدرته على الإقناع.

شكل رقم (8)

أشكال التعبير بالرسم عند الطفل



أما عن تطور القدرات اللغوية عند الطفل في هذه المرحلة (2 إلى 4 سنوات) فتظهر في قدرته على تكوين جمل قصيرة "أنا أروح بره"، "أنا ألعب هنا". بما تحتويه هذه الجمل من مفاهيم ورموز يستخدمها الطفل للتعبير عن احتياجاته وإشباع رغباته، لذلك فهو يبني جمل قصيرة ويكررها عدة مرات حتى يستطيع الآخرون تفهمها والاستجابة لها، ويستطيع الطفل في هذه المرحلة أن يحفظ حوالي (900) كلمة تتضمن أسماء ومعاني وتشبيهات واتجاهات والتعبير عن مشاعره باستخدام درجات مختلفة.

ولا تقف القدرات اللفظية للطفل عند هذا الحد فنجده يطورها وينميها مع مرور السنوات فيصبح قادراً مع نهاية هذه المرحلة على اللعب بالكلمات ومقارنة المعاني وتكوين عبارات أطول، ومع نهاية هذه المرحلة تصل عدد الكلمات التي يتعرف عليها الطفل إلى (1500) كلمة. وهناك شيء مهم يتعلق بقدرة الطفل في هذه المرحلة على تعلم إتقان لغات أجنبية حيث إنه يوجد لديه الاستعداد الطبيعي لتفهمها ونطقها مثل نطق أهلها.

التحكم الذاتي والسلوكي:

يوضـــح "نيومان ونيومان" (2002) مفهوم التحكم الذاتي والسلوكي بقدرة الطفل على الاستجابة لطلب ما، وتعديل سلوكه بما يتوافق مع الموقف الذي يتعامل معـــه وقدرته على تأجيل احتياجاته والتعامل بطريقة مقبولة اجتماعياً بدون تلقي التوجـــيه مـــن أحد. ويعني ذلك أن الطفل في هذه المرحلة يكون قادراً على تعلم الســـلوكيات المناسبة والملائمة والمقبولة ويصبح أكثر رغبة في تعديل سلوكه لتقليل الـــتوتر الـــناتج عن انتقاد الآخرين له. فعلى سبيل المثال، إذا ما جلس الطفل على مـــائدة الغذاء مع أسرته أو في حضور الآخرين فهو الآن قادر على انتظار دوره في الحصـــول على الطعام ويأكل بطريقة مقبولة وباستخدام الأدوات الملائمة من طبق وملاعق.

وفي هـــذه المرحلة نجد أن الطفل يستمع إلى توجيهات الآباء بشكل رحب وبـــدون اعـــتراض أو إصـــرار، وبشكل عام فإن الطفل يصبح حساساً لتلقي أية توجـــيهات أو انـــتقادات لسلوكه لذلك فإنه يحاول أن يتواءم مع المواقف ويتعلم أســـاليب جديـــدة لمواجهة المواقف الصعبة والمحبطة، فبدلاً من اللجوء إلى البكاء والصـــراخ عندما لا يستجيب الآباء لطلباته فإنه يحاول أن يستخدم المناقشة لإقناع أهله بأهمية الشيء الذي يريده وقد يعد بأنه لن يكرر طلباته إذا ما استجاب الآباء لهـــذا الطلـــب. ومن السلوكيات التي يلاحظها معظم الآباء هو إصرار الطفل على شيء أو طلب معين وتمسكه بتنفيذه في الحال.

ولقـــد وضع "نيومان ونيومان" (2002) بعض التصورات لكيفية التعامل مع إصرار الطفل على طلب أو رغبة معينة:

1 - تغيير انتباه الطفل إلى موضوع آخر.

2 - محاولـــة تعديل شدة مشاعر الطفل بطرح فكرة أخرى مماثلة حتى يتاح للطفل التفكير في بديل لرغباته المغيّر لانتباه الطفل.

3 - إعطـــاء الطفل بعض الآراء والأفكار التي قد تساعده على التعامل مع نزواته المفاجـــئة: (هـــل تذكر عندما حاولنا هذا الشيء من قبل ولكننا غيرناه بعمل شيء آخر وجدته أنت أكثر راحة وسعادة؟...).

4 – عند استماع الطفل للبالغين يتحدثون عن عواطفهم ومشاعرهم فإن ذلك قد يعطي له الفرصة لفهم طبيعة الموقف، فعلى سبيل المثال قد يقول والد الطفل: (إن إصرارك على هذا الشيء يجعلني غير راض لأن ذلك يعني ....).

النمو الاجتماعي النفسي والنمو الأخلاقي:

من الضروري أن نتفهم طبيعة الانفعالات والمشاعر التي يعيشها الطفل خلال هـذه المرحلة. فقد أطلق العلماء على هذه الفترة بداية المرحلة السلبية عند الطفل عند بلوغه سن الثانية والنصف، ومن خصائص هذه المرحلة أن يبدأ الطفل مقاومة رغبات أو توجيهات الآباء فيصبح أكثر إصراراً على التمسك بالأشياء، فعلى الرغم مـن قـيام الآباء برعاية الطفل إلاّ أنه أيضاً يرغب في استطلاع العالم وبناء عالمه الخـاص ولذلـك فإنه أكثر رغبة في إعداد نفسه وتحقيق رغباته بأسلوبه الفردي بالاعـتماد عـلى نفسـه، لذلك فإنه يلعب بطريقته ويأكل بأسلوبه ويتعامل مع الآخـرين بلغته الخاصة. وهناك فرصة أخرى للطفل للتفاعل مع الآباء والأشخاص المـألوفين لديـه في عالمه الاجتماعي، إلاّ أن الطفل في هذا الوقت ليس مؤهلاً بعد لإقامـة علاقات مستديمة مع أي شخص خاصة الغرباء، لذلك فإنه يبدأ في التعامل مع العالم وفقاً لقوانينه الخاصة.

ويسـتمر الطفل في هذه المرحلة في التعلق بأبويه فهو يريدهم حوله ليستمد مـنهم الأمان والثقة ولكنه في نفس الوقت يحاول أن لا يجعلهم أكثر تدخلاً ونفوذاً في اختـياراته. وينشغل الآباء في هذه المرحلة بأمن الطفل والتأكد من عدم تعرضه للإصـابة مـثل الوقوع على سلم البيت أو اللعب بأشياء ضارة مثل الكبريت أو المنظفات أو الجري في أماكن تعرضه للخطر مثل (الطريق العام).

ولقـد بـدأت الـدراسات الحـديثـة للنمـو في مناقشة مفهوم الأنوية (Steiner, Egocentrism1987) وعلاقته بهذه المرحلـة. فالطفل في هذه المـرحلة (2-4 سـنوات) يـرى العـالم بأسلوبه ويتخيل أن الآخرين عليهم أن يروا العالم بطريقته وقد يسبب ذلك انعزال الطفل بآرائه وتفكيره إذا لم يتفق مع الآخرين، إلاّ أن ذلـك يتوقف على مدى استعداده لاحتواء وجهات نظر الآخرين وتقبل بعض الفروض والمفاهيم التي تختلف مع رؤيته للأمور (Piaget & Inhelder, 1967).

وعلى الرغم من اهتمام الطفل بوجود الآخرين في عالمه إلاّ أنه يركز وبشكل كـبير عـلى نفسه وقدرته على إنجاز مهام معينة وأدائها بشكل يرضيه ويتيح له الانسـجام مـع الآخرين. فالطفل في هذه المرحلة يميل إلى الاستقلالية ويقاوم أية محـاولات لدمجـه في عـالم الآخرين أو اللعب والتعامل مع أطفال مثله بأسلوبهم واتجاهـاتهم وميولهم، ذلك فضلاً عن نمو بعض الاهتمامات الخاصة به، فالطفل في هـذا العمر سوف يلاحظ ما يفعله الأطفال الآخرون وربما يحاول متابعتهم ولكنه يفضل أن يفعل هذه الأشياء بأسلوبه وطريقته، فنجده يصر على أداء مهمات قد لا يوافق عليها الآخرون مثل اللعب بالطين أو مواد أخرى وقد يمثل ذلك شيئاً خاصاً لـه؛ لذلك فإنه من المهم أن نتفهم رغبات الطفل وميوله الخاص حتى نستطيع أن نستوعب العالم الذي يعيش فيه.

الصـراع الاجـتماعي النفسي لهذه المرحلة: الاستقلالية ضد الإحساس بالعار والشك:

لقد وضح "أريكسون" أن الاستقلالية تعني قدرة الطفل على التصرف بحرية وتنفـيذه لمهام معينة بأسلوبه الخاص، لذلك فإن متطلبات هذه المرحلة تدفع الطفل إلى الإصـرار عـلى تنفيذ مهماته بنفسه وبأسلوبه فيرفض اتباع الآخرين في أداء الأعمال، لذلك فإذا ما حاولت الأم أن تطعم الطفل فإنه يرفض ويصر على إطعام نفسـه بنفسه (سوف آكل بنفسي). وتتطلب الاستقلالية مجهوداً كبيراً من الطفل لأن علـيه أن يتعلم مجموعة من المهارات الجديدة تُبدأ بملاحظة كيفية أداء الآخرين لـبعض المهـام ثم القيام بأدائها بأسلوبه ثم يحاول تعديل وتحسين طريقته في تنفيذ المهـام. وبشكل عام فإن هذه الدفعة نحو الاستقلالية تتطلب تأييداً ودعماً مستمراً خاصـة من الآباء، ذلك لأن الطفل يشعر بالفخر عندما ينجح في تنفيذ أي مهمة يقـوم بهـا مثل ارتداء الحذاء بنفسه أو ركوب الدراجة ولذلك فإن تقدير الآباء وتشـجيعهم يمثل تأكيداً ودعماً إيجابياً لجهوده ومحاولاته ونجاحاته. ويتلخص دور الآبـاء في هـذه المـرحلة في منح الطفل الفرصة للتصرف باستقلالية وعدم وضع العواقـب أمـام محاولاته لتأدية الواجبات والمهارات بنفسه وبأسلوبه مع مزيد من الاعتراف والتقدير والتفهم لهذه المحاولات.

أمـــا فشل الطفل ومواجهته للصعوبات عند محاولة تحقيق متطلبات المرحلة فإنـــه يـــؤدي إلى عدم حل الصراع المرتبط بها بشكل فعال، الأمر الذي يؤدي إلى إحســـاس الطفـــل بالعار والشك في قدراته واستعداداته كما يوضح "أريكسون". والعـــار كمفهوم يمثل مشاعر سلبية شديدة تتولد من مصدرين رئيسين: السخرية الاجتماعـــية والنقد. فإذا ما فشل الطفل في التمرس على مجموعة مهمات وأصبح غـــير قادر على تحقيق الاستقلالية أو إذا ما شعر بعدم تقدير الآخرين لمجهوداته أو نقدهم لمحاولاته فإن ذلك سيخلق لديه صراعاً داخلياً يزيد من شعوره بالعار وعدم الثقة في النفس، حيث إن الطفل في هذه المرحلة يخلق لنفسه تصوراً عقلياً لخصائص الشخص الناجح القادر على الوصول إلى بناء ذات مستقلة ومتوازنة.

ونـــرى أن الشـــعور بالعار يعكس مجموعة من الانفعالات الغير مريحة والتي تتمـــثل في الإحســـاس بالفشل وعدم الثقة في القدرات الذاتية، ولذلك فإن خلق مســـتويات صـــعبـــة وقاسية كمعيار لنجاح الأطفال في أداء المهارات ربما يسبب استـــنـــزاف كـــل طاقات الطفل خلال محاولته لإتقان هذه المهارات، الأمر الذي يســـبب تأخـــره في التدريب على مهارات جديدة، فعلى سبيل المثال فإن معلمة الحضانة التي تطلب من الأطفال إتقان رسم الشجرة فتطلب منهم أن يعيدوا رسمها مـــرات ومرات حتى تكتمل الصورة ربما تعطل قدرات الأطفال على تعلم وممارسة مهارات جديدة مثل الكتابة وتنظيم الألعاب أو اللعب بالمكعبات.

البيئة الاجتماعية ومرحلة الطفولة المبكرة:

يتضح من العرض السابق أن البيئة الاجتماعية تلعب دوراً كبيراً خلال هذه المرحلة حيث تساهم التقاليد والأعراف والأنظمة المجتمعية في تكوين سلوك الطفل وتوجـــيهه. ويرتكـــز المحور الأساسي للنمو في هذه المرحلة على قيام الطفل بتعلم وممارســـة مجموعـــة مـــن المهـــارات الجسمية والعقلية، لذلك فإن الطبيعة المادية والاجتماعـــية تعتـــبر أساسية في تهيئة الظروف التي تساعد الطفل على تحقيق هذه المهام التنموية، فنجد على سبيل المثال أن النمو الجسمي للطفل يأخذ طابعاً متقدماً حيث يتعلم الطفل القفز والجري وتعلم السباحة وتكرار الحركة وما إلى ذلك. هذه

الأنشـــطة تساهم بالضرورة في تحقيق التوافق العضلي العصبي عند الطفل. ولذلك فإن وجود الفرص الملائمة لمزاولة الطفل للألعاب والتمارين تعتبر أساسية فنجد أن دول كـــثيرة تهـــتم برياض الأطفال وتزودها بالألعاب والأجهزة التي تتيح للطفل ممارســـة الألعـــاب التي تساعد على تقوية العضلات وتنشيط حركتها ومرونتها، وتنتشر هذه الألعاب أيضاً في الأندية الرياضية وحدائق الأطفال، ولنا أن نتخيل أن الطفـــل الـــذي لا تتاح له الفرصة لمزاولة اللعب سواء لعدم توفرها أو لعدم اهتمام الأسرة بخروج الطفل من البيت لمزاولة اللعب والجري، الأمر الذي سيعيق اكتساب وتحقيق الطفل لتنمية هذه المهارات الجسمية.

وتعتبر هذه المرحلة مهمة للطفل حيث إنه يدرك خلالها طبيعة نوعه (ذكر أم أنثى) ويتعلم توقعات المجتمع تجاه الأولاد والبنات، وتلعب الأسرة دوراً أساسياً في توضـــيح وترسيخ هذه المفاهيم بين الأطفال حيث إن الطفل سوف يبدأ أسئلته عن الظواهـــر المحـــيطة به ومن ضمن هذه الأسئلة "ما المقصود بالأولاد؟ وما المقصود بالبنات؟ وما الفارق بينهما؟" إلا أنه من المهم أن يتعلم الطفل هذه الفروق بطريقة إيجابـــية تســـاعده على الاعتزاز بنوعه والإحساس بالمساواة ذلك لأن الدراسات العلمية لم تثبت حتى الآن أية فروق في القدرات العقلية بين الأطفال على اختلاف نوعهـــم، ولذلـــك نجد أن في بعض المجتمعات تكون التوقعات لما يستطيع الأولاد والبنات أن ينجزوه متساوية الأمر الذي يقلل من فرص عدم التكيف لدى الأطفال بالنســـبة لنوعهم، ولذلك نجد أن البرامج التي تصمم وتنفذ في إطار رعاية الأطفال في هـــذه المـــرحلة تعـــتمد على تنمية القدرات والمهارات الذهنية وخلق نوع من التكيف بين الأطفال والبيئة الاجتماعية المحيطة.

وفي إطـــار الـــنمو الانفعالي وتنمية العلاقات العاطفية، وضحت الدراسات أهمية الارتباط الانفعالي بين الطفل والأم أو شخصية الراعي، لذلك فإن توفر البيئة الاجتماعـــية المســـتقرة والإيجابية التي يسود فيها الحب والتعاطف تساعد على نمو الارتباط العاطفي الآمن حيث يشعر الطفل بالأمان والثقة فيبدأ في استكشاف العالم المحـــيط بـــه. وعلى الجانب الآخر فإن معايشة الطفل لبيئة اجتماعية متوترة وغير مســـتقرة والـــتي تتمـــثل في الخلافـــات الأسرية أو الحروب ونقص الموارد وعدم

الاستقرار المجتمعي قد ينتج عنه ارتباط عاطفي متوتر وغير آمن، وفي هذا السياق فإن الأخصائي الاجتماعي الذي يعمل في مجال الأسرة والطفولة يجب أن يقوم بتقدير تأثير ظروف الأسرة والبيئة وتأثير ذلك على النمو العاطفي عند الأطفال في هذه المرحلة.

عدم استجابة الأطفال

حالة المشرفة ثناء عبد الظاهر

طلبت المشرفة الجديدة لحضانة الأطفال لقاء مديرة القسم للتحدث معها عن شعورها تجاه تجربتها مع الأطفال منذ التحاقها بالدار في الشهر الماضي، قالت "ثناء عبد الظاهر" للمديرة "وفاء القاضي" أنها سعيدة بوجودها في دار رعاية الأطفال وأن التجربة تعتبر مهمة بالنسبة لها، لأنها تؤدي دوراً مهماً وأنها تستمتع بعملها مع الأطفال ومتابعتها لهم وهم يلعبون ويمرحون ويقضون وقتاً طيباً في الدار. عقبت "وفاء القاضي" على هذه الملاحظات بأن إيمان المشرفة بعملها ودورها وحبها لما تؤديه يعتبر من المتطلبات الأساسية للنجاح في هذا المجال التربوي. تحدثت المشرفة الجديدة عن بعض الصعوبات التي تواجهها في عملها وطلبت رأي مديرة القسم ونصيحتها في التعامل مع هذه الصعوبات. قالت "ثناء" إنها تعد بعض الأنشطة وتنظمها بعناية لمجموعة الأطفال التي تشرف عليهم وعددهم (12) طفلاً وطفلة ولكن الأطفال في البداية يبدؤون في العمل ويبدون اهتماماً كبيراً ولكنهم بعد فترة قصيرة ينصرفوا عن النشاط الذي تعده لأداء أشياء أخرى.

طلبت المديرة من المشرفة أن تعطيها أحد الأمثلة للأنشطة التي تعدها فقالت ثناء إنها قامت في يوم بتقسيم الأطفال إلى أربعة مجموعات كل مجموعة تضم ثلاثة أطفال وسألت كل مجموعة أن تقوم بالعمل معاً على تلوين لوحة وتذويقها، ولكن الأطفال سرعان ما انصرفوا عن عملهم وبقي طفل واحد في كل مجموعة للعمل في اللوحة. سألت المديرة المشرفة الجديدة عن أعمار الأطفال فقالت إنها تتراوح ما بين ثلاث وأربع سنوات.

أسئلة تطبيقية

- كيف ترى دور مشرفة الحضانة في العمل مع الأطفال في هذا المجال؟
- اذكر بعض الحقائق التي يجب أن تعرفها ثناء عند تعاملها مع هذه الفئة العمرية.
- ما الأنشطة التي يمكن أن تجذب انتباه الأطفال في هذا العمر؟

ج- مرحلة ما قبل المدرسة (4-6 سنوات)

يبدأ الطفل في هذه المرحلة على التدريب على مجموعة كبيرة من الخبرات والمهارات والأنشطة التي سوف تؤهله في المرحلة التالية لبداية مرحلة التعلم الأساسي وما يتبعها من نمو الإحساس بالذات والقدرة على التفاعل مع الآخرين.

النمو الجسمي الطبيعي:

عندما يصل الطفل إلى سنّ الرابعة فإنه يتعرض لمجموعة من التغيرات الطبيعية التي يمكن ملاحظتها بسهولة، فينام الطفل في هذه الفترة عدداً أقل من الساعات بالمقارنة بالمراحل السابقة، ويبدأ الطفل في هذه المرحلة في التعرف على نوعية جنسه سواء أكان ذكراً أم أنثى ويتأثر ذلك بمجموعة كبيرة من المفاهيم المرتبطة بنظرة المجتمع وتوقعاته، الطريقة التي يتصرف بها الذكر واختلافها عن الطريقة التي تتصرف بها الأنثى. وتتميز هذه الفترة بسرعة النمو وتزايده فتصل إلى الذروة عند الأنثى في حوالي العاشرة - وعند الذكر في سن الثانية عشرة.

أما عن النمو الحركي Motor Development فنجد أن التناسق والتكامل الحركي للطفل يصبح أكثر وضوحاً ولكن النمو الجسمي يبطئ قليلاً بالمقارنة بالمرحلة السابقة. ويستطيع الطفل في هذه المرحلة أداء أنشطة حركية وعضلية متقدمة مثل الوقوف والجلوس والقفز والتي تشابه مع أنشطة البالغين، ويتميز النمو في هذه المرحلة بالهدوء نتيجة لتأثير العوامل الجينية والغذائية والاجتماعية، وتلعب البيئة وثقافة الأسرة وقدرتها على توفير غذاء متوازن للطفل دوراً كبيراً في معدلات لنمو الطفل في هذه المرحلة، وتؤثر قدرة الأسرة على توفير عناصر الغذاء المتكامل ودرجة اهتمامها وتفهمها لأهمية الرعاية الغذائية للطفل في مستويات النمو الجسمي للطفل. وبشكل عام فإن شهية الطفل في هذه المرحلة تكون ضعيفة وينفر

كـــثير من الأطفال من أنواع معينة من الطعام مثل الخضراوات والفواكه فنجدهم يمـــيلون إلى الوجـــبات السريعة وشرب المشروبات التي تحتوي على الصودا (مثل الكوكـــاكولا) والعصائر أكثر من أكل الوجبات الكاملة وشرب الألبان، وبشكل خاص فإن الطفل في هذه المرحلة يكون له مذاق خاص واختيارات معينة من نوع المأكولات والمشروبات التي يتناولها.

الجوانب الإدراكية/المعرفية:

يتعامل الطفل في هذا العمر مع متطلبات مرحلة ما قبل العمليات التي ناقشها "بياجـــيه" والتي تتميز بالتفكير الرمزي Symbolic Thinking الذي يتميز بالقدرة على استرجاع تجربة أو خبرة معينة وحل المشكلات بطريقة أكثر فاعلية، ويستطيع الأطفـــال في هـــذه المرحلة التي تسمى (مرحلة ما قبل المدرسة) تمييز الأشياء بدقة أكـــبر طالما أن هذه الأشياء والمواد تندرج تحت مواصفات معينة. فالأطفال في هذه المـــرحلة يستطيعون تعلم الأرقام ومعرفة العد. ولا يستطيع الأطفال في هذه المرحلة اســـتخدام الـــتفكير الانعكاسي لأنهم يركزون على تفهم السبب ثم النتيجة وليس العكـــس. فالطفل قد يفهم أن قيادة السيارة بسرعة كبيرة هو السبب الرئيسي في وقـــوع حادثة معينة ولكنهم قد لا يتفهمون أن إصابة فرد ما بكسر قد يرجع إلى ارتطام سيارة بأخرى .

أمـــا عـــن القدرات اللغوية فالأطفال ما بين سن 4 إلى 6 سنوات يتفهمون تركيبات الجمل وبعض القواعد اللغوية البسيطة مثل الاسم والفعل والمفرد والجمع والمذكر والمؤنث. ويميل الطفل في هذه المرحلة إلى المبالغة في وصف المواقف والتعبير عـــن المشاعر. ويلعب التقليد دوراً كبيراً في تعليم الطفل كيفية استخدام التعبيرات اللفظية وللآباء دور كبير في سرعة تعليم الأطفال اللغة عن طريق توضيح الألفاظ والمعـــاني واســـتخدامها بطريقة لائقة وفعالة، وتسعى كثير من المجتمعات إلى توفير أســـاليب معينة من التعليم لمساعدة الطفل على التعلم في أثناء هذه الفترة، فنجد أن كُـــتّاب القرية وتعليم القرآن الكريم في المساجد من التجارب المفيدة للأطفال وقد اســـتمر لســـنوات طويلة قبل أن تظهر الحضانات ومراكز تعليم الأطفال، إلا أن التعليم في هذه المراكز يتطلب كثيراً من الاستعدادات والخصائص حتى تصبح قادرة عـــلى تحقـــيق مهامهـــا بكفاءة مثل وجود طاقم مؤهل من المعلمين وتبني منهجاً

متكاملاً ومخصصاً للأطفال بالإضافة إلى التفاعل البناء بين الآباء والمعلمين في هذه المراكز التعليمية.

دور التمييز النوعي للجنس على نمو الأطفال:

يستطيع الطفل في هذه المرحلة العمرية (4 إلى 6 سنوات) التعرف على الفروق بين الجنسين (ولد، بنت) (ذكر، أنثى) ولذلك فهو يميز النوعين عن طريق خصائص شكلية وجسمية معينة، فالولد يرتدي ملابس وألوان تختلف عن البنت وكذلك فإن طول الشعر وطريقة قصه وأسلوب الكلام يعطي للطفل فرصة لمعرفة الفروق البينية بين الجنسين. ومن هنا يأتي دور المجتمع في التأثير على الأسلوب الذي يمارس به الطفل أنشطته وألعابه. فنجد أن البنات هنّ أكثر هدوءا ويفضلن في معظم الأحيان اللعب بالعرائس الصغيرة والأدوات المماثلة لملابسهن وأدوات التجميل الخاصة بالأنثى، أما الأولاد فيفضلون اللعب بالسيارات الصغيرة وأدوات الإصلاح والمكعبات وما إلى ذلك. وتؤثر اتجاهات المجتمع والتوقعات الثقافية في كيفية تقديم الطفل لنفسه ومزاولته لسلوكيات معينة تختلف وفقاً لنوع الطفل. ويصاحب تعرف الطفل على نوعه نمو شعور ذاتي لديه يشكل الإطار العام لمشاعر وسلوكيات الطفل، فالبنت تكون أكثر رقة وهدوءاً بينما الولد يكون أكثر حركة وعنفا وسرعة وعدوانية (Beere, 1990; Serbin, et al., 1993).

لا شك أن الارتباط بالأباء يحدد أساليب تفهم الطفل لنوعه والسلوكيات المتوقعة منه. فنجد على سبيل المثال أن نظرية التحليل النفسي ترجع وجود ميل لدى الطفل للارتباط بالجنس المختلف من الأباء. فعلى الرغم من رغبة الطفل في تقليد الآباء وفقاً لنوع جنسهم (البنت تقلد الأم وتتعرف منها على كيفية التعامل كأنثى وكذلك الولد يقلد أباه لنفس الغرض) إلا أنه تنشأ علاقة ارتباط وجداني تقوم على التقدير والتعاطف والإعجاب بالآباء من الجنس المختلف (البنت ← الأب) و (الابن ← الأم).

النمو الأخلاقي Moral Development:

هناك اعتقاد غالب بأن الطفل يتعلم المعايير والمبادئ الأخلاقية في المراحل المبكرة من عمره، ولذلك فإن كثيراً من الأفراد يحكمون على سلوكيات الطفل

المشاغب بأنها ترجع إلى فشل الأسرة في تعليم الطفل الصواب والخطأ، الأمر الذي يسبب نمو طفل غير مبال بالتعليمات ويكسر القواعد الأخلاقية بدون أي إحساس بالخطأ أو الذنب. ونظراً لأهمية تفهم المعايير الأخلاقية السائدة في المجتمع والتي تؤثر في تكوين القيم ورؤية الطفل وحكمه على المجتمع الذي يعيش فيه لذلك فإن هناك ضـــرورة للـــتعرف على نظرية "لورانس كولبرج" Lawrence Kohlberg الذي اســـتخدم أسلوب الملاحظة في دراسة طريقة ردود الأطفال على قصة تحتوي على اختيارات أخلاقية متضاربة. لقد أدت هذه الدراسة إلى توصل "كولبرج" إلى ست مـــراحل للنمو الأخلاقي والتي تبدأ منذ الطفولة لتتدرج حتى المرحلة المتوسطة من العمر.

ويـــبين الجدول اللاحق (رقم 5) حقائق وقواعد أساسية تقوم عليها عملية النمو الأخلاقي:

1 - إن المســـتوى الأول يركـــز على الرؤية الذاتية والتوجهات الفردية أكثر من التركيز على المعايير والتوجهات العامة.

2 - إن المستوى الأول ينصب على توجهات واعتقادات شخصية يمكن ملاحظتها ذاتـــياً وذلـــك عكـــس المـــراحل الأخيرة التي تركز على المفاهيم المجردة، ففي المستويات الثلاث (الأول إلى الثالث) يكوّن الطفل رأيه لما هو صواب أو خطأ وفقاً لما يخبره به الآخرون وما يراه ويقتنع به شخصياً. وبدءاً من المستوى الرابع يـــرى المراهق أن هناك اختلافات في رؤى الأفراد تجاه ما هو صواب أو خطأ. ولكـــنه يســـتطيع خلال المستوى الخامس والسادس أن يتفهم أن هناك قواعد ومعايير أخلاقية يمكن تعديلها وتصحيحها.

3 - يـــتم في المستوى الثالث تحديد الصواب والخطأ وفقاً لما يراه مجموعة الأصدقاء وما يقروه كمعايير أخلاقية. ولكن في المستوى الرابع يؤثر نضج الفرد على تفهم المعايير الأخلاقية ويبدأ تغيير رؤية الصواب والخطأ ممّا تراه مجموعة الأصدقاء إلى ما يقره المجتمع ويعترف به، ويتغير مفهوم الصواب ممّا يفيد الفرد شخصياً ويعود عليه بالنفع إلى ما يتفق عليه المجتمع.

جدول رقم (5) – مراحل كولبرج للنمو الأخلاقي

المرحلة	توصيفها	طبيعة المرحلة وخصائصها
مرحلة ما قبل التقليدية	التركيز على تجنب العقوبة والحصول على المكافأة.	
المستوى (1)	الأخلاقية المتبعة والتي تقوم على العقاب والطاعة.	الصواب هو ما يجب اتباعه عن طريق القوانين التي يضعها الآخرون (الآباء- المدرسون) لتجنب الوقوع في الخطأ والتعرض للعقاب.
المستوى (2)	وسائل الأغراض وحكمة تبادل الفائدة.	الصواب هو ما يوافق عليه الفرد ويقبله وهو الذي يقره الشخص الذي له سلطة المكافأة والعقاب فالصواب لا يتبع الولاء لأشخاص أو أفراد معينين.
المرحلة التقليدية	التركيز على القواعد الاجتماعية.	
المستوى (3)	الالتزام بقواعد الجماعة وآراء مجموعة الأصحاب والأصدقاء.	الصواب هو ما يمكن اتباعه للحصول على تقبل الأصدقاء وموافقتهم.
المستوى (4)	الالتزام بقواعد النسق الاجتماعي والأخلاقيات العامة والقانون والنظام الموجود.	الصواب هو ما يتفق مع القواعد والقوانين الموجودة والتقاليد والأعراف وما تقره السلطة.
مرحلة بعد التقليدية	التأكيد على المعايير الأخلاقية.	
المستوى (5)	الالتزام بالعقود الاجتماعية والقواعد الأخلاقية وحقوق الأفراد.	الصواب هو ما يتفق مع القواعد المتفق عليها لحل الخلافات ويكون الناتج مقبول أو مرفوض.
المستوى (6)	القواعد هنا تلتزم مع ما يختاره الفرد من المبادئ والقيم الإنسانية.	الصواب هو ما يتوافق مع المبادئ الذاتية أو القواعد العامة الأخلاقية الإنسانية.

4 - مع نضج الأبناء فإن عدداً قليلاً من الأفراد يستطيع الوصول إلى مرحلة ما بعد التقليدية والتي يكون فيها الحكم على ما هو صواب أو خطأ منصباً على ما يتلاءم مع المعايير والقيم الإنسانية والمبادئ الحضارية.

5 - تتوثق المعايير الأخلاقية لدى الفرد عن طريق اتباع مفاهيم الآباء والمحيطين بما هو صواب أو خطأ حتى تصبح جزءاً أساسياً من المفاهيم الشخصية للطفل، فتراهم يصنفون الأشياء بحلال أو حرام أو صواب أو خطأ وفقاً لما يؤكده لهم الآباء منذ صغرهم، لذلك فإن هذه المعايير تصبح جزءاً من مفهوم الذات عند الطفل.

6 - تتأكد وتوثق المعايير الأخلاقية عند الصغار عن طريق عمليات التأكيد والتدعيم الإيجابي والسلبي للسلوك. فإذا ما كذب الطفل وأدرك الآباء ذلك فإن درجة توضيحهم وحكمهم على هذا الخطأ يوضح للطفل إذا ما كان سلوك الكذب شـــيئاً ســـيئاً وخطيراً لا بدّ من عدم تكراره أو يتجاهل الآباء هذا الخطأ فلا يرى الطفل مدى خطورته ومن ثم يكرر الكذب مرة أخرى .(Kohlberg, 1976)

النمو الانفعالي والشعوري:

يبدي الأطفال في هذه المرحلة كثيراً من مشاعر الحب والحنان ولكنهم أيضاً يصبحون أكثر ميلاً إلى التحدي والعناد. ولذلك فإنه من المهم أن يتعلموا في هذه الفترة كيفية التحكم في غضبهم وانفعالاتهم الشديدة التي تنتج عن عدم تحقيق رغباتهم مما يدفعهم إلى البكاء والصريخ حيث إنهم أكثر ميلاً للعناد والإصرار على تنفيذ رغباتهم مهما كانت الظروف ولذلك فهم يتحدون سلطة الآباء وأوامرهم وتعليماتهم.

فالطفل في هذه المرحلة يخاف الانفصال عن الآباء أو إصابة نفسه بجروح أو ما يشابه ذلك. وتنمو عند الطفل في هذه المرحلة مشاعر قوية نحو أسرته وبيته وأدواته الخاصة ولعبه، ويبدأ في هذه المرحلة الميل نحو التطرف في الانفعال فهو إما يحب الشيء أو يكرهه، ولذلك تنتابه نوبات الغضب والتشنج من أشياء قد تبدو بسيطة، فهو يصرخ ويضرب الأرض ويرمي بالأشياء إذا ما رفض الآباء خروجه

للعب في وقت معين فيصبح صعب المراس. ويرتبط الطفل في هذه المرحلة بعادات معينة وهوايات خاصة حتى تصبح جزءاً أساسياً من عالمه وتشغل وقته تفكيره.

الاعتبار الذاتي Self Esteem:

لقد بدأ علماء النفس الاجتماعيون يدركون مدى تأثير الاعتبار الذاتي للطفل على سلوكياته وتوازنه العاطفي والانفعالي (Frey & Ruble, 1987; Butler, 1990)، فالاعتبار الذاتي يعني رؤية الطفل عن نفسه ومفهومه عن ذاته حيث يتأثر بالضرورة بمدى إحساس وحكم الآخرين على الفرد، لذلك فإن مستوى الاعتبار الذاتي لدى الطفل يؤثر في توقعاته عن نفسه وثقته في قدراته الذاتية. وعلى نفس المنوال فإن مستوى الاعتبار الذاتي يؤثر في إحساس الطفل نحو نجاحه أو فشله في مهمة معينة أو تعلم مهارة جديدة . لذلك فالطفل السوي يعرف مقدار ثقته بنفسه وبقدراته ويقارن بين نفسه وبين أشخاص آخرين يعتبرهم نموذجاً يحتذي به في آرائهم، فقد يتخيل الطفل مدى قدرته على أن يصبح لاعب كرة شهير لذلك فهو يقارن بين مهاراته الفنية في لعبة الكرة وبين لاعب كبير مشهور يلعب في نفس المركز، إلا أن فشل الطفل في تكوين صورة إيجابية وفعالة عن نفسه ومستوى كاف من الاعتبار الذاتي سوف يؤثر في قدراته على التطور والنمو المهاري واكتساب القدرات والنجاح في مواجهة بعض التحديات المرتبطة بحياته ومستوى أدائه.

النمو الاجتماعي:

يصبح الطفل في هذه المرحلة أكثر تعاونا، ويعتمد الطفل بشكل كبير على تشجيع البالغين ولذلك نجده يطلب نصيحتهم وتوجيهاتهم، وغالباً ما نجد الطفل مستعداً لتعديل بعض العادات حتى يتوافق مع الظروف والتجارب الجديدة في حياته مثل الذهاب إلى الحضانة أو البرامج المدرسية المبكرة، وعلى الرغم من أن الطفل قد يظهر بعض الخجل في بداية تعرفه على شيء أو تجربة جديدة إلاّ أنه يندمج مع المواقف الجديدة بسرعة ويصبح أكثر حرصاً على تعلمها ومجاراتها، لذلك فإن الطفل يصبح قادراً على الاندماج في المدرسة وتقبل سلطة شخص جديد في حياته وهو "المدرس"، ويتعرف الطفل على أشخاص جدد يصبحون بسرعة أصدقاء حميمين وهم زملاؤه في الفصل الدراسي. وبشكل عام فإن الطفل يميل إلى التركيز

على مصلحته الشخصية فيكون صداقات جديدة تكون في بدايتها ضعيفة وغير مؤكدة.

اللعب في حياة الطفل:

يشكل اللعب جزءاً كبيراً من حياة الطفل لما يمثله من أهمية وفائدة ومتعة شخصية. فالطفل يحب اللعب لساعات طويلة، ويتعلم في هذه المرحلة أن له طريقة معينة تميزه في اللعب فلذلك نجده مبنكراً، وهناك بعض قواعد الألعاب يمارسها الطفل ولكنها قد تختلف عن تجربة الواقع، فالطفل قد يلعب دور الطبيب ولكنه يمارس هذا الدور وفقاً لتفسيره هـ لما يجب أن يقوم به الطبيب ويخضع ذلك لرؤية الطفل وتفسيره للدور الذي يلعبه. فمن قال إن الطبيب يعطي "حلوى" لمريضه أو أحياناً "يضربه" حتى يستمع لإرشاداته.

وكما يرى أصحاب نظرية التحليل النفسي أن اللعب يعطي الطفل فرصة لاكتساب قدرات تساعده على مواجهة المشكلات، ولذلك فإن تكرار الطفل للعبة معينة وممارستها مرات ومرات يعطيه الانطباع بقدرته على التحكم في مواقف معينة في حياته. أما أصحاب نظرية التعلم فيرون أن اللعب هو وسيلة يستطيع من خلالها الأطفال تعلم مهارات الكبار وأدوارهم الاجتماعية، فالطفل يتعلم من خلال ثلاث طرق:

1 - من خلال خبراته الذاتية وما يتبعها من تأييد ومكافأة من الآخرين أو مكافأة ذاتية.

2 - من خلال ملاحظة البالغين أو أطفال آخرين يتم تدعيم سلوكياتهم عن طريق آبائهم.

3 - من خلال تحديدهم لأهداف ذاتية يسعون إلى التوصل إليها.

أما أصحاب النظرية الإدراكية/ المعرفية فيرون أن اللعب له مستويات معينة يتضمن كل مستوى تفصيلات ونماذج خاصة.

جدول رقم (6)
أنواع اللعب الإدراكي/ المعرفي

النوع	التوصيف	الأمثلة
اللعب الوظيفي	بسيط- متكرر في الحركة- استخدام أدوات أو معدات.	دفع العجلة- أو ملء صفيحة بكوب صغير.
اللعب البنائي	التلاعب والمناورة بالأشياء المادية لبناء أجسام وأشكال جديدة.	بناء جسم كبير بالمكعبات
تخيلي/ تظاهري	تحريك أو تعديل أشياء- تخيلي- يتبع مواقف وحكايات درامية لها تفصيلات كثيرة.	اللعب بأشياء خيالية مثل سوبرمان.
اللعب وفقاً لقواعد	اللعب النظامي الذي يلزم بقواعد وطرق معينة.	الاستغماية- القفز بالحبل.

اللعب الجماعي:

لقد توصلنا في المرحلة السابقة (2 - 4 سنوات) إلى أن اللعب يعكس ضرورة حركة أعضاء الجسم لتحقيق التوافق بين المراكز العصبية والعضلات، لذلك يتدرب الطفل على ممارسة التوافق العضلي العصبي لأجزاء الجسم، وكحقيقة عامة يعتبر اللعب وسيلة يستخدمها الطفل للتعرف على العالم المحيط به والتدرب على مهارات جسمية مهمة. كذلك فإن المهارات الاجتماعية تساعده على حل الصراع الخاص بالمرحلة السابقة.

أما عن اللعب في مرحلة (4 – 6 سنوات) فإنه يأخذ شكلاً أكثر تطوراً حيث يتغير غرضه وتركيزه من الناحية الاستكشافية التجريبية إلى المرحلة التنافسية .بممارسة ألعاب محددة لها أغراض وقوانين يجب أن ينظمها المشارك في اللعبة. فنجد أن اللعب الجماعي يرتبط بعمليات وخطوات معينة تتطلب المرونة والفهم والتذكر والتحليل وأسلوب حل المشكلة، وهناك فائدة أخرى مهمة للعب تتعلق بالتدريب

على القدرات العقلية والإدراكية واستخدام الذكاء الفطري في مواقف اجتماعية محددة، ويتميز اللعب الجماعي بأنه:

- أكثر تنظيماً حيث يتبع قواعد معينة ونظام للمكافأة والفوز بالبطولة ونظام للعقوبة عند مخالفة التعليمات مثل خسارة نقاط أو التوقيف عن اللعب لفترة زمنية.
- يرتبط بالعلاقات القائمة بين المشاركين في اللعب التي تصل إلى درجة الصداقة وتبادل المنافع والخبرة والاستمتاع بالأنشطة.
- يحكم عن طريق النتائج، فالفريق الذي يفوز هو الفريق الذي يحرز نقاط معينة أو أهداف في مرمى الخصم.
- ينقسم نوع اللعب وفقاً لنوع اللاعبين. فإن معظم الألعاب لا يتم المشاركة فيها بين الأولاد والبنات، فيصبح لكل جنس لعبة معينة إلا أن بعض الثقافات تشجع المشاركة بين الجنسين في لعبة واحدة مثل (شد الحبل والكراسي الموسيقية).
- عند مزاولة الألعاب تظهر بعض السمات الشخصية بين نوع اللاعبين: فيميل الأولاد للألعاب التي تتطلب قوة عضلية ومتطلبات مباشرة ومنافسة شديدة تحقق لهم الإحساس بالذات ونشوة الانتصار ومعايرة الخصم، أما البنات فيميلون إلى الألعاب المحافظة التي لا تتخللها منافسة، قوية قد تفسد من نوعية الصداقة بين المشاركات ولذا فهن أكثر ميلاً إلى الموافقة والإجماع والاقتناع والتفهم لقانون اللعب وكيفية تطبيقه (Hetherington, et al., 1979).

الصراع الاجتماعي النفسي: (المبادرة ضد الإحساس بالذنب):

تنطوي هذه المرحلة على قدرة الطفل على تحقيق متطلبات سلوكية وتعلم مهارات معينة، حيث يتطلب ذلك مستوى معين من الاعتبار الذاتي، والثقة في النفس ولذلك فإن نجاح الطفل في الوصول إلى مستوى ملائم من الاستقلالية يشجعه على أداء مهمات ومهارات خاصة يصبح ضرورياً ويعكس القدرة على تحقيق المبادرة الذاتية، على أن فشل الطفل في الوصول إلى التحكم الذاتي والمبادرة قد يولد لديه الإحساس بالذنب.

ويتضمن الإحساس بالذنب شعور الطفل بمشاعر معينة ترتبط بتنبيه بعض الأفكار التي تعدّ غير مقبولة من الآخرين أو بعض التخيلات التي قد لا يوافق عليها المجتمع، وينمو الإحساس بالذنب أيضاً عندما يفشل الطفل في أدائه لبعض المهام بالشكل والمستوى الذي يحدده بنفسه، ويسبب الفشل في النجاح في التميز في الأنشطة المشتركة التي يقوم بها مع مجموعة الأطفال في مقارنة الطفل لقدراته وإمكاناته، ومن هنا يكوّن الطفل فكرة سلبية عن نفسه نتيجة نقص معين في بعض القدرات والملكات الشخصية.

ولكن هناك بعض المجتمعات التي تفرض قيوداً ومحددات على تطلعات الطفل وقدرته على الاستكشاف، حيث إن بعض المفاهيم السائدة في هذه المجتمعات تحكم على الطفل المتحرك كثير الاستطلاع بأنه طفل غير مهذب أو قليل التربية، وهناك عقوبات معينة تفرض على حركة الطفل الأمر الذي يجعله يشعر بالحزن نتيجة لكبحه لتطلعاته وكبتها داخلياً. ويسبب ذلك عدم نموّ الثقة وإحساس الطفل بالذنب نتيجة عدم قدرته على التوصل إلى مستوى لائق في المهارات أو ضعف المستويات المهارية لديه بالمقارنة بمهارات أطفال آخرين. ويؤدي تفاقم الإحساس بالذنب لدى بعض الأطفال إلى مشكلات نفسية وضعف الثقة بالنفس. وهناك أبحاث تجري الآن عن علاقة حب الاستطلاع بنمو القدرات العقلية والعاطفية لدى الأطفال.

تأثير البيئة الاجتماعية على الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة:

تعتبر مرحلة ما قبل المدرسة (4 إلى 6 سنوات) من المراحل الأساسية للنمو الجسمي والاجتماعي والنفسي للطفل والتي يقوم خلالها بممارسة مهارات وخبرات جديدة تساعده على توسيع مداركه وقدراته العقلية والذهنية، ومن هذا المنطلق نجد أن هناك أهمية لخلق بيئة مشجعة ومحفّزة للطفل لممارسة المهارات الحركية من خلال أنشطة والعاب متقدمة، ففي هذه المرحلة يبدأ الطفل في مزاولة مجموعة من الألعاب ولكن تحكمها مجموعة من القوانين توضح ما هو مسموح وما هو غير مسموح بالإضافة لوضع تصور عقلي للمستوى الأمثل لممارسة هذه الألعاب. وينشغل الطفل خلال هذه المرحلة أيضاً باللعب الإبتكاري والخيالي حيث يقوم بوضع نماذج لألعاب جديدة ويضع بعض القوانين لممارستها ويدعو الأطفال لمشاركته هذه

الألعاب، ولكنه يشرح لهم هذه القوانين والشروط المطلوبة، ومن هنا كانت هناك ضرورة لمساعدة الطفل على الابتكار والتخيل واكتساب القدرة على التحليل والتفاعل. ونظراً للتطورات الكبيرة التي تشاهدها المجتمعات المعاصرة ودخول التكنولوجيا في كافة مناحي الحياة، فإن أطفال اليوم يتعلمون أشياء كثيرة وقدراً كبيراً من المعلومات حتى قبل انضمامهم لمراحل التعليم الأساسي، فعلى سبيل المثال نجد أن ألعاب الفيديو والكمبيوتر قد صممت لتجمع ما بين الإثارة والانفعال فتعكس أهمية التنافس والفوز وتشجع الطفل على الاعتماد على النفس فيمضي الساعات الطويلة في ممارسة هذه الألعاب، ولقد حذر العلماء من أن هذه الألعاب في مجملها قد تشغل الطفل عن التفاعل الإنساني القائم على الحوار والتفاهم، إلى جانب أن بعض هذه الألعاب تحتوي على أفكار قتالية وعدوانية.

ومن هنا كان للأسرة دور كبير في متابعة نوعية الألعاب التي يمارسها الطفل وينشغل بها حيث إن مساهمة الآباء في تشجيع الأطفال على اختيار العاب لها مضامين إنسانية قائمة على التعاون والمشاركة وتعكس مضامين بناءة مثل الانتماء والإيجابية والتعاطف والإحسان يعتبر مهماً. ومع تطور الحياة، زاد الاهتمام بالتعلم قبل المدرسة والذي كان يقدم تاريخيا في الكتاب ودور العبادة حيث كان الاهتمام بتحفيظ القرآن وتعلم المبادئ الأساسية للقراءة والكتابة والحساب، وتقوم الآن رياض الأطفال بعملية تزويد الأطفال بالمهارات والخبرات على هيئة برامج مدروسة يمتزج فيها اللعب مع الدراسة المبسطة للمعارف الأساسية.

أما عن أهمية تزويد الأطفال بالمهارات الذهنية وتفهم القيم والسلوكيات الإيجابية، فنجد أن كثير من الدول تقوم بدعم الأسرة في هذا المجال عن طريق افتتاح برامج رعاية الأطفال سواء في رياض الأطفال أو باستخدام أساليب التعليم الأسري.

وتستخدم برامج التعليم المبكر أنشطة كثيرة تدخل فيها أساليب وطرق التعلم الذاتي والمشاركة حيث تتضمن قيام الأطفال بالرسم وقراءة القصص والأناشيد والألعاب الترفيهية وما إلى ذلك. ويرى العلماء أن الطفل في هذه المرحلة يكون مستعداً لتعلم كم كبير من المعلومات والخبرات، لذلك فإن الدراسة الواعية لبرامج التعلم يجب أن تركز على المحتوى والمفهوم والقيم التي تقوم عليها كل لعبة

من الألعاب، بحيث تساهم هذه الخبرات في تنمية مدارك الطفل وخبراته الذهنية والأخلاقية، وهناك بعض الأسر التي تتيح للأطفال قضاء الساعات الطويلة لمشاهدة برامج التليفزيون بما تحتويه من مضامين إيجابية ومضامين سلبية. وقد تتعلل الأسرة بأن الطفل ينشغل بهذه البرامج ويبقى ساكناً فيوفر للآباء بعض الهدوء المطلوب بعد معاناة اليوم. ولكن أثبتت الأبحاث أن مشاهدة البرامج والتمثيليات التي تحتوي على العنف قد يعطي الأطفال أفكاراً وخبرات غير سوية عن أساليب التعامل مع الخلافات وحل المشكلات.

لذلك فإن المشرفة التربوية التي تتعامل مع مشكلات الأطفال تقوم بتقدير خبرات الأطفال ونوع القيم التي يتفهمونها ومصادر الخبرات والسلوكيات الغير سوية مثل العنف ومخالفة القوانين وما إلى ذلك، وقد يتطلب ذلك مساعدة الأسرة على تفهم أدوارها في تزويد الطفل بالقيم والمهارات والخبرات الإيجابية والبناءة وكيفية تقديم الدعم الإيجابي للطفل في أثناء عمليات التعلم ونقل القيم.

الاعتبار الذاتي والتقاليد الاجتماعية

حالة سعاد النوري

لاحظت مدرسة الحضانة أن الطفلة سعاد النوري (5) سنوات قليلة الكلام وخجولة. فهي تبتعد عن الأنشطة التي يشترك فيها الأطفال الآخرون وتميل إلى الانزواء والجلوس بمفردها. وعن أدائها لبعض الأنشطة مثل الرسم واللعب بالطين الصلصال وجدت مدرسة النشاط أن سعاد تأخذ وقتاً أطول حتى تبدأ في إمساك الأقلام الملونة لترسم صورة معينة. فهي تجلس وتتأمل ورقة الرسم وتنظر للآخرين من حولها ثم تتابع عن بعد كيف يرسم الأطفال الآخرون وما هي الأشكال التي يرسمونها. على أنها لا تستطيع في معظم الأحيان أن تكمل الأنشطة المطلوبة. وقد لاحظت مدرسة الفصل أن سعاد لا تميل للاشتراك في أيّ أنشطة جماعية. فهي دائماً لا تحب أن تتولى أدوار القيادة وتحب أن تتابع الأخريات وهم يرسمن أو يلعبن بالعرائس ولا تشاركهن في ألعابهن الخيالية التي ينظمنها. إلاّ أن سعاد تستمع جيداً للأخريات وتفهم نكاتهن وثرثرتهن وتبتسم لكنها لا تشارك بجدية في المناقشة. وعند استعلام المشرفة الاجتماعية عن ظروف سعاد الأسرية وجدت أنها من أسرة محافظة انتقلت إلى المدينة مع زوج أمها الذي كان يعمل مدرساً في القرية التي عاشت وتربت فيها. وقالت أم سعاد أن ابنتها تسمع الكلام وتجلس بهدوء ولا تثرثر حيث

إن ذلك متوقعاً من البنت التي تعيش في القرية، فالبنت يجب أن تكون هادئة ولا تشارك الآخرين في نشاط قبل أن يسمح لها، ويحظى أخ سعاد الصغير باهتمام الأم وزوجها حيث بدأ الأب في تعليمه لألعاب معينة ويشتري له الملابس التي تماثل ملبوسات الكبار، ولقد قام الأب بتصويره وهو يرتدي زيّ البحارة وضابط الجيش، وتحب سعاد أخيها الأصغر لكنها تترك له الحرية في أخذ أشياءها واللعب بلعبها وعرائسها.

أسئلة تطبيقية

- ناقش أهمية نظرية "كولبرج" للنمو الأخلاقي في تفهم دور الأسرة في غرس المعايير الأخلاقية عند الطفل.
- كيف يمكن استخدام مفهوم اللعب عند الأطفال في تنمية قدرات الطفل الإدراكية والمهارية؟
- اقرأ حالة سعاد النوري ووضح كيفية تأثير الظروف الأسرية والتقاليد على تنمية الاعتبار الذاتي عند الطفل.

د. مرحلة الطفولة المتأخرة (6 إلى 12 سنة)

تعدّ هذه المرحلة من أهم مراحل النمو في حياة الطفل حيث إن الصفات الجسمية والإدراكية الخاصة والمتميزة تبدأ في الظهور وتؤثر في شخصية الطفل وإحساسه بذاته. فمن الناحية البدنية يبدأ الطفل في تكوين الصفات الجسمية المتفردة مثل الطول والوزن وملامح الوجه والشكل الخارجي. أما من الناحية الإدراكية/المعرفية فتبدأ قدرات الذكاء والتفكير والتحليل في النمو والتطور، كذلك تستمر القدرات الحركية في النمو خلال هذه المرحلة ويصبح الطفل مولعاً بتعلم المهارات الخاصة ويقضي وقتاً طويلاً في محاولة إجادتها والإبداع فيها مثل لعبة كرة القدم والسباحة وفنون الموسيقى والغناء ومهارات استخدام الكمبيوتر والألعاب التقنية وما إلى ذلك، وعليه فإن هذه المرحلة تتميز بحرص وشغف الطفل نحو تعلم المهارات والقدرات الجسمية والعقلية والاجتماعية وثقلها والتميز فيها.

التغيرات الجسمية:

تعتـــبر الفترة الزمنية من (9 إلى 12 سنة) من أكثر الفترات من حيث بلوغ الطفـــل المعـــدلات المرتفعة من الصحة والتوازن نتيجة النمو المضطرد لجهاز المناعة والذي يصبح قادراً على مقاومة العدوى بالأمراض، ويمارس الطفل في هذه المرحلة أنشطة تساعده على تحقيق ذلك أهمها التغذية المنتظمة والأكل بشهية. إلاّ أن ظهور الفروق في النوع تبدو أكثر وضوحاً حيث تبدأ البنات في الاستعداد لمرحلة المراهقة بـــدءاً من عمر العاشرة بينما تبدأ مظاهر المراهقة المبكرة عند الأولاد في عمر الثانية عشرة. وبالمقارنة بمعدلات النمو الجسمي في المراحل السابقة تعتبر هذه المرحلة أهدأ وأقـــل نشـــاطاً ويرجع ذلك إلى استعداد الجسم في خلال هذه الفترة إلى نوع من النمو المتقدم والديناميكي في المرحلة القادمة (المراهقة) فيمثل تطور النمو هنا الهدوء الذي يسبق العاصفة.

القدرات الحركـــية:

تســـتمر قـــدرات الحركة في التطور خلال هذه الفترة من العمر، فيستخدم الطفـــل المهـــارات الـــتي تعلمها في المرحلة السابقة مثل الجري والقفز في ألعاب ورياضـــات أكـــثر تنظيماً مثل الجري والقفز والسباحة وكرة السلة وكرة القدم، ويتعـــلم الطفـــل خلال هذه المرحلة مهارات جديدة ويتقنها لأن قدراته الجسمية تكـــون أكثر استجابة للتشكيل والتكوين والتغير، وعلى الرغم من تفوق البنات في القـــدرات الجســـمانية في بداية هذه المرحلة إلاّ أن الأولاد سيكونون قادرين على تضـــييق هذه الفروق عند بلوغ سن الثانية عشرة. وهناك ضرورة لتفهم الفرق بين الأنشـــطة والحركة الجسمية الطبيعية كذلك الفرق بين الأنشطة الجسمية والحركة الزائدة الناتجة عن بعض الخلل في أجهزة الجسم.

خلل نقص التركيز والنشاط المفرط

Attention Deficit Hyperactivity Disorder (ADHD)

ربما يتذكر البعض منا أحد التلاميذ الذي كان معه بالمدرسة والذي كان يتعرض دائماً للعقاب الشديد لكثرة حركته ونشاطه الزائد وعدم قدرته على التحكم في حركته أو اتباع التعليمات، والحقيقة أن رؤيتنا لهذا الطفل وحكمنا على

تصرفاته كان محكوماً بالسلوكيات المتوقعة من طفل في هذا العمر والتي تتأثر بقيم المجتمع، فالطفل الذي يتحرك كثيراً أو يتكلم بدون إذن كان يحكم عليه بأنه طفل مشاغب أو قليل التربية والتوجيه، إلاّ أن العلم الحديث أثبت أن نقص التركيز والنشاط الزائد عند بعض الأطفال يرجع إلى الخلل في الجوانب البيولوجية للطفل والتي تحــدث مبكراً في حياته، فعلى سبيل المثال وجــد الباحث "روتر" Rutter (1995) أن نقص كمية الأوكسجين التي يحصل عليها الطفل تسبب هذا الخلل الوظيفي المعروف بــ (ADHD)، أو ربما يرجع سبب نقص التركيز والنشاط الزائد إلى تعرض الطفل بعد ميلاده إلى التعرض للهواء الملوث والذي يحتوي على مواد سامة مثل الرصاص الموجود في عادم السيارات أو في الطلاء الموجود على حوائط المنازل، وتعتبر الإصابة المباشرة للدماغ كأحد أسباب هذا الخلل. ويرى العالم "باركلي" Barkley (1985) أن العوامل الاجتماعية المتعلقة بتربية الأطفال ربما تساهم في إظهار هذا الخلل في أثناء هذه المرحلة السنية (6 إلى 12 سنة). فالأسرة التي تفرض قوانين صارمة على حركة الأطفال وأنشطتهم تدفعهم بشكل غير مباشر إلى انغماسهم في النشاط الزائد في المراحل التالية كنوع من التمرد على القيود والقوانين الصارمة التي يفرضها الآباء في أثناء مرحلة الطفولة المبكرة.

ولقد أدى نجاح الأطباء في تشخيص الأعراض والسلوكيات المرتبطة بهذا الخلل ADHD إلى اكتشاف بعض الأدوية التي تعطى للطفل لتهدئته وتقليل نسبة النشاط والحركة الزائدة. ولقد حدد العلماء "انجرسول" و "جولدستين" Ingersoll & Goldstein (1993) خصائص خمسة لخلل نقص التركيز والنشاط الزائد:

1 - لا يستطيع الطفل المصاب بهذا الخلل أن يتجاوب مع التعليمات والضغوط التي يفرضها الآباء والمدرسون للحدّ من حركته الزائدة.

2 - إن الحركة والنشاط الزائد تحدث في أمكنة وأوقات غير ملائمة، فربما يمارس الطفل المصاب بهذا الخلل نشاطه وحركته الزائدة في أثناء تناول الأسرة للطعام أو في الوقت الذي يسبق فترة النوم.

3 - إن استجابة الطفل المصاب للمنبهات تكون سريعة وطائشة حتى إذا ما حاول الطفل التحكم فيها إلا أنها تحدث بدون إرادته فتصعب سيطرته عليها.

4 - إن الأطفال المصابين بحالة ADHD ينغمسون في مشكلات نتيجة تصرفاتهم الاندفاعية والتي تظهر في أوقات غير متوقعة (في أثناء الحصة الدراسية)، ولذلك فإنهم يجدون صعوبة في تكوين أصدقاء.

5 - إن هؤلاء الأطفال سوف يعانون من مشكلات في التحصيل الدراسي حيث إن مستوياتهم ودرجاتهم العلمية تصبح متدنية وضعيفة نتيجة نقص القدرات الحسية والجسمية والإدراكية.

أما عن أسلوب التدخل النفسي والطبي مع الأطفال المصابين بـــ ADHD فلم يتم حتى الآن التوصل إلى استراتيجية محددة، حيث إن الملاحظة الإكلينيكية ترجح استمرار الخلل وأعراضه عند الطفل حتى بلوغه مرحلة المراهقة وقد تستمر أعراض الخلل إلى ما بعد ذلك. لكن هذه الأعراض بشكل عام سوف تستمر في خلق صعوبات في التعلم والدراسة، ويجمع معظم الأطباء الآن على فعالية استخدام دواء الريتالين Ritalin الذي يهدئ الطفل ويقلل من أنشطته وحركته الزائدة، ويوصف هذا العلاج لكثير من الأطفال حيث أن تناوله بجرعات محددة وبشكل يومي يساعد الطفل المصاب بالخلل على التركيز داخل الفصل فيصبح أقل حركة وأكثر متابعة للدروس داخل الفصل، وبالإضافة إلى العلاج الدوائي فإن بعض أنواع العلاج السلوكي مثل تعديل السلوك Behavioral Modification يكون لها تأثير في السيطرة على الحركة الزائدة وقلة التركيز عند الطفل.

الجوانب الشعورية:

في خلال هذه المرحلة (6 إلى 12 سنة) يكوّن الطفل آراء محددة فيما يحبه وما يكرهه ويشمل ذلك أنواع الأكل والملابس والألعاب، إلاّ أن الطفل لا يزال غير قادر على التعبير عن أسباب هذه الاختيارات، وينشغل الطفل في هذه المرحلة في نتائج التحصيل الدراسي ويهتم برؤية الآخرين وحكمهم عليه كشخص. ولكن في معظم الأحيان فإن الطفل يكون أكثر إيجابية بالنسبة لظروف الحياة، ونجد أنه في هذه الفترة يصبح أكثر حساسية تجاه العنف بأشكاله لأنه يراها كأشياء منفرة تؤدي إلى الشعور بالتوتر، إلاّ أنه في نفس الوقت يعجب كثيراً بألعاب المصارعة الحرة التي يقدمها التلفزيون بما تحتويه من مشاعر عنف وإصابات بدنية وإثارة

زائدة، وقد يعتبر ذلك كنوع من التناقض الإدراكي/المعرفي حيث يكره الطفل العنف ولكنه يحبه إذا ما كان يقدم في صورة لعبة رياضية أو لعبة من ألعاب الفيديو (Video-Game).

موضوعات بحثية

Soliman, H.(1999).Post-Traumatic Stress Disorder: treatment Outcomes for a Kuwaiti child. International Social Work Journal, 42(2) 163-175.

يتعرض الباحث في هذه الدراسة للآثار النفسية التي يتعرض لها الأطفال نتيجة معايشتهم الحروف وأحداث الدمار والإبادة. ويرتبط التأثير النفسي على الطفل بطبيعة هذه الأحداث ومستوي العنف والتوترات الاجتماعية والبيئية المرتبطة بالحدث حيث إن الطفل يعايش هذه الأحداث ويتعرض للتغيرات التي تحدثها على حياته، إلا أنه قد لا يستطيع تفهم أسبابها وأبعادها.

ومن الاضطرابات النفسية المعروفة التي يتعرض لها بعض الأطفال نتيجة هذه الأحداث والضغوط نجد "اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD)"، وتظهر الأعراض قصيرة المدى لهذا الاضطراب على هيئة تعرض الطفل للقلق ومشكلات النوم ورفض الذهاب للمدرسة وفقدان الشهية والخوف بالإضافة إلى بعض الأعراض الجسمية. أما الأعراض بعيدة المدى فتضم مشكلات التحصيل الدراسي واهتزاز القدرة تحقيق متطلبات النمو بالإضافة لصعوبات التركيز وتوترات ناتجة عن استدعاء الخبرات، الضغوط المؤلمة مع المعاناة من السلوك الاكتئابي وفقدان الثقة بالنفس.

ولقد تم في هذه الدراسة استخدام برنامج علاجي لمساعدة طفل كويتي (11 سنة) على التعامل مع اضطرابات الـ PTSD نتيجة معايشته لأحداث الاجتياح العراقي للكويت في عام 1990. تضمنت خطة التدخل الفردي (العلاج بالرسم والعلاج التحليلي للكوابيس)، والتدخل الجماعي (زيادة التفاعل مع المجموعة وتنمية الاعتبار الذاتي مع الأطفال)، والتدخل الأسري (المشاركة في أنشطة الأسرة والمتابعة المدرسية)، والتدخل المدرسي (المشاركة في الأنشطة الجماعية والمتابعة).

أثبتت الدراسة نجاح خطة التدخل في التقليل من الضغوط والتوترات الناتجة عن هذا الاضطراب، إلا إن خبرات استدعاء الانفعالات السابقة تطلبت الاستمرار والمداومة والتقليل من التعرض للرموز التي ترتبط بالأحداث المؤلمة.

الجوانب الإدراكية/المعرفية:

بناءً على توصيفات "بياجيه" للنمو الإدراكي يمر الطفل في هذه الفترة بمرحلة العمليات المادية Concrete Stage حيث تتركز الأنشطة العقلية على الجوانب الواقعية والملموسة. وتتسم هذه المرحلة بثلاثة جوانب رئيسة:

1 - البعد عن المركزية De- centralization حيث يصبح الطفل قادراً على التركيز على أكثر من جانب في المشكلة أو الموقف الذي يناقشه، فالطفل يستطيع الآن رؤية عدد المكعبات على الطاولة وملاحظة المسافات الموجودة بين هذه المكعبات بعضها البعض.

2 - الحساسية للتحول Sensitivity to Transformation والتي تعني احتمالية وجود رؤى أو تصورات مختلفة لموضوع واحد، وتنمو قدرة الطفل في هذه المرحلة على جمع هذه التصورات معاً في تنظيم منطقي معين. وهنا نجد الطفل غير مهتم بالمستوى الذي يصل له السائل بعد صبه من آنية لأخرى ولكنه أكثر تركيزاً على عملية صب ونقل السائل نفسها.

3 - التحويلية في الأفكار: يتفهم الطفل أن بعض العمليات الحسابية تستخدم في تكوين محصلات وأشكال جديدة عن طريق استخدام خطوات محددة، لذلك فإن الطفل الآن يستطيع أن يفهم أن حصيلة جمع (10 + 10 -20) يمكن تقسيمها على (5) فتكون الحصيلة (4).

في أثناء مرحلة ما قبل العمليات Pre-operational يستطيع الطفل تنمية عمليات عقلية معينة مثل مهارات التصنيف والتجميع، فالطفل الآن يصبح قادراً على تصنيف الأشياء وفقاً لنوعها (أنواع السيارات الخاصة بالركاب) وأيضاً الربط ما بين مجموعات المصنفات مثل (أنواع سيارات الركاب) وأنواع (المعدات الثقيلة التي تتحرك بمحركات ذاتية)، إلا أن هذه القدرات العقلية يتم توظيفها وبشكل مباشر في عملية التعليم. وخلال هذه الفترة يكون الطفل منفتحاً ومستعداً لتعلم معلومات كثيرة وحقائق علمية في وقت واحد حيث إنه قادر على استيعاب كمّ كبير من العلوم النظرية والعملية والتطبيقية والتقنية، وبشكل عام فإن الطفل

الطبيعي خلال هذه المرحلة يكون قادراً على تعلم معلومات جديدة تتطلب التفكير والتحليل والتذكر.

التقييم الذاتي Self Evaluation:

يبذل الأطفال في هذه المرحلة جهوداً كبيرة لتحقيق التفوق والتميز فيما يتعلمونه. ولذلك فإن كل طفل يفكر ويحدد لنفسه أهدافاً وتوقعات علمية معينة يسعى إلى تحقيقها فيبذل جهداً وطاقة كبيرة للوصول إلى نتائج تكون قريبة من توقعاته، فعلى سبيل المثال قد يتوقع الطفل أن يحصل على درجة معينة في امتحانات الفصل الدراسي لذلك فإنه يسعى بكل جهده من خلال الاستذكار و المتابعة حتى يحصل على درجات تضاهي أو تقترب من هذه التوقعات، ويقارن الطفل بين نتيجته ونتائج الآخرين ممّا يسبب رضاءه أو عدم رضائه عن مستوى إنجازاته وما يتبع ذلك من إحساسه الذاتي تجاه نفسه. وبذلك نرى أن هناك ارتباط قوي بين التقدير الذاتي والاعتبار الذاتي Self-steam، فالطفل الذي يستطيع أن يصل إلى مستوى توقعاته تتكون لديه درجة من الثقة بالذات تؤدي إلى شعوره بالاعتزاز بالنفس أو الاعتبار الذاتي الإيجابي، ويساهم في ارتفاع مستوى الاعتبار الذاتي، فنجد على سبيل المثال أن رضاء الآباء وسعادتهم بنتائج الطفل في امتحانات الشهادات العامة يزيد من إحساس الطفل بالاعتبار الذاتي. أما عن النمو الأخلاقي فإن الطفل في هذه المرحلة يحاول أن يحصل على قبول الآخرين خاصة مجموعة الزملاء، لذلك فإنه يعتقد أن الصواب والخطأ هو ما يقره الزملاء ويرونه مقبولاً أو غير مقبول.

موضوعات مختصة بالنمو في هذه المرحلة: الصداقة:

ممّا لا شك فيه أن هذه المرحلة (6 إلى 12 سنة) تمثل تحولاً خطيراً في القدرات الاجتماعية والعلاقات الإنسانية عند الطفل. فنجد أن الطفل يشعر بأن أصدقاءه هم أقرب الناس له لأنهم أكثر تواؤماً معه من ناحية مشاركتهم له في مزاولة الأنشطة والاهتمامات بالإضافة إلى إحساس الطفل بالسعادة لوجوده مع أصدقائه. إن الصداقة تمثل للطفل فرصة كبيرة لتنمية مهاراته الاجتماعية والسلوكيات ووسيلة للتفاعل الإيجابي مع مجموعة من الأطفال في نفس العمر،

ونجد أن بعض الأسر تشجع الطفل على تكوين مزيد من الصداقات إلاّ أن هناك أسراً قد تمنع وتعرقل الطفل من تكوين صداقة معينة مع أفراد معنيين. ومن الناحية التنموية نجد الآباء الذين يتبعون سياسات قاسية وصارمة تحرم الطفل من تكوين صداقات مع أطفال من نفس العمر ربما يؤخرون من نمو الطفل اجتماعياً ويعطلون قدرته على تحقيق التوازن الانفعالي والنفسي.

ويستمد الطفل من صداقاته الإحساس بالتأييد والتقبل من أشخاص يراهم مهمين في حياته ولذلك يتقبلهم ويحترم آراءهم ويتشيع لها ويتأثر بتوجيهاتهم واهتماماتهم المختلفة، ففي بعض الأحيان يصبح تأثير الأصدقاء على الأطفال أقوى من تأثير الآباء عليهم حيث تصبح كل خططهم وأنشطتهم واستمتاعاتهم مرتبطة بأصدقائهم ويقل ارتباطهم بأفراد الأسرة.

وعلى الرغم من التأثيرات الإيجابية للصداقة وما تعود به من إحساس الطفل بتقبل الآخرين له واستمتاعه بلقائهم والاستماع إلى نوادرهم وقصصهم التي يسودها الخيالية والاستعراضية في معظم الأحيان، إلاّ أن هناك بعض الآثار السلبية للصداقة ولقد أثبتت الدراسات وجود ما سمي بضغوط الزملاء Peer Pressure والذي يدفع الطفل ويشجعه على ممارسة أنشطة سلبية مثل التدخين وتعاطي المخدرات والانغماس في الأفكار العدوانية وهناك ما نعرفه بأنماط التمرد على التقاليد السائدة في المجتمع والتي تظهر على شكل ارتداء الأطفال لملابس ذات ألوان وتصميمات معينة واستخدامه لألفاظ وتعليقات معينة.

الصراع الاجتماعي النفسي (التفوق المهاري – الإحساس بالنقص):

يمر الطفل في هذه المرحلة بتجارب كبيرة وفرص متنوعة تدور حول تعلم المهارات بأنواعها ولذلك فإن التفوق المهاري يعتبر جزءاً أساسياً من أطراف الصراع، ويحاول الطفل ممارسة هذه المهارات وإتقانها حتى تساعده في أداء أعمال نافعة ومفيدة. فعلى سبيل المثال نجد أن إتقان الطفل لمهارة الكتابة والقراءة سوف يساعده على أداء الواجبات والمتطلبات الدراسية والتفوق فيها، فضلاً عن أن تميز الطفل في مهارة القراءة سوف يشجعه على الاطلاع على معارف وعلوم متنوعة توسع من آفاقه وتزيد من خبراته، وتتيح مهارة الكتابة للطفل الفرصة للتعبير الذاتي وعرض مشاعره، حيث يهتم بعض الأطفال بكتابة المذكرات الشخصية اليومية. إن

تعلم وإتقان مجموعة المهارات الأساسية يدفع الطفل تجاه ممارسة وتأدية مجموعة من الوظائف الهامة في الحياة، وبشكل عام فإن التفوق المهاري يعبر عن كفاءة الطفل الذاتية بما تتضمنه من اكتساب قدرات وملكات جديدة مثل: التركيز- المثابرة- عادات وقيم العمل- والسعي نحو الأهداف. إلاّ أن الإحساس بالنقص Inferiority يعتبر الطرف الآخر من الصراع والذي يتمثل في عدم قدرة الطفل على تحقيق التفوق المهاري ممّا يسبب شعوره بالنقص. وينتج هذا الفشل من عوامل كثيرة مثل الفروق الفردية واختلاف مستويات الكفاءة الذاتية بالإضافة إلى تفاوت معدلات النمو الجسمي والخبرات الذاتية، وتلعب البيئة الاجتماعية دوراً كبيراً في فشل الطفل في تحقيق التفوق المهاري، ففي بعض المجتمعات نجد الآباء يقارنون بين الأطفال من حيث تفوقهم العلمي حيث يصفون الطفل المتفوق بأنه ذكي ونشيط بينما يصفون الطفل العادي بعدم الذكاء وقلة الحيلة، إلا أن هذه المقارنة تعتبر خاطئة لأنها لا تأخذ في الاعتبار تأثير الفروق الفردية ودور البيئة كعامل أساسي في نجاح الطفل في تحقيق التفوق الاجتماعي والعلمي، وتسبب المقارنات بين الأطفال في إحساس الطفل بالخجل والشعور بالفشل الأمر الذي يزيد من إحساسه بالنقص.

ويعتبر التعليم الأساسي جزءا هاماً وأساسياً من وسائل اكتساب الطفل للمهارات المتنوعة، حيث نجد أن طرق ومناهج التعليم في معظم الأحيان قد تعرقل من ظهور ونمو بعض المهارات التحليلية والإبتكارية Analytical and Creative Skills، خاصة عندما تصمم المناهج الدراسية بشكل يشجع الطفل على حفظ وتخزين واستدعاء المعلومات بدلا من تفهمها والتعبير عنها بأسلوب ابتكاري وانتقادي، كذلك فإن أساليب التعليم التي تقوم على الإلقاء وتركيز المدرس على شرح المعلومات يحجب قدرة الطفل على التعلم الذاتي ويمنع فرصة مشاركة الطفل في تطبيق القواعد والعلوم الأساسية على مواقف واقعية موجودة في الحياة. ومن هنا تمثل بعض الأنظمة الموجودة في البيئة عائقاً للتفوق المهاري والإدراكي/ المعرفي عند الطفل.

تأثير البيئة الاجتماعية على مرحلة الطفولة المتأخرة:

هناك ضرورة لتوفير البيئة الملائمة والمناخ المناسب لتدعيم الطفل خلال هذه المرحلة، ونظراً لأن الطفل خلال هذه المرحلة يسعى إلى تعلم وتأدية مهارات

عديدة بكفاءة، فإن دور البيئة يعتبر مهماً في إنجاح مهمة الطفل. وعلى مستوي الأسرة نجد أن الطفل الذي يعيش في بيئة مستقرة اجتماعية تتأكد فيها العلاقات المتبادلة بين أفراد الأسرة والذي يتمثل في الدعم الاجتماعي والنفسي المتبادل، فإن ذلك يمثل المناخ الإيجابي الذي يستمد منه الطفل الثقة في النفس والقدرة على تحقيق الذات، ويؤكد العلماء أن الخلافات الأسرية والطلاق بين الآباء ربما يؤثر في إحساس الطفل خلال هذه المرحلة بالاستقرار النفسي، بالإضافة إلى طبيعة العلاقات بين الآباء والأبناء والتي تعتبر قوة دافعة وداعمة للطفل خلال هذه المرحلة للسعي نحو النمو الإدراكي/المعرفي والنفسي والاجتماعي. ومن هنا فإن العلاقات الفعالة بين الآباء والأبناء التي تتميز بالاستمرارية والصراحة والتفاهم تشعر الطفل بوجود الآباء بجانبه واستعدادهم لتقديم المساعـــدة عندما يحتاجها الطفل، وبشكل عام فإن غياب الضوابط والقواعـــد الأسرية Family Rules قد يؤثر في تعلم الطفل قواعد ومبادئ أساسية للتفاعل الإيجابي والفعال مع أفراد المجتمع وأنساقه، والتي تتضمن الضوابط الأخلاقية التي تحدد معايير السلوك وأهمية الالتزام بها، فعلى سبيل المثال نجد أن الطفل الذي لم يتعلم من الأسرة معايير التعامل مع الآخرين واحترام حقوق الأفراد وأهمية الالتزام بالأعراف والقوانين قد يتعامل مع الآخرين بصورة سلبية تنم عن عدم الاحترام والتقدير بالإضافة إلى نمو النزعة لديه للاستهتار بقوانين المدرسة والمجتمع.

وتلعب مؤسسات المجتمع التعليمية والثقافية والدينية أدواراً مهمة في غرس المفاهيم والتقاليد التي يتوارثها المجتمع في نفوس الأطفال خلال هذه المرحلة عن طريق تنقيح المناهج الدراسية بصور مختلفة من هذا المخزون الثقافي، وهناك أجهزة الإعلام التي تسعى إلى تزويد الأطفال بأفكار وتصورات ومبادئ تعرفهم بالخصائص الرئيسة والأساسية للمجتمع الذي يعيشون فيه، بالإضافة إلى المؤسسات الدينية والتي توضح للطفل المفاهيم الدينية والروحية التي تتعلق بالدين وما يتضمنه من حقيقة الحياة وارتباط الفرد بأساسيات الحياة الكريمة.

ومن واقع دراسة الجوانب المختلفة للنمو خلال هذه المرحلة نجد أن الطفل يكون مستعداً للتعرف على قدر كبير من المعلومات والخبرات والمهارات، ولذلك فإن الإعداد المناسب والمراجعة الدقيقة لما يمكن توفيره للطفل من معلومات وخبرات

وقيم يعتبر من أهم الواجبات التي يضطلع بها المجتمع، حيث يترجم ذلك في صورة إعداد المكتبات المدرسية والعامة وتزويدها بالكتب والتقنيات التي تساعد الطفل على القراءة والبحث، بالإضافة إلى توفير الأنشطة الرياضية والترويحية من خلال المراكز والأندية الرياضية، وتنظيم الأنشطة الاجتماعية مثل جمعيات خدمة المجتمع والكشافة وغيرها.

وعلى الجانب الآخر فإن عدم توفر الدعم البيئي والمجتمعي لمثل هذه الأنشطة نتيجة لقلة الإمكانات أو عدم تفهم أهمية هذه البرامج والخدمات، قد ينتج عنه مشكلات عديدة، ومن هنا فإن عدم توفر الأنشطة الثقافية والاجتماعية والرياضية في المدرسة وتحويل العملية التعليمية إلى تلقي الدروس فقط واختفاء الملاعب وحجرات النشاط من المدرسة ربما يؤدي إلى إحساس الطفل بالملل ونمو مشاعر متباينة وسلبية تجاه المدرسة والبيئة بشكل عام منها على سبيل المثال شعور الطفل بالفراغ وإهمال المجتمع لاحتياجاته مما يؤدي إلى نمو قيم اللامبالاة وعدم الانتماء، وقد ينتج عن هذا أيضاً انغماس الطفل في ممارسة سلوكيات ضارة مثل التدخين أو تعاطي المخدرات أو الانضمام إلى مجموعة من الزملاء ممن يمارسون سلوكيات عدوانية أو انحرافية مثل السرقة أو الاعتداء على الممتلكات الخاصة أو العامة أو تعمد مضايقة أفراد المجتمع والاعتداء على حرياتهم.

ملخص الفصل

تعرض الفصل السابق بشكل رئيس لمرحلة الطفولة ومتطلباتها، ولقد تم تقسيم هذه المرحلة أربعة أقسام رئيسة تبدأ منذ ميلاد الطفل وتنتهي عند بلوغه سن الثانية عشرة.

لقد وضح أحد العلماء أن الإنسان من دون سائر المخلوقات يحتاج لفترة طويلة من الإعداد والرعاية حتى يستطيع أن يمارس أنشطة مستقلة بشكل ذاتي، ومن هنا فإن هناك مجموعة من الأنساق الاجتماعية تشترك في تقديم الرعاية والعناية للطفل طوال مراحل الطفولة (الأسرة – الحضانة – المدرسة – الوحدة الصحية – النادي الاجتماعي – المركز الثقافي...). وتختلف متطلبات النمو الجسمية والعاطفية

والإدراكية/المعرفية وفقاً لطبيعة المرحلة السنية، إلا أن البيئة تعتبر العنصر الأساسي في التأثير على نمو الطفل. لذلك تم عرض بعض الموضوعات ذات العلاقة الوثيقة بمتطلبات النمو خلال هذه المرحلة مثل الارتباط العاطفي – اللعب – الصداقة – النمو الأخلاقي – الاعتبار الذاتي. ولقد ناقشنا طبيعة الصراع الاجتماعي النفسي المرتبط بكل فترة من فترات الطفولة نظراً لأهمية تفهم العوامل البيئية والاجتماعية المرتبطة بهذا الصراع وتأثيراتها.

نقص التركيز والحركة الزائدة

حالة علاء عبد الفتاح

استدعى مدير المدرسة الأخصائي الاجتماعي ليفض النزاع بين مدرس الصف الثاني وولي أمر التلميذ علاء عبد الفتاح، فبينما يرى الأستاذ إبراهيم الخطيب أن علاء طفل مشاغب وكثير الحركة يتكلم بدون إذن، يرى والد الطفل أن ابنه طفل عادي نشيط يحب المبادرة. ولقد اعتمد مدرس الفصل على ملاحظاته عن سلوك الطفل داخل الفصل وفي أثناء الفسحة فلقد شاهد علاء يجري ويندفع في فناء المدرسة الأمر الذي يجعله يصطدم بالأطفال الآخرين ويسبب حدوث مشكلات بينه وبين زملاءه بالإضافة لكثرة كلامه وتدخله في شؤون الطلاب الآخرين داخل الفصل.

قال الأب أن ابنه أحياناً ما يكون كثير الحركة ويتكلم بدون إذن ولكنه لا يوافق على حكم المدرس على ابنه بأنه طفل مشاغب وفوضوي، تعرف الأخصائي على بعض ملاحظات الأب الخاصة سلوك الطفل داخل الفصل وفي البيت. ناقش الأخصائي مع ولي الأمر ضرورة عرض علاء على طبيب الوحدة المدرسية حتى يقرر أسباب زيادة الحركة وضعف التركيز عند علاء، بعد ذلك تحدث الأخصائي الاجتماعي مع التلميذ علاء الذي أبدى أسفه لأنه أحياناً ما يتحرك كثيراً ويتكلم بدون إذن في الفصل ولكنه لا يعرف السبب في هذا، قال علاء أنه بدأ يخسر بعض أصدقائه بسبب سلوكه المندفع وتدخله في شؤونهم ولذلك فهو يشعر بالضيق والإحراج والرغبة في عدم الذهاب للمدرسة، ناقش الأخصائي الاجتماعي مع علاء أهمية تقدير حالته بالاستعانة بالفحوصات الطبية واختبارات التعلم الموجودة في مركز رعاية وإرشاد الطلاب.

أسئلة تطبيقية

- حدد أهمية الصداقة بين الأطفال خلال هذه المرحلة العمرية.
- عرض "أريكسون" الصراع النفسي (التفوق المهاري والإحساس بالنقص) المتعلق بهذه المرحلة. ناقش دور الظروف البيئية والاجتماعية في تأكيد هذا الصراع.
- في الحالة السابقة يعاني الطفل علاء عبد الفتاح من مشكلات سلوكية تسبب عدم ارتياح مدرس الفصل وزملائه له. ناقش طبيعة الخلل في هذه الحالة وما مدى تأثيره على الجوانب الشخصية للطفل؟

الفصل الخامس

تأثير الأسرة والمجتمع على سلوك المراهق

The Effect of Family and Society on the Adolescence's Behavior

مقدمـــة:

هناك عدد من المفاهيم يرتبط بمرحلة المراهقة حيث تعتبر المراهقة في كثير من المجــتمعات كمــرحلة اســتعدادية للنضج وبلوغ مرحلة الرشد. إلا أن التعريفات القانونـــية في معظـــم بلدان العالم تنص على اعتبار الفرد كطفل ومعاملته من هذا المـــنطلق حتى بلوغه سن الثامنة عشرة. ولكن هناك تأثير كبير لثقافات المجتمعات وتقاليدها والتي تتمثل في تحديد المهمات والارتباطات الاجتماعية للفرد بغض النظر عـــن مرحلة النمو التي ينتمي لها. فنجد على سبيل المثال أن بعض المجتمعات تسمح بـــزواج الشاب والشابة في أعمار مبكرة مثل الثانية عشرة والثالثة عشرة، وبذلك يصـــبح مسؤولاً عن عائلة ومطالب بتحقيق مجموعة من الأدوار التي قد لا يكون مهـــيأ لهـــا. فالطفل في عمر الخامسة عشر قد يصبح أباً ومن ثم فعليه توفير الموارد اللازمـــة لإشباع احتياجات الأسرة، والطفلة في عمر الخامسة عشر قد تصبح أماً مسؤولة عن توفير الرعاية والاهتمام لطفلها الرضيع. وبشكل عام فإن الطفل عندما يـــبلغ مرحلة المراهقة يبدأ في التدريب على مجموعة من الأنماط السلوكية والأنشطة التي تعده وتؤهله للوصول إلى مرحلة الرشد.

الأهداف العملية Objectives:

عـــند الانـــتهاء مـــن دراسة هذا الفصل فإنه من المتوقع أن يتفهم القارئ والقارئة:

- مدى تأثر سلوك المراهقين بالتغيرات الجسمية والمعرفية والنفسية التي تحدث في هذه المرحلة.
- تأثير أنماط وتفاعلات الأسرة على سلوك المراهق.
- علاقة الظروف الاجتماعية والثقافية بالتغيرات التي تحدث في سلوكيات المراهقين.
- نوع الصراع النفسي الاجتماعي الذي يواجهه المراهقون وتأثيره على السلوك الفردي.

تعدّ مرحلة المراهقة كحلقة وسط بين مرحلتي الطفولة والشباب. وتتميز مرحلة المراهقة بالنمو الجسمي السريع الذي ينتهي بوصول الطفل إلى البلوغ بالإضافة إلى النمو العقلي والاجتماعي. ولقد ذكر "أريكسون" وعلماء آخرون أن هذه المرحلة تمتد من سن الحادي عشر إلى سنّ الواحد والعشرين. ولكن "نيومان ونيومان" قام بتقسيم هذه المرحلة من الناحية النظرية إلى فترتين رئيستين (المراهقة المبكرة والمراهقة المتأخرة). وعلى كل فإن هذه الفترة العُمرية لها أبعاد نفسية واجتماعية وأخلاقية ترتبط ليس فقط بسلوك الطفل ولكن بالآباء والجماعات والمؤسسات والمجتمع بشكل عام. فإلى جانب الصعوبة التي يواجهها المراهق في التعامل مع التغيرات الجسمية والبلوغ الجنسي وما يتعلق به من توترات فإن على المراهق أن ينشئ لنفسه ذاتاً وكياناً خاصاً يمثل اهتماماته وهواياته وأسلوبه في الكلام وطبيعة انتماءاته للآخرين بالإضافة إلى مظهره العام وعلاقاته بأفراد كثيرين. كما تمثل هذه المرحلة العمرية للآباء نوعاً خاصاً من التحدي فالابن أو الابنة لم يعودوا أطفالاً يستمعون إلى نصائح الآباء ويلتزمون بتعليماتهم فلقد أصبحوا الآن أفراداً آخرين لهم مبادئهم وأفكارهم التي تؤثر بشكل مباشر على سلوكياتهم، وأحياناً ما يستطيع الآباء أن يتفهموا العلاقة بين هذه التغيرات وأنماط السلوك الجديدة التي ينتهجها الأبناء، وأحيانا ما يفشل الآباء في تفهم ذلك فتحدث التوترات والمشكلات وأحياناً الصراعات.

أما عن المجتمع فإنه الآن يواجه أفراداً قد نموا وأصبحت لهم كيانات مستقلة، لذلك فإن الاعتراف بهم في صورهم الجديدة تأتي بشكل رسمي مثل استخراج بطاقات هوية لهم ورخص قيادة سيارة من سن السادسة عشرة والذي

يمثل اعتراف المجتمع بهم كأفراد ناضجين في فرض واجبات التجنيد وعليهم الدفاع عن الوطن.

والمراهقة هو تعبير قد أسيء فهمه في معظم الأحيان بل إن المعاني التي ارتبطت به أصبحت تشير إلى الإنطباع السلبي، فيرى البعض أن مفهوم المراهقة يعني الإحساس بالخطر والذي يتمثل في الحكم على الأفراد الذين ينتمون لهذه الفترة السنية بأنهم متمردون على المجتمع رافضين لتعليماته وقوانينه لأن سلوكهم يتسم بالاستفزاز والطيش. وهناك بعض الشواهد والملاحظات التي ربما تؤكد هذا الانطباع مثل رؤية مجموعات من الشباب يمشون في المحلات التجارية مثل الـ Malls ويصيحون ويجرون أو يضحكون بصخب. أو نراهم متجمعين على ناصية الشوارع في مجموعات صغيرة يلعبون ويتنافسون وأحياناً ما يسخرون من بعضهم أو من الآخرين، إلاّ أن هناك ضرورة لتفهم هؤلاء الأفراد وظروفهم بدلاً من الإحساس بالخطر لأن تعميم بعض الصفات السلبية التي يظهرها بعض المراهقين على مجموعة كبيرة من أفراد المجتمع قد لا يكون ملائماً لأنه يثير نوعاً من التحفز وسوء الفهم بين العامة.

وعلى الرغم من وجود بعض الإحصائيات التي تؤكد حدوث مشكلات كثيرة بين أعضاء هذه المرحلة السنية مثل التدخين وتجريب المخدرات أو المعارك والاشكالات التي يشترك فيها المراهقون أو انحراف بعض منهم وارتكابه السرقات أو الاعتداءات على ممتلكات الآخرين، إلاّ أنه علينا أن ندرك أن الغالبية العظمى من هؤلاء الأبناء يحققون النجاح في دراستهم ويمارسون رياضات جادة أو يعملون في مهن معاونة أو يتبرعون بوقتهم وجهدهم في خدمة المجتمع. وهناك حقيقة مهمة تؤكد أن الجهل بالمتطلبات والتحديات والتغيرات الجسمانية والنفسية والإدراكية لهذه المرحلة قد يدفع الفرد إلى إطلاق الأحكام الغير موضوعية التي تفتقر إلى الأدلة والتي تتمثل في المبالغة والتجني على مجموعة المراهقين، لذلك فإنه إذا كانت هناك مشكلات ترتبط بالأفراد أو الأبناء الذين يمثلون هذه المرحلة السنية فإن على الأخصائي النفسي/ الاجتماعي/ التربوي أن يتفهم بوضوح الحقائق والمعارف الكثيرة المرتبطة بهذه المرحلة.

أ– محددات السلوك أثناء مرحلة المراهقة المبكرة (11–14 سنة)

إن دخـــول الطفل إلى مرحلة المراهقة يعتبر حدثاً مهماً للمراهق نفسه وأيضاً لأســـرته والمجتمع، فلقد وجد الباحثون أن مجتمعات كثيرة تقيم لوصول الطفل إلى هذه المرحلة احتفالات وطقوساً معينة تيمناً واعترافاً بدخول الطفل إلى طور البلوغ والـــرجولة أو الانوثـــة. وتتضمن هذه المرحلة السنية تغييرات كثيرة يكون بعضها سريعاً يمكن ملاحظته مثل التغيرات الجسمية وتغيرات أخرى لا يشعر بها إلاّ المراهق نفســـه تتضـــمن شعوره بذاته والانفعالات والمشاعر المختلفة التي تغمر الطفل عند وصـــوله إلى هـــذه المرحلة. ولقد وضح فرويد أن النمو بشكل عام يرتبط بالتوتر والصراع خاصة في مرحلة المراهقة، إلاّ أن أريكسون وآخرون يرون أن عدم وجود توقعات ثابتة في المجتمع لمرحلة المراهقة يسبب صعوبات في انتقال الفرد من مرحلة الطفولـــة إلى مرحلة الرشـــــد. وتؤكد الأبحاث الحديثة أن دخول مرحلة المراهقة لـــيس بالضرورة تجربة درامية صعبة ومتوترة كما يصورها الكثير فهناك ملايين من الأطفال يبدؤن هذه المرحلة ويستطيعون التكيف والتأقلم مع متطلباتها بنجاح وأقل مشكلات ممكنة.

التغيرات الجسمية للمراهق وظهور منظومات سلوكية جديدة:

تتمـــيز هـــذه المـــرحلة بالتغير الجسمي السريع الذي يتمثل في زيادة الوزن والطـــول ومـــا يعرف باندلاع التغييرات المضطردة في الشكل والمظهر العام، فعلى سبيل المثال فإنه إذا كان معدل الطول لدى الأولاد والبنات عند سن الثانية عشرة هـــو (147.5سم) فإن معدل طول الأولاد عند سن الثامنة عشر يصل إلى (172.5 ســـم) وعـــند البنات (160سم). أما عن الوزن فإن الزيادة في وزن المراهقين تعود وبشـــكل أساسي إلى نوع وأسلوب الغذاء الذي يتناولونه بالإضافة إلى الممارسات والتدريبات الرياضية، وبشكل عام نجد أن هناك فروقاً كثيرة بين المراهقين في زيارة الـــوزن نتـــيجة تأثير العوامل الثقافية والتقاليد الموجودة في كل مجتمع. فنرى على ســـبيل المثال أن الثقافات الغربية تطلق أحكاماً قاسية على الفتيات البدينات فترغم كـــثيراً مـــنهن على اتباع نظام غذائي متشدد يقلل من زيادة وزنهن حتى يصبحن مقـــبولات اجتماعـــياً وقد تتعرض الفتيات في هذه المجتمعات نتيجة امتناعهن عن

تـــناول وجـــبات غذائية كاملة إلى خلل عضوي ذو أبعاد نفسية خطيرة مثل الـــ Anorexia (اضـــطراب فقدان الشهية للطعام) والـــ Bulimia (اضطراب الشهية الغذائي المرضي) (Frank, 1991).

وبالإضافة إلى الزيادة المضطردة والسريعة في طول ووزن المراهق فهناك تغير كبير وأساسي يعرف بالبلوغ وهو نضوج الجهاز التناسلي والخصوبة، وتحدث هذه التغيرات عند الإناث على شكل بداية الجسم واستعداده للتبويض والدورة الشهرية أمـــا عـــند الذكـــور فتبدأ قدرة الفتى على إفراز الحيوانات الذكرية، وتحدث هذه التغيرات كنتيجة مباشرة لبداية عمل الغدد في إفراز الهرمونات، وهناك اختلاف في نـــوع الهـــرمونات التي يفرزها الجسم فنجد أن عند الأولاد يبدأ الغدد في النشاط فـــتفرز هـــرمون التوستسورن Testosterone (هرمون الذكورة)، أما عند البنات فيبدأ هرمون الأستروجين Estrogen (هرمون الأنوثة) في الاندفاع إلى الدم. وتؤثر هذه الهرمونات على نمو العضلات والعظام والشكل الخارجي للجسم لدى الأولاد والبـــنات، ولكن التغيرات الجسمية والبدنية لا تمثل التحدي الوحيد الذي يواجهه المراهقين فنجد أن رؤية المراهق لنفسه وشعوره الذاتي تجاه شكله والطريقة التي ينمو بهـــا بدنـــه تعتبر من أهم التحديات الذاتية التي يواجهها الفرد خلال هذه المرحلة، لذلك فإن فترة وصول المراهق إلى مرحلة البلوغ تشكل بعداً آخر في حياة الفرد.

وهناك مشكلة البلوغ المبكر التي يعاني منها بعض المراهقين والتي تظهر على هيـــئة مجموعة من الاستجابات المختلفة. وتظهر بوادر الرجولة المبكرة عند بعض الأولاد عـــلى هيـــئة نمو سريع ومفاجئ في عضلات الجسم وزيادة الطول وظهور الشـــارب ممّا يسبب لهم الإحساس بالثقة في النفس نتيجة رؤية واستجابة الآخرين لهم ومعاملتهم بطريقة إيجابية مختلفة عن الآخرين. ولكن بعض الأبحاث وجدت أن بعـــض الأولاد الذين يتعرضون لتغييرات جسمية مبكرة يميلون إلى الانغلاق الذاتي ويشعرون بالارتباك في المواقف الاجتماعية فيصبحون أقل مرونة عن بقية زملائهم.

أمـــا عند البنات فإن النضوج المبكر في مرحلة المراهقة يسبب لهن الإحساس بقلـــة الجاذبـــية والشـــعور بعدم الراحة في التعامل مع الزميلات وضعف الشعور بـــالذات. فعلى سبيل المثال نجد أن البنت التي تظهر عندها علامات البلوغ المبكر

تصبح أكثر طولاً ووزناً من زميلاتها الأمر الذي يجعلها تشعر بالتفرد والوحدة عن مجموعة البنات.

وعلى الجانب الصحي نجد أن المراهقين هم من أكثر المجموعات العمرية التي تكـون حالـتها الصحية في مستوى ثابت فيصبحوا أقل عرضة للأمراض، ولكن بعـض الإحصـائيات تشـير إلى أن هـذه الفئة العمرية ربما تعاني من الإصابات وحوادث السيارات بمعدل أكبر عن بقية الفئات. وقد يرجع ذلك إلى ولع المراهقين خاصـة الأولاد بممارسـة الرياضات العنيفة وقيادة السيارات لإظهار استقلاليتهم وتشـبههم بالـرجال الـبالغين، ولقد أرجع الباحثون تعرض المراهقين للإصابات الجسـمية إلى ضـعف الفهم لديهم عن العلاقة بين سلوكياتهم وصحتهم، أي أن قدرتهـم على فهم أن النتيجة (الإصابة والضرر الجسمي) يكون له مسببات متنوعة تـتأثر بدرجـة توصـلهم إلى نمو عقلاني وإدراكي وشعوري كاف وعلاقة ذلك بقدرتهم على مراجعة المشكلات وحلها.

ولقـد أظهـرت الدراسـات الحديثة أن المراهقين في الدول الغربية الذين يـندفعون تحـت ضـغوط الزملاء أو بسبب الرغبة في ممارسة سلوكيات وأنشطة جديـدة قـد ينتج عنها تعرضهم لمجموعة من الأمراض الجنسية والتي تعرف بـ Sexually Transmitted Diseases والـتي تضم أمراض الـ Gonorrhea والـ Genital Herpes والـ Chlamydin وفـيروس الـ HIV والذي قد يتطور إلى مـرض نقص المناعة المكتسبة الـ AIDS (Cates & Rauh, 1991). وتعتبر بعض هـذه الأمـراض مزمنة تؤثر في أجهزة الإخصاب وقدرة المراهق على الإنجاب في المستقبل فضلاً عن التأثير المميت لأخطر هذه الأمراض وهو الإيدز. ويتعرض بعض المراهقون في مجتمعات كثيرة لمشكلات التدخين وتعاطي المخدرات والكحوليات، لذلـك فإن تفهم الأخصائي والتربوي للحقائق المرتبطة بهذه الأمراض والمشكلات اعـتماداً على القراءات الشخصية والتثقيف الذاتي يعتبر أمراً ضرورياً للمساهمة في تدعـيم وإنشاء برامج وأنشطة وقائية وبنائية وعلاجية للتعامل مع المشكلات التي يتعرض لها المراهقون في مجتمعاتنا (ولا حرج في العلم).

النمو الإدراكي/المعرفي وسلوك المراهقين:

يتعامل الطفل عند دخوله إلى مرحلة المراهقة مع مجموعة من المفاهيم المعقدة تؤثـــر في وجهة نظره نحو العالم الذي يعيش فيه والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتكنولوجية التي يشاهدها ويعيش واقعها، لذلك فإن قدرته على تفهم هذه الظروف وتفسيرها وتفهم كيفية التعايش معها تتعلق بمستوى ومعدلات النمو الإدراكي/المعرفي الذي يصل إليه في هذه المرحلة. وهناك نظريتان رئيستان تتعرضان لمفاهيم النمو الإدراكي/المعرفي وقد تم عرضهما بشكل مبسط في الفصل الثاني:

أولاً – نظرية بياجيه للنمو الإدراكي/المعرفي:

يصـــل المـــراهق في هذه الفترة بناءً على التطور الإدراكي/المعرفي إلى مرحلة العمليات المجردة Formal Operational حيث يتميز التفكير في هذه المرحلة بـــ:

1 – **التركـــيز على الاحتمالات بدلاً من الحقائق الواقعية فقط:** فيستطيع المراهق أن يدرك المواقف ولكنه يصبح قادراً أيضاً على وضع بعض التصورات التي قد تغـــير من أسلوبه في التعامل معها. فإذا ما سأل مدرب الفريق أحد اللاعبين في هذه المرحلة السنية عن المهارات التي يمكن التدريب عليها لإتقان السير بالكرة، فسوف يقوم المراهق بوضع تصوراً مختلفاً بناءً على قدرته على التفكير الواقعي فنجده يقترح أن يقوم كل لاعب بتلقي الكرة في أثناء الجري ليسير بها فترة ثم يتوقف ويدور للاتجاه المعاكس ويعود بالكرة مرة أخرى.

2 – **يعتمـــد التفكير في هـــذه المرحلة على خاصية المنطق العلمي Scientific Reasoning:** وفي هـــذه المـــرحلة مـــن التفكير يصبح الطفل أكثر استخداماً لأســـلوب حل المشكلات باستخدام أساليب وطرق منتظمة. فعلى سبيل المثال نجد أن فكرة التوصل إلى اللون البرتقالي عند خلط لونين معاً قد يتناولها المراهق بوضع مجموعة من الفروض مثل خلط (اللون الأخضر مع اللون الأصفر)، أو (الأخضـــر مع الأزرق) ثم (الأحمر مع الأصفر) وهكذا فإنه يقوم بتجريب هذه الألـــوان ويلاحظ الفروق بينها حتى يتوصل أخيراً إلى طريقة محددة عن أنسب الألوان التي يمكن استخدامها لتكوين اللون البرتقالي.

3 – **الربط المنطقي بين الأفكار:** يستطيع الفرد في هذه المرحلة أن يدرك عدداً من الأفكـــار فيقوم بوضعها معاً بطريقة مسلسلة ومرتبة ومنطقية. فإذا سألنا أحد

المراهقين عن سبب تفوق بعض التلاميذ علمياً فإن الإجابة لا تنصب على تميز واحـــد مثل (لأنهم تلاميذ أذكياء) العمليات المجردة، يستطيع المراهق أن يقدم مجموعـــة مـــن الأسباب مثل الذكاء- الاستذكار الواعي- الحرص على متابعة الـــدروس- الإعـــداد الجيد. لذلك فإن "بياجيه" يعتقد أن في مرحلة المراهقة المـــبكرة يتم نمو إدراك المراهق والانتقال إلى مرحلة العمليات المجردة التي تنتهي مع نهاية الدراسة الثانوية. وتتضمن هذه المرحلة قدرة المراهق على التفكير المجرد Abstract Thinking الـــذي يتم استخدامه بشكل علمي لحل المشكلات التي يواجهها في ذلك الوقت.

ثانياً- نظرية تشغيل المعلومات Information Processing:

لقـــد تم عرض هذه النظرية في الفصل الثاني حيث ناقشنا أهم فروضها التي تـــنص على أن العمليات العقلية تعتبر مثل المستودع المعقد للمعلومات Complex Storage والـــتي يمكـــن استدعاءها عن طريق نظام التحكم التنفيذي الذي يحول المعلومـــات من الذاكرة متوسطة المدى إلى الذاكرة طويلة المدى وفقاً لأهمية وفائدة هـــذه المعلومات، فعندما يصل الأطفال إلى مرحلة المراهقة المبكرة فإنهم يصبحون قـــادرين على تنمية استراتيجيات تساعدهم على تلقي كم كبير من المعلومات ثم تـــبدأ عملية تنظيمها وترتيبها وإيداعها في أحد أنواع الذاكرة بحيث تسهل عملية اســـتدعائها واســـتخدامها، فطالب الصف الأول الثانوي الذي يدرس مجموعة من العلـــوم العملـــية والنظرية يتعامل مع كم كبير من المعارف والمعلومات بالإضافة للخـــبرات الخاصـــة والمعلومـــات الشخصية، لذلك فإن قدرته على تفهم وحفظ وإيداع هذه المعلومات تتطلب مجهوداً كبيراً في تلقيها وفرزها وتنظيمها وتذكرها. لذلك فإن نظرية تشغيل المعلومات توضح مستوى نمو قدرات المراهق على التعامل مع المعلومات بترتيبها وتحليلها وربطها ببعض واستخدامها في حل مشكلات الحياة اليومية أو حل تمرين/ تدريب معين في مادة الرياضيات مثلاً. ولذلك نجد أن هناك فـــروقاً بـــين المراهقين في كيفية اتخاذهم لقرارات تتعلق بسلوكياتهم وقدراتهم على الـــتعامل مع مؤثرات البيئة وضغوط الرفاق، وهناك نوع آخر من الفروق التباينية والـــتي تظهر في النتائج التي يحصل عليها المراهق في الاختبارات بالمقارنة بدرجات الزملاء من الطلاب.

طبيعة التفكير النقدي The Nature of Critical Thinking:

لقـــد ظهـــرت بـــرامج جديدة تشجع المراهقين على التدريب على التفكير الـــنقدي هو ما يعرف بالتفكير الانعكاسي Reflective Thinking، حيث يتعامل المراهق مع مجموعة من الأفكار المعقدة من أجل التوصل إلى حلول "نقدية" تساعده عـــلى الوصـــول إلى نوع من التبصر Insight الذي يعتبر قاعدة مهمة للاختيارات الذكـــية. ولقد بدأ هذا المفهوم يغزو الجامعات فنظمت المحاضرات ونشرت الكتب بـــل خصصـــت شعباً دراسية لتفهم وتنمية التفكير النقدي لدى الطلاب لما له من تـــأثير عـــلى تنمية الانفتاح الذهني والمهارات العملية التي تساعد الفرد على تحليل موقـــف معـــين أو كتابة تقرير علمي بشكل متطور أو حل صراع أو توتر متعلق بالعلاقات الشخصية أو باختيار مجال للعمل يتلاءم مع مواهب وقدرات الشخص.

وهناك خصائص محددة للتفكير النقدي منها:

1 - **التنظـــيم العملي للتفكير**: لكي يفكر الفرد تفكيراً ناقداً فإن عليه أن يصنف ويعمـــم ويســـتخلص النـــتائج ويقـــوم بعمليات إدراكية وعقلية أخرى مثل الاستنباط والتحليل.

2 - **المعلومات المتخصصة**: لكي يتعامل الفرد مع مشكلة ما فإن عليه معرفة بعض العلوم والمعارف الأساسية عن المجال الذي يتعلق بمشكلة ما، فإذا ما طلب على ســـبيل المثال من الفرد تحليل نظام أو برنامج كمبيوتر جديد فإن عليه أولاً أن يلم بأنظمة وأنواع برامج تشغيل الكمبيوتر.

3 - **العلـــوم الإدراكية/المعرفية الأعم Metacognitive Knowledge**: ويتطلب ذلك معرفة الكيفية التي يفكر بها الإنسان في موضوع معين ومتى سيحتاج إلى معلومـــات معيـــنة لأن ذلـــك سيتيح لنا أن نتوقع كيف يقوم الإنسان بجمع معلوماته وعرض أفكاره في نسق واتجاهات معينة.

4 - **القـــيم والمعتقدات والميول**: إن التفكير النقدي يعني كيفية حكم الفرد على موضـــوع بطريقة عادلة وموضوعية ويعني ذلك الثقة في أن هذا التفكير سوف يـــؤدي بالضرورة إلى حلول الأمر الذي يوضح كيفية تدخل القيم والميول في تسلسل عمليات التفكير.

وهـــناك ضرورة للتعرف على مفاهيم التفكير النقدي Critical Thinking لأن الطفـــل عندما يصل إلى مرحلة المراهقة يصبح مستعداً لتعلم وتجريب عمليات عقلية وإدراكية/معرفية معقدة ومتطورة. لذلك فإن هناك ضرورة للمعلمين والآباء عـــلى تشجيع الطفل في هذه المرحلة على التعرف على هذا النوع من التفكير حتى ينمي ملكاته وقدراته ويمكنه من أداء عمليات أكثر تطوراً. ويساعد هذا النوع من تفكـــير الفـــرد على التقدم في مجالات جديدة تتطلب استخدام أنواع متقدمة من العملـــيات العقلـــية في تطبيقات مختلفة مثل علوم الإدارة الحديثة والتحليل العلمي لمشكـــلات ذات أبعاد متعـــددة Multidimensional Problems وتفهـــم أنظمة المعلومات وتقنياتها.

تأثر سلوك المراهق بالمعايير الأخلاقية ومفهوم العدل الاجتماعي:

كلما استطاع المراهق التغلب على مشكلات التمركز الذاتي Egocentrism في التفكير والعلاقات وإبداء الآراء والأحكام على موضوعات وأشياء مختلفة كلما كـــان قـــادراً على تنمية الإحساس الأخلاقي أو التوصل إلى تفهم حقيقي لمفهوم الصـــواب والخطـــأ. ولقـــد وضح "كولبرج" أن النمو الأخلاقي يسير في اتجاهين رئيســـتين. الاتجاه الأول: يتعلق بالمبادئ المجردة المنطقية التي تتضمن الإيمان بالعدل والشـــرعية والاتجاه الآخـــر: يركز على مفهوم الاهتمام ورعاية الآخرين والقدرة عـــلى تفهم مناهج وأساليب تقديم هذه الرعاية، وقد تتضمن الرعاية العناية بصديق أو أحد أفراد الأسرة أو فئة من فئات المجتمع التي تحتاج لذلك.

ونجـــد أن الطفل عند بلوغه سن المراهقة يكون مستعداً للمرحلة الثانية من التطور الأخلاقي الذي وصفه "كولبرج" (راجع الجدول). ومع مرور الوقت تنمو اتجاهـــات الفرد وينتقل إلى المرحلة الثالثة من النمو الأخلاقي. وبينما تركز المرحلة الثانـــية على أن الصواب هو ما يوافق عليه الفرد والأفراد الذين لهم علاقة به مثل الأصدقاء والزملاء، نجد أن النمو الأخلاقي في المرحلة الثالثة يوضح أن الصواب هو مـــا يوافق عليه الأصدقاء ويمنح تقبلهم للفرد كعضو للجماعة، لذلك فإن الخطورة هـــنا إذا امتثل المراهق لمفهوم الأصدقاء أو أعضاء الجماعة التي يحاول الانتماء إليها والذيـــن قـــد يرون أن الصواب هو شيء ما يتعارض مع المفهوم العام أو القانوني للسلوك، فإذا ما أقر الأصدقاء أن الصواب هو أن يتدخل الفرد في شؤون الآخرين

أو يستهزأ بشكلهم أو بملابسهم كأسلوب من أساليب التهريج والإضحاك فإن موافقة المراهق على ذلك قد تسبب له تعرضه لعقاب من المجتمع.

النمو النفسي والعاطفي وتأثيره على سلوكيات المراهق:

تؤثر مرحلة المراهقة الأولى في الجوانب النفسية والمشاعر لدى المراهق فيرى "أريكسون" أن دخول الطفل في مرحلة المراهقة يسبب تعرضه للتغيرات الجسمية نتيجة بداية إفراز الغدد لهرمونات الذكورة والأنوثة فتنتابه مشاعر كثيرة ومتضاربة. إلاّ أنه من المهم أن ندرك تأثير القيم الموجودة في المجتمع والثقافة والجوانب الروحية وارتباطها بتفهم جوانب هذه المرحلة، لذلك فإن المراهق في المجتمعات الشرقية يحظى بكثير من التدعيم الأسري والتأييد فضلاً عن تأثير وجهة نظر المجتمع التي ترحب بعبور الشاب والفتاه إلى مرحلة النضج. أما في المجتمعات الغربية فإن المراهقة تعني حصول الطفل على مزيد من الحريات التي قد تسبب في اندفاع المراهق نحو تجارب وممارسات ربما لا يكون مستعداً عقلياً وإدراكياً/معرفياً لتفهم أبعادها وعواقبها الوخيمة.

وعلى كل فإن المراهقة والتغييرات الجسمية الملحوظة قد تولد شعوراً لدى المراهقين بالقلق. فنجد أن البنات قد يشعرن بالخجل والتوتر والقلق نتيجة للتغيرات الفسيولوجية التي تحدث لهن. بينما نجد أن الأولاد يصبحون أكثر عنفاً واندفاعاً ورغبة في التنافس وربما الغرور والنرجسية، وقد تسبب الظروف الأسرية بعض التأثيرات في حياة المراهق نتيجة لعدم استقرار ظروف الأسرة وضعف التدعيم والتفهم لظروف المراهق.

أما عن تأثير البيئة فقد تتمثل في مجموعة من الأعراف والتقاليد والتوقعات المختلفة التي يضعها المجتمع لما هو ملائم أو غير ملائم في مظهر وسلوكيات المراهق، هذه الضغوط تؤدي في بعض الأحيان إلى تفاقم المشكلات النفسية لدى المراهقين، ويرى بعض العلماء أن النمو العاطفي والشعوري يتأثر بدرجات متفاوتة بالمشكلات والاضطرابات السلوكية التي يتعرض لها المراهق وهناك عوامل هامة يجب تفهمها في هذا الجانب:

1- **المغالاة في التحكم في المشاعر**: ويضطلع ذلك بقيام المراهق بكبت بعض المشاعر والأحاسيس نتيجة الخوف أو الإحراج من التعبير عنها مما يؤدي إلى

زيـــادة الإحســـاس بالاكتـــئاب والعزلة واليأس مما قد يؤدي إلى اضطرابات السلوك.

2 – **عدم القدرة على التحكم في النـــزوات:** هناك احتمالية لأن يتعرض المراهق تحـــت تأثير جماعة الأصدقاء إلى ممارسة سلوكيات ضارة مثل التدخين وممارسة الجـــنس والســـلوك العدواني، ولذلك فإن عدم قدرة المراهق على التحكم في النـــزوات تؤثر تأثيراً مباشراً في توجهات المراهق نحو الحياة وعلاقته بالآخرين، فـــإذا ما تمرد المراهق على نظام المدرسة فإنه قد يعتبر كطالب مشاغب، وإذا ما تمـــرد عـــلى سلطة الأباء أو على تقاليد الأسرة فإن ذلك قد يسبب نوعاً من الضغوط على نسق الأسرة مما يؤدي إلى حدوث صراعات أو مشكلات كثيرة داخل الأسرة.

3 – **عدم القدرة على التعامل مع المشاعر السلبية:** هناك فرصة لإحساس المراهق بالمشاعر السلبية التي تنتج من زيادة القلق والتوتر. لذلك فإن دعم وتأييد الآباء وأفراد المجتمع يساعد المراهق على التعامل مع هذه المشاعر، إلا أن عدم القدرة عـــلى التعامل معها ومواجهتها بأسلوب فعال قد يؤدي إلى وقوع المراهق تحت ســـيطرتها وبالـــتالي الانغماس في مشكلات نفسية وسلوكية صعبة. ونجد في المجتمعات الغربية أن الإحساس بالعزلة والتوتر والاكتئاب بين المراهقين يسبب ردود فعـــل صـــعبة ومتوترة مثل إدمان الكحوليات والمخدرات- الهروب من الأسرة- الانقطاع عن التعليم – الاكتئاب والانتحار.

يتعـــرض Fraser (2004) لمسألة قـــدرة المـــراهق على مواجهـــة الصعاب والضـــغوط النفسية والاجتماعية فيقول إن التغيرات الحديثة والاختراعات الجديدة مـــثل الانترنيـــت والفضائيات عن طريق متابعة المراهق لمحطات وقنوات التليفزيون ونمـــاذج مـــن الصور التي يقدمها الانترنيت تمثل أشكالا من هذه الضغوط، إلا إن وجود نوع من المتابعة والأنشطة المدروسة جيدا والمعدة بشكل فني يستطيع جذب انتـــباه المراهق ربما يمثل نوعاً من أنواع الوقاية المبكرة. ويعني ذلك أن المراهق ربما يحتاج إلى نوع من الرعاية والتوجيه لتنمية قدراته العقلية وخلق نوع من الفهم لديه والـــتدرب على مهارات التحليل واتخاذ القرار، كل هذه الاستراتيجيات والتي يتم تنفيذها بالمشاركة بين الأخصائيين النفسيين والاجتماعيين والتربويين من أجل خلق

ما يسمي بالمثابرة أو القدرة على المقاومة Resiliency، ويعني ذلك أن المراهق يحتاج إلى تنمية هذه القدرة النفسية والعقلية قبل الوصول إلى مرحلة المراهقة ومن ثم يستطيع مواجهة الأنواع المختلفة من الضغوط والتوترات.

الأسرة وعلاقتها بسلوكيات المراهق:

تؤثر الأسرة في سلوكيات الأبناء المراهقين بدرجة كبيرة حيث أن طبيعة التفاعل الأسري والعلاقات بين أفراد الأسرة تساهم إلى حد كبير في تكوين مجموعة من القيم والسلوكيات التي يتعلمها الأبناء عن طريق الملاحظة والتقليد. ووفقاً لنظرية التفاعل الرمزي Symbolic Interaction التي تم مناقشتها في الفصل الثاني، فإن المراهق يتعلم مجموعة القيم والاتجاهات من خلال رموز محددة يمكن تفهمها من خلال التفاعلات الأسرية والانطباعات العامة التي تتبناها الأسرة سواء بصورة شعورية أو غير شعورية، فعلى سبيل المثال نجد أن اتجاه الأسرة نحو الجيران والمستوى المقبول لدى الأسرة لتكوين علاقات معهم يبدو واضحاً من خلال المحادثة اليومية داخل الأسرة التي تعبر عن درجة الثقة بالآخرين ومستوى الاهتمام بهم والاعتماد عليهم، كل هذه الرموز تشكل الاتجاهات والآراء التي تكونها الأسرة والأبناء تجاه الآخرين.

وبشكل أساسي فإن الانطباع العام والتركيبة السيكولوجية للأسرة ينعكس على طبيعة المزاج العام والسلوك والانفعالات لدى الأبناء، فعلى سبيل المثال فإن الأسرة التي يسودها نوع من التعاطف والتأييد والاستقرار في العلاقات سوف تعطي للمراهق الشعور بالأمان والثقة في تأييد ودعم أفراد الأسرة له، وعلى العكس فإن تغلب اتجاهات الأنانية والتوتر والصراع بين أفراد الأسرة قد يؤدي إلى إحساس المراهق بالفراغ والتوتر وعدم الثقة ونقص الدعم المتبادل بين أفراد الأسرة. ويذكر علماء الأسرة أن مفهوم الثلاثية في التفاعل Triangulation والتي تتمثل في وجود خلافات بين الآباء ولكنهم لا يقدرون على مواجهتها، ولذلك فإنهم يدخلون أحد الأبناء كطرف في الصراع كوسيلة لتخفيف الضغوط والتوترات داخل الأسرة، إلا أن علماء الأسرة وجدوا أن دخول المراهق في هذا النوع من التفاعل قد يسبب له مشكلات وضغوط كثيرة تؤثر على مشاعره وسلوكه بشكل عام.

يشـــعر كثير من الأباء بالقلق نتيجة انغماس أبنائهم المراهقين في (شلل) أو مجموعـــات من الأصدقاء، فيراقب الآباء عن قرب التغيرات السلوكية والاتجاهات الجديـــدة التي تظهر على المراهق ويرجعون ذلك إلى تأثير (شلة) الأصدقاء. ويحاول بعـــض الآبـــاء جاهداً أن يتابع عضوية أبنائهم وانتمائهم عن طريق متابعة أسماء الأصـــدقاء ونشاطاتهم وأماكن تجمعاتهم وما إلى ذلك، وقد يسبب ذلك نوعاً من الحرج للمراهق خاصة إذا ما عرفت مجموعة الأصدقاء أن سلوكيات أحدهم مراقبة من أهله أو أن هناك قيوداً مفروضة عليه مثل ضرورة العودة إلى المنـــزل في موعد محـــدد أو عدم موافقة الآباء للابن على الذهاب إلى أماكن معينة قبل الحصول على تصـــريح الآباء، وقد ينتج عن ذلك حدوث بعض التوترات والخلافات بين الآباء والأبناء لأنهم يرغبون في معظم الوقت في الحصول على الحرية الكاملة بجانب الدعم المادي من الآباء.

ويعرض "ستينمبرج" و "لفين" (Steinberg & Levine, 1990) مجموعة من التوصيات التي قد تساعد الآباء في التعامل مع تأثيرات مجموعة الأصدقاء.

مساعدة المراهقين للتعامل مع ضغوط الأصدقاء:

- مساعدة الابن المراهق على اكتشاف مواطن القوى لديه ومواهبه الخاصة.
- تشجيع الابن المراهق على مشاركة الأسرة في خطوات اتخاذه لقراراته.
- تعليم المراهق أهمية التفكير عند اتخاذ قرارات في موضوعات متضاربة.
- تعليم الأبناء كيفية توقع المشكلات وكيفية التخطيط لموجهتها.
- التعرف على أصدقاء وزملاء الابن المراهق.
- عدم التسرع في إطلاق الأحكام على زملاء الابن بناء على طريقة كلامهم أو اهتماماتهم أو مظهرهم.
- منح الأبناء الوقت ليمارسوا أنشطتهم المفضلة مع أصدقائهم.
- ابق قريباً من ابنك المراهق.

متى يبدأ القلق على الابن المراهق؟ يبدأ القلق على الابن المراهق في حالات كثيرة منها:

- لو أن الابن المراهق ليس لديه أية صداقات.
- لو أن الابن يصبح أكثر سرية ويتعمد إخفاء حقائق عن أنشطته واهتماماته.
- لو فقد الابن المرهق فجأة كل اهتماماته بالأصدقاء.
- لو كان جميع أصدقاء الابن المراهق أكبر منه سناً.

تأثير الجماعات الصغيرة على سلوك المراهق:

تلعب مجموعة الأصدقاء دوراً كبيراً في حياة المراهق بما تقدمه من فرصة للمراهقين للانتماء إلى مجموعة من الأفراد يتشابهون في تصرفاهم واتجاهاهم وأحاسيسهم مع المراهق. ووفقاً لنظرية التبادل الاجتماعي Social Theory Exchange فإن جماعة الأصدقاء توفر للمراهق التدعيم والتأييد وتعطيه الفرصة لتكوين علاقات اجتماعية قوية وحميمة مع الزملاء من نفس المرحلة السنية، ولكن الجماعة في نفس الوقت تتوقع من المراهق المشاركة والتأييد والدعم حتى تتمكن من الاستمرار، فنجد المراهق يلتصق بها ويبذل جزءاً من طاقته ووقته للبقاء معها وممارسة الأنشطة والسلوكيات التي تشترك فيها الجماعة. وهناك فائدة أخرى لجماعة الزملاء فهي توفر الإحساس بالتقبل والتوائم مع شخصيات وأنماط مختلفة من الزملاء، ولذلك يحاول المراهق أن يتعرف على السلوكيات والقواعد المطلوبة للانضمام لمجموعة معينة من الزملاء وكيفية الانسجام معهم. وقد تتسبب محاولة المراهق الانضمام لإحدى المجموعات في تنازله عن بعض المبادئ أو تبنيه لسلوكيات ضارة قد تؤدي إلى مخالفة قواعد الذوق العام وأحياناً مخالفة القانون. فإذا ما كانت المجموعة تمارس التسكع أو الفوضى مثل الهروب من المدرسة والوقوف على نواصي الطرق العامة أو التعرض للآخرين بالإيذاء اللفظي أو البدني فإن المراهق يحاول أن يجاري الجماعة في هذه السلوكيات حتى يتم تقبله فيشعر أنه جزء لا يتجزأ من الشلة.

هناك جوانب إيجابية لانضمام المراهق لمجموعات الأصدقاء، فقد يصبح المراهق عضواً في جماعة رياضية أو ثقافية أو دينية حيث تتمثل القواعد المطروحة داخل المجموعة والتوقعات السعي نحو الإجادة في نوع النشاط الذي تمارسه

المجموعـــة. من هنا فإن التنافس المطروح في المجموعة يؤدي إلى عوائد ونتائج حميدة تعـــود على المراهق بالمنافع والفوائد البدنية والذهنية، وتنمي المهارات الاجتماعية وتثبت القيم الإيجابية.

أمـــا عـــن جماعة الزملاء (الشلة) فتتكون من مجموعة صغيرة من الأصدقاء المقربين (تصل إلى 8 أفراد) ينضم إليهم المراهق برغبته أو تحت ضغط معين. وتتميز (الشـــلة) بالولاء والعلاقات الحميمة والتسامح وسرية المعلومات، وقد تكبر الشلة مـــن ناحـــية العـــدد فتصـــل إلى حـــوالي 20 فرداً يتولد بينهم نوع من الترابط والاهـــتمامات المشتركة، ولكن قد يقل مستوى الولاء والعلاقات الحميمة المباشرة والســـرية لديهـــم مـــثل جماعـــة فريق الكرة- أو جماعة التمثيل أو جماعة الفصل الدراســـي. وقـــد يســـتطيع المراهق أن يحافظ على عضويته في هذين النوعين من الجماعات فيحصل منهما على الدعم والتأييد والمشاعر الحميمة وغالباً قضاء أوقات مسلية تتغلبها الإثارة والتنافس والضحك والتهريج.

موضوعات بحثية:

المراهقون والتدخين

ينتشـــر الـــتدخين بين المراهقين بشكل كبير في كثير من المجتمعات وهناك العديد من الدراسات التي ناقشت هذا الموضوع من جوانب مختلفة:

Merello, P., Duggan, A., Adger, H., Anthony, J., & Joffe, A. (2001). Argentina. Tobacco Use Among High School Students in Buenos Aires. The American Journal of Public Health, 91 p. 219.

للـــتعرف عـــلى سلوكيات التدخين بين المراهقين تم تطبيق استبيان على 3909 تلميذا تـــتراوح أعمـــارهم من 15 إلى 17 سنة، وقد وجدت الدراسة أن ما بين 20% إلى 40% من المـــراهقين يدخـــنون السجائر بشكل منتظم، وهناك عوامل ترتبط بسلوكيات التدخين بين المراهقين: التلاميذ في المدارس الخاصة أكثر تعرضاً للتدخين عن التلاميذ في المدارس الحكومية، وأن التلمـــيذ الـــذي لديه صديق حميم مدخن يصبح أكثر عرضه للتدخين، وأن التلميذ الذي يكـــوّن اتجاهـــاً إيجابياً نحو التدخين والذي لا يعتقد أن التدخين يمثل عادة سيئة يكون أكثر استجابة للتدخين.

Koval, J., & O'Connor, K. (1997). Are Psychosocial factors related to smoking in grade 6 students? Addictive Behaviors, 22 (2) p. 169.

أظهرت الدراسة وجود علاقة بين العوامل الاجتماعية النفسية وسلوكيات التدخين بين طلاب الصف السادس الابتدائي، والتي يمكن تلخيصها في أن الطفل المدخن يتعود على الإنفاق الكبير للنقود، ويتغيب عن المدرسة بشكل كبير، ويقضي أوقات طويلة مع زملائه.

Gold, D., Wang., X., Wypij, D., Speizer, F., Ware, J., & Dockery, D. (1996). Effects of cigarette smoking on lung function in adolescent boys and girls. The New England J. of Medicine, 335 (13) p. 931.

أظهـــرت الدراسة أن التدخين يؤثر بشكل خطير على كفاءة ووظائف الرئتين بين المـــراهقين، ولقـــد أجريت الدراسة التتبعية على عشرة آلاف طفل في عمر الخامسة عشرة أثبتت أن حوالي 18% من هؤلاء الأطفال قاموا بالتدخين، حيث إن التأثير على وظائف الرئة ارتـــبط بعـــدد السجائر التي يدخنونها، فكلما ارتفع العدد كلما قلت وظائف الرئة حيث يتعرض هؤلاء الأطفال لعدم اكتمال نمو الرئتين بالمقارنة بالأطفال غير المدخنين.

ب- السلوكيات المتوقعة أثناء مرحلة المراهقة المتأخرة (15 – 18 سنة)

تعـــد مـــرحلة المراهقة المتأخرة هي البوابة التي يعبر منها المراهق إلى مرحلة الشـــباب حيـــث يبدأ المراهق خلالها في اختبار السلوكيات التي تعلمها في المراحل الســـابقة ويـــتفهم مدى ملائمة هذه السلوكيات للأدوار والمسؤوليات التي سوف يقـــوم بها في المراحل القادمة ومن ثم فإنه سوف يعمل على تصحيح وتعديل بعض هـــذه السلوكيات لتؤهله لما هو قادم في المراحل القادمة، فنجد على سبيل المثال أن المـــراهق الـــذي قد تعود على قضاء أوقات طويلة مع أصدقائه فإنه سوف يواجه مسألة الإعداد لإنهاء المرحلة الثانوية والحصول على معدل مرتفع ليمكنه من دخول الكلـــية أو المعهد الدراسي الذي يأمل في الالتحاق به، ومن ثم سوف يتعلم المراهق خـــلال هذه المرحلة أن ينظم وقته ويتحكم في الوقت الذي يقضيه لممارسة هواياته وأنشـــطته الترفيهـــية. وتظهـــر في خـــلال هذه المرحلة مجموعة من التساؤلات والـــتوقعات الـــتي تطرحها الأسرة ويتعامل معها المراهق نفسه عن مستقبله العلمي والعمـــلي ومـــدى توافـــق قدراته واستعداداته لمواجهة متطلبات الدراسة والعمل واستعداده للانفصال عن الأسرة وتكوين حياة مستقلة.

وكما وضح "أريكسون" وكثير من علماء السلوك الإنساني أن الخبرات التي يكتســـبها الفرد في كل مرحلة من مراحل النمو تشكل قاعدة أساسية تساعد على مواجهـــة أعـــباء المراحل المتقدمة بشكل إيجابي وفعال. وفي هذه المرحلة " المراهقة المتأخرة " يستعد المراهق لتحمل مسؤوليات صعبة تستدعي الاعتماد الذاتي ونضج

الـــتفكير. وهـــناك ضرورة لكي تقوم المجتمعات بتوفير رعاية كافية وأنشطة مختلفة تســاهم في إكســاب المراهق قدرات ومهارات شخصية وثقافية واجتماعية حتى يصبح قادراً على تفهم طبيعة الأدوار والأنشطة المنوطة بهذه المرحلة.

تتابع النمو الجسمي وانعكاسه على سلوك المراهق:

عـــند وصـــول المراهق إلى سن الخامسة عشرة فإنه لا يزال يمر بأطوار النمو الســريع حتى يستكمل نموه الجسمي وتحوله من مرحلة الطفولة إلى الشباب. فمع اســتمرار الأولاد في زيادة الطول والوزن فإن هناك تغييرات مهمة تحدث في هذه الفترة مثل نمو العضلات والملامح الجسمية المتفردة، وتكتسب البنات في هذه الفترة – أيضـــاً– الملامح الأنثوية والجمالية والتي تشغل تفكيرهن واهتماماتهن من حيث تصـــفيف الشـــعر ولون البشرة ونوع الملابس اللاتي يخترنها. ولذلك فإن إحساس المراهق نحو ملامحه الجسمية يعد من أهم الاعتبارات، يتعامل معها وتؤثر في شعوره تجاه نفسه وتقبله لشكله العام والخصائص الجسدية الخاصة به. ومن المهم أن يكوّن المراهق في هذه الفترة صورة إيجابية تجاه نفسه Positive Self Image.

أمـــا عن الأنشطة الحركية فيمارس كثير من المراهقين في هذه الفترة أنشطة جســمية متقدمة مثل الألعاب الرياضية والتمرينات العنيفة والتي تساعد في تأكيد هـــذه الصورة الإيجابية عن النفس، وتركز كثير من الفتيات على المظهر الخارجي وذلـــك بالمحافظة على شكلهن الخارجي حتى يبدين في صورة مقبولة للآخرين. إلاّ أن فشـــل المراهق في تكوين صورة إيجابية عن مظهره الجسمي وملامحه يؤدي إلى حـــدوث أنواع من التوترات النفسية مثل القلق والاكتئاب، وهنا نجد أن التدعيم الأســـري وتقبل المراهق وتأكيد اعتباره الذاتي Self-esteem يعد من أهم الجوانب الـــتي يجـــب أن تركـــز عليها الأسرة والأشخاص الذين يتعاملون مع المراهق مثل المدرســين والمشـــرفين الثقافـــيين والرياضـــيين والمرشدين النفسيين والأخصائيين الاجتماعيين.

توافق النمو الإدراكي الاجتماعي مع السلوك Social Cognition:

يوافـــق كـــثير من العلماء النفسيين على أن المهارات الإدراكية/المعرفية التي يكتسبها المراهق خلال هذه الفترة لها تأثير خاص على نموهم واكتساهم للمهارات

الاجتماعـــية. وتتضـــمن المهـــارات الاجتماعية مجموعة المعلومات والمفاهيم عن العلاقات الشخصية والأنشطة الاجتماعية. ولذلك فإن التركيز الذاتي للمراهق Self Centeredness Egocentrism يعني ردود أفعاله تجاه الآخرين وإيمانه وثقته بنفسه والـــتي ســـوف تنعكس على سلوكياته وطريقة تفاعله مع أنساق المجتمع المختلفة. وهناك ثلاثة جوانب تؤثر في مفهوم التركيز الذاتي عند المراهقين:

1 - المعايير الأخلاقية التي يؤمن بها المراهق.

2 - اتجاهاته الفلسفية والإنسانية.

3 - توجهاته الدينية والعقائدية.

وتظهـــر هذه الجوانب خلال فترات النمو حيث يبدأ الطفل في ملاحظة ما يـــدور حوـــله ومن ثم تتبلور أفكاره شيئاً فشيئاً حتى تظهر على هيئة مجموعة من المـــبادئ الأخلاقية والآراء عن الحياة والعلاقات الإنسانية والمشكلات التي تحدث فيها. وتؤثر مجموعة من التوجهات الفلسفية والإنسانية والمبادئ الدينية والأخلاقية في تفكـــير المراهق وأحكامه وتحليلاته لما يدور في العالم. لذلك فإن التركيز الذاتي لـــلمراهق Egocentrism يـــبدأ بتوصله إلى درجة من التفكير المجرد Abstract Thinking فيستطيع أن يبلور الأمور ويحللها من خلال تفهمه وإيمانه بمجموعة من الفـــروض والمـــبادئ. وبشكل عام فإن المراهق يبدأ في تحليله للأمور بشكل مثالي Idealistic فيشـــعر أنـــه يستطيع أن يحل مشكلات العالم كله فيعطي بعض الآراء والاقـــتراحات الـــتي ربما تكون صحيحة عن كيفية حل مشكلات الفقر والمرض والعنصرية والحروب والخلافات السياسية، إلاّ أن تفكيره لا يزال مثالياً يغفل بعض الأمور والاعتبارات الجوهرية التي لها أبعاد تاريخية واقتصادية وثقافية وأيديولوجية، لذلك نجد أن تحليلات المراهق قد تكون غير واقعية Unrealistic ولكنها صحيحة من الناحية الفلسفية المجردة، فيرى المراهق في هذه الفترة أنه لا داعي للحروب وأنه إذا مـــا اجتمعـــت الدول المتصارعة وناقشت خلافاتها بطريقة عملية فإنهم سوف يتجنـــبون كـــثيراً مـــن الآلام والمآســـي مثل الدمار والعنصرية والإبادة الجماعية والتخفـــيف مـــن ضحايا الحروب، أو أنه قد يرى أن مشكلة الفقر ونقص الموارد يمكـــن حـــلها إذا ما قام الأغنياء بمشاركة جزء صغير من مواردهم وأملاكهم مع الفقراء ليشعر الجميع بالسعادة وتختفي المعاناة والألم.

والمشكلة هنا إذا ما لم يتوافق تفكير المراهق المجرد مع آراء الآخرين فإنه قد يتمسك بآرائه وينتقد آراء الآخرين ويتهمهم بضيق الرؤيا والأنانية والذاتية وعدم الموضوعية. إلاّ أننا يجب أن لا نغفل ضرورة تأكيد وتشجيع المراهق في هذه المرحلة على مناقشة وتحليل الأمور من وجهات نظرهم حيث إنهم يتميزون بشفافية التفكير وعدم الانحياز لمدرسة أو فكر معين مثل كثير من البالغين الذي نشئوا وترعرعوا في فترات مختلفة ورضخوا لكثير من الضغوط والصراعات والعمليات المتعمدة لتوجيه أفكارهم إلى واجهة معينة أو فلسفة خاصة وهو ما يسمى بغسيل المخ Brain Washing. لذلك فإن عمليات المناقشة الحرة مع المراهقين والاتصال المستمر تعد من أحدث الوسائل التي تعطيهم الفرصة للتعبير عن ذاتهم، وتواصل الحوار الإيجابي معهم يساعدهم على تفهم الأبعاد الأخرى للمشكلات فيصبحون أكثر قدرة على التوصل إلى مبادئ وأفكار جديدة والخروج من دائرة التشيع والتمسك بأفكار وفلسفات محددة.

رؤية المجتمع نحو تكوين الذات المستقلة للمراهق Individuation:

يرى "سيفرت" و "هوفننج، هوفننج" (1996) أن تكوين الذات يعتبر خطوة أساسية في اتجاه المراهق نحو الاستعداد لمرحلة البلوغ، حيث يرتبط بمفهوم الاستقلالية Individuation والذي يعتبر كأحد الركائز الأساسية في تكوين الذات المستقلة للمراهق. ويشرح الباحث مفهوم الاستقلالية بأنه يمثل مجموعة من العمليات يستطيع المراهق من خلالها تكوين ذات متفردة وخاصة تؤدي به إلى الشعور بالتميز عن الآخرين، لذلك فإن هناك أربعة أطوار مختلفة لمفهوم الاستقلالية:

1- التفريق Differentiation: يحدث هذا الطور في بداية مرحلة المراهقة فيكتشف المراهق أنه يختلف عن الأهل وأن مستويات تفكيرهم ومبادئهم ربما تكون مختلفة عن مبادئه واتجاهاته. ويتزامن هذا الطور مع مفهوم التركيز الذاتي Egocentrism الذي يتبلور في هذه المرحلة والذي يدفعه إلى الاعتزاز بأفكاره والتشكك في أفكار الآخرين.

2- التجريب Experimentation: وفي هذا الطور يقوم المراهق بالاعتماد على نفسه في تجربة أشياء كثيرة ومهارات متنوعة، لكن الشيء المهم هو اعتقاده

بأنـــه على حق وأن آراءه صائبة لذلك فهو يرفض النصيحة أو الوعظ من الآخرين فـــنجده أحياناً ما يتحدى سلطة الآباء ويفضل الاستماع إلى أصدقائه فيرتبط بهم ويأخذ بآرائهم في معظم الأوقات.

3- الـــتقارب Rapprochement: عـــلى الرغم من أن المراهق يسعى إلى تحقـــيق الاستقلالية والافتراق عن سلطة الوالدين ونفوذهم عن طريق الاعتماد على التجريب الذاتي في تعلم الحقائق إلاّ أنه عند بلوغه إلى منتصف مرحلة المراهقة يبدو أكثر ميلاً للمفاوضة مع الآباء ورغبة في تنفيذ بعض توجيهاتهم والتقرب إليهم مرة أخـــرى ولكـــن بحرص. فقد يبدو المراهق مستعداً للتعاون مع الآباء في أداء بعض المهام التي يكلف بها ولكنه يغضب إذا ما حاول الأب تقييد حريته أو إرغامه على الـــتخلص مـــن بعض الأصدقاء الذين يرى الوالدان أن لهم تأثيراً سيئاً على الابن. ويتـــنقل المـــراهق خلال هذه الفترة ما بين طور التجريب وطور التقارب حسب الظروف والأوضاع المرتبطة بالأسرة.

4- تماســـك الذات Consolidation of self: نهاية مرحلة المراهقة يصل الفـــرد إلى تكوين إحساس بذاته وتبدو شخصيته وقد اكتمل نموها فيشعر في هذا الوقـــت أنه قد أكمل مهمة تكوين الذات وأصبح له كيانه المستقل. ويمثل تكوين الـــذات أيضاً شعور المراهق بأنه إنسان متفرد له حريته الشخصية يستطيع أن يأخذ قراراته بنفسه وبشكل فردي، وقد يفاجأ الآباء عندما يرون أن ابنهم في عمر الثامنة عشرة قد بدأ الحديث عن ذاته واهتماماته وكأنه شخص آخر ناضج يعي ما يقول، فعـــلى ســـبيل المثال نجد أن الابن قد قرر الالتحاق ببرنامج دراسي معين أو مهنة معينة فيظهر من حديثه أنه قد بحث هذا الأمر باستفاضة وأن مبرراته ومنطقه يبدو واضحاً ومستقراً.

إلاّ أن الفشـــل في تحقيق الذات المستقلة يؤدي إلى تعرض المراهق لنوع من الأزمـــة التي تحدث نتيجة فشله في تكوين شخصية متماسكة ومتوازنة، وينتج عن هذه الأزمة قيام المراهق بتجنب التعامل والدخول في علاقات مع الآخرين، فيحدث ذلـــك عـــندما يشعر بعدم وجود التوافق بينهم، وأنه فقد فرصة لن تتكرر لتحقيق ذاته. وينتج عن هذا شعوره بالاكتئاب والإحساس بالضياع لعدم استطاعته تكوين ذات مستقلة تبعده عن مرحلة الطفولة وتؤهله للدخول في مرحلة الشباب والنضج.

وكما هو متوقع فإن فشل المراهق في هذه المرحلة يؤثر على أنشطته الدراسية ومستواه التحصيلي نتيجة لضعف التركيز والمشاعر السلبية التي تجتاحه، ويرى العلماء أن تكوين ذات سلبية Negative Identity يعني فشله وعدم تمكنه من الإعداد لأدوار مهمة تتطلع أسرته والمجتمع لأن يضطلع بها ويمارسها في المستقبل، وينتج عن فشل المراهق في تكوين ذات مستقلة شعوره بالسلبية وانغماسه في سلوكيات وأدوار غير مقبولة من المجتمع مثل دور الحدث أو المتعطل أو متعاطي المخدرات.

ويتأثر تكوين الذات والحصول على الاستقلالية بدرجة كبيرة بطبيعة وثقافة المجتمع الذي يعيش فيه المراهق والأفكار والمبادئ التي تؤمن بها الأسرة، فنجد على سبيل المثال أنه في المجتمعات الريفية والقبلية يشجع المجتمع الفرد على النضوج المبكر ويدفعه نحو الاستقلالية منذ الصغر عن طريق تدريبه على تولي مجموعة من المهام وإعطائه درجة معقولة من حرية اتخاذ القرار. فالمراهق يُنظر إليه في هذه المجتمعات كرجل صغير فيكلف بزراعة الأرض أو رعاية الأغنام والأبقار أو يكلف بتولي مسؤولية تجارة الأسرة، ويزيد في هذه المجتمعات تأييد الأسرة وتشجيعها للمراهق وإعداده للزواج في سن مبكرة. وعلى الرغم من تغير الظروف إلاّ أن المراهق في المدن الكبيرة يظل معتمداً على أسرته بشكل كبير حتى إذا ما رحل للالتحاق بالجامعة أو للحصول على وظيفة فإنه يعود إلى بيت الأسرة وأحياناً ما يعيش في كنف الأسرة حتى موعد زواجه الذي يحدث في الغالب في سن متأخرة بالمقارنة بالأفراد من نفس المجموعة السنية الذين يعيشون في الريف.

ونجد أيضاً أن فرصة قيام المراهق بالاستقلالية والمعيشة خارج البيت خاصة في المجتمعات العربية يتطلب ميزانية كبيرة تساعد في الحصول على مسكن وقد يكون ذلك صعباً إذا ما نظرنا إلى إمكانيات المراهق المادية في هذه المرحلة من العمر، ولذلك فإن المراهق في المدينة يعاني من مشكلات العلاقات المتداخلة وسلطة الآباء وتدخلهم في حريته في اتخاذ أيّة قرارات حيث أن معيشته مع بقية أفراد الأسرة والآباء تحت سقف واحد تجعل سلطة الآباء قوية وصعب تغييرها.

تأثير البيئة الاجتماعية والثقافية على سلوكيات المراهقين:

إذا مـــا تحدثنا عن مرحلة المراهقة فإن مفهوم البيئة الاجتماعية ربما يحتاج إلى إعادة صياغة حيث إن المراهق في وقتنا الحالي يتفاعل مع بيئة اجتماعية تتسم بعدم الوضـــوح، حيث يتأثر بمجموعة من البيئات الاجتماعية ذات الاتجاهات والأبعاد المتعددة والمتسعة.

وبشـــكل مبســـط فـــإن عـــالم المراهقين في الزمن الحالي يعيش في زمن التكنولوجيا الحديثة وثورة المعلومات وشبكة الاتصالات العريضة والمتسعة، فالمراهق الآن لا يخضـــع فقـــط لـــتأثيرات البيئة المادية المباشرة التي تتمثل في الحي والمنطقة الســـكنية الـــتي يعـــيش فيها ولكنه يتعايش مع ثقافات وقيم واتجاهات تنبع من مجـــتمعات مخـــتلفة ومتباعدة الأطراف، فيستمع للموسيقى والأغاني بلغات عديدة والتي تتوفر على شكل شرائط ودوائر ممغنطة وأجهزة ناقلة من شبكات التليفزيون عبر الأقمار الصناعية والذي يعرف في المنطقة العربية بـــ (الدش)، بالإضافة إلى ما يمكن استدعاؤه Download من شبكات الإنترنت وما يراه من أفلام على قنوات عديدة.

وبقـــدر ما يشعر أعضاء المجتمع من الراشدين بخطورة تعرض (Exposure) الأبـــناء لمعلومـــات منقولة يشوبها الخلط والتشويش، إلا أن العلماء لديهم بعض التصـــورات المخـــتلفة لهذا التعرض فيرى بعض الباحثين أن المراهقين لديهم فرصة كبيرة للاستفادة من هذا الانتشار الثقافي عن طريق فهم رموز ومعلومات واتجاهات عديـــدة من خلال المصادر المتنوعة والعديدة لشبكة المعلومات Superhighway، والنظرة المستقبلية لهذا التطور ترى أن المراهق سوف يتمكن باستخدام التكنولوجيا الحديثة أن يطلع على كم كبير من المعلومات وأنه سوف ينمي قدرته على تصنيف المعلومـــات وفرزها والتحقق منها ووضع معايير ذاتية وشخصية حول جدوى هذه المعلومات وفائدتها ومن ثم يصبح المراهق قادراً على التمييز بين ما هو ضار وما هو مفـــيد. ولـــيس هناك أي شك في أن المراهقين الآن لديهم وسائل عديدة للتعلم لا تتصف بالتقليديـــة مثل أساليب التعلـــم الذاتي وأساليب التفكير النقدي Critical Thinking والتوعية.

لقــد ناقشنا في هذا الفصل أن المراهق يسعى خلال هذه المرحلة بكل جهده لتحقـيق ذاتــه وتكويــن ملامح شخصيته بشكل متفرد، من خلال تكوين آراء وتصــورات ذاتية نحو العالم الذي يعيش فيه، لذلك قد نرى طلبة المدارس الثانوية يعــبرون عن رضائهم أو استنكارهم لبعض الأشياء التي يشاهدونها في الواقع وقد يطـرحون حلــولاً ذات قـيمة ولكنها ربما تصطدم بالقواعد والتقاليد والأعراف المجتمعــية. وقــد يري البعض أن المراهقين يتسمون بالتمرد والرفض لكل ما هو موجــود في المجتمع، إلا أن النظرة الواقعية للأمور تؤكد ضرورة تشجيع المراهقين على إبداء آرائهم ومناقشتها والاستماع لها بل والاستفادة منها، حيث إن المراهقين يتميزون بالشفافية في إدراك الواقع لأنهم لم يتعلموا بعد التشيع لأفكار معينة حيث إن انــتماءهم للواقــع يــتأثر بدرجة كبيرة بالأحكام التي يطلقونها عليه بدلاً من الضغوط التي تدفعهم إلى الانصياع لقيوده وتحفظاته.

يعتــبر تــأثير البيئة على أفكار وقيم وسلوكيات المراهق كبيراً، لكن النظرة الحُكمــية التي ربما يتبناها المجتمع تجاه المراهقين والتي تتضمن وصفهم بالمشاكسين والرافضــين قــد لا تكــون صــحيحة حيث إنها تؤثر على كيفية التعامل معهم وإشعارهم بأنهم جزء مهم من المجتمع، لذلك فإن هناك ضرورة لتفهم معنى المراهقة مــن كافــة أعضاء وفئات ومؤسسات المجتمع بحيث يتم نوع من التوافق والتناسق بيــنهم تكــون محصلته أن يشعر المراهق بأنه مرتبط بالمجتمع Included فينمو لديه الشــعور بالانــتماء والرغبة في الانصهار ضمن المجتمع ليصبح كوحدة مهمة من وحداتــه. لذلك فإن كافة المؤسسات والجماعات يجب أن تعي هذه الرؤية وتبني بــرامجها وأنشطتها بناء على هذا التوجه فتقوم كل من المدرسة، والنادي الرياضي ومراكــز الشباب ودور العبادة والمراكز الثقافية والإعلامية وغيرها بتأكيد المفهوم الإيجــابي لطبــيعة هذه المرحلة وتوفر الدعم الأدبي والمادي لخلق بيئة مؤيدة لفئات المراهقين تدفعهم نحو النمو والتطور.

وبشــكل أساسي فإن الأخصائي الذي يتعامل مع المراهقين يجب أن يتفهم كافــة الجوانب والمتطلبات النفسية والاجتماعية المرتبطة بهذه المراحل والتي تتعلق بــنظريات النمو والتفاعل مع البيئة، وهناك أهمية لأن نتيح للمراهق الفرصة للتعبير عــن ذاتــه ونشجعه على التفرد Individuation فيصبح قادراً على تكوين ذات

مســـتقلة Independent Identity. وبشـــكل عام فإن أساليب التفاهم مع المراهق يجـــب أن تدور في إطار من الحوار المفتوح والمناقشة الحرة بدلاً من أساليب النصح والتوجـــيه، حيـــث إن المراهق يتأثر فقط بالاقتناع والمنطق ويقاوم لحد ما أساليب النصـــيحة خاصة إذا لم ترتبط بالمنطق، وفي إطار الصراع الاجتماعي الذي يكتنف هـــذه المـــرحلة فـــإن على الأخصائي أن يدرك احتياج المراهق للدعم الاجتماعي والنفســـيSocial & Psychological Support خلال هذه الفترة الهامة في حياته، لأن هذا الدعم يوفر الحماية للمراهق ويخفف من الضغوط التي يفرضها المجتمع عليه إذا ما حاول أن يستقل بآرائه ويعبر عن نفسه بحرية.

موضوعات بحثية:

الاكتئاب في مرحلة المراهقة

يعتبر الاكتئاب النفسي من بين المشكلات التي يواجهها المراهقون نتيجة لعوامل وظروف وراثية ونفسية، وهناك ضرورة لتفهم طبيعة هذا الاضطراب وتأثيره على شخصية الفرد خلال هذه المرحلة:

Megafu, S. (2002). Depression on the rise in children. Asia Africa Intelligence Wire, Oct 18.

وضح التقرير أن معدلات الاكتئاب تبدو في زيادة مضطردة بين تلاميذ المدارس خاصة في أثـــناء فـــترات أداء الامتحانات العامة والشهادات الدراسية، ويعد الاكتئاب كاضطراب مزاجي وعاطفي وشعوري ينتشر بين تلاميذ المدارس على هيئة مجموعة من الأعراض مثل العزلة الاجتماعـــية وتدهـــور التحصيل الدراسي، والتمرد، وفقدان الشهية، والإغماء والتفكير في الانتحار، والإحساس بالذنب، والشعور بضعف الاعتبار الذاتي. ويشير صاحب التقرير إلى أن هـــذه الأعراض يمكن اكتشافها وتشخيصها بين الأطفال صغار السن والذي يتسم سلوكهم بالجناح، ومخالفة القوانين، والتشرد والمشاركة في الأعمال التخريبية.

Wyne-Jones, M. (2002). Depression in young children. Pluse, April 8. p. 50.

في هذا اللقاء العلمي يناقش د. وين-جونس د. اليسون والاختصاصي النفسي في علاج الأطفال عن مظاهر الاكتئاب بين الأطفال، حيث يشير إلى أن الطفل المكتئب يمر بحالة معينة يمكنه فيها أن يصف مشاعره الداخلية، ويفكر حول عملية التفكير، ويستطيع أن يصف

الجوانب الادراكية/ المعرفية التي يمر بها مثل الشعور بالضياع، وقلة الحيلة، والذنب والعجز. ولكن هذه الحالة قد لا يشعر بها الطفل حتى يبلغ السابعة من العمر، وعند الأطفال فإن حـــالة الاكتئاب قد تظهر على شكل الصراعات الأسرية، والغضب، والعزلة الاجتماعية والغياب المدرسي، وتجربة المخدرات والخمور، إلا أن هذه المظاهر قد تتماثل مع أعراض الاكتئاب عند الراشدين والتي تظهر على هيئة مشكلات النوم، والإحساس باليأس، وضعف التركيز، والفشل الدراسي، والانسحاب الاجتماعي، بالإضافة إلى سلوك الإيذاء الذاتي.

الصراع الاجتماعي النفسي (الذاتية ضد التشويش):

يتفهم الفرد الذي يمر بمرحلة المراهقة أنه على أبواب مرحلة النضج وما يعنيه ذلك من استعداده للقيام بأدوار مختلفة ومهمة في المراحل القادمة من حياته، لذلك فـــإن أحـــد المتطلـــبات الهامة في مرحلة المراهقة هو القيام بتكوين ذات مستقلة Identity والتوصـــل إلى فهم واضح لحقيقة الفرد وعلاقته بالعالم من حوله، ولقد وضـــح "أريكسون" أن الخطر الأساسي في هذه المرحلة يحدث عندما يؤجل المراهق تكويـــن ذاته المستقلة وهذا ما سماه بأزمة الذات والأدوار. وتتعدد مظاهر الأزمة، فمثلاً قد نرى أن المراهق وصل لنهاية المرحلة ولكنه لا يزال يتصرف مثل الأطفال أو قد يعبر عنه نفسه من خلال مجموعة من التصرفات غير الناضجة أو غير الواعية أو نراه يتهرب من مسؤوليات البالغين ويتصرف مثل الأطفال الصغار.

ويقـــوم المـــراهق في أثناء محاولاته لتكوين ذاته الخاصة بتجريب واستطلاع مجموعـــة من الاختيارات والأنشطة، فأحياناً ما يهتم المراهق بالرياضة ويمارس لعبة معيـــنة ويزداد حماسه بها ثم فجأة يترك هذا الاهتمام ويتحول إلى هواية أخرى مثل قـــراءة الكتب الأدبية إلاّ أنه يترك هذا الاهتمام الجديد ويتحول إلى تعلم الكمبيوتر أو التدريـــب عـــلى آلة موسيقية، وتعد هذه التجارب مفيدة ومهمة لأنها تعبر عن اختـــبارات المـــراهق لاســـتعداداته وميولـــه ومحاولاته التعرف على قدراته الذاتية وإمكاناتـــه، ويطلـــق "أريكســـون" على هذه الفترة "التوقف الاجتماعي النفسي Psychosocial Moratorium" ولكنه ليس توقفاً بالمعنى الحرفي بقدر ما هو تجريب واستعداد واختبار لمجموعة من الخبرات والمهارات الجديدة.

ملخص الفصل

تعرضـــنا في هـــذا الفصل لمفهوم المراهقة وتحدياتها ومجموعة التغيرات التي يعيشـــها المـــراهق، ولقد ناقشنا تأثير البيئة الاجتماعية والثقافية على هذه المرحلة ومجموعـــة التوقعات التي يفرضها المجتمع على المراهقين، وبشكل عام فإننا نرى أن المـــراهقة مرحلة طبيعية يستعد فيها كل فرد للتدرب على مجموعة من الأدوار التي ســـوف يقوم بها في المستقبل، لذلك فإن التفكير في هذه المرحلة كمرحلة متاعب ووصفها بالخطورة قد لا يساعد على خلق رؤية إيجابية وتوجهات وبرامج تساعد المراهق على تحقيق متطلبات المرحلة والنجاح فيها، لذلك فإن دور الأسرة والمجتمع في تفهم أبعاد المرحلة وتقديم الدعم والتأييد في إطار من المناقشة ومنح المراهق حرية اتخاذ القرار يعد من أهم الجوانب التي يجب أن نحرص عليها ونطبقها.

التمرد على سلطة الأب

حالة أيمن العربي

حضـــر إلى المدرســـة الأســـتاذ أحمد العربي وطلب مقابلة الأخصائي الاجتماعي للتحدث معه عن اختفاء ابنه أيمن الطالب بالصف الأول الثانوي فجأة بعد مناقشة شديدة معـــه حدثـــت قبل ثلاثة أيام، وقد علم والد الطالب أن ابنه يقيم مع أحد الطلاب الذي يعـــيش بمفرده وذلك لسفر أسرته للعمل بالخارج، تحدث الوالد عن التغيرات الكبيرة التي حدثت لابنه منذ بلوغه الرابعة عشرة وأنه أصبح صعب التفاهم معه ويرفض معاونة الأسرة أو مساعدة والده في المتجر الذي يملكه، ولقد حاول الوالد أن يتفاهم معه إلاّ أن ابنه بدأ في العناد ومخالفة الأوامر والإصرار على قضاء معظم وقته مع أصدقائه. وقال الأب إنه سمع من أحد الأقارب أن أيمن يدخن السجائر وعندما نهره على ذلك قال الابن أنه سيفعل ما يريد، ولقد سبب قطع الوالد المصروف عنه في ثورته الشديدة ودخوله في مناقشة مع أمه أبدى فـــيها إحساسه بالضيق وعدم الارتياح في المعيشة في البيت. وعن ظروفه الدراسية أبدى الوالـــد خيبة أمله في تذبذب مستوى ابنه الدراسي بعد أن كان من الأوائل، ولكن تعرفه عـــلى بعض الزملاء والأصدقاء أدى إلى بقائه معهم لفترات طويلة وإهمال الدروس بسبب الجلوس على المقاهي والسهر مع الزملاء.

أمـــا عن معاملة الابن قال الولد أن أيمن هو الابن الأول بعد بنتين ولذلك فإنه كان حريصـــاً منذ البداية على معاملته بشيء من الجدية حتى لا يفسد ولا يشعر بالتدليل ولكن ابنه كان دائماً مطيعاً وحريصاً على رضاء والديه. ولكن عندما بدأ يكبر أصبحت له آراؤه الشخصـــية وأصبح متعصباً لوجهة نظره ويتهكم على آراء الآخرين وبدأ في تحدي سلطة الأب ومناقشـــة أوامـــره ورفضـــها في معظم الأحيان مما أدى إلى قيام الأب بضرب ابنه وتوبيخه على هذه السلوكيات.

ولقد حدث صدام كبير منذ ثلاثة أيام عندما تسلم الوالد من المدرسة إنذار بغياب ابـــنه لمدة عشرة أيام منفصلة، وعندما واجه الأب ابنه قال إنه كان مريضاً و لم يذهب إلى المدرســـة في هذه الفترة ولكن الوالد أخبره أنه قد سمع عن ذهابه إلى المقهى وجلوسه مع بعض أصدقائه في هذا الوقت. ثار أيمن واتهم والده بالتجسس عليه وعدم محاولة فهمه وأنه قد قطع المصروف عنه لرفضه الذهاب إلى المتجر لمعاونته وانتهت المواجهة عندما قال أيمن أنه يجب أن يعيش حياته بالطريقة التي يرغبها ولا يريد أن يتدخل أحد في شؤونه. ثم ترك المنـــزل ورحل.

أسئلة تطبيقية (المناقشة في مجموعات)

- ما تأثير التغيرات الجسمية والنفسية على سلوك المراهق وتفاعله مع أنساق المجتمع.
- كيف يؤثر تطور الجوانب المعرفية والأخلاقية على سلوكيات المراهقين.
- من واقع التطورات العلمية والتكنولوجية التي تحدث في العالم، كيف ترى تأثر سلوك المراهقين في مجتمعك بهذه التطورات؟
- تسعى المجتمعات والأسر لتدعيم المراهقين من أجل تكوين الذات المستقلة Identity، ناقش الدور الذي تقوم به مؤسسات المجتمع التربوية والاجتماعية والثقافية في مجتمعك لمساعدة المراهقين على تحقيق هذه المهام والتعامل مع التحديات المرتبطة بتكوين الذات.
- من خلال دورك كأخصائي نفسي/اجتماعي/تربوي في المدرسة لمساعدة الآباء على تفهم التغيرات التي تحدث لأبنائهم خلال مرحلة المراهقة وتأثيرها على سلوكيات الأبناء، حدد أهم المعلومات التي يمكن أن تناقشها مع الآباء من أجل العمل على زيادة وتنمية التفاعل بين الآباء والأبناء خلال هذه المرحلة العمرية. (استعن بحالة أيمن العربي كمثال يمكن استخدامه في المناقشة).

الفصل السادس

تطور السلوك الإنساني خلال مرحلة الشباب

The Development of Human Behavior During Youth Stage

مقدمـــــة:

إن مـــرحلة الشـــباب هي المرحلة المهمة التي يستطيع خلالها الشاب تحقيق طموحاتـــه وآمالـــه وتحديـــد دوره ومساهماته على المستوى الفردي والأسري والمجـــتمعي. لذلـــك فإن نمو السلوك وتطوره خلال هذه المرحلة يجب أن يعكس الاتجـــاه نحو الإنجاز وتحقيق الأهداف الفردية والانصهار في بوتقة المجتمع. ويعتمد المجـــتمع عـــلى الأفـــراد خلال مرحلة الشباب للقيام بواجبات ومسؤوليات هامة وخطـــيرة، حيث أن من الشباب تتكون الجيوش التي تدافع عن الأوطان وكذلك القوى العاملة والخبرة الفنية المدربة التي ستساهم في بناء وتطوير المجتمع، ومن هنا نجد أن المجتمع يتوقع من الأسرة وبقية مؤسسات المجتمع التعليمية والثقافية أن تنجح في أدوارهـــا في إعـــداد الشباب وتزويدهم بالمعارف والخبرات والمهارات اللازمة للقيام بالمسؤوليات وتحقيق المهام التي يتوقعها المجتمع من أبنائه. وهناك مجموعة من الـــتوقعات الأخرى التي تتعلق بقدرة الشباب ونمو سلوكياتهم ومفاهيمهم من أجل تحقـــيق متطلـــبات هـــذه المرحلة العمرية والتي تتمثل في تحقيق الاستقلال المادي والاستقرار الاجتماعي.

الأهداف العملية Objectives:

عند انتهاء القارئ/ القارئة من دراسة هذا الفصل فإنه من المتوقع أن يتعرف على:

- علاقة النمو الجسمي والإدراكي/المعرفي للشباب وتطور السلوك الإنساني.

- تأثير البيئة الاجتماعية والثقافية على سلوك الشباب.
- المتطلبات الاجتماعية والتحديات التي يواجهها الشباب والأساليب المستخدمة لتحقيقها.
- نوع الصراع النفسي الاجتماعي وتأثير البيئة في مواجهة هذا الصراع.

يعتقد كثير من الأبناء أن الوصول إلى مرحلة الشباب سوف يعطيه الحرية الكافية فيصبح قادراً على تسيير حياته بالشكل الذي يراه بعيداً عن سلطة الآباء والمدرسين والمشرفين، كذلك فإن بلوغ مرحلة الشاب قد يعني لهم التخلص من كثير من المشكلات التي عايشوها في المراحل السابقة مثل الدراسة والاعتماد على الآباء كمصدر أساسي لدخلهم، وأن مرحلة الشاب تعني الاستقلال المادي وتوفر الأموال اللازمة لمتطلبات الحياة.

إلاّ أن كثيراً من هذه الآمال والتهيؤات تصبح خيالية نظراً لأن الشباب سوف يواجهون أعباء جديدة وأدواراً أكثر تعقيداً ومسؤوليات أكثر صعوبة سوف تتطلب من الشاب تبني مجموعة من السلوكيات والقيم والمبادئ التي يمكن أن تؤهله على تحقيق هذه المهام بنجاح وفاعلية. وتتضمن هذه الأعباء البحث عن عمل والالتزام بتعليمات الوظيفة الجديدة بالإضافة إلى تحديات الاستقلال عن الآباء وتكوين أسرة وما يترتب عليه من أعباء مادية كبيرة.

وفي خلال هذه المرحلة ينتقل الشاب من كونه شخص يعتمد على الآخرين في تسيير حياته إلى شخص مطلوب منه التفكير في أمور عديدة واتخاذ قرارات هامة، الأمر الذي يتطلب منه المواءمة بين سلوكياته وتصرفاته والمتطلبات الصعبة التي عليه مواجهتها، فنجد على سبيل المثال أن الشاب قبل هذه المرحلة ربما لا يعي مسألة التعامل مع النقود أو التفكير في إنفاقها بصورة معينة، ولكن مع الدخول إلى هذه المرحلة ومواجهة متطلبات الاستقلال المادي وتكوين الأسرة، يبدأ في التفكير في كيفية إنفاق دخله بصورة أكثر حرصاً تساعده على توفير الأموال واستثمارها بشكل عملي من أجل تحقيق أهدافه.

تأثير النمو الجسمي على سلوك الشباب

تمـــثل هذه المرحلة (19 إلى 34 سنة) الذروة في نمو القدرات الجسمية حيث يصـــل القلـــب والرئتان وبقية أجهزة الجسم إلى مرحلة التكامل الوظيفي، ولذلك يعتبر الأطباء أن قياسات كفاءة الجسم وأجهزته في هذه المرحلة هي مقياس معياري يقـــارن به كفاءة الأجهزة في مراحل تالية، إلاّ أن في هذه المرحلة خاصة في نهايتها تحدث بعض التغيرات في كفاءة الجسم وانحدار في مستويات وكفاءة أداء الأجهزة الجســـمية إلى مستويات أقل. ويحدث هذا الانحدار ما بين سن العشرين والأربعين اعـــتماداً عـــلى عوامـــل كثيرة مثل الظروف البيئية وما تمثله من التعرض للتلوث والـــتوترات الجسمية والانفعالية وكذلك توازن وتماثل الغذاء مع احتياجات الجسم والراحة الذهنية والعقلية وكذلك معدلات ممارسة الأنشطة والتدريبات البدنية.

فلقـــد لاحظ العلماء عن طريق استخدام المقاييس والإحصائيات أن الأجيال الحالـــية أصـــبحت أكثر طولاً وأثقل وزناً من الأجيال السابقة حيث بدأ الأطفال يصـــلون إلى ســـن البلوغ مبكراً. وقد ساهمت عوامل كثيرة في هذه التغيرات مثل الـــتغذية الصـــحيحة وتحسين ظروف البيئة بشكل عام والتقدم الكبير في الخدمات والـــرعاية الصحية. ومع بداية مرحلة الشباب (النضوج المبكر) ينتهي نمو العظام في الجســـم ويتوقف طول الفرد عند بلوغه 21 سنة ويزداد الوزن عند الذكور فيتركز في الأكـــتاف والأذرع وفي الإناث تتركز معظم الزيادة في الوزن في منطقة الصدر والأرداف. وكمـــا ذكرنا من قبل فإن وزن الإناث في أثناء فترة المراهقة يزداد عن وزن الذكـــور؛ إلاّ أن خلال مرحلة الشباب (22 إلى 34 سنة) تزداد نسبة الدهون في الجسم عند الإناث بمقدار (27%) وعند الذكور بمقدار (15%) . وترجع زيادة وزن الإنـــاث عن الذكور إلى تأثير الخصوبة الجسمية التي تسببها هرمونات الأنوثة واستعداد الجسم للإخصاب (Newman & Newman, 1997).

يشـــعر الفرد خلال مرحلة الشباب بنمو قوته العضلية مع استمرار اكتسابه للطول حيث يستمر جهاز العضلات في النمو المضطرد فيواصل تطوره ونموه حتى بدايـــة الثلاثيـــنات من العمر. على أن منتصف العشرينات ونهايتها تمثل الذروة في القـــوة الجســـمية لدى الفرد ولذلك فإنه يستطيع أن يقوم بالأعمال التي تحتاج مجهـــود عضلي كبير أو يشترك في رياضات وألعاب تتطلب طاقة كبيرة. ونجد أن

الاعتماد الكبير على الشباب في أداء مهمات صعبة يتطلب القوة والجهد الجسمي، فنجد في المجتمعات الريفية والزراعية يقوم الشباب بفلاحة الأرض والحرث والعمل الشاق لساعات طويلة.

جدول رقم (7)

معدل زيادة الوزن ارتباطاً بالعمر والنوع

معدل العمر بالسنوات للذكور والإناث	34–20	44–35	54–45	64–55	74–65	أكثر من 75 سنة
ذكور	%22.2	%35.3	%35.6	%40.1	%42.9	%26.4
إناث	%25.1	%36.9	%41.6	%48.5	%39.8	%30.9

أما في المجتمعات الصناعية فيقوم الشباب بالعمل في قطاعات التصنيع والبناء وشق الطرق وكذلك في قطاع التجارة والصيد، فإدارة المجتمعات تتطلب طاقة وجهد ونشاط الشباب ولذلك نرى أن مهمة الدفاع عن البلدان وتوفير الأمن يعتمد على جهود الشباب على هيئة تجنيدهم في الجيوش المنتظمة وتدريبهم على القيام بذلك، ونجد أن الأنثى في هذا العمر تستطيع أن تتحمل أعباء كثيرة مثل العمل ورعاية الأسرة وإنجاب الأطفال وممارسة بعض الرياضات والتدريبات العنيفة. ويرى "فريس" و "كرابو" (Fries & Crapo, 1981) أنه عند نهاية مرحلة الشباب يلاحظ الفرد بداية انحسار القوة الجسدية الذي يظهر عندما يقومون بأداء مجهود زائد مثل الجري لمسافة قصيرة أو أي جهد عضلي مركز وذلك نتيجة لبداية تقلص الاحتياطي الخاص بالجهد Organ Reserve.

النمو الإدراكي/المعرفي للشباب وتأثيره على السلوك

Formal Operational Thought

بناء على تقسيمات "بياجيه" فإن المرحلة الأخيرة للنمو العقلي هي مرحلة العمليات المجردة والتي تبدأ عند سن المراهقة، وتضطلع هذه المرحلة بقدرة المراهق

عـــلى التفكير المجرد بالإضافة للتفكير في خواص الأشياء، ولذلك فإن الفرد خلال هذه المرحلة وطبقاً لمستويات التعليم التي يصلها ونتيجة تأثير وتحفيز البيئة التي يعيش فيها يصبح قادراً على التفكير العلمي وتنمو القدرة التفكرية لديه فنجده قادراً على أن يجمـــع الأفكار بطريقة منطقية ويفكر بطريقة نقدية ونلاحظ ذلك مثلاً في قدرة الفـــرد على تحليل حكاية أو موقف. فنجد أن في المجتمعات الريفية والبدوية يكون الاعتماد على الحكمة والأمثال والمواعظ لنقد وتفسير قصة معينة. بينما يميل الأفراد الذين يعيشون في مجتمعات المدينة إلى البحث عن تفسير مقنع اعتماداً على خبراتهم العملية أو بعض الحقائق العلمية التي تشرح سلوكاً أو موقفاً معيناً.

ونظراً لأن "بياجيه" قد وضع هذه المرحلة كآخر تطور في النمو العقلي فإنها تمـــثل العملـــيات الإدراكية/المعرفية التي يرتكز عليها تفكير البالغين في بقية مراحل الـــنمو. إلا أن هناك ملاحظة تتعلق بصعوبة تكملة المراهقين لهذه القدرات المتعلقة بمـــرحلة العملـــيات المجردة، لذلك فقد قامت مجموعة من العلماء بدراسة مراحل "بياجيه" من أجل تعديلها وتطويرها، فنجد أن "جون ريباش وآخرون" (Rybash, et al., 1986) يرى أن العمليات المجردة للتفكير تعتبر إنجازا كبيراً ولكنها لا تعطي صـــورة متكاملة للنمو العقلي والإدراكي للبالغين لأن هذه المرحلة تركز على إيجاد حـــل واحد أمثل لكل مشكلة بغض النظر عن الخصائص الدقيقة لها، وقام كرامر (Kramer, 1989) بوضـــع ثلاثـــة تصـــورات لنظـــرية ما بعد العمليات المجردة :Post-:formal Thought

1 – إن أصحاب هذا المنهج يرون أن العلم هو نسبي وليس نهائياً. وأن العلم يتضمن وجهات نظر ذاتية غير موضوعية تؤثر على اكتمال جوهر العلوم.

2 – إن الحقيقة تتضمن وجود تناقضات واضحة، فعلى سبيل المثال قد تتضمن العلاقات الإنسانية الحب والكره معاً في نفس الوقت.

3 – إن باحثي نظرية ما بعد العمليات المجردة يرون إمكانية تضمين مجموعة حقائق متناقضة إلى حقائق عامة كلية، فبدلا من الاختيار بين مجموعة من الفروض فإنهم يضمنون كل المطروح منها في منظومة تفكيرية شاملة.

وننتهي من ذلك إلى أن هذه المجموعة من العلماء وافقوا على ضرورة إضافة مرحلة خامسة إلى الأربع مراحل التي اقترحها "بياجيه" لتعرض خصائص وعمليات تفكـير البالغين التي يستخدمونها عندما يواجهون الغموض الذي يكتنف الحياة التي نعيشها الآن، ولقد نجح "ساشي" Schaie (1994) في تصميم نظرية لنمو التفكير العقـلي اسـتناداً على مفاهيم "بياجيه" ولكنها تركز بشكل خاص على التغيرات والتجارب التي يتعرض لها الفرد في أثناء مرحلة الرشـــد، وتظهر نظرية "ساشي" العلاقـة الواضحة بين النمو الاجتماعي النفسي والنمو الإدراكي المعرفي والظروف البيئـية الخارجـية مثل متطلبات العمل والأسرة، فبينما تركز نظرية "بياجيه" على كيفية اكتساب الفرد للمعلومات الجديدة فإن "ساشي" يركز على كيفية استخدام الـبالغين لهذه المعلومات وردود أفعالهم وسلوكياتهم عندما يواجهون مواقف صعبة وحـرجة تحتاج إلى التفاعل معها عن طريق سلوكيات وتصرفات واعية ومدركة لكافة الأبعاد والجوانب.

فـنجد أن الطفـل أو المـراهق، في خـلال مـرحلة اكتساب المعلومات Acquisition والـتي تتضـمن مـراحل "بياجيه" الأربعة، يبني مهارات وقدارت إدراكـية أساسـية عن طريق استخدام منطق تجريدي في التعامل والملاحظة. وفي مرحلة الإنجاز Achieving Stage فـإن الشباب يوجهـون ذكاءهم تجاه أهداف محددة بدلاً من ارتكاز تفكير المراهقين على تتبع كل فرصة أو تجربة متاحة. لذلك فإن الشباب يهتمون بمعرفة طبيعة ونتائج قراراتهم عندما يحاولون التعامل مع مشكلة معينة. فمثلاً عند التفكير في قبول وظيفة معينة فإن الشاب يفكر في الفوائد قصيرة المـدى مثل المرتب والوضع الأدبي بالإضافة إلى التفكير في المزايا بعيدة المدى مثل فرص الترقية والفوائد المكتسبة عند سن المعاش.

وفي مرحلة المسؤولية Responsibility Stage فإن الفرد يفكر في مسؤولياته تجاه الآخرين مثل أطفاله وأتباعه والمجتمع الذي يعيش فيه، وهناك بعض الأفراد في مرحلة السن المتوسطة يصلون إلى مراكز عمل متقدمة يترتب عليها سلطات كبيرة لذلك فإن مسؤولياتهم تتعقد وتتسع وهو ما يسمى بالمرحلة التنفيذية Executive Stage. فـنجد أن مدير مؤسسة ربما يفكر في المستوى الاقتصادي في المنطقة التي تقـع فـيها مؤسسته والبناء والتركيبة الاجتماعية للسكان في نفس المنطقة، أما في

مرحلـــة الشيخوخة Re-integrative Stage تقــل المسؤوليات خـــاصة بعد سن الـــتقاعد ومـــا يتضمنه ذلك من انحسار الاهتمامات وقلة الخطط التي يسعى الفرد لتنفـــيذها، ولذلـــك فـــإن الأفـــراد متقدمي السن بشكل عام يوجهون تفكيرهم واهتماماتهم تجاه أشياء وأنشطة لها معنى وقيمة بالنسبة لهم بدلاً من التفكير المجرد في احتياجات الآخرين.

ويتضح من نظرية "ساشي" أن هناك ضرورة لمناقشة كيفية استخدام الأفراد لـــلمعلومات والمهـــارات العقلـــية في تنمية قدراتهم وسلوكياتهم من أجل مواجهة مواقف الحياة.

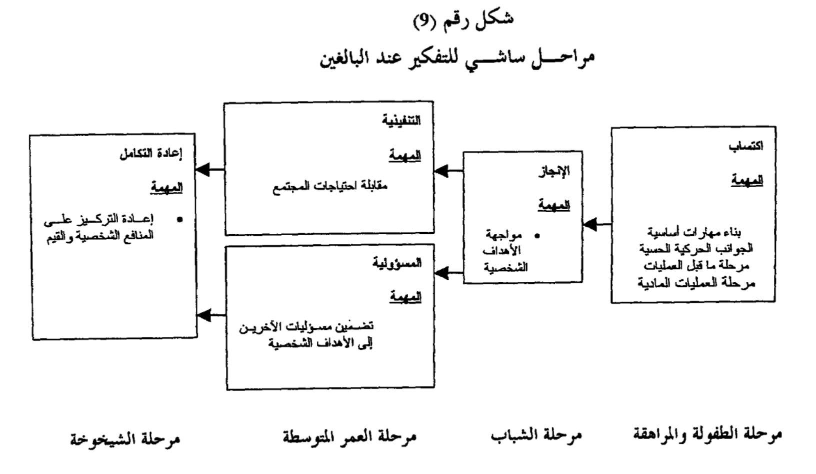
تأثير النمو الاجتماعي النفسي للشباب على السلوك:

هناك أهمية كبيرة لتفهم جوانب النمو الاجتماعي النفسي لهذه المرحلة حيث يـــتطلع الشـــباب إلى أخـــذ أماكنهم في الحياة بما يتضمنه ذلك من وظائف أدوار واجتماعـــية وارتباطات أسرية والحصول على عمل ملائم وتكوين علاقات مهنية بـــناءة وناجحة. ومن أهم مميزات هذه المرحلة الاعتماد على النفس وتولي مهمات وأدوار متعددة يتوقع كثيرون أن ينجح الشاب في تحقيقها، وفي هذه المرحلة تكون المهـــارات والخبرات والقيم التي يتعلمها الشاب هي خير الأسلحة التي يحتاجها في مواجهـــة معـــارك الحـــياة وما تشمله من جبهات كثيرة ومتعددة. ويبذل الشاب قصـــارى جهـــده ويستعين بالنصائح والتوجهات عن كيفية التعامل والمحافظة على التوازن في أمور كثيرة مثل أعباء الوظيفة وعلاقات الأصدقاء، فيبذل جهوداً كبيرة تـــتركز على الاستعداد لتكوين أسرة خاصة به، إلاّ أن متطلبات وواجبات العصر الحديـــث قد أضافت أعباءً أخرى تتطلب مهارات إضافية في التكنولوجيا ووسائل الـــتفكير الســـريع. فمثلاً نجد الآن أن معظم الشباب يعنى بتعلم برامج الكمبيوتر ودراسة فن الاتصالات الحديثة وأجهزتها بالإضافة إلى اللغات الأجنبية.

ومن هنا يبدو أن ملاحظات "أريكسون" والتي تنص على أن الخبرات التي يتعلمها الأفراد في المراحل السابقة تشجع وبشكل مباشر على الاستجابة الفعالة للمطالب التي تتضمنها المراحل التالية. إلاّ أن هنـــاك فروقاً فردية كثيرة بين الأفراد

شكل رقم (9)

مراحـــل ساشـــي للتفكير عند البالغين



تؤثر على تحقيق أهداف الفرد في هذه المرحلة، فعلى سبيل المثال نجد أن البعض من الشـباب قـد أتمّ استعداده لهذه المرحلة في أثناء مرحلة المراهقة مثل قراءة الكتب وتكوين علاقات إيجابية واجتماعية أو الاشتراك في أنشطة ثقافية أو فنية أو ممارسة رياضـة جماعـية، كل هذه الخبرات تتيح للفرد أن يتواءم مع المواقف المختلفة التي يواجههـا في مـراحل الشـباب مثل التقدم للحصول على عمل أو إجراء مقابلة شخصية أو قيادة مجموعة عمل أو تنظيم جدول أعمال اجتماع أو حفل أو نشاط ثقافي إلى جانب مهارات التعبير الذاتي ومواجهة المجموعة أو التحدث باسمها.

وهـناك أيضاً توقعات البيئة التي تؤثر في نجاح الفرد في تحقيق هذه الأهداف فنجد أن أعداد السياسات التعليمية والوظيفية مثل التدريب المهني وبرامج إكساب المهـارات يصبح شيئاً أساسياً ومعاوناً للشباب على تحقيق أهدافهم، إلاّ أن هناك ظـروفاً بيئية قد تسبب مشكلات تعوق الشاب على تحقيق أهدافه، فنجد أن الفقر والمشكلات الاقتصادية واختفاء السياسات وارتجالها قد يخلق مشكلات يعاني منها الشـباب بشـكل مباشـر تتمـثل في البطالة والإحساس بالضياع أو الانحراف والانغماس في الإدمان أو السلوك الاجتماعي.

سلوكيات الشباب وتأثرها بالمتطلبات الأسرية والاجتماعية:

يتفاعل الشباب مع متطلبات أساسية ترتبط بتوقعات الأسرة ورؤية المجتمع، الأمر الذي يساهم بدرجة مباشرة في تطور ونمو سلوك الشباب وأساليب تفاعلهم مع أنساق المجتمع المختلفة، ويمكننا أن نلخص هذه المتطلبات في الآتي:

أ — الدراسة الجامعية والحصول على وظيـفة:

مـع بداية هذه المرحلة يكون الفرد قد بدأ في تولي أحد الوظائف في سوق العمل أو على وشك إنهاء دراسته الجامعية، ومن أهم الموضوعات التي يتعامل معها الشـاب خـلال هـذه المرحلة هو مدى ملائمة الدراسة التي اختارها مع واقع وظـروف ومتطلـبات سـوق العمل، فليس هناك شك في أن التأهيل الدراسي والحصول على شهادة علمية يساهم في تزويد الشاب بالخبرات والمعارف ويوسع آفاقـه ويجعلـه قادراً على تفهم قدر كبير من المعلومات التي تتطلب جهوداً ذهنية

وتحليلـــية كـــبيرة. وهـــناك خطر الانغماس في النظريات والمثاليات التي تساهم في تكوين نظرة الطالب الجامعي تجاه الحياة فتتكون رؤيته نحو المجتمع وفلسفته الخاصة واتجاهاته وتفاعلاته مع الحياة بشكل عام.

ومع تخرج الطالب من الجامعة فإن عليه أن يواجه الواقع الخارجي حيث إن مفاهيمه ومبادئه سوف توضع موضع الاختيار، وقد يشعر الخريج الجديد بالإحباط حيـــث إن هـــذه المـــبادئ والمعـــارف التي بذل جهداً ووقتاً كبيراً في تفهمها قد اصـــطدمت بواقـــع الحياة ومتطلبات السوق وعالم المصالح والارتباطات. وهناك مجموعة من الشباب يعملون بجهد على المواءمة بين ما تعلموه ودرسوه وبين حقيقة وظـــروف الواقـــع بحيث إنهم يحاولون ألاّ يتنازلوا عن مفاهيمهم ولكن يطبقون ما يعرفونه في ضوء الظروف الموجودة.

وهناك مجموعة أخري من الشباب الذين انتهوا من دراستهم الثانوية وقرروا اقتحام سوق العمل مبكراً والحصول على عمل ملائم يتيح لهم الاستقلالية والتمرس في مواجهـــة أعباء الحياة، هذه المجموعة ربما تكون مستعدة نفسياً للعمل ولكن قد تنقصـــهم بعض المهارات والقدرات الإدراكية/المعرفية ومن ثم فإنهم في أشد الحاجة إلى الـــرعاية والتأيـــيد والمـــتابعة. وقد ينتج عن اشتغالهم بوظائف معينة وتوليهم المســـؤوليات ارتفاع إحساسهم بالتقدير الذاتي والقدرة على الإنجاز. ولذلك فربما يفكر بعض أعضاء هذه المجموعة في العودة إلى الدراسة الجامعية لاكتساب مزيد من الخـــبرات أو لإعـــادة التأهيل ورفع المستوى العملي والإداري للتخلص من قيود وتحكمـــات الوظـــيفة التي تضعهم في موقف أقل من إمكاناتهم، إلاّ أن كثيراً من أعضـــاء هذه المجموعة يقتنعون بالوضع العملي والوظيفي الحالي خاصة إذا ما كان نـــوع العمل يعطي إيحاء بالاستقلالية مثل العمل في القطاع الخاص أو إدارة محلات أو مشروعات تجارية. ومن هنا نجد أن النقلة الثانية أو التحدي التالي هو التفكير في تكوين أسرة والارتباط الاجتماعي.

ب – الزواج وتكوين الأسرة:

مّما لا شك فيه أن الزواج لدى أعضاء هذه الفئة العمرية هو أحد المتطلبات المتعلقة بالنمو الاجتماعي والنفسي، ويرتبط مفهوم الزواج بتقاليد المجتمع وتوقعاته الـتي تم عرضـها في مفهوم توقيتات الأحداث Timing of Events. فعلى سبيل المـثال نـرى أن ثقافة وتقاليد المجتمعات الريفية تفترض أن زواج الأبناء يجب أن يحدث مبكراً وفي بعض الأحيان تشارك الأسرة مادياً في أعباء وتكاليف الزواج، إلاّ أن في مجـتمعات المديـنة قد تختلف المفاهيم فيصبح زواج الشاب مرتبطاً بشكل أساسي باستعداده المادي وقدرته وبشكل شخصي على توفير نفقات ومصروفات بناء عش الزوجية مّما قد يؤدي إلى تأخير سن الزواج.

وفي بعض المجتمعات – وخاصة الخليجية- تشكل ظاهرة غلاء المهور عائقاً اجتماعـياً أمام كثير من الشباب خاصة إذا ما كان دخل الشاب متواضعاً. وعلى الـرغم من الدعوة الجادة في هذه المجتمعات لكسر هذا القيد والتعامل مع التقاليد المـتحفظة المفروضـة على الزواج وظهور برامج ومشروعات دعم المقدمين على الـزواج إلاّ أنه لا زالت المهور ومتطلبات الأجهزة والمفروشات تسبب عائقاً لدى كـثير من الشباب، ونظراً لحب الظهور والمباهاة في المجتمعات الحديثة فلقد ساهم ذلـك في خلق تعقيدات أخرى بحيث أصبحت الأفراح ومراسم الزواج ومتطلبات الاحـتفالات تشكل عبئاً كبيراً وتضيف عوائق أخرى مادية لمشروع الزواج، ومن هـنا نجـد أن ارتفـاع سن الزواج خاصة بين الذكور هو تعبير ورمز اجتماعي للمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التي ظهرت حديثاً في مجتمعاتنا.

وتأكـيداً لتأثير الثقافات والتقاليد على مشروع الزواج فإن بعض المجتمعات في الهـند وباكسـتان تعاني من مشكلة صداق الزواج Dowry بحيث يصبح والد الـزوجة مسؤولاً عن دفع مبلغ معين من المال لزوج الابنة كدين قائم عليه يطلب منه تسديده، ويضيف العبء المادي مشكلة جديدة للأسر الفقيرة والمتوسطة خاصة إذا مـا كان في الأسرة عدد من الفتيات في سن الزواج. وقد تغيرت أنماط الزواج في المجـتمعات الغربية بشكل كبير وأدى ارتفاع نسب الطلاق إلى إحجام كثير من الشباب عن الارتباط الرسمي بالمفهوم التقليدي الأمر الذي أضاف مشكلات أخرى في المجـتمع مـثل ميلاد الأبناء خارج عقد الزواج، أو من أبوين متزوجين زواجاً

عرفياً، ولقد ساهم ذلك في كثير من المشكلات التربوية والنفسية بين هذه المجموعة من الأطفال غير الشرعيين من وجهة القانون.

ولقد أظهر البحث عن مواصفات الزواج ضرورة مناقشة أنواع الزواج من حيــث كيفية تعرف الشاب على عروسه والسلوكيات المتبعة لتحقيق ذلك، لأنه عــلى الــرغم من اختلاف الثقافات إلاّ أن الذكور هم المنوطين بحق طلب الإناث للزواج.

أسلوب تعارف الفتى بعروسه:

أ. البحث والارتباط المبدئي

لا زالــت الطــرق التقلــيدية في التعرف على زوجة المستقبل موجودة في مجتمعات كثيرة والتي يرتب فيهــا الزواج عــن طريق الأسر Family arranged. ويــتدخل في ذلك رؤية أفراد العائلة (الأب-الأم-الأخوة) لما يجب أن تكون عليه زوجــة الابن والشروط المطلوبة. ونجد أن بعض الأسر تختار للابن زوجة المستقبل بناء على شخصية أسرة الفتاة وأخلاقياتهم وطباعهم كذلك سمعة والد الفتاة ومدى تقدير واحترام أفراد المجتمع والجيران له، وبذلك نجد أن الارتباط لا يكون بين الفتى والفتاة بقدر ما يكون بين أسرتين يرون فرصة للتقارب وتوطيد العلاقات بينهم.

وهــناك شكل آخر من الارتباط يعتمد على قيام الفتى بنفسه بالبحث عن عروســه حيث يضع شروطاً معينة لمن يراها كزوجة للمستقبل (التعليم-الموصفات الجمالــية-الأخلاق). وقد يساعد الفتى بعض من المقربين له مثل أخوته وأصدقائه وأقاربه في البحث عن الفتاة التي تنطبق عليها هذا الشروط، ويرشح للفتى عدد من الفتــيات يقوم هو باختيار من تناسبه، ويقوم الفتى بعد ذلك بالتقدم للخطبة. وفي مجــتمع المديــنة -حيث تنقطع العلاقات الشخصية القريبة لكثرة أعداد السكان- يطلــب والــد الفــتاة أو من يمثلها الفرصة للسؤال عن الشخص المتقدم ومعرفة أخلاقــياته وســلوكياته. وتبدأ بعد ذلك التحريات بالسؤال عنه في مكان سكنه وعملــه أو عــن طريق أشخاص يعرفونه للتأكد من حسن نواياه وأسرته وما إلى ذلك. إلاّ أن معرفة الفتى للفتاة يحدث بشكل مباشر في مجتمعات كثيرة وذلك عن طريق المعرفة المسبقة من خلال مكان العمل أو الدراسة أو الإقامة، فالفتى قد يلتقي

بـــزوجة المستقبل في مكان العمل كزملاء في شركة واحدة أو أن تكون الفتاة من الجيران.

ب. المشاورة والتعاقد والإجراءات:

تعد هذه مرحلة صعبة ومهمة في عملية الزواج وتلي موافقة أهل الفتاة على الشخص المتقدم وتقبل ظروفه وخصائصه كإنسان يصلح كزوج للابنة. وتلي هذه الموافقـــة مرحلة صعبة من المشاورات والمناقشات حول ترتيبات الزواج التي تتركز معظمهـــا عـــلى التعهدات المادية المرتبطة بإعداد عش الزوجية والمهر والمفروشات وتاريخ الزفاف والحفل المرتقب، وقد تكون هذه المرحلة صعبة تكتنفها المباحثات خاصة إذا ما كانت شروط أسرة الفتاة المادية قاسية تقوم على اشتراط مبالغ كبيرة كمهر وكمية من المصوغات الذهبية. وهناك فرصة لتقديم التنازلات والوصول إلى شروط مادية معقولة يقبلها الطرفان ويراعى فيها شروط أسرة الفتاة وظروف الفتى الماديـــة. وهناك اتجاه الآن نحو تخفيف الشروط وتعاون الأسر في تكاليف الإعداد للزواج وذلك وفقاً للحالة المادية والاقتصادية للأسرتين.

جـــ. إتمام الزفاف والانتقال للمسكن الجديد:

يعتـــبر الـــزفاف واكتمال الزواج في كافة المجتمعات مناسبة عامة يعلن فيها الأفراد للمجتمع عن ارتباط الفتى بالفتاة ويأخذ الإعلان أشكالاً كثيرة فنجد أن في بعض المجتمعات تكتب أسماء وصور العروسين في الصحف والمجلات، إلاّ أن حفل الـــزفاف وطقوســـه يتـــبع التقاليد والعادات السائدة في كل مجتمع فتكون مناسبة ســـعيدة يدعـــى فـــيها الأهـــل والأقارب وصفوة المجتمع للمشاركة في الحدث الاجـــتماعي، والمعنى في ذلك هو إشهار أفراد المجتمع بارتباط الفتى بالفتاة وتوثيق هـــذا الزواج بالأساليب الرسمية المتفق عليها والمنصوص عليها في العرف والقوانين المـــنظمة للـــزواج، وتأخذ عملية عقد الزواج صيغة معينة حيث يقوم شخص له الكفـــاءة والتأهيل الرسمي بإتمام العقد وتوثيقه لدى الجهات المدنية لما يتضمن ذلك من صفات ومسؤوليات اجتماعية وقانونية تنطبق على الزوج والزوجة، ويلي حفل الزواج وإتمام عملية الإشهار انتقال العروسين إلى مسكن الزوجية والبداية الحقيقية للزواج.

تأثير البيئة على سلوكيات الشباب:

تمـثل مـرحلة الشباب مرحلة العمل والإنجاز حيث يشكل الشباب في كل المجـتمعات القوة المنتجة والصانعة نظراً لما يملكونه من مهارات ومعارف وقدرات جسـمية تؤهلهم لبذل الجهد والطاقة من أجل تحقيق أهداف المجتمع. وبشكل عام فـإن كافة الدول تخصص الميزانيات الكبيرة وتجهز المؤسسات التعليمية والمهنية من أجـل إعداد الشباب لهذه المهام الصعبة. وعلى الرغم من هذه الجهود إلا أن سوء التخطـيط وعـدم وضوح الأهداف يسبب عدم قدرة المجتمعات على الاستفادة الفعالـة من ثرواتها البشرية المتمثلة في إمكانات الشباب. ولقد شاهدنا أخيراً التقدم المذهل في التكنولوجيا والذي ساهم بشكل أو بآخـر في تقليص القوى العاملة حيـث أصبح الاعتماد على الأجهزة الإلكترونية في تزايد كبير، الأمر الذي سبب قلـة الفـرص المتاحة للشباب للحصول عل العمل الملائم. وتعتبر مشكلة التضخم الاقتصـادي والغـلاء من أكبر المشاكل التي تواجهها دول العالم الثالث وكثير من الـبلدان العربية، ولقد أدت هذه المشكلات الاقتصادية وبشكل مباشر إلى ظهور مشـكلة البطالة بين الشباب بشكل كبير. ويجدر بنا أن نشير إلى التأثيرات النفسية والاجتماعـية لمشكلة البطالة على الشاب أو الشابة وعلى الأسرة والمجتمع بشكل عـام، الأمر الذي يتطلب دراسات عميقة وخطط علمية وعملية من أجل مواجهة ما يمكن أن نسميه بكارثة اجتماعية بدأت آثارها تظهر على هيئة ارتفاع معدلات الجـريمة، والاحباط والاضطرابات النفسية بين الشباب، ومظاهر العنف والادمان، وانتشار الاتجاهات الفكرية والسلوكية الهدامة بين الشباب.

وبالـنظر إلى المشكلات والتحديات التي يواجهها الشباب بشكل عام فإنه مـن الضروري أن نعترف بأن هناك مجموعة من التغيرات البيئية والديموغرافية التي بدأت في الانتشار في العصر الحالي ومنها على سبيل المثال تطور المدن وتضخمها، وتغـير معالم المناطق الريفية، وظاهرة التصحر، وتعرض البيئة لأخطار التلوث على كافة أشكاله، بينما تبدو التغيرات الديموغرافية على شكل الزيادة المطردة في أعداد السـكان والهجرة المطردة من المجتمعات الريفية إلى المدن وارتفاع معدلات العمر. أمـا مـن الناحـية الاقتصادية فنجد أن هناك زيادة الفروق بين مستويات الدخل وتفتـت الطـبقة المتوسـطة، وزيادة معدلات التضخم والهيمنة الاقتصادية للدول

الرأسمالـــية بالإضافة إلى الاتجاهات الاقتصادية والثقافية نحو العولمة Globalization ومـــا يراه المثقفين من تدخلاتها في حياة الشعوب وفرض سيطرة الدول الغنية على اقتصاد الدول الفقيرة.

وعلى المستوى الفكري والثقافي نرى أخطار الزحف الثقافي والغزو المستمر للأفكـــار والمعـــتقدات الفكرية الهدامة والتي تتمثل في مخاطر الإدمان والانحرافات الجنسية وما إلى ذلك. إلا أن المشكلة الأكبر هي شعور الشباب بالاغتراب الداخلي والعـــزلة الاجتمـــاعية Social Isolation عنـــدما يشعر الشاب بـــأن اهتماماته وطموحاتـــه وقدراتـــه لا يلتفت إليها ولا يتم الاستفادة منها أو عندما يشعر بأن أفكـــاره لا تنســـجم مع الأفكار السائدة في المجتمع وما يترتب عليه من سعيه في الخـــروج من هذه الضغوط النفسية إما بالهجرة إلى مجتمعات جديدة أو بالنزعة تجاه التطرف والانعزالية.

وتبذل كثير من المجتمعات جهوداً كبيرة ومنظمة نحو تأصيل المفاهيم والقيم لمواجهـــة زحف الأفكار والمفاهيم التي تتعارض مع القيم والتقاليد المحلية والتي ربما تســـاهم في تعـــرض الشـــباب إلى بعـــض الأفكـــار الهدامة مثل التنافس الشرس Competition والاتجـــاه نحو المصالح الذاتية Self-interest Attitudes والانفصال عن المجتمع والجري وراء الماديات وما إلى ذلك. ومن أجل مواجهة هذه النـــزعات فـــإن كثيراً من الدول والمجتمعات تقوم بتنظيم وتنفيذ المشروعات الوطنية والبرامج الاجتماعـــية والثقافـــية للشباب في مختلف القطاعات من أجل المحافظة عليهم من أخطـــار الزحف الثقافي حتى يمكن تنمية قدراتهم والاستفادة من خبراتهم ومنحهم الفرصـــة الحقـــيقة والفعالة لاستثمار طاقاتهم وتحقيق طموحاته، وقد يتطلب ذلك إحداث بعض التغييرات الجوهرية في النظم التعليمية والاقتصادية والإدارية والثقافية مـــن أجـــل أن تهيأ الظروف الملائمة لمشاركة الشباب في كافة أنشطة المجتمع. ولا يـــتأتى ذلـــك إلا مـــن خلال مناقشة الشباب والتعرف على احتياجاتهم وآرائهم وأفكـــارهم في كيفية إشعارهم بالتضمين Inclusion ومنحهم الفرصة للمشاركة والمســـاهمة في صنع القرار والتطبيق، حيث إن المجتمعات التي لا تدرك هذه المعايير تضـــع نفســـها في ورطـــة كـــبيرة تـــؤدي بالضرورة إلى الصراع بين الأجيال

وما يترتب عليه من ضعف الاستقرار الاجتماعي Generational Conflict والصراعات الايديولوجية والثقافية.

وليس أدل على ذلك من المظاهرات التي تحدث والتي يقودها الشباب في دول مختلفة من العالم عندما تعقد المؤتمرات الاقتصادية العالمية فنرى الشباب يرفض توجهات أصحاب القرار السياسي والاقتصادي الذي نتج عنه زيادة الفروق بين الدول الفقيرة والدول الغنية حيث إن الشباب ينادي بتذويب هذه الفروق ومساعدة الدول الفقيرة بإسقاط الديون عنها وتوفير المساعدة والدعم المادي والتكنولوجي معها. وهناك مثال آخر يوضح مثل هذا الصراع والذي نراه في مناهضة الشباب في كثير من الدول للحروب والدعوة إلى السلام ونبذ التفوق والحلول العسكرية للمشكلات بين الشعوب.

موضوعات بحثية:

Guthrie, J. (2002). The army of jobless gets bigger still: Youth unemployment. The Financial Times, Feb., 1, p. 2.

توضح المقالة أبعاد مشكلة البطالة ومدي انتشارها في العالم حيث أعلنت منظمة العمـل الدولية (ILO) أن حوالي 66 مليون شاب وشابة يعانون من البطالة وأن هذا الرقم يمثل 41% من جملة المتعطلين في العالم. وتبين الدراسة أن البطالة بين الشباب تؤثر على إيمانهم بأنفسهم وتجعلهم يعيشون كفئات مهمشة اقتصادياً واجتماعياً حيث تطيل فـترة اعـتمادهم على الأبوين كمصدر أساسي للدعم المادي، بالإضافة إلى احتمالية تعرضـهم للأمراض الصحية والنفسية وظهور الجرائم وحدوث الفجوة بين الأجيال. ويوضـح التقرير أيضاً أن ظاهرة البطالة بين الشباب ترجع إلى نظم وسياسات التعليم الـتي لا تؤهلهم لتعلم مهارات عملية تساعد على زيادة قدراتهم الإنتاجية لتتلاءم مع المتطلبات الجديدة لسوق العمل. وترجع الظاهرة أيضاً لبعض النظم والقوانين التي تعيق فرصـة الشباب على المشاركة في الأنشطة الاقتصادية وتلقيهم المساعدة والدعم المادي للـبدء بـالعمل في مشروعات شخصية. إلا أن طبيعة وأنشطة الاستثمار في كثير من الـدول وحرصه الشديد على تحقيق أرباح كبيرة ربما يكون من أهم الأسباب لانتشار الـبطالة.فلا يقوم قطاع الاستثمار بافتتاح المشروعات قبل أن يتأكد من أنها ستحقق عوائـد ماديـة كبيرة، وقد تزامن ذلك مع تراجع الحكومات عن المشاركة في افتتاح المشـروعات والأنشـطة الاقتصادية الكبيرة التي تستوعب الآلاف من الأيدي العاملة نتيجة السياسات الاقتصادية العالمية والاتفاقيات التي تشجع على التبادل التجاري وفتح الأسواق وإعطاء الأولوية للاستثمارات الخاصة والأجنبية.

Hammarstrom, A. & Janlert, U. (2002). Early unemployment can contribute to adult health problems: Results from a longitudinal study of school leavers. J. of Epidemiology and Community Health, 56(8), 624-632.

قامت هذه الدراسة الطولية بتتبع الحالة الجسمية والنفسية لمجموعة من الشباب المتعطلين عن العمل لفترة أربعة عشر عاماً من 1981 إلى 1995. ولقد أثبتت الدراسة أن البطالة المزمنة لها تأثيرات سلبية على الشباب مثل انتشار التدخين، والأعراض النفسية مثل القلق والتوتر والاكتئاب وبعض الأعراض الجسمية النفسية Somatic Symptoms الـتي تظهـر بشكل واضح بين الذكور. وبشكل عام فإن مشكلة البطالة المبكرة بين الشباب تسبب بعض التأثيرات بعيدة المدى والتي تظهر آثارها على الأفراد عند بلوغهم مرحلة الرشد (المرحلة المتوسطة من العمر).

هـــناك بعض المشكلات التي نتجت عن عدم استيعاب المجتمعات للتطورات الاقتصـــادية والتكنولوجية الحديثة والتي نتج عنها ظاهرة البطالة بين الشباب والتي تعاني منها مجتمعات العالم بأسره، وقد ترتب على هذه الظاهرة معاناة الشباب التي تتمـــثل في الفراغ الذي يتمثل في بقاء الأبناء في البيت بعد إكمالهم الدراسة الثانوية والجامعـــية وما يترتب عليه من احتمالية التعرض للاضطرابات النفسية والإحساس بالفـــراغ وفقـــدان الأمـــل بينهم، ذلك بالإضافة إلى احتمالية انغماس الشباب في سلوكيات العنف والإدمان والتطرف أو سلوكيات الجريمة.

ومـــن الناحية الاجتماعية فإن الشباب الآن يواجه صعوبات كبيرة في تحقيق المتطلـــب الثاني لهذه المرحلة والتي تتمثل في الاستقرار العاطفي والقدرة على تكوين أسرة. وكمحصلة متوقعة فإن الصعوبة في الحصول على عمل قد تفاعلت مع الغلاء الفاحش في أسعار البيوت والشقق نتيجة للكساد والتضخم الاقتصادي الذي تعاني مـــنه كـــثير من المجتمعات، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع عمر الزواج بين الشباب وزيـــادة معدلات العنوسة بين كثير من الفتيات في المجتمعات العربية والأجنبية وما قد يترتب عليه من ظهور مشكلات أخرى عديدة.

إن المجـــتمعات الـــتي أدركـــت أهمية المشاركة الحقيقية للشباب في تخطيط المســـتقبل وتوفـــير الدعـــم المادي اللازم وتوفير الفرصة للاستفادة من جهودهم وإمكانـــاتهم الكبيرة تقوم بإعداد الخطط والبرامج والمشاريع لإزالة هذه التحديات وتوفـــير الدعـــم الاقتصادي والاجتماعي لتأهيل وإعداد الشباب لممارسة أدوارهم وتحقـــيق أهدافهم، ويتمثل هذا الدعم في توفير القروض للشباب للقيام بالاستثمار وافتتاح المشروعات الخاصة، وإعادة تأهيل الشباب وتدريبه وإكسابه المهارات التي يتطلـــبها سوق العمل المعاصر، وتشجيع القطاع الخاص على فتح فرص ومجالات العمل لهم. وتنظم عدد من البلدان العربية مجموعة من البرامج الاجتماعية لمساعدة الشـــباب مـــثل توفير الإسكان وقروض الزواج وما إلى ذلك، كل هذه الأنشطة لازالت تحتاج إلى الدعم والتخطيط الجيد حتى تصل إلى مجموعات الشباب بشكل منـــتظم وشامل لتمنحهم الدفعة والتأييد لتحقيق آمالهم وطموحاتهم والاستفادة من خبراتهم ومهاراتهم وطاقاتهم الغير محدودة.

موضوعات بحثية:

Soliman, H., & Miah, M. (1998). A cross-cultural study of social work students' attitudes toward AIDS policy: implications for social work students. International Social Work Journal, 41, 39-52.

يعتبر مرض الأيدز (AIDS) "نقص المناعة المكتسبة" من أخطر الأمراض التي واجهت الإنسانية في الربع الأخير من القرن العشرين، وقد سبب انتشار المرض في كثير من دول العالم أضراراً اجتماعية وصحية ونفسية واقتصادية حيث أدى إلى وفاة الملايين من الأفراد وما ترتب عليه من رصد ميزانيات ضخمة لعلاج المصابين بفيروس الأيدز بالإضافة للتأثيرات الاجتماعية التي نتجت عن تعرض فئات الشباب والراشدين لهذه المشكلة. ولقد شاركت مهنة الخدمة الاجتماعية منذ البداية في البحث عن نماذج للتدخل المهني مع الأفراد المصابين بهذا المرض مما أدى إلى تفهم وإعداد طلبة الخدمة الاجتماعية في كثير من المجتمعات لكيفية التعامل مع المرض وتقديم الخدمات للمرضى وأسرهم.

وقد ناقشت هذه الدراسة اتجاهات طلبة الخدمة الاجتماعية في المجتمع الأمريكي (45 طالباً وطالبة) والمجتمع المصري (69 طالباً وطالبة) في إطار مساعدة مرضى الأيدز وتقديم الرعاية الاجتماعية والخدمات لهم. ولقد وجدت الدراسة أن استعداد طلبة الخدمة الاجتماعية للعمل مع مثل هذه الحالات يرتبط بـ: 1) المعارف والمعلومات التي يتفهمونها عن المرض 2) اتجاهاتهم وأفكارهم نحو مرضى الأيدز، 3) توفر التدريب والمهارات لتفهم احتياجات المرضي والخدمات التي يحتاجونها. ولقد أظهرت الدراسة بشكل أساسي أن طلبة الخدمة في الولايات المتحدة يرون أن حقوق مريض الأيدز تتأثر بإيمانهم بالحرية الفردية للمواطن (77.8%) بينما يرى طلبة الخدمة الاجتماعية في مصر أن حق المجتمع في تحديد مرضى الأيدز وحماية المجتمع من أخطار المرض والذي يتمثل في الفحص الإجباري (69.5%) يسبق حق الفرد في الحرية الشخصية، وما يترتب عليه من مسؤولية الحكومات في تقديم الرعاية للمرضي الأيدز.

ولقد اتفق طلبة الخدمة الاجتماعية على أن الخدمات التي يحتاجها مريض الأيدز تتضمن: 1) ربط المريض بالمصادر والخدمات المتاحة بالمجتمع 2) الدفاع عن المريض 3) تقديم الدعم النفسي والاجتماعي للمريض 4) تقديم الارشاد النفسي وتقوية علاقاته مع البيئة 5) تقبل المريض والاستماع لعبارته الشخصية 6) تزويد المريض بالمعلومات المرتبطة بظروفه واحتياجاته 7) مساعدته في الحصول على الدعم المادي 8) تقوية علاقات المريض بأسرته 9) تحقيق التقدير الاجتماعي للحالة 10) تأكيد الحصول على الخدمات الصحية والمتابعة للعلاج.

الصراع الاجتماعي النفسي (ألفة المشاعر-الانعزالية):

يرى "أريكسون" أن نجاح الفرد في تكوين علاقات حميمة مع الجنس الآخر مـــن خلال الزواج والارتباط العاطفي هو من أهم متطلبات هذه المرحلة، وهناك شـــروط معينة مطلوبة يجب تحقيقها حتى يستطيع الفرد أن يكون مؤهلاً للارتباط العـــاطفي ومـــن أهمها الحصول على وظيفة والاستقلال المادي. ونظراً للصعوبات الموجودة الآن في كل المجتمعات لحصول الفرد على وظيفة أو عمل يضمن له توفير الدخـــل الملائم، لذلك فإن الاستقرار المادي مرتبط بالاستقرار العاطفي أو القدرة عـــلى الارتباط بالجنس الآخر، هذه التوجهات والفروض قد تنطبق في المجتمع على الذكـــور وذلك بحكم العادة حيث أنّه من المتوقع أن يأخذ الذكر المبادرة في تفعيل العلاقـــات العاطفية، وفي كثير من المجتمعات تكون العلاقات العاطفية مقبولة إذا ما كانت في إطار الزواج. ويرتبط تحقيق الاستقرار الاجتماعي والارتباط العاطفي في مجـــتمعات كـــثيرة بالاســـتعداد المادي الذي يمثل التحدي الرئيسي الذي يواجهه الشباب في هذه الفترة.

وعـــلى الجانب الآخر من الصراع نرى الانعزالية التي تعني فشل الشاب في تحقيق الارتباط العاطفي نتيجة التحديات والصعوبات التي ذكرناها، ومن هنا تكون هـــناك فرصـــة لأن يشعر الشاب بالفشل والإحباط. ونجد أن الجو النفسي الذي يعيشـــه العـــاطلون عن العمل والذي يكتنفه الفراغ والإحساس بالاكتئاب وعدم القدرة على إثبات الذات يمثل الجانب السلبي من الصراع، وتمثل قدرة الشاب على الحصـــول على الوظيفة الملائمة إحساس الفرد بذاته وقدرته على الإنتاج والابتكار وتوظـــيف قدراته العقلية والعملية، لذلك فإن الانعزالية تمثل النتيجة المتوقعة إذا ما فشـــل الشاب في تحقيق الاستقرار الوظيفي وبالتالي الفشل في تحقيق الاستقرار في العلاقـــات العاطفـــية خلال الزواج، ومن هنا فإن الانعزالية تسبب ظهور المشاعر الســـلبية والصراعات النفسية والتي قد تظهر على هيئة سلوكيات منحرفة أو ضارة بالمجتمع مثل إدمان المخدرات أو الانغماس في الانحراف الجنسي أو العدوانية، وعلى الجانـــب الآخـــر فـــإن كبـــت الصراعات النفسية والمشاعر السلبية قد يؤدي إلى الاضطرابات النفسية أو الأمراض الجسمية.

نظـــرة العلوم الإنسانية والاجتماعية لسلوكيات الشباب:

يـــتعامل الأخصـــائيون النفسيون والاجتماعيون والتربويون مع الشباب من خـــلال مجـــالات العمـــل المختلفة، ومن ثم فإن تفهم طبيعة هذه المرحلة والعوامل المختلفة التي تؤثر في سلوكيات الشباب يعتبر أمراً مهماً. فعلى سبيل المثال نجد أنه من الناحية التطبيقية يضع مفهوم الممارسة العامة Generalist Practice في الخدمة الاجتماعـــية في الاعتـــبار أن يتفهم الأخصائي الاجتماعي "الممارس العام" طبيعة الموقف الاشكالي الذي يواجهه العميل، والعوامل والمؤثرات التي ساهمت في ظهور هذا الموقف. وقد يتمثل الموقف الاشكالي للعميل في انغماس العميل في سلوكيات سلبية أو ردود أفعال للضغوط التي يواجهها في حياته.

إن دراســـة السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية تساهم في تفهم طلبة العلوم الإنســـانية والاجتماعية والتربوية للمشكلات التي يواجهها الشباب، بالإضافة إلى الـــتعرف على طبيعة التفاعل المتبادل Reciprocal Interaction بين الفرد والبيئة التي يعيش فيها وتأثير هذا التفاعل على الموقف الاشكالي الذي يتعامل معه العميل. ومـــن واقع نظرية الأنساق العامة General System Theory فإن على الأخصائي النفسي/الاجتماعي/التربوي أن يتفهم مستويات الأنساق التي يتفاعل معها العميل ســـواء أكانت الأسرة أو مكان العمل أو المجتمع الذي ينتمي إليه. وكما نرى أن هـــناك تـــأثير واضح للسياسات العالمية على حياة الفرد مثل الاتفاقيات الاقتصادية العالمـــية مثل اتفاقية الجات والتي تهدف إلى انفتاح العلاقات الاقتصادية بين بلدان العالم ولكنها في نفس الوقت، كما يرى كثير من الباحثون، تميل إلى خدمة مصالح الـــدول المتقدمة ذات الاقتصاد الكبير على حساب الدول الصغيرة النامية. من هنا فإنـــه مـــن الضروري أن يتفهم الأخصائي الاجتماعي طبيعة هذه التأثيرات على ظـــروف العمـــيل ومـــن ثم فإن عمليات التخطيط والتدخل يجب أن تتناول هذه الأبعاد.

ملخص الفصل

ناقشـــنا في هـــذا الفصل تأثير الجوانب الجسمية والمعرفية والظروف البيئية والمجتمعية على تطور ونمو سلوكيات الشباب، ولقد تعرضنا للتغيرات المختلفة التي تحـــدث في الـــزمن المعاصـــر ومـــدى تأثيرها في قدرة الشباب على تحقيق آماله وطموحاتـــه. وبشكل أساسي فإن مرحلة الشباب ترتبط بالإنجاز وتحقيق الأهداف حيث إن الخبرات التعليمية والتربوية والمهارية التي يتعلمها الشاب يتم وضعها تحت الاختبار، ويبدو ذلك عندما يبدأ الشاب في البحث عن عمل ومن خلال رغبته في المســـاهمة الفعالـــة في المشاركة في مجالات الحياة المختلفة. ولقد ناقش هذا الفصل المعوقات التي يواجهها الشباب من أجل تحقيق الاستقرار العاطفي والسعي لتكوين أســـرة. ومن خلال قراءة هذا الفصل فإن طالب الخدمة الاجتماعية سوف يتمكن من التعرف على العوامل والظروف التي تؤثر في سلوكيات الشباب وتعيق قدرتهم عـــلى تحقيق متطلبات هذه المرحلة العمرية الهامة، والأبعاد والتفاعلات التي تؤثر في ظهـــور المشكلات الاجتماعية والظواهر السلبية التي يواجهها الشباب خلال هذه المرحلة.

حالة صلاح الأسمر

صلاح شاب عمره (23) سنة يعيش مع أسرته المكونة من الأب والأم وثلاثة أخوات صغار لا زالوا في مراحل التعليم المختلفة. تخرج صلاح قبل سنتين من كلية التجارة بتفوق ويحاول منذ ذلك الوقت الحصول على وظيفة ملائمة. تقدم صلاح إلى كافة المسابقات والإعلانات الخاصة بالوظائف الخالية واجتاز عدداً كبيراً من الامتحانات إلاّ أنه فشل في الحصول على أية وظيفة. ولقد نتج عن ذلك إحساسه بالضيق والتوتر لعدم قدرته على مساعدة أسرته.حاول صلاح التقدم للعمل لدى إحدى الشركات كمندوب مبيعات وقام بدفع التأمين المطلوب واستلام منتجات الشركة والمرور على المنازل والشركات لتسويق هذه المنتجات إلاّ أنه قد صادفته مشكلات كثيرة مثل عدم إقدام العامة على الشراء من مندوبي المبيعات ونتج عن ذلك أن قام صلاح بإنهاء عقده مع الشركة وخسارته المبلغ الذي دفعه كتأمين.

في الأسبوع الماضي عرف صلاح بأن الفتاة التي كان قد تقدم لخطبتها بعد انتهائه من الدراسة الجامعية قد عقد قرانها على أحد الأفراد المستعدين مادياً. وكان صلاح قد تعرف على أحد الشباب الذي يشاركه نفس الظروف وناقشا معاً فكرة افتتاح مشروع لبيع منتجات الخزف الصيني وتمّ البحث عن دكان يصلح كمعرض ولكن كل هذه الجهود قد ضاعت بعد أن رفض البنك إعطائهما القرض الذي تقدموا للحصول عليه وذلك لعدم استيفاء شروط الضمانات الخاصة بالقرض.

أصيب صلاح بحالة يأس نتيجة للظروف والأحداث التي تعرض لها، الأمر الذي دفع والده للتحدث مع الأخصائي الاجتماعي لمساعدته في إخراج ابنه من هذه الحالة وإعطائه الإحساس بالأمل حيث أن هذا الموقف قد أثر على جميع أفراد الأسرة.

أسئلة تطبيقية (استخدم المجموعات في مناقشة النقاط التالية)

1 - نــاقش مــع زملائك طبيعة التغيرات الاجتماعية والثقافية في مجتمعك وتأثيرها على قدرات الشباب في تحقيق متطلبات مرحلة الشباب.

2 - نــاقش أهم التحديات التي يواجه الشباب في مجتمعك ودور المجتمع في مساعدة الشباب على مواجهتها من خلال الأجهزة والمؤسسات المختلفة.

3 - مــن واقع حالة صلاح الأسمر، وضح طبيعة المشكلات التي يتعامل معها الشباب وتأثيرها النفسي على الصراع المرتبط بهذه المرحلة.

4 - يــتعرض بعض الشباب لضغوط نفسية واجتماعية نتيجة تغير منظومات الــتفكير والــتعرض للزحف الثقافي وتقلص دور المؤسسات الاجتماعية في إعداد الشــباب وتوجــيههم، الأمــر الذي قد يدفع بعض الشباب للانغماس في بعض الســلوكيات الســلبية مثل (الإدمان، العلاقات الجنسية المحرمة، سلوكيات الجريمة وخــرق القانون)، ناقش مع مجموعتك أهم المعلومات التي يمكنك أن تشاركها مع مجموعة من الشباب المشتركون في أحد البرامج التأهيلية مثل (تأهيل المسجونين، أو تأهيل المتعافين من إدمان المخدرات).

الفصل السابع

تطورات السلوك الإنساني
خلال مراحل العمر المتوسطة

The Development of Human Behavior During Middle Adulthood Stage

مقـــدمة:

تعتبر المرحلة المتوسطة من العمر هي مرحلة النضج (الرشد) ويتطور السلوك الإنساني خلالها نتيجة لتأثير الجوانب الشخصية والظروف البيئية والمجتمعية التي يمر بهـــا الفرد، حيث نجد أن مستويات التفاعل والمسؤوليات والارتباطات الاجتماعية خـــلال هـــذه المرحلة تزداد اتساعاً وتعقيداً فيصبح الفرد مسؤولاً عن مجموعة من الأدوار وتـــتعدد الواجبات وتصبح أكثر عمقاً، ولذلك يواجه الفرد تحديات مختلفة تتطلـــب نوعـــاً من التوازن النفسي والقدرة على اتخاذ قرارات صعبة والتفاعل مع مستويات مختلفة تتطلب أنماطاً جديدة من السلوك والمهارات. وهناك حقيقة مهمة تـــتعلق بتواصل مراحل العمر وارتباط بعضها ببعض، فنجد أن خلال هذه المرحلة يـــتم للفـــرد تحقيق نوع من التقدم والترقي في المستوى الوظيفي ونجده يسعى إلى تحقـــيق الاستقرار العائلي، بالإضافة إلى متطلبات التكيف مع التغيرات التي تحدث عـــلى المستوى الاجتماعي وتقوم بتحقيق أدوار جديدة في الأسرة والعمل وتطور الأعباء والمسؤوليات الحياتية بشكل عام.

الأهداف العملية Objectives:

يهدف هذا الفصل إلى تحقيق التالي:

- تفهم التغيرات المختلفة خلال المرحلة المتوسطة وتأثيرها على أنماط السلوك.

- توضيح تأثير الأسرة على قدرة سلوك الفرد على تحقيق المتطلبات والواجبات المرتبطة بهذه المرحلة.
- مناقشة تأثير البيئة على تطور ونمو المنظومات السلوكية للفرد.

مـــع امتداد عمر الإنسان وزيادة عدد السنوات التي يعيشها في هذا القرن، فقـــد وضح أن المرحلة المتوسطة من العمر تبدأ متأخرة وتستمر لسنوات طويلة، وبشـــكل عـــام فـــإن هذه المرحلة تتمتع بخصائص أساسية تؤثر بدرجة كبيرة في أشكال وأنماط السلوك الإنساني:

1 - التغييرات في القدرات الجسمية والعقلية.
2 - الترقي في الوظيفة والعمل.
3 - ظهور علاقات أسرية جديدة.

تضيف المجتمعات متطلبات جديدة ومسؤوليات عديدة على الأفراد في هذه الفـــترة فيصل أعضاء هذه المرحلة السنية إلى مناصب قيادية وتنفيذية تضعهم على قمـــة السلم الوظيفي ويصبح لهم تأثير كبير على اتخاذ القرارات سواء في السلطات التنفـــيذية أو التشريعية أو القضائية. وعلى الجانب الآخر نجد أن هذه المرحلة تمثل الارتباط الوثيق للفرد بأسرته والتحديات والمتطلبات المرتبطة بتربية الأبناء ومتابعتهم في أثناء نموهم ومواجهتهم لكافة الصعوبات. وفي خلال هذه المرحلة يلتقي الأفراد بأعضـــاء جـــدد ويكوّنوا علاقات جديدة ذات سمات خاصة، فبينما تتسع دائرة الأسرة بدخول زوجات الأبناء وأزواج البنات نجد أن الأفراد عند نهاية هذه المرحلة يلـــتقون أيضا بالأحفاد. وعلى الجانب الآخر يرتبط الأفراد خلال العمل بعلاقات جديـــدة تتطلب التعامل الرسمي من خلال سلوكيات تخضع لقواعد ومعايير محددة. إلا أن الـــتطورات في العلاقات تعطي للسلوك الإنساني بعداً جديداً ومفهوماً آخر يتأثر بتطور القدرات العقلية والإدراكية فيتصف بالالتزام والسعي نحو تحليل الأمور وتوجيه السلوك نحو تحقيق أهداف محددة.

أولاً: تأثير التغيرات في القدرات الجسمانية والعقلية على السلوك

في بدايـــة هذه المرحلة تصل مستويات الوظائف الجسمية إلى الذروة ولكن تبدأ بعد ذلك وبشكل تدريجي مراحل الانحسار في الأداء حيث يعايش الفرد درجة

من انخفاض وظائف أجهزة الجسم التي تختلف من فرد إلى آخر. ويرجع تنبه الأفراد لمسألة التغيرات الجسمية والأمراض التي قد تصيبهم إلى مستوى الثقافة الصحية والوعي بين الأفراد، فنجد أن ممارسة عادات وسلوكيات معينة مثل التدخين والسهر والشراهة في الغذاء قد يسبب ظهور مشكلات صحية مع بداية هذه المرحلة السنية، وأحياناً ما يتنبه الفرد إلى خطورة هذه المشكلات إذا ما أصيب أحد أقرانه بمشكلة صحية خطيرة مثل الجلطة القلبية أو الذبحة الصدرية. فقد أظهرت الأبحاث أنه نتيجة ضغوط الحياة وارتفاع مستوى التوتر بدأت المشكلات المرتبطة بالقلب وتصلب الشرايين تظهر مبكراً بين الذكور في الثلاثينات والأربعينات من عمرهم ولذلك نجد أن الزوجات يصبحن أكثر قلقاً على الحالة الصحية للأزواج خوفاً على فقدانهم وما ينتج عن ذلك من الترمل وإعالة الأطفال بعد تيتمهم، وقد يتنبه بعض الأفراد إلى هذه المخاطر وبالتالي يقومون بتغيير هذه السلوكيات الخطرة Risky Behaviors للمحافظة على صحتهم من التعرض للأخطار.

أما عن التأثيرات التي تنتج عن تعرض الأفراد لبعض المشكلات الصحية، فيتضمن تدهور مستويات الصحة والقدرات البدنية وزيادة فرص الإصابة بالأمراض المزمنة الأمر الذي يؤثر على كفاءة الفرد ومستويات أداؤه للأعمال والأدوار المكلف بها. وفي بعض الأحيان يؤدي تدهور صحة الفرد خلال المرحلة المتوسطة من العمر إلى حالة من العجز الجزئي أو العجز الكامل مما يعرض الأسرة لمجموعة من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية مثل انخفاض الدخل، الأمر الذي يسبب نوعاً من الإعتمادية Dependency على الآخرين لتوفير متطلبات الحياة ورعاية أفراد الأسرة. وقد ينتج عن تدهور صحة الأفراد خلال هذه المرحلة التعرض للوفاة المبكرة، فيتم تحويل مسؤولية رعاية الأسرة وإعالة الأبناء إلى الأهل والأقارب أو للمؤسسات الحكومية مثل إدارة الضمان الاجتماعي والمساعدات الاجتماعية، وقد يترتب على ذلك أن تواجه الأسرة بعض الضغوط خاصة إذا كانت الظروف المادية غير ميسرة أو لوجود مشكلات كالفقر ونقص الموارد بين أفراد المجتمع الصغير، وبشكل عام فإن الحكومات والمنظمات الأهلية تساهم في توفير قدر من الرعاية للأسر المحتاجة، فنجد ذلك واضحاً في المدن والمجتمعات الصناعية.

أما عن تناقص كفاءة جسم الفرد في المرحلة المتوسطة فإن هناك اصطلاحاً مهمـــاً مرتـــبطاً بهذه الظاهرة ويعرف بمعدل الاعتلال "السقم" Morbidity Rate بعـــدد الحالات المرتبطة بمرض معين، أما مصطلح معدل الوفيات Mortality Rate فـــيعني عـــدد الوفيات في فترة زمنية معينة، وكما تبين أن هناك أخطار معينة على الحالـــة الصـــحية مثل نقص الغذاء الذي يؤدي للأنيميا والتدخين والبدانة وشرب الخمـــر وأن هذه الأخطار تسبب تأثيراً مباشراً على جهاز الدورة الدموية والقلب وجهـــاز التنفس بالإضافة إلى التأثيرات التي تحدث نتيجة للظروف البيئية، ونتيجة أهمـــية تفهم التأثير المتبادل بين السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية، فإنه من المهم نحدد مدى تأثير الظروف البيئية والسلوكيات التي يتبعها الفرد في المراحل الأولى من العمـــر عـــلى حالته الصحية في أثناء المرحلة المتوسطة من العمر، وإذا ما عرفنا أن المســـببين الرئيسين للوفاة في هذه المرحلة هما أمراض القلب ومرض السرطان، فإن الأبحاث والإحصائيات تؤكد زيادة معدل هذه الأخطار مع زيادة العمر وأن هناك فروقاً في معدل الإصابة بهذه الأمراض بين الذكور والإناث.

تأثير التغيرات في الوظائف الجسمية على الحالة النفسية:

هـــناك اتفـــاق على حدوث تغيرات جسمية للفرد في المرحلة المتوسطة من العمـــر تؤدي إلى تدهور وظائف الجِسم وبداية الانحسار بشكل عام. فنجد أن في النصف الثاني من هذه المرحلة العمرية (35–60) تبدأ ظهور بعض الأعراض المتعلقة بالشـــيخوخة بالإضـــافة إلى الأخطار والتغيرات الأساسية التي تبدأ مع نهاية مرحلة الشـــباب وبدايـــات المرحلة المتوسطة من العمر. وهناك ضرورة لتفهم طبيعة هذه الـــتغيرات من أجل تفهم طبيعة السلوكيات التي تنشأ لتحقيق التكيف الاجتماعي لمواجهة هذه الظروف.

التغيرات في الشكل العام:

تـــبدأ الـــتغيرات في الشـــكل العام وتظهر بشكل واضح في تجعيدات الجلد وتحدث نتيجة لانكماش طبقة الدهون الموجودة تحت سطح الجلد في منطقة الوجه بالإضـــافة إلى انخفـــاض نشاط إفرازات الغدد التي تقوم بتليينه، ويؤدي ذلك إلى اتســـاع مســـاحة الجلد وترهله، فعندما يتمدد لا يرجع إلى وضعه الأول، ونجد أن الـــتعرض للشمس والرياح يؤثر على طبقة الجلد فيتغير شكل الفرد وتظهر بدايات

الشيخوخة خاصة في منطقة الوجه. وتظهر أيضاً تغيرات في لون الشعر فتزداد عدد الشعيرات البيضاء في الرأس، وبالإضافة إلى هذه التغيرات نجد أن أفراد هذه المرحلة السـنية يتعرضون إلى زيادة ملحوظة في الوزن نتيجة تخزين الدهون تحت الجلد في مـناطق البطن والفخذ والوسط والظهر والذراعين نتيجة لفقد كمية من العضلات وزيـادة نسـبة الـ Calorie (السعرات الحرارية) في الجسم، ويهتم بعض الأفراد بمواجهـة هـذه الـتطورات الفسيولوجية فيبدءون في مزاولة التدريبات الرياضية والحـركة لوقـف تحول السعرات الحرارية الموجود في الجسم إلى دهون وتقوي العضـلات وتمـنع ارتخاءهـا بصـورة سريعة، ولقد بدأ الطب الحديث في توفير المعلومات والنصائح المتعلقة بالاعتناء بالصحة العامة والاهتمام بالجوانب.

التغيرات المرتبطة بالقلب والدورة الدموية:

يقول العالم "سبيردوس" (Spirduso, 1995) أن عند منتصف هـذه المرحلة تـبدأ عضلة القلب في مواجهة بعض القصور في وظائفها نتيجة التغيرات في أجهزة الجسم ونقص مستويات استخدام الأوكسجين:

1- نجـد أن الجانب الأيسر من عضلة القلب تقل قدرته على الانقباض الكامل ممّا يتسبب في قلة كميات الدم المدفوع إلى الجسم عندما تقل كمية الدم الخارجة في أثناء كل دقة من دقات القلب وتناقص كمية الأوكسجين المستخلصة.

2 - تـتكلس جـدران الشرايين نتيجة الدهون فتضيق ممّا يسبب صعوبة في تدفق وانسياب الدم خلالها. ولقد وجد "جروسارث" (Grossarth-Maticek, et al., 1990) أن الرجال الذين يمارسون بعض التمرينات الرياضية في أثناء هذه المرحلة تقل عندهم نسبة الانحسار في جهاز القلب والدورة الدموية وأن نسبة المداومين على التدريبات الذين يتعرضون للوفاة تكون (12%) بالمقارنة بالرجال الذين لا يداومـون على التدريبات فتصـل نسبة الوفيـات لديهم نتيجة أمراض القلب إلى (25%).

التغيرات المرتبطة بالجهاز التنفسي:

مـع ازديـاد العمـر ونتيجة لانخفاض سمك الأنسجة في الرئتين فإن نسبة الأوكسجين التي يتمّ دفعها في الدم تنقص بشكل تدريجي، ويحدث هذا التغير نتيجة

لفقـــدان المرونة في أنسجة الرئة مع التغيرات البنائية في الحويصلات الهوائية وزيادة مقاومـــة الصدر لحركة الاتساع في أثناء الشهيق لدخول الهواء للرئتين، ولقد حدد العـــلماء بشكل قاطع أن الابتعاد عن مصادر تلوث الهواء وتجنب التدخين في أثناء مـــراحل الشـــباب يمنع حدوث بعض من هذه التغيرات في الجهاز التنفسي. وعلى الـــرغم مـــن أنـــه مـــن صعوبة التحكم في فقدان المرونة في أنسجة الرئتين إلاّ أن التدريـــبات الرياضـــية تقوي عضلات وجدار الصدر ممّا يسمح بزيادة نسبة الهواء الداخل والخارج إلى الرئتين، وكذلك فإن التدريبات قصيرة المدى سوف تزيد من معدل التنفس ممّا يساعد عضلة القلب على أداء مهامها بشكل أفضل.

التغيرات في الحواس:

تحدث بعض التأثيرات في الحواس نتيجة العوامل البيئية والتغيرات البيولوجية المرتـــبطة بكـــبر السن، ومن أهم التغيرات التي تحدث في الحواس نجد ضعف النظر الـــذي يـــزداد بازدياد العمر وطبيعة العمل الذي يؤديه الفرد، فنجد أن عدسات العـــيون تستمر في النمو فيصبح سمكها أكبر مما يسبب صعوبة في وضوح الرؤية ممّا يتطلب ضرورة استخدام عدسات صناعية لزيادة قوتها وتغيير النظارة الطبية بصورة مـــتلازمة مـــع زيادة العمر. وهناك عوامل فسيولوجية تؤدي إلى زيادة الضعف في حاســـة السمع نتيجة تعرض الفرد للضوضاء. ويحدث انخفاض حاسة السمع نتيجة تعـــرض الأذن الداخلـــية لفقـــدان خلايا الاستقبال وضمور نسيج عصب السمع بالإضافة إلى نقص في الحركة الترددية التي تترجم الأصوات إلى طبلة الأذن، ويعاني الرجال بشكل عام من مشكلات ضعف السمع أكثر من النساء وربما يرجع ذلك لكـــثرة تعرضـــهم لتأثيرات الضوضاء الموجودة في البيئة. وعلى الرغم من حدوث مشكلات ضعف السمع إلاّ أن معظم البالغين يستطيعون أن يتمتعوا بحاسة السمع بشكل ملائم حتى بلوغ مرحلة الشيخوخة المتأخرة.

ثانياً – المشكلات الصحية وتأثيرها على الحالة النفسية للأفراد

أثبتـــت الدراسات الحديثة أن هناك مجموعة من الاضطرابات والأمراض التي يواجههـــا بعـــض الأفراد خلال المرحلة المتوسطة من العمر والتي تسبب تعرضهم لضغوط وتوترات نفسية وتؤثر على قدراتهم بشكل كبير، وبالتالي على منظومات

السلوك وأنماطه. وقد اخترنا بعض هذه المشكلات لتعريف القارئ بمثل هذه التحديات وارتباطها بجوانب تقديم المساعدة في مجالات الرعاية النفسية والاجتماعية بشكل عام ومجال الرعاية الصحية بشكل خاص.

مشكلات سن اليأس Menopause وتأثيرها على الجوانب النفسية:

يستخدم مصطلح سن اليأس كتعبير سلبي للتعبير عن حالة فسيولوجية تمر بها جميع الإناث في فترة العمر المتوسطة. والمعنى العلمي للمينابوز Menopause هو مرور فترة عام على المرأة بدون حدوث الدورة الشهرية، ونتيجة للنقص الشديد في المعلومات وعدم وضوح معنى المينابوز فإن هناك ضرورة لشرح التغيرات التي تبدأ وتنتهي بهذا الموقف الفسيولوجي وما يرتبط به من تأثيرات مختلفة عند الأنثى، ونظراً للمشكلة المتعلقة بتحديد مفهوم سن اليأس أو انقطاع الدورة الشهرية فإن الأطباء في الغرب يعتبرون هذه الحالة الفسيولوجية كأنها حالة مرضية يتم كتابة الأدوية والعلاجات لمواجهة أعراضها Seifert, Hoffnung, & Hoffnung, (1997)، ويعتبر علاج الهرمون والمهدئات والتدخل الجراحي من الوسائل المتبعة لعلاج التأثيرات الناتجة عن حالة المينابوز.

ويعتبر بعض الأطباء أن هذه التغيرات مشكلة صحية بدلاً من حالة طبيعية تحدث لكل أنثى نتيجة للتطور الفسيولوجي في هذه المرحلة من العمر، وعلى النقيض نرى الأطباء في اليابان يتجنبون استخدام هذه الوسائل لمواجهة التغيرات الجسمية التي تحدث للمرأة. أما عن التغيرات الفسيولوجيه المرتبطة بحالة المينابوز فنجد أنه نتيجة لتقدم العمر تقل وظائف الرحم التي تؤثر في عملية تكوين الخلايا التي تتكون منها البويضة، ونتيجة لعدم استجابة الرحم لهرمونات معينة مثل Follicle-Stimulating Hormone والتناقص المتزايد لهرمون الأستروجين Estrogen عند الأنثى فإن قدرة المبيض على تكوين البويضة تتوقف الأمر الذي يسبب التغيرات الجسمية المرتبطة بهذه المرحلة. وتحدث عمليات المينابوز في ثلاث مراحل رئيسة :

1 – **مرحلة ما قبل المينابوز**: في خلال هذه المرحلة يبدأ تناقص إنتاج الهرمونات، وتبدأ هذه المرحلة عند الإناث قرب سن الأربعين وتستمر حتى تتوقف الدورة الشهرية (القدرة على التبويض) نهائيا، وتظهر بعض الأعراض التي تتلازم مع

هـــذه المـــرحلة مـــثل زيادة الوزن والاحتفاظ بالماء داخل الجسم، ولكن يمكن الـــتحكم في ذلك عن طريق الإقلال من استخدام الملح في الطعام وزيادة نسبة التمريـــنات الجســـمية. وتسبب هذه الحالة شعور المرأة بالترقب والقلق وعدم القـــدرة عـــلى السيطرة على انفعالاتها، الأمر الذي ربما يسبب تعرضها لبعض المشـــكلات في التفاعل مع الآخرين نتيجة التغير في المزاج وطبيعة الانفعالات. وهـــناك بعد آخر يرتبط بإحساس المرأة بالخوف والقلق نحو توقف قدرتها على الإنجـــاب حيث نجد أن في بعض المجتمعات يكون التوقع الغالب أن تنجب المرأة عدداً كبيراً من الأطفال ليساهموا في أعمال الأسرة الزراعية وما إلى ذلك.

2- **مرحلة المينابوز:** يتناقص خلال هذه المرحلة إنتاج الهرمونات بشكل أكبر ويبدأ الرحم في التوقف عن التبويض وتتوقف الدورة الشهرية بشكل نهائي، وتبدأ هذه الحالـــة بعد توقف الدورة الشهرية لمدة عام كامل فتصبح المرأة غير قادرة على الحمـــل نهائـــياً. وقد وجد العلماء أن متوسط عمر المرأة عند وصولها إلى حالة المينـــابوز يكـــون حوالي (51) سنة. ونجد أن السيدات اللواتي لديهن نقص في الـــتغذية أو يدخن قد يصلن إلى هذه المرحلة مبكراً. وتسبب هذه التغيرات أيضاً مجموعة من التغيرات في المشاعر لدى المرأة حيث إن توقف قدرتها على الإنجاب أصبح واقعاً يتطلب منها التعايش معه والتكيف مع الظروف التي ترتبط به.

3 - **مرحلة ما بعد المينابوز:** في هذه المرحلة يبدأ جسم المرأة في التعود على نقص الاســـتروجين من الجسم، وتعاني المرأة خلال هذه التجربة من أعراض جسمية مـــتفردة مـــثل الإحساس بحرارة في الجسم والذي يبدأ في الصدر ثم يتحرك إلى الوجـــه ويتـــبع ذلك إفراز العرق الغزير ويصاحب ذلك الإحساس بالرعشة في أطـــراف الجســـم، إلاّ أن بعض السيدات قد يشعرن بفقدان التركيز والشعور بالغثـــيان بالإضـــافة إلى بعض التغيرات الفسيولجية المؤثرة على المناطق الجسمية لـــدى المـــرأة. وهناك أعراض نفسية تظهر مع هذه الحالة مثل اضطراب الحالة المزاجـــية والتوتر وفقدان بعض الذاكرة وعدم القدرة على التركيز، ولأن حالة المينابوز تعني اضطراب في إفراز الهرمونات لدى الأنثى عند بلوغ فترة معينة من العمـــر فإن هناك بعض العلاجات المرتبطة باستبدال كمية هرمون الأستروجين المفقودة والمعروف بـــEstrogen Replacement Therapy. يتركز هذا العلاج

على إعطاء المرأة أدوية تتكون من الاستروجين والبروجستين إلا أن هناك بعض الأبحاث تشير إلى تأثير هذه الأدوية على زيادة احتمالية الإصابة بسرطان الرحم. ولذلك فإن قرار المرأة باستخدام هذا النوع من العلاج يرتبط بموازنة الفوائد التي يمكن الحصول عليها ضد الأخطار التي يمكن أن تحدث.

مشكلات سـرطان الثدي:

لا شك أن المعلومات والإحصائيات المرتبطة بمرض سرطان الثدي عند المرأة تعتبر منذرة ومخيفة، وهناك أيضاً تأثير البيئة التي تعيش فيها المرأة ونوع التكوين الجيني عند أجناس معينة. فعلى سبيل المثل، أوضحت الإحصائيات أن معدل الإصابة بسرطان الثدي عند السيدات في الولايات المتحدة يعتبر ضعف نسبة الإصابة لدى السيدات اليابانيات، وعلى الرغم من أن الإصابة بسرطان الثدي قد تحدث في أي عمر إلاّ أن معظم حالات الإصابة تتركز ما بين الثلاثين والخمسين من العمر ولكنها تبدأ في الازدياد النسبي بعد سن الخمسين، وعلى الرغم من إمكانية الشفاء من مرض سرطان الثدي إذا ما تم اكتشافه مبكراً إلاّ أن عدم وجود علاج نهائي يوقف احتمالية عودة ظهور الأعراض يسبب نوعاً من التوتر وقلة الثقة في فرص الشفاء التام، ونجد أن نسب سرطان الثدي لدى الأمريكيات قد بدأت في التزايد التدريجي.

فعلى سبيل المثال بلغت نسبة الإصابة بسرطان الثدي في الخمسينات من القرن العشرين حوالي إحدى وعشرين من كل مائة ألف امرأة، إلاّ أن المعدل بلغ في التسعينات من القرن الماضي حوالي أربع وعشرين من كل مائة ألف امرأة، ويُرجح العلماء أسباب الإصابة بالمرض إلى العوامل الجينية بالإضافة لبعض السلوكيات التي قد تساهم في احتمالية ظهور المرض مثل نوعية الغذاء التي يعتمد عليها الفرد وتعاطي الخمور والسمنة والتعرض للتلوث البيئي (Shiao, et al., 1995).

ولقد أجمعت البحوث العلمية الطبية على أن الاكتشاف المبكر هو أفضل وسيلة لمواجهة وعلاج المرض في مراحله الأولى، ولذلك فإن التوعية الصحية بضرورة المتابعة عن طريق إجراء الكشف الدوري يعد من أهم الوسائل المستخدمة للاكتشاف المبكر للمرض. وتتم الفحوص في معظم الأحيان بمعرفة الأطباء

المتخصصين، ويعرف هذا النوع من الفحوص بـــ Mammography - test الذي يحـــدث كـــل (6) شـــهور للسيدات بعد سن الأربعين. ويهمنا هنا أن نشير إلى الاضطرابات النفسية والاجتماعية التي يمكن أن تعاني منها المرأة نتيجة إصابتها بهذا المرض وما يرتبط به من مواجهة مشاعر الخوف على تدهور الحالة الصحية وفقدان المظهـــر العام، خاصة إذا ما تعـــرضت المرأة لعملية إزالة الثدي المصاب، وكذلك الخوف من الوفـــاة وتـــرك الأبنـــاء وتعـــرضهـــم لليتم. ويستخدم الأخصائيون الاجتماعـــيون الذيـــن يتعاملون مع هذا النوع من الحالات أساليب تدخل عديدة تتعلق بالإفراغ الوجداني وتدعيم الذات وعكس الأفكار والمشاعر، ذلك بالإضافة إلى استخدام جماعات التدعيم الاجتماعي والنفسي وزيادة التدعيم الأسري.

موضوعات بحثية:

Mackin, J. (1995). Women, Stress and Midlife. Human Ecology Forum, 23(4) 20-23.

تســـتند هـــذه الدراسة إلى أحد المسلمات Assumption التي تتعلق بتعرض الإناث لضـــغوط نفســـية عند بلوغهم سن الخمسين والتي تعرف بـــ"ضغوط المرحلة المتوسطة من العمـــر". وتشير الدراسة إلى أن هذه الضغوط تنتج من الإحساس بعدم تحقيق الطموحات، والشـــعور بضـــعف القـــدرة عـــلى الـــتحكم في أمور الحياة، والمعاناة من تراكم الأعباء والمســـؤوليات الأسرية ومسؤوليات الأسرة. وتوضح الدراسة أن المرأة في هذه المرحلة من العمـــر تـــبدأ بالشعور بأعراض الشيخوخة والتي تتمثل في المشكلات الصحية وإحساسها بفقدان السيطرة على حالتها البدنية.

وتتضـــمن طموحـــات الحياة وأعبائها بالنسبة للمرأة تربية الأبناء ورعايتهم وتحقيق الـــنجاحات في أدائهـــا الوظـــيفي، بالإضافة إلى الاهتمام بالآباء خاصة عند بلوغهم سن الشـــيخوخة. ولذلك فإن هذه الدراسة توصي المرأة التي تعايش أبعاد هذه المرحلة وظروفها بـــأن تكـــون واقعية في توقعاتها بالنسبة لما تريد أن تحققه في حياتها حيث أن كثير من هذه التوقعات يتأثر بظروف المجتمع والتقاليد السائدة فيه.

ومـــن هنا كان على المرأة أن ترسم طموحاتها في إطار قدراتها والإمكانات المتاحة والدعم الاجتماعي والنفسي الذي يوفره المجتمع لها حيث إن مثل التفكير يتيح للمرأة الحماية مـــن التعرض للضغوط النفسية والعصبية. فعلى سبيل المثال نجد أن من طموحات المرأة أن

تـربي أبناءها بشكل متكامل ليتفوقوا في دراستهم ويتخرجوا من الجامعات ويحصلوا على مناصـب مـتقدمة، ولكن نتيجة لمستوي قدرات الأبناء والسياسات التعليمية التي ربما لا تمـنحهم الفرصـة على الإبداع والتفوق فلا يتمكن جميع الأبناء من تحقيق طموحات الأم وتوقعاتها، ومن هنا فإن عليها أن توفر الدعم والتأييد لأبنائها بغض النظر عما يحصلون عليه من شهادات أو ما يشغلونه من مناصب.

مشكلات سرطان البروستاتا عند الرجال Prostate Cancer:

عـلى الرغم من أن سرطان الرئة يعد من أكبر الأمراض انتشاراً بين الرجال خاصة المدخنين أو المتعرضين للتلوث البيئي، إلا أن سرطان البروستاتا يهدد أعداداً كـبيرة من الرجال بعد سن الخمسين، ولقد وجد الباحثون أن نسب الإصابة بهذا المـرض تستمر في الزيادة في كل من أمريكا وبريطانيا وإيطاليا واليابان والسويد، ويـرجع البعض هذه الزيادة إلى تقدم وسائل اكتشاف ومراقبة المرض في السنوات الأخـيرة. وحتى الآن فإن أسباب مرض سرطان البروستاتا تعد غير معروفة ولكن هـناك بعـض العوامل المرتبطة بالإصابة به مثل تاريخ الإصابة بالمرض في الأسرة وبلوغ الرجال أعماراً متقدمة.

وقـد وجـد أيضاً بعض الفروق في معدل الإصابة بسرطان البروستاتا لدى بعض الأجناس، ويعد هذا المرض من أكثر الأمراض كموناً فلا يتم أحياناً اكتشافه إلاّ بعـد شكوى المريض من مشكلات في الجهاز البولي، وهناك اختبار الـ PSA للدم الذي يركز على اكتشاف أي زيادة في نسب البروتينات في البروستاتا في حالة ظهـور المرض، إلاّ أن بعض المتخصصين شككوا في مصداقية هذا الاختبار وذلك لأن هـذه النسب قد ترتفع لأسباب أخرى غير السرطان. وهناك اتجاهات متضادة في الأسلوب المستخدم لعلاج هذا المرض، فبينما ترجح مجموعة من الأطباء الانتظار حـتى تظهـر أعراض المرض، نجد فريقاً آخر من الأطباء يرى ضرورة استخدام العـلاج بالإشـعاعات، وأخيراً نجد أن بعض الأطباء يفضلون إزالة غدة البروستاتا كلـية عند ظهور المرض، ويحرص الأطباء في بعض المجتمعات على نصيحة الرجال بأهمية الفحص الدوري بعد سن الخمسين عن طريق استخدام اختبار الدم PSA أو بالكشف الموضعي لغدة البروستاتا، وعلى كل فإن الاكتشاف المبكر للمرض يعطي لـلمريض فرصـة أكبر لمعالجته قبل انتشاره وتدهور صحته. وتسبب الإصابة بهذا

المرض في تعرض الفرد لمجموعة من الانفعالات والإحساس بالتعرض للموت، ومن ثم فإن سلوكه سوف يترتب على درجة إيمانه وقدرته على التحكم في هذه المشاعر، ولكن الدعم الاجتماعي والأسري الذي يتلقاه الفرد أثناء هذه الفترة يعتبر هاماً وفعالاً في تأكيد قدرته على التعامل مع هذا المرض وتقبل نتائجه.

ثالثاً – النمو الإدراكي/المعرفي وتأثيره على السلوك

لقد أكدت الدراسات (Willis, 1989) أن هناك نوعاً من التوازن في المهارات والقدرات العقلية يحدث في أثناء مراحل العمر الوسطى. وهذا المفهوم جاء مخالفاً لبعض المفاهيم التي كانت سائدة والتي أظهرت وجود درجة من التدهور في القدرات العقلية خلال هذه المرحلة. وهناك سؤال أساسي يحاول الباحثون الإجابة عنه: "هل يتناقص الذكاء مع زيادة العمر؟" وللإجابة عن هذا السؤال فإنه من المهم تحديد مفهوم الذكاء فنجد على سبيل المثال أن الذكاء قد وصف بالقدرة على التعلم من الخبرات وأن هذه القدرة تتعلق باستطاعة الفرد أداء مهام عقلية معينة مثل تعلم مهارات جديدة بشكل سريع والقدرة على حل مشكلة صعبة أو تحقيق معدلات مرتفعة عند أداء اختبار معين، ونجد أن هناك مجموعة من العلماء تعتقد أن القدرات العقلية تتطور نتيجة لخبرات الإنسان والتجارب التي يعايشها ويتعلم منها ولذلك فإن الذكاء بمعناه المجرد قد لا يكون معياراً موضوعياً لقياس القدرات العقلية.

وللإجابة عن السؤال الأهم: "هل تتدهور القدرات العقلية مع زيادة العمر؟" فلقد قام "ساشي" (1996) بدراسة تتبعية Follow up على (500) فرد في الأعمار ما بين (22 – 70 سنة) للتعرف على معدلات نمو مجموعة من القدرات العقلية تتضمن:

1 – القدرات الرقمية (القدرة على استخدام الأرقام وإجراء عمليات حسابية بسيطة).
2 – القدرات اللفظية (مدى فهم معنى كلمة معينة أو جملة معينة).
3 – القدرة على إدراك الحيز المكاني (مدى فهم الفرد وقراءته لخريطة معينة).
4 – المنطق الاستقرائي (استخدام قاعدة معينة أو لائحة في اتخاذ قرار محدد).
5 – الطلاقة اللغوية (وهي القدرة على استخدام كلمات في جمل مفيدة).

ولقـــد أثبتـــت الدراســـة أنه لا توجد علاقة بين التغييرات المنتظمة في هذه القـــدرات مـــع زيادة العمر، وعلى عكس التوقعات فقد تبين أن الأفراد يكتسبون مزيداً من القدرات عند انتقالهم من مرحلة الشباب إلى المرحلة المتوسطة من العمر، إلاّ أن الفروق بين الإناث والذكور أوضحت أن عند انتقال المرأة إلى مرحلة العمر المتوسطة فإنها تحافظ على القدرات اللغوية ومهارات الاستقراء بينما يحتفظ الرجل بالقدرات المكانية والرقمية حتى نهاية المرحلة.

إلاّ أن القـــدرة العقلية الوحيدة التي وجدت دراسة "ساشي" بعض الدلائل على اضمحلالها هي القدرات اللفظية وطلاقة الكلام التي تبدأ في التأثر مع بدايات الخمسينات من العمر. إلاّ أن الدراسة قد أثبتت وجود فروق فردية كبيرة بين أفراد هـــذه المرحلة من ناحية مستويات الجوانب الإدراكية/المعرفية، فبينما يفقد البعض كـــثيراً من هذه القدرات يحتفظ البعض الآخر بمستوى متميز بل ويكتسب خبرات عقلـــية جديدة مثل تعلم الكمبيوتر واستخدام الأجهزة الفنية الحديثة. وبشكل عام فـــإن معظـــم هذه القدرات تتعرض لفقدان كثير من ملكاتها مع بلوغ الفرد سن الـــثمانين. ولكن هناك أدلة على استمرار النمو العقلي وتقدمه طبقاً لتأثيرات البيئة ومـــدى مواءمتها واستعدادها على الإبداع وهناك حالات التميز العقلي والإبداع الفكـــري لكتاب وفلاسفة استمروا في إنتاج أعمال بالغة في الإبداع مثال توفيق الحكيم وبرنارد شو.

ونتيجة للدراسة الطويلة Longitudinal التي قام بها "ساشي" (1994) فلقد توصـــل الباحـــث إلى سبع عوامل يمكنها أن تقلل من أخطار التدهور في القدرات العقلية والإدراكية:

العوامل التي تساعد على المحافظة على القدرات الإدراكية والعقلية:

1. غياب مشكلات وأمراض القلب والأمراض الأخرى المزمنة: إن بعض الســـلوكيات الـــتي تسبب الأمراض المبكرة مثل تعاطي المخدرات وشرب الخمور والإجهـــاد والقلق والتوتر قد تؤدي إلى الإصابة بالأمراض المزمنة أو أمراض القلب ومن ثم تؤثر بطريقة سلبية على القدرات الإدراكية/المعرفية.

2. الظروف الاجتماعية والاقتصادية الملائمة: إن التمتع بمستوى اقتصادي يوفر الأساسيات من متطلبات الحياة والخبرات الدراسية والتعليمية والمستوى العقلي المتقدم للأنشطة والأعمال والسلوكيات التي يمارسها الفرد والتي تساعد على الابتكار وتقلل من الروتين والملل، كل هذه المواصفات تساعد على تحفيز وتطوير الأنشطة الإدراكية/ المعرفية والعقلية وبقائها في حالة فعالة.

3. المشاركة الفعالة في أنشطة وخبرات عقلية متنوعة مثيرة ومُحفزة: ويتضمن ذلك القراءة الجادة والسفر إلى أماكن جديدة والمشاركة في مؤتمرات وندوات تثقيفية والانضمام لجمعيات أدبية والمداومة على دراسة أنظمة وبرامج تعليمية جديدة. كل هذه الأنشطة تحفز وتدعم الأنشطة العقلية لدى الفرد فتنشط عمليات التفكير والتحليل والاستيعاب والاستنباط والابتكار فيبقى العقل في نشاط فكري متجدد ومستمر.

4. مرونة الشخصية في المراحل المتوسطة من العمر: ويعني ذلك قدرة الفرد على تغيير خططه والتكيف مع أية ظروف جديدة في حياته والمواجهة الإيجابية الفعالة للمفاجآت والأحداث غير المتوقعة.

5. الزواج من قرين لديه/ لديها خبرات عقلية متقدمة: إن الاقتران بزوجة/ زوج لديه خبرات ثقافية وأنشطة فكرية متطورة يحفز الفرد على المناقشة الموضوعية في الأسرة والمتابعة الواعية للأحداث الفكرية والثقافية التي ينشغل فيها الشريك ومن ثم فإن ذلك يخلق حواراً متنوعاً وفعالاً ينشط الملكات العقلية داخل الأسرة.

6. تمتع الفرد بمستويات متقدمة وسريعة من الإدراك الحسي: إن اختبارات القدرات العقلية والإدراكية/المعرفية تشير إلى أهمية سرعة الاستجابات الحسية لدى الأفراد. وترجع سرعة الاستجابات في الإدراك الحسي إلى سلامة العوامل الجينية والسلوكيات الصحية السليمة عند الفرد.

7. رضاء الفرد عن إنجازاته الشخصية وأدائه لوظائفه خلال مراحل العمر السابقة Schaie, (1994) .

رابعاً – الجوانب الاجتماعية وتأثيرها على السلوك الإنساني

هناك أفكار كثيرة تتعلق بالجوانب الاجتماعية والنفسية والتغيرات التي تحدث خـلال المرحلة المتوسطة من العمر وتأثيرها على سلوك الفرد، حيث نرى أن الفرد يواجـه خلال هذه المرحلة تغيرات عديدة تتعلق بالعلاقة الأسرية ومتطلبات العمل المستمرة. ووفقاً لنظرية الأدوار الاجتماعية فإن الفرد في هذه المرحلة ينشغل بتأدية واجبات ومهام حياتية قد تؤدي إلى شعوره بالضغوط والتوتر، ولكن هناك مجموعة أخـرى مـن الباحثين ترى أن إحساس كل فرد بهذه المرحلة العمرية يرتبط بخبرته الذاتـية وقدراتـه وطبيعة عمله وأدائه. وهناك بعض الأفكار التي تربط هذه الفترة بفكرة الأزمة حيث يعتقد البعض أن كل الأفراد سوف يواجهونها عند بلوغهم سن الخمسين واقترابهم من سن الشيخوخة.

أزمة منتصف العمر Mid-Life Crisis:

بيـنما يرى البعض أن فترة منتصف العمر تمثل منعطفاً خطيراً في حياة كل فـرد نتيجة تحقيق أو الفشل في تحقيق الأهداف المعلنة من قبل، نجد البعض الآخر يـرى هذه الفترة بصورة إيجابية حيث يشعر أفرادها بنشوة الارتقاء وتحقيق الذات والـنجاح في الحياة، ولكن هناك تفسيرات مختلفة للجوانب النفسية المرتبطة بمرحلة منتصف العمـر، فقـديمـاً نجد أن "كارل يونغ" (Carl Jung 1933) قد عرف الشخصية بأنها مجموعة من القوى المتضاربة، ذلك يعني أن الجانب اللاشعوري من الشخصـية يتضـمن مجموعة متراكمة من الخبرات، والتجارب المرتبطة بأحداث الماضي والخبرات التي تم قمعها أو نسيانها، وبالإضافة إلى ذلك فإن الذات Self تعد كقوى أساسية وديناميكية في الشخصية تدفع الفرد نحو التكامل، وقد رأى "يونغ" أن الـذات بطبيعـتها لا تنمو قبل الوصول إلى مرحلة العمر المتوسطة حين يتكون لـدى الفـرد مجموعات من الخبرات والتجارب الكافية. وتحدث في هذه المرحلة تغـيرات كـبيرة في الشخصية تتطلب من الذات تحقيق توازن جديد بين الشعور واللاشـعور. لذلـك فإن الفشل في تحقيـق هذا التوازن قـد يؤدي إلى حدوث أزمـات وصراعات كبيرة تؤثر على الشخصية، واتفاقاً مع هذه الفكرة فلقد حدد العـالم (1953) Robert Havighurst سـبع مهمات تنموية مرتبطة بمرحلة العمر المتوسط:

1- تحقيق مسؤوليات مدنية واجتماعية.
2 - الوصول إلى الاستقرار المادي.
3 - مساعدة الأبناء على أن يصبحوا أعضاء مسؤولين في المجتمع.
4 - التوصل إلى أساليب فعالة لشغل وقت الفراغ.
5 - القدرة على إنشاء علاقة إيجابية مع الذات ومع الزوج/ الزوجة.
6 - تقبل التغيرات الجسمية التي تحدث للفرد خلال هذه المرحلة السنية.
7 - التكيف مع بدايات الشيخوخة وتقبل وفاة الآباء والأشخاص القريبين الأعزاء.

وهناك فكرة الاستعداد للانتقال إلى المرحلة المتوسطة من العمر حيث يرى Tamir (1989) أن الرجال في سن الأربعين يتعرضون لتجربة الانتقال إلى سن الخمسينات حيث تتغير مفاهيمهم عن الحياة وقد يؤدي هذا التغير إلى صراع أو أزمة وربما لا يصل إلى ذلك. ويوافق Levinson (1978) على هذه الفكرة ويوضح أنه خلال عملية الانتقال من الأربعينات إلى الخمسينات يتغير التركيز من الماضي إلى الحاضر، فيبدأ الرجال في مواجهة الأحلام والآمال التي وضعوها في الماضي حيث يراجعها الفرد ويراجع قدرته واستعداداته الحالية على تحقيق بعض من هذه الأحلام والآمال في ضوء الإمكانات والمؤهلات التي يملكها الآن، ويرى الباحث أن عملية تغيير الآمال والطموحات قد تؤدي إلى حدوث توترات وتغيرات كبيرة مثل حدوث الطلاق أو الاستقالة من عمل لا يتناسب مع الآمال والطموحات، لذلك فلقد وجد الباحث أن (80%) من العينة التي استخدمها يواجهون بعض أنواع الأزمات المتعلقة بالذات وبالعالم المحيط بهم وأنهم منشغلون في إعادة صياغة المفاهيم والقيم والاتجاهات التي يسعون إلى تحقيقها، وهناك مجموعة من الأفراد يفضلون عدم مواجهة أي أزمات فيؤجلون هذه المواجهات إلى فترات أخرى من العمر أو أنهم ربما ينكرون وجود هذه الأزمات، مما يؤثر في مستوى التوازن في الشخصية، ويبدأ الفرد في أثناء هذه الأزمات في مناقشة أحاسيسه تجاه الاقتراب من مرحلة الشيخوخة ونهاية العمر، وقد ينغمس البعض في بعض السلوكيات التي لا تتلاءم مع عمره حيث تتمثل هذه السلوكيات في تقليد المراهقين فيصبح الشغل الشاغل للفرد في أثناء ذلك هو كيفية تكوين رؤيا عن نفسه وعن إنجازاته عند الآخرين.

وتـــرى مجموعة أخرى من الباحثين أن فكرة أزمة منتصف العمر هي فكرة غـــير واقعية لأنها بنيت على ملاحظات الأطباء والنفسيين وتصوراتهم وخبراتهم في معالجة مجموعات صغيرة من المرضى الذين ينتمون إلى مرحلة العمر المتوسط، وتعتبر هـــذه المجموعة من العلماء على أنه ليس هناك ما يؤكد أن كل فرد سوف يتعرض لهـــذه الأزمات وأن فكرة الأزمات مبالغ فيها وغير صحيحـــة، لذلك يرى Costa & McCrae (1989) أن النمو عنـــد البالغين يـــجب أن ينظـــر إليه كنمو وليس كأدوار اجتماعية أو بناء وظيفي ولكن كجوانب متعلقة بالشخصية، وبينما تكون هناك أنواع كثيرة من السمات إلاّ أن Costa & McCrae حددا خمس خصائص أساسية تعكس درجة التوازن في الشخصية بعد سن الثلاثين:

1 – **العصابية Neuroticism** وتمثل ابتعاد الفرد عن المعاناة من مشاعر سلبية مثل الغضب والخوف والحزن.

2 – **الانبساطية Extraversion** وهي النـــزعة للاهتمام بأشياء أخرى لا تتعلق بـــالذات مما يدفع الفرد نحو المشاركة في أنشطة مبهجة ومثيرة تعكس الشعور بالسعادة والانسجام.

3 – **الانفتـــاح على التجـــارب الجديدة Openness to Experience** وتعكس ترحيب الفرد بالتجارب الجديدة وتنمية الخيال وحب الاستطلاع.

4 – **التوافقـــية Agreeableness** أي درجة تعاطف الفرد مع الآخرين والاتفاق والترحيب بالأنماط والأفكار الجديدة والثقة والتعاون والأثرة.

5 – **التكـــيف مـــع مبادئ الضمير Conscientiousness** ويعكس ذلك ارتياح الفـــرد مـــع مبادئه الأخلاقية واهتمامه بتنظيم حياته وفقاً لمعايير فلسفية ذات أبعـــاد إنســـانية كبيرة يظهر فيها الإصرار والدافعية Motivation على إنجاز الأهداف.

إذاً فالمحصـــلة هـــنا هـــو عدم وجود حالة ثابتة تسمى أزمة منتصف العمر يـــتعرض لهـــا كل فرد كما يزعم البعض، بل إن هناك ظروف وتغيرات كبيرة في الحالـــة الصحية والجسمية والإنتاجية، والتكيف مع التغييرات التي تحدث في الحياة والاســـتعداد الإيجابي لمرحلة الشيخوخة القادمة، وهناك بعض الأفراد المنتمين لهذه

المـــرحلة يســـتطيعون أن يتعاملوا مع كل هذه المتطلبات بشكل إيجابي بينما يتعثر الـــبعض نتيجة عدم قدرته على التعامل معها والأدوار المختلفة، ذلك ما قد يفهم على أنه أزمة منتصف العمر.

تفاعل الفرد مع العلاقات الأسرية الجديدة:

مـــع تطور حياة الأسرة والوصول إلى مرحلة خروج الأبناء The Empty Nest ومـــا قـــد يترتب عليها من زواج الأبناء والبنات، نجد أن خبرة التفاعل مع الأحفـــاد تولد مشاعر إيجابية كثيرة فيشعر الأباء بالفرح والفخر ويسعدون بوجود الأحفـــاد حولهـــم، وهـــناك مصطلح يستخدمه العلماء والباحثون لوصف الأسرة ومـــراحلـــها Family Life Cycle والـــذي يعرف بالعمليات المتوقعة التي تمر بها الأسرة خلال فترة وجودها. ولقد تم تقسيم فترة حياة الأسرة إلى خمسة مراحل:

1 – **المرحلة المبكرة للزواج:** وهي تلي الزفاف وبداية حياة الزوجين معاً وانتقالهم إلى السكن الخاص بهما.

2 – **مرحلة ميلاد الطفل:** ومن صفات هذه المرحلة أن يكون عمر الزوجة أقل من 45 سنة ويكون في الأسرة طفل واحد على الأقل يقل عمره عن السادسة.

3 – **مـــرحلة نضـــوج الأسرة :** يبدأ الأبناء في الكبر في هذه المرحلة ويلتحقون بمراحل الدراسة الأولية ويبلغ عمر أحد الأبناء ما بين السادسة والثامنة عشرة.

4 – **المرحلة المتوسطة (مرحلة العش الخالي Empty-nest Families):** يحدث في هذه المرحلة أن يترك الأبناء الأسرة ليلتحقوا بالدراسة الجامعية أو للزواج أو العمل في أماكن بعيدة فيصبح البيت خالياً من الأبناء The empty nest.

5 – **المـــرحلة المتأخرة:** يكون عمر الزوجة في هذه المرحلة حوالي 60 سنة فيعيش الـــزوجان (أو أحدهما) في المترل بمفرده بعد تقاعد الزوج عن العمل وانضمام الأحفاد إلى محيط الأسرة.

ونـــرى أن اتجاهات الزوجان وسلوكياتهم ومستوى تفاعلهم يتأثر بطبيعة ونـــوع المتطلـــبات والضـــغوط التي ترتبط بكل مرحلة، ومن ثم فإن الأخصائي الاجـــتماعي الـــذي يتعامل مع الأسرة يجب عليه أن يتفهم طبيعة المرحلة المرتبطة بالأسرة وتواءم سلوكياتها مع طبيعة هذه المرحلة، كذلك فإن هناك ضرورة لتفهم

تـــأثير الظروف المجتمعية والبيئة على قدرة الأسرة على إشباع احتياجاتها والتعامل مع الظروف البيئية والمشكلات التي تواجهها.

ركزت مجموعة من الأبحاث (Anderson 1983) و(Levesque, 1993) على دراسة معدلات الرضا عن الزواج خلال مراحل الأسرة، حيث تبين أن معدل الرضا عن الزواج يحقق أعلى المستويات خلال المرحلة المتوسطة، وقد وجدا أن هذا المعـــدل يبدو مرتفعاً عند بداية الزواج ولكنه ينخفض بشكل كبير مع ميلاد الطفل الأول ويـــنخفض بشكل أكبر عندما يصل الأبناء إلى سن المراهقة، لكنه يعود إلى الارتفاع بعد خروج الأبناء من البيت. أما عن أسباب التغير في هذه المعدلات فإنه يـــرجع إلى المتطلبات والضغوط التي تظهر مع وجود الأبناء والضغوط التي يسببونها عـــلى الآباء ومن ثم تقل درجة التفاعل بين الزوجين. وهناك بعض الدراسات التي تؤكد أن زيادة الأعباء المادية وتراكمها يؤثر على درجة الرضا عن الزواج.

وبشـــكل عام فإن الأفراد في المرحلة المتوسطة من العمر يتمركزون بالنسبة للحياة الأسرية في المرحلة الثالثة والرابعة وفقاً لأعمارهم وقت بداية الحياة الزوجية، وبالإضـــافة إلى مشكلات الأبناء المراهقين وتأثيراتها على الحياة الزوجية فلقد وجد أن الاختلافات في الاهتمامات والأنشطة ودرجة التدين ونقص المصادر المالية تمثل أهـــم المشكلات الرئيسة للأسرة، وعلى النقيض فإن هناك بعض الجوانب التي تعتبر كمصـــادر للـــبهجة والسعادة ومن ثم تؤثر بشكل إيجابي على معدلات الرضا عن الحـــياة الزوجـــية مـــثل وجود الأحفاد والمشاركة بين الزوجين في أنشطة متقاربة وقضاء إجازات وزيارات مشتركة.

خصائص الزواج الفعال وسلوكيات العلاقات المستمرة:

نظـــراً للصعوبات التي تتعرض لها العلاقات الزوجية وتعدد العوامل التي تؤثر على استقرار الزواج، فقد قام عدد من الباحثين(Lauer, Lauer. & Kerr, 1995) بتقصي وجهات نظر كل من الزوج والزوجة للتعرف على أسباب نجاح واستمرار الـــزواج، ولقـــد أثبتت نتائج هذه الدراسات وجود تشابه كبير بين وجهات نظر الـــزوج والـــزوجة في تحديدهم لأهم الخصائص التي تساعد على استمرار الزواج لفترات طويلة.

جدول (8)

خصائص العلاقات الزوجية طويلة المدى

الأزواج	الزوجات
- الزوجة أحسن صديق	- الزوج أحسن صديق
- أن تحب الزوجة كإنسانة أولاً	- أن تحب الزوج كإنسان أولاً
- الزواج هو علاقة ارتباط طويلة المدى	- الزواج هو علاقة ارتباط طويلة المدى
- أن يوافق الزوجان على أهداف معينة	- أن يوافق الزوجان على أهداف معينة
- السعادة بين الزوجين هي مفتاح النجاح	- أن السعادة بين الزوجين هي مفتاح الزواج الناجح
- أن يفخر الزوج بإنجازات الزوجة	- أن تفخر الزوجة بإنجازات ونجاحات الزوج
- أن ينشغلا في أنشطة اجتماعية وثقافية مشتركة	- الزواج هو ارتباط مقدس
- أن يوافقا على القرارات الأساسية	- أن يعبر الزوجان عن مشاعرهم بحرية
	- أن يوافق على فلسفة مشتركة عن الحياة
- أن شخصية الزوجة تكون أكثر جاذبية عما كانت عليه في أثناء الفترة الأولى من الزواج	- إن شخصية الزوج تبدو أكثر جاذبية الآن عما كانت عليه في أثناء فترة الزواج الأولى

الطلاق وإنهاء العلاقة الزوجية:

عند بداية المرحلة المتوسطة نجد أن الخلافات الأسرية تؤدي أحياناً إلى الطلاق بين الأزواج، إلاّ أن معدلات الطلاق في أثناء المرحلة المتوسطة من العمر تقل بشكل كبير عن معدلات الطلاق التي تحدث في مرحلة الشباب (19 سنة إلى 34 سنة)، وتختلف معدلات وأسباب الطلاق من مجتمع إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى فنجد على سبيل المثال أن معدلات الطلاق في الدول الغربية تعتبر مرتفعة نسبياً فتصل أحياناً إلى 50% من كل الزيجات. وبشكل عام فإن معدلات الطلاق في البلدان الشرقية تقل نسبياً عن معدلات الطلاق في البلدان الغربية؛ وذلك لتدخل الظروف الثقافية والعادات والتقاليد والأعراف لتأكيد ودعم الزواج للمحافظة على استمرارية العلاقة الزوجية، فالطلاق يعني النهاية الشرعية للعلاقة بين الزوج

والـــزوجة، إلاّ أن تـــبعاته قد تمتد لسنوات طويلة وتؤثر بشكل كبير على أعضاء الأســـرة خاصة الأطفال، ونتيجة لاعتماد الأطفال الكبير على الوالدين من الناحية الماديـــة والعاطفية فإن الطلاق يؤدي إلى نتائج في غاية الخطورة على أمن ومستقبل الأطفال.

موضوعات بحثية:

Alnajjarm, A. (1996). Adolescents' perceptions of family functioning in The United Arab Emirates. Adolescent, 31(22), 433-443.

يشير مصطلـــح المستـــوي الوظيفي للأســـرة Family Functioning إلى قدرة الأســـرة على تحقيق مجموعة من الأدوار والمهام بشكل ملائم، وتؤثر قدرة الأسرة على تحقـــيق المهام المنوطة بها على المستويات النفسية لأعضائها ومعدلات نجاحهم وتوازنهم النفســـي. ولقد قام الباحث بدراسة تصورات عدد 709 من المراهقين (411 إناث و 298 ذكور) في المرحلة العمرية من 14 إلى 19 سنة في مجتمع الامارات العربية المتحدة حول المستوى الوظيفي لأسرهم، ولتحقيق هذه المهمة استخدم الباحث مقياس المستوى الوظيفي للأسرة والذي يتضمن الجوانب الآتية: البناء الهيكلي للأسرة، مستوى الإشباع العـــاطفي، درجـــة العلاقات الداخلية، مستوى التحكم السلوكي، كيفية انتقال القيم داخـــل الأســـرة، درجة تحقيق المتطلبات الأساسية للأسرة، معدل العلاقات الخارجية للأسرة.

أظهرت نتائج الدراسة أن المراهقين لديهم تصورات إيجابية عن أسرهم، ولكن هـــناك خـــلاف بـــين الإناث والذكور في رؤية مستويات وجوانب المستوى الوظيفي للأسرة، فبينما يري الذكور أن أسرهم حققت مستوى وظيفي أعلى فيما يتعلق بالبناء الهيكـــلي والعلاقات الخارجية للأسرة، رأت الإناث أن أسرهم تحقق مستويات وظيفية أعلى بالنسبة للعلاقات الداخلية ومستوى التحكم السلوكي وتحقيق المتطلبات الأساسية للأسرة. وبشكل عام فإن المراهقين المشاركين في الدراسة أعطوا أسرهم درجات مرتفعة في قدرتها على إشباع المتطلبات الأساسية ونقل القيم بينما انخفض مستوى التصورات فـــيما يـــتعلق بقـــدرة الأسرة على تقديم الإشباع العاطفي وتحقيق مستوي كاف من العلاقات الخارجية. ويرى الباحث أن هذه النتائج قد تأثرت بدرجة كبيرة بالتحولات الاقتصـــادية والاجتماعـــية التي حدثت في المجتمع بعد اكتشاف البترول بمنطقة الخليج خلال القرن الماضي.

يمثل الطلاق بالنسبة للزوجة تحدياً كبيراً يتمثل في تدهور المستوى الاقتصادي والدخل المادي، والمعاناة النفسية والعقلية الناتجة من تحمل مسؤولية رعاية الأطفال. وتحمـــل بعض المجتمعات الزوجة المطلقة مسؤولية فشل زواجها فتلومها على نهاية الزواج، وفي بعض المجتمعات تكون النظرة سلبية وتقل فرصتها في الزواج مرة ثانية.

أمـــا بالنسبة للرجل فإن الطلاق يعني الافتراق عن الأبناء وقطع الارتباطات والعلاقات معهم لأن معظم المجتمعات تعطي الأم حضانة الأطفال بعد الطلاق، فقد وجـــد (1994) ,Booth & Amato أن العلاقة بين الأبناء والآباء تصبـــح بعـــد الطلاق مضطـــربة خاصة إذا ما حدث الطلاق بين الآباء في وقت مبكر من حياة الأطفـــــال، وأظهـــرت (1994) Cooney أن الأطفال في هذه الفترة تقل لديهم فرصـــة تفاعلهم مع آبائهم بشكل كبير، وتختلف طبيعة العلاقات مع الأبناء بعد الطلاق إذا ما تم طلاق الآباء وهم في مرحلة العمر المتوسطة حيث وجدت الباحثة أن الأبـــناء بعد نضوجهم يحاولون المحافظة على علاقات طيبة وحميمة مع الأم بينما يقل اتصالهم وتعاطفهم مع الأب. وبالإضافة إلى تعرض الأبناء للمعاناة المادية وقلة دخـــل الأسرة بعد الطلاق فإن الأبناء يعانون من ضعف الاستقرار العاطفي وتوتر العلاقـــات مع الأباء وأحياناً ما تتحول إلى الرفض أو العداء حيث يشعر الأبناء بأن الأبـــاء قد اتخذوا قراراهم بالانفصال لتحقيق مصلحتهم الذاتية أو لحل مشكلاتهم الشخصية دون مراعاة لظروف واحتياجات الأبناء ورغبتهم في الاستمرار في العيش مـــع الوالدين تحت سقف واحـــد. وتختلف التشريعات والقوانين التي تنظم رعاية الأطفـــال والأمهـــات المطلقات من مجتمع إلى آخر وما يتضمنه من حقوق النفقة ومصروفات الرعاية والكفالة وحق الأباء في زيارة أبنائهم ومتابعتهم.

خبرة الأحفاد:

ممـــا لا شـــك فيه أن تجربة زواج الأبناء وقدوم أبنائهم تعد تجربة مهمة في تـــاريخ الأفـــراد خلال مرحلة السن المتوسطة. وقد ينعم الأفراد بوجود الأحفاد حولهم لفترات طويلة حيث ان ذلك يرتبط بعمرهم في أثناء الزواج وميلاد أطفالهم في سن مبكرة. كذلك فإن خبرة التعامل مع الأحفاد تتوقف على سن زواج الأبناء ومـــيلاد أطفـــال لهم. وعلى كل فإن مرحلة العمر المتوسطة هي الفترة التي يصبح الفـــرد فـــيها جداً أو جدة بمعنى أن يصبح لديه عدد من الأحفاد ولذلك فإن هناك

مسـؤوليات وعلاقـات اجتماعية جديدة تنشأ بين الجد وحفيده. ونظراً لظروف تكوين الأسرة وتقدم العناية والرعاية الطبية فإن فترة هذه العلاقة قد تستمر أحياناً لأكـثر من 30 سنة. لذلك فإن توقيت تحول الفرد إلى جد يعتبر كتجربة مهمة لها مدلـولات ونتائج نفسية على الفرد. فعلى سبيل المثال إذا ما أصبح الفرد جداً مع بدايـة الأربعينات فإن ذلك يعني إحساسه بكبر السن وتقدم العمر وما يعنيه ذلك من تغيرات في مستوى وأسلوب التعامل مع الأبناء والأحفاد.

تـنظر الأسر بشكل عام إلى الجد والجدة كمصدر أساسي ومهم لما يوفرانه مـن ارتـباط نفسي بالأحفاد وما يقدمانه من نصائح وإرشادات عن كيفية تربية الأبـناء، ذلـك فضـلاً عن التقاليد والعادات التي تعتبر الجد/ الجدة رمزاً لتضامن وحمايـة الأسرة وتأكيداً للقيم الأصيلة. وتعطى خبرة الجد والجدة معنى لاستمرارية الحـياة والتواصـل بين الأجيال، لذلك ففي مجتمعات معينة يبقى الأبناء في بيت الأسرة" البيت الكبير" تحت رعاية ونفوذ الآباء حتى وفاقم وما ينتج عنه من بداية استقلالية الأبناء ورحيلهم إلى حياقم الخاصة، وهناك عملية الارتباط العاطفي بين الجد والحفيد وطبيعة هذه العلاقة الخاصة حيث ان الجد يتمتع بالصبر والقدرة على قراءة وتفهم احتياجات الأحفاد والاستماع لهم بشغف واهتمام.

ويرتبط بمرحلة العمر المتوسطة أدوار معينة يلعبها الأفراد مع نهاية هذه الفترة واسـتعدادهم. فنجد أن الأب يستطيع أن يعنى بأبناء الابن أو الابنة خاصة إذا ما كـان الأبـناء مرتبطين بأعمالهم، ومن هنا يصبح دور الأب والأم كبيراً كجليس للأطفـال ومعـلم للقيم ومتابع للسلوكيات، ويرى بعض العلماء أن التحاور بين الأجـيال شيء مهم يربط الفرد بمصادر وثروات وقيم وحقائق تاريخية مهمة توسع مـدارك الأجيال Communication Across-Generations القادمة وتعطيها بعداً تاريخـياً عن كيفية الحياة في الزمن الماضي وكيف أصبحت الآن، وهناك دور آخر لـلجد/ الجـدة مع تعقد ظروف الحياة وانتقال الأبناء للعمل في أماكن بعيدة نرى الآبـاء يقومـون أحياناً بمسؤولية رعاية وتربية أبناء الابن أو الابنة، وهناك فرصة لحـدوث بعض المشكلات نتيجة صعوبة التفاهم بين الأجيال واختلاف سلوكيات وقـيم الأجـيال الحالـية، الأمر الذي يتطلب جهوداً كبيرة لتضييق الاختلافات العقائدية والقيمية. وأخيراً نجد أنه مع الارتفاع النسبي لعمر الإنسان فإن أفراد هذه

المرحلة قد يتولون مع نهاية هذه الفترة رعاية آبائهم عند وصولهم لمرحلة الشيخوخة المستقدمة والتي تبدأ بعد سن الـ (75) سنة، ويعني ذلك إضافة أعباء جديدة ومسؤوليات كبيرة حيث يتولى الفرد في عمر الخامسة والخمسين أو الستين مسؤولية رعاية آبائهم في أثناء مرضهم أو نتيجة تدهور حالتهم الصحية والنفسية، وقد يسبب هذا الأمر إضافة أعباء جديدة على الأفراد ويزداد هذا الأمر صعوبة إذا ما كان الأبناء أنفسهم يعانون من مشكلات صحية ونفسية تجعل رعايتهم لآبائهم عملاً شاقاً غير محتمل.

خامساً: بيئة العمل وتأثيرها على السلوك

تمثل الحصول على الوظيفة أحد المشكلات التي يتعرض لها الأفراد في مرحلة الشباب غير أن الأمر يختلف في المرحلة المتوسطة من العمر، فإن التقدم في العمل وتقييم أهداف العمل واتخاذ قرارات متعلقة بالاستمرارية في الوظيفة هي بعض التحديات المتعلقة بالعمل، وقد يترتب على ذلك أن يفكر الفرد في البحث عن وظيفة جديدة أو التدريب على مهارات جديدة أو حتى العودة إلى الدراسة المنتظمة في الجامعات أو برامج الإعداد المتقدمة.

جدول رقم (9)
خصائص مراحل العمل المختلفة

الإعداد للعمل

معدل العمر: (5-18 سنة):

المهمات الرئيسة: إنشاء اتجاهات شخصية عن العمل – تقدير الاختيارات المتاحة- اختيار مبدئي لنوعية الوظيفة الملائمة- الحصول على التعليم والتدريب الملائم.

البدايات التنظيمية:

معدل العمر: (18–25 سنة)

المهمات الرئيسة: الحصول على عروض للعمل من جهات أو مؤسسات معينة- اختيار الوظيفة الملائمة بناءً على المعلومات المتاحة.

المراحل الأولى للعمل:

معدل العمر: (25–40 سنة)

المهمـــات الرئيسة: تعلم قواعد ومسؤوليات الوظيفة- التوائم والتكيف مع ظروف الوظيفة- زيادة الكفاءة.

مرحلة الحياة العملية المتوسطة:

معدل العمر: (40–55 سنة)

المهمـــات الرئيســـة: إعـــادة تقييم نوع الوظيفة الحالية- تأكيد توقعات وأهـــداف العمل أو تعديلها- موائمة اختيارات العمل طبقاً لتوقعات مرحلة العمر المتوسطة- الاستمرار في الإنتاجية.

المرحلة المتقدمة من العمر:

معدل العمر: (55 حتى سن التقاعد)

المهمـــات الرئيسة: الاستمرار في الإنتاجية- المحافظة على الاعتبار الذاتي- الاستعداد للتقاعد (Greenhaus 1987).

يتضح من الجـــدول السابـــق أن العمل خـــلال المرحلة المتوسطة من العمر (35 إلـــــى 60) سنة يشغل جزءاً كبيراً من جهود واهتمامات الأفراد. ففي بداية هذه المرحلة يكون الفرد منشغلاً ببدايات الوظيفة فيعمل بشكل متواصل على تعلم مهـــام الوظيفة ومهاراتها ويحاول بكل جهده أن يثبت قدراته واستطاعته في تأدية مهـــام الوظيفة بكفاءة وفاعلية، وقد يتطلب ذلك بذل جهود حقيقية للتكيف مع طبيعة العمل وتعديل نمط الحياة ليوائم ظروف الوظيفة. فإذا كانت ظروف الوظيفة عـــلى سبيل المثال تتطلب العمل لفترات متناوبة أو السفر فإن الفرد يرتب ظروفه الاجتماعية ويوزع أدواره والتزاماته طبقاً لمواعيد العمل، ونجد أن كثيراً من الأفراد في هذه المرحلة يصبح العمل لديهم هو من أهم الأولويات وبذلك فهم يبذلون كل طاقـــاتهم وأوقـــاتهم لتنفيذ مهام الوظيفة خاصة إذا ما كان العمل شاقاً أو كانت المنافســـة شديدة. ومن أجل ذلك فإن إثبات الذات في العمل يعطي الفرد الفرصة على تحديد مكانته وأهميته ودوره في المكان الذي يعمل فيه، ويشكل العمل وفرص الـــترقي فيه أحد الأهداف المهمة التي يسعى الفرد إلى تحقيقها فنجد أن التثبت في

الوظـيفة وفـرص الـترقي تساعد على زيادة دخل الفرد وتحسين أوضاعه المالية وإشباع احتياجاته الاجتماعية مثل شراء بيت (شقة) أو سيارة.

ووفقاً لنظرية المنظمات Organizational Theory فإن طبيعة التفاعل داخل المؤسسة ترتبط بقواعد وقوانين محددة ترتبط بالتزامات وواجبات منصوص عليها، حيث أن الإخلال بالتزامات العمل أو التصرف وفقاً لسلوكيات معينة مثل التغيب أو الاسـتهتار في تأدية المهام سيعرض الفرد للمسائلة القانونية والعقوبات، لذلك فمن الضروري أن يلتزم الفرد خلال هذه المرحلة وأن تتشكل سلوكياته وفقاً لهذه المحـددات والاعتبارات. ونجد أن عملية الاتصال والتفاعل بين الأفراد داخل مكان العمـل تلـتزم بمـا يعرف بالعلاقات الرسمية Gesellschaft إلا أن هذا النوع من العلاقات قد يسبب نوعاً من الضغوط والتوتر.

ويواجـه بعـض الأفـراد في النصف الثاني من المرحلة المتوسطة من العمر تحديـات الرضا عن ظروف العمل خاصة إذا ما حدثت بعض الظروف الطارئة في بيئة العمل تؤثر على استقرار الوظيفة أو زيادة المسؤوليات والتحديات المرتبطة بها. ويقيّم الفرد خلال هذه الفترة مدى تقبله للعمل الذي يؤديه ومدى توافق العمل مع الـتوقعات التي رسمها في بداية حياته، ولذلك نجد أن نتيجة هذا التقييم قد تكون إيجابـية فيسـتمر الفرد في تأدية عمله بالصورة التي يراها أو قد تثبت عدم توافق الواقع مع التطلعات والتوقعات الأولى الأمر الذي يدفع الفرد إلى اتخاذ قرار بالبحث عن عمل آخر أو التقاعد المبكر، وقد ينتج عن هذا التقييم رضا الفرد بنوع العمل الـذي يؤديـه وربما يلجأ إلى تعديل أهدافه وتوقعاته السابقة لتتكيف مع الظروف الحالية.

وفي هـذا الإطـار نجـد أن جانباً من البحوث يركز على رضا الأفراد عن عملهم Job Satisfaction حيث أظهرت النتائج:

1. إن الشـعور بالتعب من العمـل Job Burnout ينتـج من اختلاف التوقعات المرتـبطة بـالعمل وتعدد المسؤوليات والواجبات التي تتطلبها الوظيفة وكمية الجهد والوقت المبذول فيها.

2. إن هـــناك عوامـــل نفسية مرتبطة ببيئية وظروف العمل مثل الرتابة والتكرارية والجمـــود حيث إن بعض الأعمال لا تشجع ولا تسمح بالابتكار والتجديد ومـــن ثم تـــؤدي إلى الملل والتعب النفسي والاكتئاب أو الإحساس بضعف الذات وانخفاض التقدير الذاتي.

3. إن العمــــل أحياناً ما يطغى على حياة الفرد فلا يترك له فرصة لممارسة أنشطة أخـــرى أو حتى الاسترخاء الجسمي والنفسي، فنجد مثلاً أن المرأة العاملة قد تصارع ما بين التزاماتها في العمل ومسئوليتها في رعاية أسرتها.

4. إن بعض الأعمال لا تشجع العاملين على تعلم أشياء جديدة أو توفر أي نوع من الحوافز وتمثل صعوبة في الترقي لمناصب أعلى.

5. يوجـــد اختلاف بين مستويات الرضا عن العمل حيث تتأثر بأعمار العاملين فنجد أن كبار السن من العاملين يتولد لديهم نوع من الارتباط بالعمل والتفاني في أدائـــه وتحمـــل الصعوبات والولاء لمكان العمل إلاّ أن درجة الخصائص ربما تختلف عند العاملين الجدد.

6. إن درجـــة الرضـــا عن العمل ترتبط بنوع الوظيفة التي يؤديها الفرد فنجد أن العـــاملين في مناصب إشرافية أو قيادية يتمتعون بسلطات ومميزات أكبر تمنحهم نوعاً من الاعتزاز بالذات ومن ثم مستوى أعلى من الرضا عن العمل.

7. إن وجود بعض الفوائد المرتبطة بالعمل وضمان الحقوق التي تراعي مسؤوليات الفرد والتزاماته الاجتماعية تساعد على زيادة نسبة الرضا عن العمل، فعلى سبيل المـــثال ان حصـــول العاملة على إجازة ملائمة للوضع ورعاية الطفل- أو منح الموظفـــة إجازة بدون مرتب لتربية الأطفال في المـــترل يعتبر أساسياً- كذلك توفـــر الفرصـــة للعاملين الذكور للحصول على منح دراسية أو تشجيعهم على مواصلة الدراسة يساعد على زيادة مستويات الرضا عن العمل.

يركـــز الباحـــثون على أهمية وجود مناخ اجتماعي ونفسي ملائم يساعد العـــاملين عـــلى الإنتاجـــية والتقدم في مجالات العمل، حيث إن تفاقم الخلافات والصراعات والتعقيدات الإدارية في مجال العمل تؤدي إلى الشعور بالإحباط وتقلل

من الإحساس بالراحة النفسية والانتماء لمكان العمل. ويقترح نيومان ونيومان (1997) بعض الجوانب التي تساعد على تحسين بيئة العمل:

1. العمل مع جماعة أو فريق في جو من الالتزام والتقدير والتفاعل البناء.
2. القدرة على التعبير عن الرأي ومناقشة آراء الآخرين بموضوعية بعيداً عن التعصب.
3. إتاحة الفرصة للعاملين لعرض الاقتراحات التي تهدف إلى تحسين ظروف العمل.
4. توفر علاقات عمل متوازنة في جو من الإخاء والألفة.

ولقد لاحظ الباحثون زيادة اتجاه العاملين لتغيير الوظائف والانتقال من عمل لآخر. فقديماً كان الفرد يبدأ عمله في العشرينات من العمر ويستمر في نفس المكان ونفس المدينة حتى سن التقاعد، إلا أن تغيير أنماط الحياة وظهور التكنولوجيا واستخداماتها والرغبة في البحث عن فرص عمل تعطي مميزات مادية ومعنوية أفضل يؤثر على رغبة كثير من الأفراد ويدفعهم إلى تغيير نوع ومكان العمل خلال المرحلة المتوسطة من العمر. ولقد وجد نيومان ونيومان أن قرار تغيير نوع الوظيفة يرتبط بعوامل أساسية:

1. الفرص التي تقدمها الوظائف الأخرى من ترقيات وزيادة في الأجور.
2. البحث عن عمل يتناسب مع الإمكانات والخبرات التي حصل عليها الفرد خلال المراحل السابقة من العمر.
3. توائم فرص العمل الجديدة مع قدرة الفرد على الموازنة بين الأعباء العائلية ومتطلبات العمل.

وبذلك نرى أن استمرار الفرد في العمل والإنتاجية يعتبر متطلباً أساسياً للمرحلة الوسطى من الحياة وما يعنيه ذلك من فرص التقدم في العمل ومواجهة المتطلبات الاجتماعية وإمكانية الترقي وإثبات الذات وتعديل الأهداف السابقة. ومن هنا يبدو أن تغيير نوع الوظيفة قد يكون جزءاً من أساليب التكييف مع الأعباء والمتطلبات وتحقيق التطلعات والتوقعات السابقة.

سادساً : تأثير البيئة والمجتمع على السلوك الإنساني

تتأثر سلوكيات واتجاهات الأفراد خلال المرحلة المتوسطة من العمر بطبيعة وظروف البيئة الاجتماعية التي يعيشون فيها، حيث نجد ان الأفراد خلال هذه المرحلة قد عاشوا في بيئة معينة وتعلموا مجموعة من القيم والمعارف والخبرات المرتبطة بالمجتمع وظروفه المختلفة بالإضافة إلى خبرتهم في التفاعل مع الأنساق الاجتماعية الموجودة بالمجتمع على مدار سنوات طويلة، الأمر الذي يؤثر في منظومات السلوك التي يستخدمونها في تسيير حياتهم وإشباع احتياجاتهم. وبشكل عام فإن طبيعة التفاعلات بين الفرد والمجتمع الذي يعيش فيه تتسم بالعلاقات الودية Gemeinschaft حيث يتسم سلوك الفرد تجاه جيرانه بالتعاطف والتأييد وتبادل المنافع، ونجد أن عند حدوث الأزمات فإن أفراد المجتمع الواحد يسارعون بتقديم المعونة والمؤازرة للأفراد والأسر الذين يتعرضون لمواقف وأزمات إنسانية (حادث، حريق)، هذه السلوكيات يتدرب عليها الفرد ويتعلمها من خلال الملاحظة والتقليد، ولكنها أيضاً تتأثر بالتقاليد الاجتماعية والأعراف Social Norm السائدة في المجتمع، لذلك فإن سلوك الفرد تجاه المجتمع الذي يعيش سوف تؤثر بالضرورة في مستوى التقارب والارتباط والتفاعل مع المجتمع، فنجد على سبيل المثال أن الفرد الذي لا يُظهر الود والتعاطف لأفراد الحي والجيران سوف يفشل في تحقيق درجة معينة من الارتباط ومن ثم قد يؤدي ذلك إلى تعرضه للعزلة والرفض الاجتماعي، إلا أن الأفراد الذين يتسم سلوكهم بالتقارب مع أفراد الحي من خلال المشاركة في أنشطة المجتمع أو تقديم الخدمات المباشرة أو التطوع بالمشاركة في مشروعات الخدمة العامة لتنمية وتطوير المجتمع فإنهم سوف ينعمون بتقبل المجتمع لهم ويشعرون بأنهم جزء أساسي منه.

وتهتم المجتمعات والمحليات بتشجيع الأفراد على انتهاج سلوكيات التعاون والخدمة العامة فيظهر ذلك في مشاركة الأفراد في مشروعات محلية مثل محو الأمية ومشروعات تطوير المجتمع من خلال الانضمام للجمعيات الخيرية والاجتماعية، ويقوم المجتمع بتقدير جهود هؤلاء الأفراد ومنحهم الجوائز وشهادات التقدير لما يقدموه من جهود، وبذلك فإن المجتمع يسعى بهذه الطريقة إلى تأكيد أنواع معينة من السلوكيات ويشجع الأفراد على ممارستها والمشاركة فيها.

ولقد تعرضت المجتمعات العربية في الخمسين سنة الماضية إلى مجموعة من التحولات الاقتصادية والسياسية والتي تمثلت في توفير فرص التعليم وتنظيم المشروعات التنموية وتقديم الخدمات والرعاية وفرص العمل بشكل متوازن لكافة أفراد المجتمع، ولقد ساهمت هذه الجهود في تحقيق العدالة الاجتماعية ومبدأ إتاحة الفرص لكافة أفراد المجتمع، إلا إن التغيرات الاقتصادية والسياسية التي يشاهدها العالم في الوقت الحالي وما ترتب عليها من سياسات الاقتصاد الحر Open Market Economy والعولمة Globalization ساهمت في ظهور مجموعة من الاتجاهات والسلوكيات الجديدة التي صاحبت هذه التوجهات الاقتصادية مثل التنافس Competition والسعي لتحقيق المصلحة الشخصية والذاتية Self-Interest والنزعة تجاه الماديات وتملك الأجهزة ووسائل تحقيق الترفيه والاستمتاع.

وعلى الرغم من أن التغيرات الاقتصادية قد ساهمت بشكل عام في ارتفاع مستويات المعيشة لدي بعض الأفراد، إلا إنها على الجانب الآخر سببت بعض المشكــلات مثل البطــالة والتضخـــم Inflation والفتـــور في معدلات التنمية Recession، ومن هنا نجد أن العلماء والباحثين يؤكدون أن الضغوط Stress قد أصبحت من سمات العصر حيث يتعرض لها كثير من الأفراد إلى جانب عدم الشعور بالأمان على المستقبل. ولذلك نجد أن سلوكيات أفراد المرحلة المتوسطة تتأثر بحد كبير بهذه المفاهيم بحيث أن ردود أفعال الأفراد تبدو إما على هيئة بواعث أو كوسيلة من وسائل التكيف مع هذه التغيرات.

ويعـــايش الأفراد خلال هذه المرحلة مجموعة من التغيرات الجسمية والمعرفية والاجتماعـــية، فـــنجد على سبيل المثال أنهم يتعرضون لمظاهر الشيخوخة المبكرة وتدهـــور الحالة الصحية، ومن هنا كان توفر الرعاية والخدمات الصحية في المجتمع مـــن أهم الأمور التي تساعد أفراد المجتمع على مواجهة هذه التغيرات، ذلك فضلاً عن الاستقرار النفسي والشعور بالأمن. وحيث أن الظروف الاقتصادية والسياسية تؤثـــر في شعور أفراد هذه المرحلة بالأمن والإحساس بالاستقرار فنجد على سبيل المـــثال أن أفـــراد هذه المرحلة ربما يتعرضون للأحداث والضغوط والتوترات مثل الحروب والأزمات التي قد تعرض بعضهم لمشكلات تحقيق الاستقرار الاجتماعي.

وبشكل أساسي فإن قدرة المجتمعات على التعامل مع التحديات التي فرضتها التغيرات الاقتصادية والاكتشافات التكنولوجية يساعد بشكل كبير على تدعيم قدرة أفراد هذه المرحلة على التكيف مع التغيرات المرتبطة بالعمل والوظيفة، حيث إن المجتمعات التي سعت نحو تطوير سياساتها وخططها عن طريق استخدام الأساليب العلمية في تطوير الأجهزة الإدارية والاعتماد على التخطيط والتقويم لسياساتها قد نجحت في مساعدة أفراد هذه المرحلة على التغير. فعلى سبيل المثال نجد أن دخول أجهزة الكمبيوتر في كافة مجالات العمل قد شكل تحدي لأفراد هذه المرحلة خلال الربع الأخير من القرن الماضي، ولكن بعض الحكومات قدمت فرص التدريب لأفراد هذه المرحلة حتى يستطيعوا اكتساب المهارات والخبرات ومن ثم تحقيق التحول اليسير Smooth Transition نحو استخدام التقنيات الحديثة والاحتفاظ بالعمل.

وتتعلق تحديات هذه المرحلة أيضاً بالظروف والتغيرات الديموجرافية التي يعاصرها أفراد هذه المرحلة، فنجد على سبيل المثال أن أفراد المرحلة المتوسطة من العمر يساهمون بجهود كبيرة في تحقيق أهدافهم الاجتماعية والعملية. فعلى الجانب الاجتماعي فإن أفراد هؤلاء المرحلة يعنوا برعاية أبنائهم في مرحلة المراهقة ومرحلة الشباب وما يتطلب ذلك من توفير الموارد المادية لإشباع الاحتياجات المعيشية من تعليم وتنمية للقدرات والمشاركة في الأنشطة الترفيهية. ويتولى الآباء خلال هذه المرحلة مسؤولية نقل القيم للأبناء ولكن ذلك قد يواجه تحديات التغيرات الثقافية والفكرية والبيئية التي تحدث على مستوى البيئة المحلية والعالمية. ومن هنا يتعرض الآباء لضغوط التفاعل الإيجابي والفعال مع الأبناء وكيفية معاونتهم على تحقيق أهدافهم، فنرى على سبيل المثال أن الأبناء قد يواجهون مشكلات البطالة، ومن هنا يتحمل الآباء جزءاً كبيراً من توفير التأييد والدعم النفسي والمادي للأبناء للتخفيف من تأثيرات الضغوط النفسية عليهم.

ولقد أظهرت الدراسات الديموغرافية أنه نظراً للزيادة في معدلات أعمار البشر فإن أعضاء المرحلة المتوسطة قد يواجهون عبء تقديم الرعاية والاهتمام بآبائهم عندما يصلون لمرحلة الشيخوخة وما يتضمنه ذلك من عبء وجهد جسمي ونفسي، حيث بينت الأبحاث أن أفراد هؤلاء المرحلة يتعاملوا مع كمية

مضـــاعفة مـــن المسؤوليات تتضمن العناية بالأبناء الذين يتعايشون مع مشكلات وأعباء صعبة بالإضافة إلى تقديم الرعاية للآباء والذي يأتي على هيئة الالتزام الأدبي والمعنوي ورد جزء من الخدمات التي قدمها الآباء للأبناء في الزمن الماضي.

الصراع الاجتماعي النفسي (الإنتاجية ضد الركود):

يـــتعرض الأفـــراد في مرحلة العمر المتوسطة (35 إلى 60 سنة) إلى نوع من الصراع النفسي يرتبط بالظروف الاجتماعية وتأثيرات البيئة وعواملها على حياقم. ووفقاً للنظرية الاجتماعية النفسية للنمو فإن أريكسون يرى أن هذا الصراع يرتبط بالضغوط الناتجة عن ضرورة استمرارية الحياة وتراكم أعبائها. فالفرد يحاول إشباع كل متطلبات الحياة والوصول إلى مستوى معين من الإنجاز في مجال العمل بالإضافة لمســـؤولية إقامــــة علاقات أسرية متوازنة ومواجهة مشكلات رعاية الأبناء في هذه المرحلة، ونجد أن فكرة الرعاية Care تمثل المحك الأساسي لهذه المرحلة حيث يقوم الأب بالاهـــتمام بشـــؤون وظيفته أو عمله لتوفير مصادر الدخل الكافية لمواجهة متطلـــبات الأسرة المادية والحياتية، أما الأم في هذه المرحلة فهي مسؤولة عن كافة أعباء الأسرة ومعاونة الأبناء على النمو ومتابعة مسؤولياقم الدراسية والعملية فضلاً عن رعاية الأبناء في أثناء فترة انتقالهم من البيت إلى حياقم الخاصة للزواج أو العمل أو لكليهما.

وعلى الطرف الآخر فإن الركود يمثل فشل الفرد في القيام بمهماته وتركيزه فقط على حياته الذاتية فيصبح غير مفيد للأفراد المحيطين به وبذلك يفقد ميزة النفعية والمساهمة في خلق واستمرار حياة الآخرين وتطويرها، ويرى "نيومان ونيومان" أن الأفراد الذين ينغمسون في الاهتمام بالذات قد يدركوا معنى الركود، فهم ينشغلون فقط باقتناء الأشياء المادية والممتلكات لذلك فهم منغلقون على مصالحهم فتنقطع فرص التفاعل البناء مع أفراد آخرين في المجتمع أو المساهمة في رقيه وحل مشكلاته. ومع نهاية هذه المرحلة يبدأ الفرد في تقييم إنجازاته خلال الفترة الماضية من العمر فيعدد مساهماته في المجال العملي وقدرته على أحداث تغيير في حياة الآخرين عن طريق الاستخدام الفعال للعلوم والمهارات التي تعلمها. وعلى نفس المستوى يراجع الفرد ما قدمه لأسرته من خدمات وما نتج عنه من تطور ونمو قدرات أبنائه بشكل إيجابي وبداية مساهمتهم في الحياة، لذلك فالفرد هنا يقرر وبصدق الجدوى من حياته وما قدمه لنفسه وللآخرين والبشرية.

ملخص الفصـــــل

تعرضنا في هذا الفصل لتأثير التغيرات الجسمية والنفسية والإدراكية/المعرفية على نمو وتطور سلوكيات الأفراد خلال المرحلة المتوسطة من العمر، ولقد قدمنا نماذج لبعض هذه التغيرات ومجموعة من الحقائق عن هذه التغيرات. وبشكل عام فإن المرحلة المتوسطة من العمر هي مرحلة الإنجاز والترقي في كل من الجوانب الاجتماعية والعملية. وتتميز هذه المرحلة بأن الفرد يستطيع أن يشاهد نتائج الجهود والطاقة التي بذلها طوال الفترة السابقة من العمر لتحقيق أهداف معينة ترتبط لتكوين الأسرة وتربية ورعاية الأبناء بالإضافة إلى تحقيق التقدم والترقي في مجال العمل.

لكن الضغوط التي تتعلق بهذه المرحلة لا ترتبط فقط بتغير الأدوار وتضخم الأعباء ولكنها أيضاً ترتبط بقيام أفراد المرحلة بالعناية والاهتمام بالأفراد الذين هم أقل خبرة ودراية بجوانب الحياة. فنجد الآباء دائما مطالبين بتقديم النصيحة وحل المشكلات التي يواجهها الأبناء، بالإضافة إلى تحمل أفراد هذه المرحلة لأعباء كبيرة على مستوى العمل تتعلق باتخاذ قرارات وتنفيذ سياسات أو إدارة نشاط اقتصادي يتطلب الخبرة والحنكة لأن ما يقومون بتأديته يؤثر في حياة كثير من الأفراد بشكل أو بآخر.

وقد يستمتع أفراد هذه المرحلة بالتجارب التي عايشوها والنجاحات التي حققوها فنجدهم يتفاخرون بأن أبناءهم قد تخرجوا من الجامعات وحصلوا على وظائف وحققوا الاستقلال الاجتماعي، وفي أحيان كثيرة يقدم المجتمع لأفراد هذه المرحلة نوعاً من التقدير على ما قدموه من إنجازات ومساهمات. وعلى كل فإن هذه المرحلة تمثل الركن الأساسي في معترك الحياة حيث إن نتيجة الجهود والخبرات والطاقة سوف تؤتي ثمارها خلال هذه الفترة من العمر.

حالة محمود سرايا

محمود سرايا عمره (57) عاماً أصيب بجلطة قلبية انتقل بنتيجتها إلى المستشفى ووضع في غرفة العناية المركزة لمدة (5) أيام حتى استطاع الأطباء إنقاذه وعلاجه، ثم انتقل إلى قسم العناية بأمراض القلب. تحدث محمود مع الأخصائي الاجتماعي عن حالته الصحية وتدهورها في الشهور المنصرمة نتيجة تعرضه لمجموعة من الصعوبات والضغوط خلال الفترة الماضية. تزوج محمود منذ (30) سنة ولديه ثلاثة أبناء عمر (28) سنة وأحمد (25) سنة وعلاء (18) سنة وابنتان هدى (21) سنة وثناء (16) سنة. قال محمود أن علاقته بزوجته وأبنائه متوترة نتيجة المشكلات التي يعانون منها في حياتهم الخاصة. فالابن الأكبر أنهى دراسته الجامعية وعمل كمحاسب في شركة استيراد وتصدير، ويرى الأب أن الابن أجبره على الموافقة على زواجه من زميلته في الدراسة ولكنه لم يكن مستعد مادياً للزواج مما حمل أباه مسؤوليات مساعدته في الإعداد للزواج، إلا أن الابن فقد وظيفته منذ ثلاثة أسابيع. أما الابن الثاني فلا زال يبحث عن عمل منذ أن تخرج من الجامعة وأنه يعاني من ظروف نفسية صعبة، أما الابنة الكبرى فتعمل ممرضة وكانت قد تمت خطبتها من أحد الأقارب الذي يعمل بأحد الدول العربية لكن حدثت خلافات ومشكلات أدت في النهاية إلى فسخ الخطبة فنتج عن ذلك تأثر الابنة الشديد، ولقد ذكر الأب أن الابن الأصغر علاء منغمس مع شلة من الأصدقاء ويتغيب عن المدرسة مما تسبب بفصله من المدرسة.

تحدث محمود سرايا عن متاعبه في العمل في الشركة التي يعمل فيها منذ (35) سنة حيث أنه بذل جهداً كبيراً منذ إنشاء الشركة ولكنه فوجئ قبل ستة أسابيع بتعيين الشركة لشخص يصغره كثيراً في وظيفته كمدير لشؤون العاملين والتدريب ولقد صدر القرار نتيجة احتياج الشركة لخبرات الشخص الجديد في الكمبيوتر، الشيء الذي لم يستطع محمود تعلمه ممّا أدى تحويله إلى وظيفة أقل من الناحية المعنوية. ولكن الشيء الذي أثر على محمود كثيراً هو أن زوجته قد ضاقت أخيراً من عصبيته وتحكمه وإهماله في شؤون البيت وبقائه على المقهى مع أصدقائه لساعات طويلة ولقد فوجئ محمود بطلب زوجته للطلاق بعد تفاقم المشكلات التي دامت بينهم لسنوات طويلة، ويتساءل محمود عن الملابسات التي حدثت وكيف أنه قد أفنى عمره في عمله وتربية أبنائه ورعايتهم ولكن حدوث هذه التغييرات والمشكلات قد جعله غير قادر على التعامل معها ومجاراتها.

الجوانب السلوكية والانفعالية المرتبطة بالحالة:

هناك نقاط أساسية تتعلق بالجوانب السلوكية والانفعالية في الحالة، وعند القيام بتنفيذ عملية التقدير فإن الأخصائي الاجتماعي يقوم بالتعرف على طبيعة سلوك العميل والعوامل التي تساهم في ظهور وتطور هذا السلوك، وتتعلق هذه العوامل بالجوانب الشخصية أوالبيئية أو كنتيجة للتفاعل بينهما:

العوامل الشخصية	العوامل البيئية	طبيعة التفاعل بينهما
* تفاعلات الأب مع الأبناء	* تمادية الأبناء على الأبناء	* التوتر والقلق نتيجة تحمل مسؤولية الأبناء
* الشعور بعدم التقدير من مكان العمل	* التغيرات في أنظمة العمل واستخدام التكنولوجيا الحديثة	*عدم قدرة العاملين القدماء على تطوير المهارات واستيعاب الأنظمة التكنولوجية
* الشعور بعدم الرضا عن التفاعل مع الزوجة	* الخلاف مع الزوجة	* الفروق بين توقعات العلاقات وقدرة التفاعل مع الزوجة وعمل الزوجان على تحقيقها
* الانشغال مع الأصدقاء	* استخدام التفاعل مع الأصدقاء كوسيلة لتخفيف الضغوط والترويح	* الانتماء لجماعة كوسيلة شخصية لتحقيق الدعم الذاتي

الأسئلة التطبيقية

- تحدث عن تأثير التغيرات الصحية والجسمية التي يتعرض لها الأفراد خلال المرحلة المتوسطة من العمر وتأثيرها على السلوك.
- هناك مناقشات عديدة عن أزمة منتصف العمر Mid-life Crisis، ناقش هذا المفهوم واعرض تصوراتك عن تأثير التغيرات التي تحدث في مجتمعك على شعور الأفراد بهذه الأزمة.
- ناقش مع زملائك السلوكيات المتوقعة من الأفراد في مكان العمل وداخل الأسرة وفقاً للتوقعات والتقاليد الاجتماعية السائدة في مجتمعك.
- ناقش مع زملائك كيفية استخدام المعلومات الخاصة بالجوانب السلوكية في الحالة السابقة في تحديد أهداف محددة لتغيير الأنماط السلوكية في الحالة.

الفصل الثامن

أنماط السلوك وبواعثها خلال المرحلة المتقدمة من العمر

Patterns of Behavior and its Motives during Late Adulthood Stage

مقدمـــــة:

يـــتأثر سلوك الأفراد في مرحلة الشيخوخة بالعوامل الشخصية التي تتضمن القدرات الجسمية والعقلية والمعرفية وأيضاً بالعوامل البيئية وما تتضمنه من اتجاهات وتوقعـــات المجتمع إلى جانب منظومات التقاليد والأعراف وتوجهات المجتمع نحو كـــبار الســـن بشكل عام. ولذلك فإنه من الضروري أن نتفهم معنى الشيخوخة ومدلولاتهـــا وطبـــيعة الأدوار التي يرسمها المجتمع للأفراد خلال هذه المرحلة. وعلى الرغم من أن الشيخوخة هي حالة فسيولوجية واجتماعية ونفسية بالدرجة الأولى، إلا أن هـــناك ارتـــباط وثـــيق بين رؤية الفرد لذاته، عندما يصل إلى هذه المرحلة، وقدرتـــه على ممارسة المهام والأنشطة التي تؤكد ارتباطه بالمجتمع كعضو قادر على المشاركة في تنميته المجتمع وتطويره، لذلك فإن مدى وعي المجتمع واستعداده لتوفير بـــرامج الدعم الاجتماعي والرعاية الصحية لأفراد هذه الفئة سوف يساعدهم على التكـــيف الفعال مع الظروف والتغيرات الشخصية والبيئية والاجتماعية التي عليهم أن يواجهوها.

الأهداف العامة Objectives:

مع نهاية دراسة هذا الفصل فإنه يتوقع أن يلم الدارس بالأمور التالية:

1. تفهم الحقائق العلمية المرتبطة بحالة الشيخوخة.

2. إدراك الجوانب السلوكية والانفعالية المرتبطة بالشيخوخة.

3. تفهم تصورات المجتمع والبيئة لمعنى وتأثير ذلك على سلوكيات كبار السن.

4. التعرف على بعض المصاعب والتحديات البيئية والمجتمعية وتأثيرها على الجوانب الانفعالية والسلوكية لكبار السن.

أولاً : مفهوم المرحلة المتقدمة من العمر (الشيخوخة)

لا زالت المرحلة المتقدمة من العمر تثير حيرة كثير من العلماء والباحثين وما يعنيه من وصول الكائن الحي إلى المرحلة النهائية من الحياة، وهناك مجموعة من المفاهيم ترتبط بهذه المرحلة والتي تعرف في كثير من الكتابات بالشيخوخة، فنجد أن مصطلح Senescence يعني الانحدار في الحياة وهو المفهوم السلبي الذي يشير إلى العجز والتدني المستمر في وظائف الجسم خلال هذه المرحلة حتى تصل إلى مرحلة التوقف الأخير. ولذلك فإن هذا المفهوم يعني تعرض الجسم الإنساني إلى مجموعة من الأمراض تجعله أكثر عرضة للتدهور والفناء عاماً بعد عام. إلا أن الشيخوخة، كاصطلاح يتعلق برؤية الفرد وتوقعاته الذاتية نحو مفاهيم العمر والحياة بشكل عام، لذلك فإن مفهوم الشيخوخة يختلف من فرد إلى آخر وفقاً للرؤية الذاتية سواء أكانت "إيجابية" أم "سلبية"، بالإضافة إلى توجهات المجتمع، والمعاني والقيم التي يعكسها عن طبيعة هذه المرحلة، وحكمه عن أفراد هذه المرحلة وأدوارهم في المجتمع.

ويهمنا هنا أن نتعرف على المعنى العلمي للشيخوخة حيث إن هناك أبحاثاً عديدة اهتمت بدراسة الشيخوخة كظاهرة طبيعية حتى يمكننا الإجابة عن الأسئلة التالية:

- لماذا تصبح الشيخوخة حالة عامة لكل الكائنات الحية؟
- لماذا تزداد مظاهرها وتأثيراتها مع زيادة العمر؟
- لماذا تسبب الفشل والتوقف لكل وظائف الجسم؟

هناك قائمتان لنظريات الشيخوخة يتعلق النوع الأول منها بنظريات الخلايا، أمـــا الـــنوع الآخـــر فيعرف بنظريات البرامج. وتركز نظريات الخلايا Cellular Theories على العمليات التي تحدث داخل وبين الخلايا والتي تؤدي إلى تحلل كل مـــن الخلايا والأنسجة والأجهزة الجسمية، وتعرف هذه العمليات بالبلى والتمزق Wear and Tear والـــتي تنـــتج عن تكرار الأخطاء عند تحول المواد الجينية نتيجة للسموم والملوثات وانتشار التأثيرات السلبية للخلايا حيث تؤثر جميع هذه العوامل في إعـــادة إنـــتاج الخلية، ونتيجة للعمليات الطبيعية الناتجة عن تكرار وإعادة إنتاج الخلايـــا فـــإن الـــبعض من الخلايا الجديدة سوف يحمل داخله أخطاء ومشكلات جينية. وتزداد عند كبار السن عدد الخلايا ذات الأخطاء الجينية مما يؤدي إلى فشل الخليـــة وتحطمهـــا ونهايتها فتتوقـــف أجهـــزة الجسم (Seifert, Hoffnung, & Hoffnung, 1997).

أمـــا عـــن نظـــرية البرامج فإنها تؤكد أن العمر يحدد مسبقاً بعدد الجينات الموجودة لدى كل كائن حي، ويـــرى العـــالم هافليـــك (Hayflick, 1994) أنه قـــد وجـــد عند فحص الخلايا الإنسانية في المعامل أنها تتجدد ويعاد تكرارها حتى نقطة معينة (حوالي 50 تكراراً) وذلك ما أسماه الحد الهايفليكي حيث ينتهي مخزون الخلايـــا بعـــد هذا العدد من التكرار. لذلك فإن الحياة عند كل كائن حي مرتبطة بالعدد المتوقع لعملية لتكرار الخلايا المكونة لجسمه.

وتوضح هاتان القائمتان من النظريات أن هناك عمليات مستمرة في تكوين وتكـــرار الخلـــية ولكنها تبدأ في الانحدار مع تقدم العمر ثم تنتهي مع نهاية الحياة. وتأخذ نقطة النهاية Break Down تحدث في أشكال مختلفة:

- زيادة عدد الأخطاء الجينية.
- عدم استقرار الجزيئات في الخلايا.
- انتهاء عمر الخلايا.
- تراكم الأخطاء الجينية والأيضية Metabolic.
- الانحدار في أنسجة الكولجين Collagen.

وأخـــيراً فإن أصحاب نظريات الخـــلايا Cellular Theories يرون ضرورة الاهـــتمام بتقليل الضغوط والتوترات التي تسبب الشيخوخة الثانوية فتستمر حياة الإنســـان لفترة أطول. بينما يذكرنا أنصار نظريات البرامج بأن الانحطاط المتزايد الذي يؤدي إلى الشيخوخة ربما يرجع لشيء آخر بعيداً عن تحكم الإنسان.

توقعات العمـــــر Life Expectancy:

على الرغم من الإيمان بأن العمر هو هبة من الله سبحانه وتعالى إلاّ أن هناك بعـــض السلوكيات والظروف البيئية والاجتماعية التي تسبب الإصابة بالأمراض ثم المـــوت المبكر نتيجة الحوادث وما إلى ذلك. ولقد أثبت الباحثون أن متوسط عمر الأفـــراد في الأزمنة الماضية كان يتراوح ما بين (20 – 30 سنة) إلا أن هناك أفراداً عاشوا حتى الثمانينات والتسعينات من العمر. وفي الأزمنة السابقة كانت معدلات وفـــيات الأطفال عالية وانتشرت المجاعات والأمراض والحروب التي سببت في وفاة الآلاف مـــن البشـــر، ولكن المتابعة الدقيقة للإحصائيات في العالم تثبت أن هناك ارتفاعـــاً في معـــدلات العمر في كافة البيئات والثقافات نتيجة التحسن المستمر في ظروف المعيشة وارتفاع معدلات التغذية والتقدم السريع في العلاج الطبي وأساليب الوقايـــة من الأمراض مثل التطعيم والاكتشاف المبكر للأمراض والوعي النسبي بين الأفراد بأساليب المعيشة الصحية Healthy Living Condition.

وبشـــكل عـــام فإن الإحصائيات قد بينت وجود فروق في متوسط أعمار الأفراد وفقاً لنوع وجنس الفرد، فنجد أن متوسط العمر يرتفع بين النساء بالمقارنة بـــالـــرجـــال، ويـــرجع (Zastrow & Kirst- Ashman, 1996) هذه الفروق في متوسطات العمر إلى أسباب بيولوجية وأسباب بيئية.

أما الأسباب البيئية فتتعلق باختلاف مستويات المقاومة بين الذكور والإناث في مـــرحلة المـــيلاد والـــتي ترجع لطبيعة التركيب الفسيولوجي للذكور والإناث واخـــتلاف قدراهم الجسمية على تحمل الأمراض ومقاومتها. ومن الأسباب البيئية نجـــد أن تعـــرض الذكـــور لـــلحوادث والقتل والانتحار يرجع إلى طبيعة المجتمع والظروف الاقتصادية ونوعية العلاقات الشخصية وقوهما والدعم الاجتماعي المتوفر لكبار السن. وهناك أسباب تعود إلى تعرض الذكور للإصابة بأمراض سرطان الرئة والقلـــب والأزمات التي تصيب الجهاز التنفسي بمعدلات أكبر من الإناث. ويرجع

الباحثون الاختلاف في معدلات الحياة بين الذكور والإناث إلى قدرات المرأة على التعبير عن مشاعرها بشكل أكبر من الرجال ذلك أن كبت الانفعالات والمشاعر عند الرجال قد يسبب الإصابة بالإحباط والاكتئاب والتوتر الأمر الذي يؤثر بشكل سلبي على التوازن النفسي والجسمي عندهم.

وحيث أننا نؤمن بأن العمر بيد الخالق جل وعز إلا أن الدراسات العلمية قد لخصت العوامل التي ترتبط بطول وقصر معدلات العمر فيما يلي:

جدول رقم (10)

العوامل المرتبطة بمعدلات العمر

طول معدلات العمر	قصر معدلات العمر
وصول الأجداد والآباء إلى عمر الـ 80 أو أكثر.	وفاة الآباء والأجداد مبكراً نتيجة الإصابة بأمراض معينة مثل السكتة القلبية.
الارتباط والزواج لفترات طويلة.	إصابة الآباء والأجداد بأمراض السكري واختلال الغدة الدرقية وسرطان الثدي وأمراض المعدة وأزمات الجهاز التنفسي.
المواظبة على التدريبات الرياضية (المشي – الجري)	عدم الزواج في معظم فترات البلوغ.
المحافظة على الوزن.	الوزن الزائد والإصابة بالمرض بشكل متكرر
الابتعاد عن التدخين وشرب الكحوليات.	عدم مزاولة التدريبات الرياضية بشكل مستمر.
الشعور بالرضاء والسعادة في الحياة.	مزاولة الأعمال المكتبية والجلوس لفترات طويلة.
الحصول على الدرجات العلمية الجامعية.	الانغماس في التدخين وشرب الكحوليات.

طول معدلات العمر	قصر معدلات العمر
المعيشة في مجتمعات هادئة مثل الريف.	الانغماس في السلوكيات والمشاعر العدوانية والعصبية والتنافسية وعدم القدرة على التفاعل مع الضغوط والتوترات.
المداومة على الفحص الطبي بشكل دوري.	الإحساس بعدم السعادة والقلق والشعور بالذنب.
التعامل مع الضغوط والتوترات والتخلص منها.	المعيشة في المدن المزدحمة ذات المعدلات المرتفعة في التلوث.

ثانياً : الوظائف الجسمية وتأثيرها على أنماط السلوك

نظراً لأن معظم نظريات الشيخوخة تؤكد أن أحداث وتأثيرات حالة الشيخوخة تبدأ مع بدايات نمو الإنسان، إلا أنها تظهر بشكل مضطرد وبمعدلات تختلف من فرد إلى آخر وفقاً لظروف بيولوجية وثقافية وبيئية، لذلك فهناك ضرورة للتعرف على أهم التغيرات التي تحدث للأجهزة الفسيولوجية للفرد وتأثيرها على تفاعلات وسلوكيات الفرد.

1- الهيكل العظمي والمفاصل Skeleton & Joints:

يصل الفرد إلى المستوى الأقصى للطول مع بدايات العشرينات من عمره ولا تحدث تغييرات كبيرة في حجم وكثافة وسمك العظام حتى يصل إلى مرحلة الشيخوخة، وعند هذه المرحلة ونظراً لبداية تآكل الدوائر والمواد الغضروفية بين فقرات العمود الفقري فإن نسبة معينة من الانكماش يمكن ملاحظتها في انحناءات الجسم وبالتالي انخفاض الطول. ونتيجة لبعض التغيرات والتفاعلات الكيماوية في خلايا العظام فإن ضعف العظام قد يسبب سهولة تعرض الفرد للكسور، وعلى نفس المنوال، فإن نتيجة لتآكل المواد الغضروفية والهلامية الموجودة بين المفاصل يشعر الفرد صعوبة في حركة المفاصل وبطء الحركة التي يصحبها بعض الآلام نتيجة تيبس هذه المناطق من الجسم، إلاّ أن استمرار الفرد في الحركة ومزاولة التدريبات

مـثل المشـي يؤدي في معظم الأحيان إلى انخفاض مستويات التصلب والتيبس في المفاصل.

أما عن درجات التوازن والحركة فإنها تتأثر بشكل مضطرد مع زيادة العمر. فقد يشعر الفرد في أثناء مرحلة الشيخوخة بصعوبات في التكيف الفسيولوجي مع البيـئة وتنخفض قدرته على الاعتماد على النفس وتأدية مجموعة من الوظائف مثل المشـي والحـركة بطريقة فعالة، وقد يعني ذلك أن الفرد يبدأ في الاعتماد إما على الأجهزة المعاونة للحركة أو على مساعدة الآخرين له لتأدية مهام معينة.

2- تغيرات البناء العضلي والجهاز العصبي

Muscular Structure & Nervous System

يبدأ الانخفاض التدريجي في قوة العضلات وسرعة انقباضاتها عند بلوغ الفرد الثلاثين من العمر. ولكن عند بلوغ الخمسينات تبدأ الألياف المكونة للعضلات في الانحسـار مما يسبب انخفاض حجم عضلات الجسم وكثافتها بشكل كبير. فعلى سبيل المثال يوضح (Santrock, 1995) أن قوة قبضة الفرد في سن الـ (75) سنة تمثل (55%) فقط من قوة انقباض اليد لفرد عمره (30) عاماً، ومن هنا تبدأ سرعة الـترددات العضـلية Reflexes تدريجـياً في الانخفـاض مع الوصول إلى مراحل الشيخوخة.

وعـلى نفس المنوال تتحول الأنسجة المرتبطة بجهاز الأعصاب إلى خلايا من الألياف، ومن هنا نلاحظ بطء الحركة الارتدادية لدى العجائز بشكل عام. وعلى الجانب الآخر فإن المخ يستمر في أدائه لوظائفه في أثناء هذه المرحلة على الرغم من احتمالـية التناقص في خلايا المخ إلاّ إذا حدث نوع من انسداد الأوعية التي توصل الـدم إلى المـخ الأمر الذي يسبب خللاً كبيراً في وظائفه، وقد تؤثر هذه التغيرات عـلى التوازن الحركي للفرد وربما تظهر أنماط سلوكية جديدة تتسم بالتبلد وعدم الاكتراث بالمظهر الشخصي وسرعة التهيج والحدة من الطباع.

3- جهاز التنفس والجهاز الهضمي Respiration & Digestive Systems:

أما عن التنفس فنجد أن معدلات الفرد الشهيق والزفير تطول فتراتها مما يؤثر عـلى فاعلية الأجهزة الأخرى وقدرة الفرد على أداء مهام عضلية وحركية لفترات

طويلة. فمع تقدم العمر نجد أن حجم الرئتين يبدأ في التناقص والانكماش مما يسبب نقـص كمـية الأوكسجين التي تدخل إلى الجهاز التنفسي، ويوضح (Santrock, 1995) أن المعدل الأقصى لكمية الأوكسجين التي يحصل عليها شخص في الخامسة والسـبعين مـن العمر تمثل حوالي (40%) من كمية الأوكسجين التي يحصل عليها شـخص في الثلاثين من العمر، ومع تناقص كميات الأوكسجين التي يحصل عليها المـتقدمون في العمر تتأثر بقية أجهزة الجسم وتقل قدرتها على أداء وظائفها بشكل طبـيعي، إلاّ أن التدريبات وتمرينات التنفس تساعد الفرد على زيادة كفاءة الرئتين والإقلال من معدلات انحسارهم بشكل كبير.

وبشـكل عـام فإن سرعة التغيرات الفسيولوجية التي تحدث تتأثر بالعوامل البيئـية مـثل المعيشـة في المدن المزدحمة وتلوث الهواء نتيجة الدخان المنبعث من المصـانع أو عـادم السـيارات المملوء بالأكاسيد، كذلك فإن الازدحام في المدن والضوضـاء الـناتج عـن استخدام الآت التنبيه يسرع وبشكل كبير في معدلات ومظاهر الشيخوخة نتيجة ارتفاع التوتر والقلق والضغوط العصبية والنفسية.

تتمـثل الـتغيرات في وظائف الجهاز الهضمي في تناقص كميات الأنزيمات وكمـيات اللعـاب الـتي تفـرزها الأمر الذي يؤثر على قدرات الجهاز الهضمي وعملـياته، ونجـد أن الشـكوى من تعثر الهضم ومشكلات الجهاز الهضمي مثل الإمسـاك هـي من أكثر الشكاوى لدى العجائز. ونظراً لأن المتقدمين في العمر يـتأثرون بشـكل كـبير بالتوتر النفسي والضغوط والاضطرابات الانفعالية.فإن مشكلات الجهاز الهضمي تكون مرتبطة بالمواقف النفسية والانفعالية التي يعيشونها أكثر من الكهولة في حدّ ذاتها، لذلك فإن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الاضطرابات التي يعـاني مـنها بعـض كبار السن وطبيعة التغير في سلوكياتهم حيث يلاحظ غير المتخصصـين أن كبار السن تتسم سلوكياتهم بالعصبية والانتقاد الشديد ورفض التفاعل مع الآخرين والتذمر والشكوى المستمرة.

4- تغيرات الدورة الدموية وجهاز القلب Heart and Blood Circulation:

تعتـبر أمراض القلب هي السبب الأول في الوفاة عند فئات العجائز وذلك لتأثر جهاز القلب والشرايين بالشيخوخة، ويعتقد (Kail & Cavanaugh, 1996) أن أجهـزة الجسم بشكل عام قادرة على الاستمرار والعمل حتى بلوغ الـ (150)

عامـــاً إلاّ أن جهاز القلب يعتبر من أضعف أجهزة الجسم التي لا تساعد الفرد على الاستمرار إلى هذا العمر، ويتأثر القلب بالشيخوخة من نواحي كثيرة منها:

- انكماش حجم مضخة القلب.
- زيادة نسب الدهون في القلب.
- تليف عضلات القلب وجفافها.
- زيادة الأصباغ البنية في خلايا القلب تتدخل مع قدرة القلب على امتصاص الأوكسجين.
- انخفـــاض مـــرونة صـــمامات القلـــب مع تأثرها بمعدلات الكوليسترول والكالسيوم المترسبة على جدران شرايين القلب.

ومـــع زيـــادة ضغط الدم ومعدلات ترسب الدهون في شرايين القلب فإن معـــدلات أداء القلب وقدراته على دفع الدم بكميات كافية إلى بقية أجهزة الجسم تـــبدأ في الـــتراجع في أثناء مرحلة الشيخوخة. وتعتبر أمراض القلب من الأمراض المزمـــنة التي تتطلب الرعاية الطبية المستمرة، ولكنها في نفس الوقت لها مدلولات نفسية حيث يشعر المسن بأن استمرارية الحياة وكفاءة الجسم أصبحت محدودة مما يحد من أنشطتهم ورغبتهم في التفاعِل أو القيام بالأنشطة الحركية خوفاً من تدهور الحالة الصحية والتعرض للمضاعفات، وقد يؤدي ذلك إلى رغبة بعض كبار السن في الانعـــزال عـــن الآخـــرين وتحديد مستويات التفاعل أو المشاركة في الأنشطة الاجتماعية.

5- القدرات الجنسية وسلوكيات كبار السن Sexual Drive and Behavior:

هـــناكْ اعـــتقاد خاطئ بأن الأفراد يفقدون قدراتهم الجنسية مع تقدمهم في العمـــر، وعلى الرغم من وجود أدلة لتناقص الاهتمام بالجنس والرغبة الجنسية عند العجائـــز (Hyde, 1994) إلاّ أن الأبحاث تؤكد استمرار عدد كبير من المتقدمين في العمـــر في ممارســـة الجمـــاع، فعلى سبيل المثال وجد (Brecher,1984) في أحد دراساته أن (65%) من النساء المتزوجات و(59%) من الرجال المتزوجين يمارسون الجماع في إطار العلاقات الزوجية إلى ما بعد السبعينات من العمر. وعلى كل فإن كـــبار السن الذين يتمتعون بصحة جيدة يستطيعون الاستمرار في ممارسة الجماع

طالما أن لديهم الرغبة في ممارسته. فنجد أن الأفراد الذين يمارسون الجماع بشكل منتظم في أثناء المراحل المتوسطة من العمر يكون لديهم الاستعداد للاستمرار في ممارسته في المراحل المتقدمة من العمر.

ويرى (Zastrow & Ashman, 1997) أن انخفاض الرغبة في ممارسة الجماع أثناء مرحلة الشيخوخة يرجع إلى عوامل اجتماعية أكثر من تأثره بالجوانب الفسيولوجية، لذلك فإن ظروف فقدان الزوج أو الزوجة أو تعرض أي منهما للإصابة بالأمراض بالإضافة للشعور بالاكتئاب والملل يسبب تناقص الرغبة في ممارسة الجماع. وهناك عن بعض الأفكار والظروف التي تؤثر في الرغبة الجنسية والاستعداد الفسيولوجي لممارسته مثل تدهور الصحة النفسية والجسمية، الخوف من الفشل في أداء الوظيفة الجنسية والاتجاهات السلبية لدى المرأة نتيجة سن اليأس Menopause، بالإضافة إلى اتجاهات المجتمع السلبية تجاه رغبة كبار السن في الزواج خلال الفترات المتأخرة من العمر. وهناك بعض الاعتقادات السلبية التي يؤمن بها بعض كبار السن مثل التأثير السلبي لممارسة الجماع على الصحة والخوف من الإصابة بالسكتة القلبية أو الصدمة الدماغية، إلاّ أن للجوانب النفسية دوراً كبيراً في تخوف العجائز من ممارسة الجماع مثل الإحساس بالقلق والاكتئاب والشعور بالذنب وذلك بالإضافة إلى عدم إيمان الصغار بحقوق كبار السن في ممارسة الجماع وقدرتهم على أدائه، وهناك جوانب اجتماعية لا تساعد كبار السن على ممارسة الجماع وتتمثل في تنظيم معيشة كبار السن سواء بقائهم مع الأبناء أو في دور المسنين مما لا يعطيهم الإحساس بالخصوصية لمزاولة الجماع.

ويضاف إلى ذلك ثقافة المجتمع وتقاليده ناحية الجوانب العاطفية والرومانسية المتعلقة بكبار السن. فقد تنتشر في بعض المجتمعات الاتجاهات السلبية تجاه زواج الأم بعد وفاة زوجها خاصة إذا ما اقترب عمرها من الخمسين، وهناك المعارضة الشديدة لزواج كبار السن بزوجات صغيرات والتندر بأنانية كبير السن ورغبته في إعادة شبابه، وقد أظهرت الدراسات أنه على الرغم من بطء وتناقص الرغبة في الجماع لدى الكبار إلاّ أنهم قادرون على ممارسته وأدائه بشكل طبيعي في معظم الأحيان.

وعلى الرغم من قدرة الجسم الطبيعية لتعويض بعض الفاقد في خلايا الجسم حتى المراحل المتأخرة من العمر إلا أن هناك تغييرات عديدة تحدث خلال هذه المرحلة منها:

- انحسار أعداد الخلايا الطبيعية.
- بطء القدرات الحركية للجسم نتيجة تغيرات في الجهاز العصبي.
- ظهور تجعيدات الجلد وفقدانه للمرونة والنضارة في منطقة الوجه والرقبة واليدان.
- فقدان جزء كبير من أنسجة العضلات الأمر الذي يؤثر على المجهود العضلي.
- فقدان كثافة وفاعلية عظام الجسم وتعرضها للهشاشة وما يسمى بمرض أوستيوبورسيس Osteoporosis.
- انكماش عضلات الرئتين وصغر حجمها مما يؤثر على فاعلية وكفاءة التنفس.
- انحسار حاسة النظر والتعرض لبعض أمراض العيون كاتراكت Cataract (الغمامة على العين) والجلوكوما Glaucoma (زيادة الضغط على بؤبؤة العين).
- تدهور حاسة السمع مع تعرض الرجال لهذه المشكلة بشكل أكبر من النساء.

وعلى الرغم من هذه التغيرات إلا أن أحد الدراسات (Walker, et al., 1988) أثبتت أن كبار السن يتفوقون عن بقية الأفراد في الأعمار الصغرى في إحساسهم بالمسؤولية تجاه صحتهم وقدرتهم على التعامل مع الضغوط واهتمامهم بالغذاء.

ويتعرض كبار السن لظهور الأمراض المزمنة التي لا تحدث بالضرورة نتيجة للعمر ولكن بسبب العوامل الفسيولوجية والبيئية التي تساعد على ظهور الشيخوخة في مرحلة عمرية معينة، ومن هذه الأمراض المزمنة التي يعيش بها الإنسان وتؤثر على قدرته على أداء وظائفه بشكل فعال نجد:

- أمراض القلب والجهاز الدوري.
- أمراض ضغط الدم.
- أمراض السرطان.
- التهاب المفاصل والروماتيزم.

موضوعات بحثية:

Lamb, V. (1997). Gender differences in correlates of disablement among the Elderly in Egypt. Social Science & Medicine, 45(1) 127-137.

تناقش هذه الدراسة العوامل التي تؤدي إلى وجود فروق في تعرض كبار السن من الإنـــاث والذكـــور للإصابة بالعجز الجسمي في جمهورية مصر العربية، حيث تستند هذه الدراسة إلى مسلمة أساسية أن الرجال والنساء يتعرضون لتجارب مختلفة في حياتهم العملية ويتولون أدواراً مختلفة في الأسرة بالإضافة إلى تعرضهم لأخطار صحية متباينة، ومن هنا فإن درجة تعرضهم للعجز الجسدي Disablement سوف تختلف، وقد طبقت الباحثة الدراسة على عينة من كبار السن في مصر باستخدام مجموعة من المتغيرات.

وتشـــير نـــتائج الدراسة إلى وجود فروق ذات دلالة بين كبار السن من الإناث والذكـــور، فعلى سبيل المثال نجد أن كبار السن من الذكور الذين قد توقفوا عن العمل، لأســـباب صـــحية أو نتيجة لظروف اقتصادية ترتبط بتوفر فرص العمل أو نتيجة لعوامل مرتبطة بالأسرة، يصبحون أكثر تعرضاً للعجز الجسدي عن كبار السن من الإناث، وعلى الرغم من وجود تأثير للأمية بين الذكور من كبار السن في تعرضهم للعجز الجسدي، فإن هذا العامل لم يؤثر في تعرض الإناث من كبار السن لهذا العجز. وبالنسبة لكبار السن من الإنـــاث وجـــدت الدراسة أن إنجابهم لعدد كبير من الأطفال، وقضاءهن لفترة طويلة من حياتهن في المناطق الفقيرة في الريف يزيد من فرص تعرضهن للعجز الجسدي، وبشكل عام وجدت الدراسة أن تعرض كبار السن للمشكلات الصحية في الماضي يزيد من عدم قدرتهم على أداء الوظائف اليومية Activities of daily living (ADL) خاصة بين الرجال.

ثالثاً: تأثير الوظائف العقلية على السلوك

أكدت معظم الأبحاث أنه ليس هناك علاقة ارتباطية بين زيادة سنوات العمر وبـــين انحســـار الوظائف العقلية والإدراكية. وهناك فروق كثيرة بين كبار السن ومعـــدلات تعرضهم لانحسار أو تطور وازدهار القدرات العقلية، حيث ترجع هذه الفـــروق لـــتأثير الظروف الحياتية التي يعيشها الفرد وطبيعة الأنشطة التي يمارسها

ومدى تأثيرها في استمالة وتحفز النشاط الإدراكي/المعرفي ، وهناك بعض التطورات التي تحدث لأعضاء هذه المرحلة في القدرات الإدراكية/المعرفية منها:

1 - زيــادة مستوى النضج العقلي والمعرفي الذي يؤدي للوصول إلى الحكمة التي تعــرف بالخبرات المعرفية والحكم السليم في هذه المرحلة نتيجة تراكم الخبرات والمعارف والوصول إلى الثقة والإيمان بالذات.

2 - عملــيات التذكر والتي قد تتعرض لبعض المشكلات في استدعاء المعلومات أو تذكــرها في أثــناء المــراحل المتأخرة من العمر، إلاّ أن هناك أنشطة وتدريبات معرفية تساعد على تنشيط عمليات التذكر والاحتفاظ بها بشكل جيد.

3 - تأثير أمراض الأوعية الدموية على ظهور حالات العته Dementia بين (10%-20%) مــن حالات الإصابات بأمراض المخ العضوية. فعلى سبيل المثال نجد أن انسداد الشرايين التي توصل الدم إلى المخ يمنع وصول الأوكسجين والغذاء إليه ممّا يعــيقه في أداء وظائفــه المــتعددة، الأمــر الذي تبدأ معه حدوث مجموعة من الصــدمات الدماغــية البسيطة والتي قد لا يتم ملاحظتها لتشابه أعراضها مع أعراض أخرى مثل الصداع والدوخة وتشوش الذاكرة.

4 - تظهــر في بعــض حــالات الشــيخوخة نوع من العته يسمى "العته الخرفي Alzheimer's Disease" والــذي يصيب حوالي (11%) من كبار السن فوق (65) مــن العمر، وينتج عن هذا المرض انحسار حواس وظائف المخ مثل التعلم والتذكر والحكم نتيجة انخفاض أعداد خلايا المخ.

وبشــكل عام نجد أن الاعتقاد باضمحلال القدرات الإدراكية/المعرفية عند العجائز يعتبر اعتقاداً خاطئاً حيث إن معظم هذه القدرات تستمر في العمل بشكل ملائــم حــتى ســنوات متأخرة من العمر، ولكن الملاحظة تؤكد أن العجائز ربما يحصلون على معدلات أقل في اختبارات الذكاء عن الأفراد صغار السن وقد يرجع ذلك كما ذكر (Papalia, 1995) إلى الفرق ما بين القدرة والأداء، فعلى الرغم من أن القــدرات العقلــية لدى العجائز وكبار السن تظل في معدلات مرتفعة إلاّ أن قدراتهــم على الأداء الإدراكي/المعرفي تبدأ في الانحسار نتيجة لاضمحلال حواس السمع والبصر والقدرة على التوافق العضلي والعصبي والإدراكي. فعلى سبيل المثال

يظـــل كبار السن قادرين على قيادة السيارات بكفاءة عالية، ولكن نتيجة لضعف البصر فإنهم يفضلون القيادة بسرعات أقل مع التركيز على الالتزام بتعليمات القيادة بالمقارنـــة بصغار السن والشباب المولعين بالقيادة السريعة وعدم الانتباه لتعليمات وإرشـــادات المرور. لذلك فإن حوادث السيارات التي تحدث لكبار السن تكون في معظـــم الأحـــيان نتيجة لخطأ الغير أو لقلة الإرشادات على الطريق وأحياناً لعدم وضوحها وصعوبة فهمها.

وعلى نفس المنوال فإن استمرار المتابعة للأنشطة الفكرية والمعرفية لدى كبار الســـن يحافظ على بقاء القدرات العقلية بشكل فعال ومتوازن حتى مرحلة متأخرة من العمر، ويشابه ذلك استمرار الفرد في الأنشطة الجسمـــية وتأثيره على الحفاظ على الوظائف الجسمانية بشكل فعال. لذلك نرى أن التدريبات العقلية مثل القراءة والكتابة والتدريبات العقلية التي يقوم بها كبار السن مثل التذكر والتحليل والابتكار والاستنباط تساعد على استمرار القدرات الإدراكية/ المعرفية بشكل فعال، وهناك حـــالات لكـــبار الســـن الذيـــن استطاعوا أن يبدعوا ويساهموا في الحياة الفكرية للمجتمعات حتى مراحل متأخرة من العمر.

رابعاً : الجوانب الاجتماعية والنفسية وسلوك كبار السن

تتأثر الجوانب الاجتماعية والنفسية بمجموعة التغيرات التي يعاصرها الفرد في أثناء مرحلة الشيخوخة والتي ترتبط بالحالة الشخصية للفرد، ومستويات التفاعل مع أنساق المجتمع، والأحداث والظروف التي يعايشها الفرد بالإضافة إلى تأثير مفاهيم وثقافة وخبراته المجتمع على الأفراد، وقد يؤدي تفاعل هذه العوامل إلى تعرض كبار الســـن لمجموعة من الانفعالات التي قد تؤثر بالضرورة على اتجاهاتهم وسلوكياتهم وقدراتهم على التكيف مع الظروف والأحداث بشكل عام ومنها:

الاكتئاب النفسي Depression:

يعتـــبر الاكتـــئاب مـــن أكثر المشكلات النفسية التي يواجهها كبار السن. وتتضـــمن أعراض الاكتئاب فقدان الشهية ونقص الوزن ومشكلات النوم والبلادة أو التهيج- فقدان الاهتمام بالأنشطة- الإحساس بفقدان القيمة- الشعور بالذنب- مشـــكلات الإدراك- التفكير في الانتحار. ونظراً لأن بعض هذه الأعراض ترتبط

بالشـــيخوخة لذلك فإن تشخيص الفرد بالاكتئاب قد لا يتم بشكل قاطع. ويرى (Newman & Newman, 1995) أن الاكتئاب يغير من أنماط الشخصية عند كبار الســـن فنرى الفرد الذي يعاني من الاكتئاب يشعر بالملل والسأم منسحباً من الحياة نازعاً إلى البطء في الاستجابة والتعبير.

ولقـــد وجـــدت الأبحاث أنه حوالي (4% -7%) من كبار السن يعانون من أعـــراض الاكتئاب التي تستدعي التدخل الطبي والعلاج الاجتماعي النفسي، إلا أن هـــذه النســـبة تتغير من مجتمع إلى آخر وفقاً للظروف والأحداث والقيم السائدة، فنجد أن المجتمعات الغربية تسود قيم الذاتية والاستقلالية ومن ثم تضعف العلاقات الســـائدة ومســـتويات التأييد الاجتماعي والنفسي المتاحة لكبار السن فيشعرون بالعزلة، أما في المجتمعات الشرقية والعربية بشكل عام فإن نسيج العلاقات الأسرية وطبـــيعة التفاعل والارتباط بين أفراد الأسرة والحي والمجتمع الصغير تقلل من فرص تعرض كبار السن للإحساس بالعزلة والشعور بالإهمال.

التقاعد عن العمل Retirement:

يمـــثل التقاعد عن العمل مشكلة لبعض كبار السن خاصة إذا لم يتم الإعداد والتخطـــيط لـــه مما يؤدي إلى الشعور المفاجئ بالفراغ وتعرض بعض كبار السن لصـــعوبات التكيف مع ظروف الحياة اليومية. وعلى الجانب الآخر نجد أن بعض كبار السن ينتظرون بشغف هذه الفترة من أجل التفرغ لممارسة أنشطة أخرى مثل الـــتطوع والمشـــاركة في الأعمال الخيرية وخدمة المجتمع أو الانشغال في الأنشطة الثقافـــية والفنية مثل الرسم والتصوير أو الأنشطة الترويحية مثل الرحلات وما إلى ذلـــك. وقد يتعرض بعض كبار السن عند تقاعدهم عن العمل لبعض المشكلات نتيجة إحساسهم بالفراغ وعدم القدرة على التعامل مع الظروف الحياتية والبعد عن المسؤوليات وفقدان الواجهة الاجتماعية.

وعلى الرغم من أن مجموعة كبيرة من كبار السن تعاني من الفراغ والإحباط نتـــيجة عـــدم المشـــاركة في أي أنشـــطة، إلاّ أن هناك عدداً كبيراً من المتقاعدين يســـتعدون ويخططـــون لممارســـة أنشـــطة متنوعة تجلب لهم السعادة والإحساس بالانشغال مثل المشاركة في مشروعات الخدمة العامة ومحو الأمية أو العمل جزء من الوقت في أنشطة قريبة من مجالات التخصص. ويتدخل في ذلك عوامل كثيرة منها

كفاءة الفرد الصحية في هذه المرحلة وتمتعه بالطاقة والقدرة على الحركة، بالإضافة لتشجيع ورعاية المجتمع للأفراد بعد التقاعد عن طريق تنظيم أنشطة ومشروعات مخصصة وملائمة لاحتياجات أفراد هذه المرحلة. وهناك اتجاهات عديدة في بعض المجتمعات بضرورة الاستفادة من خبرات المتقاعدين العريضة وتجاربهم في مجالات كثيرة من الحياة، لذلك نجد أن بعض أصحاب الأعمال يتعمدوا تعيين كبار السن كمستشارين يرجعون إليهم ويستفيدوا من آرائهم التي تتميز بالشمولية والتأني وتتسم بالعمق في كثير من الأحيان.

تأثير الاستمرارية في الزواج والشعور بالوحدة العاطفية:

تُظهر الدراسات أن الأزواج الذين يبلغون سن الشيخوخة يتمتعون بسعادة وألفة وانسجام عاطفي وتقدير متبادل، حيث إن استمرار الزوجين معاً بعد تقاعد أحدهم أو كليهما يساعد على زيادة التكيف والاستمتاع بالمشاركة في أنشطة اجتماعية وأدوار مختلفة، وكلما اتسمت العلاقة الزوجية بالتفاهم والارتياح كلما ساعد ذلك على وجود نوع من التأييد المتبادل والاعتماد والمشاركة العاطفية والإنسانية بعد التقاعد.

يتمثل الدعم المتبادل في العلاقات الزوجية في رعاية الزوجة لزوجها إذا ما تعرض للمرض أو لأزمة صحية، وبالعكس، فنجد أن تعرض أحدهما للمرض بأحد الأمراض المزمنة مثل القلب والسكري وضغط الدم سوف يتطلب قيام الزوج أو الزوجة بتقديم الرعاية والمتابعة الصحية للآخر، وقد تسبب متابعة أحد الزوجين للآخر وتقديم الرعاية بشكل مستمر في احتمالية تعرض الراعي للضغوط النفسية التي تتمثل في الشعور بالإرهاق والإحساس بالضغوط. إلا أن سلوكيات الرعاية والدعم التبادل بين الزوجين من كبار السن سوف تعكس مفاهيم الدعم والتأييد النفسي والاجتماعي والذي ينتج عن تجاربهم العريضة في مواجهة الأزمات خلال مراحل الحياة واعتمادهم على الإمكانيات الذاتية لمواجهتها.

فقدان الزوج/ الزوجة (الترمل) Widowhood:

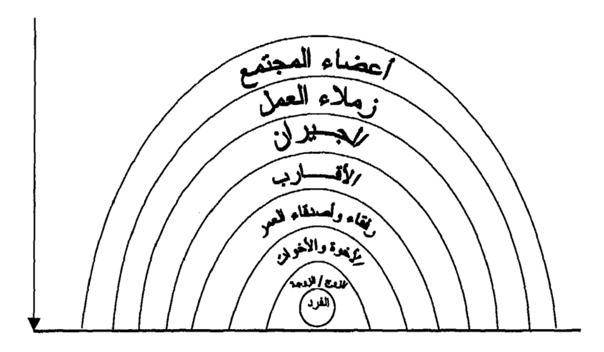
لقد وجد العلماء أن وفاة الزوج أو الزوجة يمثل عبئاً نفسياً كبيراً للآخر والشعور بفقدان الصحبة والتأييد النفسي والعاطفي، ولقد وجد العلماء أن تجربة

فقدان الزوج أو الزوجة تتأثر بعوامل مختلفة مثل الوضع الاقتصادي للأسرة وعمر الزوج/ الزوجة وقت الترمل، فإذا ما ترمل أحد الزوجين عند بداية مرحلة الشيخوخة فإن الزوج/ الزوجة سوف يشعر بالعبء والضغوط خاصة إذا ما نتج عن الترمل اضطراب في الجوانب المادية خاصة وأن معظم كبار السن يعتمدون على دخل محدود من المعاش أو عوائد البيوت أو الأراضي التي يمتلكونها.

وهناك مجموعة من الأبحاث قامت بدراسة ظاهرة زواج الأرمل أو الأرملة بعد فقدان الزوج أو الزوجة وقد وجدت هذه الأبحاث أن قرار الزواج في هذه الحالة يرجع إلى اتجاهات واختيارات الفرد والظروف والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع، وفي الغالب نرى أن استعداد الفرد الجسمي والمادي وظروف معيشته بمفرده أو مع أبنائه قد يعطيه الفرصة للتفكير في الزواج. وهناك عامل مهم يتمثل في تشجيع الأبناء لآبائهم وتأييدهم لقرارهم بالزواج والذي يعد عاملاً مهماً ورئيساً يشجع الزوج المترمل أو الزوجة المترملة على التفكير في الزواج.

شكل رقم (10)

محيط العلاقات الإنسانية ومداها



العلاقات مع الأصدقاء والأقارب:

تعـــد العلاقـــات الإنسانية مع الأهل والأصدقاء مهمة جداً في كل مراحل العمر، ولكنها تعتبر ضرورية ومؤثرة أثناء مرحلة الشيخوخة. فقد أثبت البحث أن التأيـــيد الاجتماعي Social Support يعتبر من أهم المؤثرات على الصحة النفسية في فـــترات العمـــر المتأخرة، ويتعلق مصطلح المرافقة الاجتماعية Social Convoy بالارتباطات الاجتماعية التي تتكون عبر رحلة الحياة، حيث يوضح هذا المفهوم أن بعض العلاقات الاجتماعية تكون مهمة عن الأخرى. فمثلاً نجد أن علاقة الزوج/ الزوجة بالآباء والأبناء تعد أكثر أهمية بالمقارنة بعلاقة الزملاء والأقارب والأصدقاء، بالإضافة إلى ذلك فإن العلاقات والارتباطات الاجتماعية تنمو عبر الوقت، وأخيراً فإن العلاقات الاجتماعية بشكل عام تتحدد بعوامل مختلفة ترتبط بالفرد نفسه مثل العمر والنوع والحالة العائلية وطبيعة العمل.

ويعكـــس الشكل رقم (10) مسار العلاقات الإنسانية ومداها خلال مرحلة الشـــيخوخة، حيث إن اتجاه السهم يعكس تقلص العلاقات خاصة عند بلوغ الفرد إلى ســـن التقاعد وانتقاله إلى سن المعاش. حيث يوضح (Newman & Newman 2003)عـــلى سبيل المثال ان علاقات الفرد بأفراد المجتمع تبدأ في الانحسار خاصة عـــندما تتكون هذه العلاقات في إطار العمل، حيث أن مجال العمل وأنشطته يعتبر كمصـــدر كـــبير من مصادر كثير من العلاقات في الفترة التي تسبق البلوغ لسن التقاعد، وبمعني آخر فإن التقاعد عن العمل سوف يؤدي بالضرورة إلى تقلص هذه العلاقات خاصة إذا لم ينشغل الفرد بأعمال أخرى تعوضه عن ذلك وتفتح له المجال لـــتكوين علاقات جديدة. وبشكل عام فإن الظروف الشخصية وتمتع الفرد بحالة صـــحية وعقلية جيدة قد يمنحه الفرصة للاستمرار في التفاعل مع أفراد المجتمع من الجـــيران والأصدقاء والأقارب، وتبدو علاقة كبار السن بالأصدقاء كنوع مهم من العلاقـــات حيث أنهم يشعرون بالولاء تجاه كل منهم الآخر لمشاركتهم لذكريات كـــثيرة وارتباطات طويلة وعشرة يغلبها الاعتزاز والمودة، ولكن علاقات الأصدقاء تـــتأثر بظـــروف الحياة والأحداث التي يعيشها كبار السن فنجد مثلاً أن الظروف الصحية والبعد الجغرافي عن مكان الأصدقاء قد يؤثرا في استمرارية العلاقة بالزملاء.

ونلاحظ أثناء هذه المرحلة أن العلاقات بالأخوة والأخوات تعود مرة أخرى لتصبح في غاية الأهمية، فقد ينشغل الفرد عن هذا النوع من العلاقات نتيجة للارتباطات الاجتماعية بأبنائه وزوجته، ولكن مع انصراف الأبناء لشؤونهم وزواجهم وخروجهم من المترل يعود الارتباط بالأخوة والأخوات لتصبح أكثر ترابطا، فعلى سبيل المثال نجد أنه مع نهايات المرحلة المتوسطة من العمر يبدأ الفرد الاتصال بأخوته لتنظيم رعاية الآباء في خلال شيخوختهم، لذلك فإن علاقة الأخوة والأخوات تصبح مهمة ومؤثرة وأكثر وثوقاً في أثناء الفترات المتأخرة من العمر لما يقدمونه لبعضهم من دعم عاطفي وتأييد ورعاية متبادلة.

أما عن علاقة الفرد بالأحفاد فتمثل نوعاً آخر من العلاقات الوثيقة والمهمة حيث إن الأحفاد في معظم الأحيان يقومون برعاية الأجداد لما يمثله ذلك من الارتباط العاطفي بالأجيال السابقة، وفي المقابل فإن الأحفاد يستمتعون بهذه العلاقة الخاصة ويتلقون الدعم من أجدادهم، وعلى الجانب الآخر يهتم كبار السن بأخبار وأنشطة أحفادهم كنوع من استمرار الارتباط بين الأجيال ولذلك فإن إنجازات الأحفاد ونجاحهم تمثل نوعاً من الاستمرارية والإنجاز لدى كبار السن فيشعرون بالسعادة والفخر بأحفادهم.

خامساً : الجوانب الروحية والدينية Spiritual Aspects

تمثل الجوانب الروحية والدينية بعداً مهماً لدى كبار السن فيحرص كثير منهم على أداء الشعائر الدينية بشكل منتظم. ويتمثل هذا الاهتمام في ارتياد المساجد بشكل دائم والمشاركة في أنشطة تطوعية واجتماعية ذات بعد ديني. ويساهم كبار السن في تعليم الأبناء القرآن الكريم ويقوم بعضهم بالمساهمة في تقديم الخدمات الصحية والتعليمية ورعاية الصغار والأيتام وما يشابه ذلك، إلاّ أن مستوى مشاركتهم في هذه الأنشطة يعتمد على ظروفهم الصحية وتمتعهم بالصحة النفسية والعقلية والاستقرار الاجتماعي. كل هذه الأنشطة والسلوكيات تعكس نوعاً من التوافق الإيجابي مع طبيعة هذه المرحلة العمرية، إلا أن هناك بعض المجتمعات التي تخطط للاستفادة من قدرات وخبرات كبار السن في المجال التعليمي والفكري، حيث نرى أن هناك برامج وأنشطة تمنح الفرصة لهم في تعليم الأطفال وتحفيظهم الدروس الدينية والمشاركة في أنشطة جمع التبرعات وتوزيعها على

الفقـــراء واليـــتامى ومـــا إلى ذلك، وبذلك تترجم الأفكار والمعتقدات إلى أعمال وأنشـــطة تساهم في خدمة المجتمع وتمنح كبار السن الشعور بالاستمرارية والقدرة على المساهمة في خدمة المجتمع وتوظيف خبراهم في أعمال نافعة ومفيدة.

سادساً : التوافق النفسي الاجتماعي مع متطلبات المرحلة

يقتـــرح (Peck 1968)، ثلاثـــة أساليب نفسية للتـــوافق النفسي تساعـــد كبار السن على التكيف مع ظروف هذه المرحلة العمرية والشعور بالرضا والامتنان هي:

1- التحول الناجح من الوظائف المهنية إلى التفرد الذاتي:

إن مجـــال العمل والوظيفة يعد من أهم الأنشطة التي يمارسها الفرد لسنوات طويلـــة تصل أحياناً إلى (60) سنة، فهناك احتمال التعرض لمشكلات نتيجة تغيير أنمـــاط الحـــياة بعد التقاعد الوظيفي، إلاّ أن سرعة تفهم الفرد للأدوار الجديدة في الحياة واكتشاف اهتمامات مختلفة تساعد على الوصول إلى التوافق الذاتي والنفسي. إلاّ أن بعـــض الأفـــراد الذين يشغلون مناصب كبيرة لها اتصالات وأنشطة متنوعة تتضـــمن مجموعـــات مـــن الأفراد والمتعاملين صعوبة عند التقاعد وانحسار دائرة العلاقـــات وتقلصها إلى التعامل مع عدد محدود من الأفراد، لذلك فإن وجود فترة انتقالـــية يســـتعد الفـــرد فيها قبل التقاعد ويتدرب على أسلوب وتوْقيتات الحياة الجديـــدة يســـاعد عـــلى التكـــيف ويقلل من فرص الصراع المبني على التناقض والمفارقات في العلاقات الشخصية وعمقها وإحساس الفرد بالفراغ وفقدان الاعتبار الذاتي.

2 – التعامل مع التغيرات الجسمية واضمحلال الصحة:

هـــناك أهمـــية كـــبيرة للكيفية التي يتعامل بها كبار السن مع التغيرات التي يتعرضـــون لهـــا في المظهر الخارجي والشكل العام. فقد يشعر بعضهم بالاكتئاب والحـــزن على تغير المظهر واختلاف القدرات الجسمية مثل البطء في السير وظهور التجعـــيدات مما يؤثر على قدرهم على التوافق النفسي في هذه المرحلة. فنجد على ســـبيل المثال أن الأفراد الذين يتقبلون تدهور الحالة الصحية والمرض، يتعاملون مع ذلـــك بشكل إيجابي يساعدهم على الاستمتاع بالحياة والرضا عن حياهم، إلاّ أن

هناك بعض الأفراد من كبار السن يسقطون فريسة للحزن والاكتئاب نتيجة لإصابتهم بأمراض معينة تمنعهم عن الاستمتاع بالحياة ومظاهرها.

3 – تقبل الحياة ونهاية المطاف:

إن الأفراد الذين ينظرون للموت وكأنه كارثة حتمية يقعون في دائرة الاكتئاب والحسرة الأمر الذي يجعلهم غير قادرين على التناغم مع بقية مظاهر الحياة، فبدلاً من تقبل الموت كحقيقة حتمية والعمل على تحقيق أهداف اجتماعية مثل رعاية الأبناء والتفكير فيما قد يتركه لهم من خبرات وموارد نجد أن بعضهم يقع فريسة للانغلاق الذاتي والاستسلام مما يؤدي إلى الشعور بالقنوط واليأس. وعلى الجانب الآخر نجد أن بعض كبار السن يرغبون في إسعاد الآخرين وتحقيق آمالهم بالمشاركة في أنشطة تطوعية ومجتمعية مثل رعاية الأيتام وتعليم الصغار ومساعدة الأبناء في تأدية أدوارهم حتى آخر دقيقة من العمر، ويتيح ذلك لهم فرصة الإحساس باستمرارية الحياة ودوامها حيث أنهم يفكرون في مصلحة الأحفاد ويسعدون بالتعامل معهم وزيارة الأهل والأصدقاء والسفر والاشتراك في الأنشطة الرياضية وأداء الشعائر الدينية الأمر الذي يعطيهم القدرة على التكيف والاستمتاع بمكنونات الحياة حتى نهاية العمر.

الصراع الاجتماعي النفسي التماسك – الضياع Integrity vs. Despair:

يمثل التماسك Integrity قدرة الفرد على قبول حياته واستعداده لمواجهة الموت بدون تخوف ولكن برضا وإيمان بالقضاء والقدر، لذلك فإن قيام الفرد خلال هذه المرحلة بمراجعة أحداث حياته وتقبله لكل إنجازاته وإحساسه بالرضا عن مساهماته وقيمة ما قدمه للآخرين والمجتمع تمثل الجانب الإيجابي من هذا الصراع، وعلى الجانب الآخر فإن عدم تقبل وعدم رضا الفرد عن ماضيه وشعوره بأنه قد أضاع عمره وأنه لم يحقق أهدافاً كان يجب أن يحققها يؤدي للإحساس بالضياع Despair، فيتذكر الفرد الأعمال التي كان يقوم بها ويفكر إذا ما كان يجب أن يؤديها بصورة مختلفة أو ينظر إلى علاقاته الشخصية بزوجته وأبنائه فيعتقد أن هذه العلاقات ربما كان من الأفضل أن تنمو بصورة مختلفة، كل ذلك يعطي الفرد الإحساس بعدم الرضا عن تطورات الحياة ويدفعه إلى الإحساس بالخسارة والضياع.

مراجعة الحياة Life Review:

في المــرحلة الأخـــيرة من العمر يقوم معظم الأفراد بتقييم رحلتهم في الحياة حيـــث يُقـــيم الفرد خبرته مع الحياة وتجاربه ويفكر في السنوات المتبقية منها إيماناً بحتمية الوفاة، لذلك فإن الأفراد الذين يرون في النهاية أن حياتهم بشكل عام كانت ذات قـــيمة وأنهـــم يقبلون كافة إنجازاتها يشعرون بالامتنان لما حققوه من أهداف ويـــتفهمون طبـــيعة الصـــراعات والـــتحديات التي ربما أثرت في تحقيقهم لبعض الأهــداف. وعلى كل فليس هناك فرصة للرجوع للوراء وتصحيح الأخطاء لذلك فإنـــه من المهم أن يتقبل التجربة ويتعايش مع نتائجها وإنجازاتها بأشكالها الإيجابية والسلبية. على أن الأفراد الذي يشعرون بالسعادة والامتنان لما حققوه من إنجازات وقدرتهـــم على إسعاد الآخرين وإحداث تغييرات كبيرة في الحياة هم أكثر الأفراد شـــعوراً بالامتـــنان والرضا عن تجاربهم مع الحياة، والعكس صحيح لهؤلاء الأفراد الذين يشعرون بعد تقييم تجاربهم أن كثيراً من أنشطتهم لم تحقق أي عائد للآخرين وأنها سببت بعض الآلام والمتاعب لأعضاء المجتمع هم الأفراد الذين يشعرون بضياع قـــيمة الحياة. ويحتاج هذا التقييم النهائي إلى الشجاعة والرؤيا الموضوعية والقدرة علـــى التحليـــل والاستنباط. ويـــرى (Haight, 1991) أن قـــدرة الفـــرد على اســـتدعاء الخبرات القديمة وتصورها وإعادة تنظيمها تساعد الفرد على التوصل إلى معنى الحياة وقيمتها بشكل فعال.

الرضا عن الحياة وتأثيره على السلوك Satisfaction with Life:

إن الرضـــا عـــن الحياة يمثل الامتنان لمجرياتها بشكل عام وتقبل الفرد لحياته وظروفه بشكل شخصي، ولقد أظهرت الأبحاث التي أجريت على مستويات الرضا عـــن الحـــياة عند كبار السن أن التمتع بصحة جيدة وتوفر قدر كاف من الدخل يساهم بشكل أساسي في ارتفاع مستويات الرضا عن الحياة (Santrock, 1995). إلاّ أن كـــبار السن الذين يتمتعون بعلاقات اجتماعية مستقرة وممتدة مع الأقارب والأبـــناء والأصـــدقاء يكونون أكثر امتناناً ورضا عن الحياة بالمقارنة بكبار السن المعزولين اجتماعياً، وبشكل عام فهناك مظاهر وسلوكيات تؤدي إلى الوصول إلى مســـتويات مـــرتفعة من الرضا عن الحياة مثل ممارسة الأنشطة الثقافية والرياضية

والانشـــغال في الحـــياة العامـــة والسفر إلى أماكن جديدة ومشاركة أعضاء الحي والمجتمع في أنشطتهم.

موضوعات بحثية:

Hamarat, E., Thompson, D., Steele, D., Matheny, K., & Simons, C. (2002). Age differences in coping resources and satisfaction with life among middle-aged, young-old, and oldest adults. J. of Genetic Psychology, 163(3) 360-368.

هـــناك اتجاهات سلبية شائعة في كثير من المجتمعات الغربية نحو مرحلة الشـــيخوخة تصـــف هذه الفترة من العمر بفقدان الكفاءة الجسدية، والعقلية، والاجتماعـــية، وهـــناك دراسات حول أفكار الغربيين تجاه كبار السن بأنهم يفقـــدون الوجاهة الشكلية والمهارات العقلية والذكاء فيصبحون عاطلين عن العمـــل ومعـــتمدين على غيرهم. وقد هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على كيفـــية التكـــيف بين عدد من المجموعات العمرية (المرحلة الوسطي — مرحلة الشـــيخوخة المـــبكرة والشيخوخة المتقدمة) في هذه المجتمعات ورضائهم عن المصـــادر المـــتاحة لهم وعن الحياة بشكل عام. وقد استخدم الباحثون مقياس التكـــيف مع ظروف الحياة Coping Resources Inventory والذي يتضمن اثني عشر نوع من التكيف.

أظهـــرت نتائج الدراسة عدم وجود أي فروق بين المجموعات العمرية الـــثلاثة فيما يتعلق بـــ 11 من الـــ 12 نوعاً من أنواع التكيف، وبشكل دقيق وجـــدت الدراســـة أن كبار السن الأصحاء يستطيعون أن يتكيفوا مع كافة جوانـــب الحياة بصورة مشابهة لبقية المجموعات العمرية، على الرغم من تعرض كبار السن لمستوى أعلى من الضغوط الحياتية، وأخيراً يرى الباحثون أن مرحلة الشيخوخة تتصف بالمثابرة والتحمل لصعوبات الحياة نتيجة اكتساب أفراد هذه المـــرحلة لـــتجارب كثيرة وعميقة في التعايش مع الظروف المختلفة ومواجهة الصعاب المتعددة Survival.

تأثير المؤسسات الرسمية على الجوانب الانفعالية والسلوكية لكبار السن:

تســـاهم مؤسسات المجتمع بشكل مباشر في التأثير على الجوانب الانفعالية والســـلوكية لكبار السن. وبشكل عام فإن كبار السن يكتسبون خبرات كبيرة من

التعامل مع المؤسسات الرسمية خلال حياتهم السابقة سواء من خلال تأثيرهم المباشر علـى هـذه المؤسسات أثناء مرحلة العمل وقبل تقاعدهم، أو كمتلقين للخدمات التي تقدمها هذه المؤسسات بعد التقاعد.

إن تجـربة الـتقاعد في حـد ذاتها، كما ذكرنا مسبقاً، تثير مجموعة من الانفعالات والمشاعر لدى كبار السن، فنجد أن الفرد عند بلوغه لسن معينة يصبح خـارج نطاق المؤسسة ويتحول إلى شخص غير مؤثر. وقد يشعر الفرد أثناء هذه الفـترة بـأن خبراته وإسهاماته الطويلة في بناء وتطوير المؤسسة قد أصبحت غير مطلوبـة بعـد سـن التقاعد، الأمر الذي يعطي كبير السن الانطباع بعدم النفعية والشعور بالضياع، لذلك نرى أن في بعض الدول يمنح كبار السن التكريم المناسب لجهودهـم ولكـن الأمـر الهام هو استمرارية التواصل بين الفرد ومؤسسته. وقد تـنعكس استمرارية التواصل في أشكال مختلفة منها إعطاء كبار السن من المُحالين إلى الـتقاعد الفرصـة للمشاركة الغير رسمية في بعض اللجان كخبير Expert أو كاستشـاري Consultant أو كمرشـد عـلمي أو فني أو كمحاضر في البرامج التدريبية التي تنظمها المؤسسة. ويعكس هذا التوجه اهتمام هذه المؤسسات بعملية التواصـل والاستفادة من الخبرات الكبيرة التي يكتسبها الأفراد أثناء فترات عملهم الطويلة.

وهـناك مؤسسـات تتـيح الفرصـة للمـتقاعدين للمشاركة في البرامج والمشـروعات من خلال الأنشطة التطوعية أو البرامج التي تتطلب منهم المشاركة كممـثلين للمجتمع الذي يعيشون فيها، حيث يقوم المتقاعد بالتعبير عن آراء أفراد المجـتمع في نـوع الخدمات التي تحتاجها المجتمعات، لكن من خلال فهمه ودرايته لطبيعة هذه الخدمات والأنظمة والعمليات التي تقدم بها هذه الأعمال. ويهمنا أن نوضـح ضـرورة وجود الفهم والوعي لدى أفراد المؤسسة والمسؤولين عن أهمية الاسـتفادة مـن كبار السن وخبراتهم وذلك في إطار من العلاقات الإنسانية التي تشجع كبار السن على الإحساس بقيمة مساهماتهم للمؤسسة وللمجتمع وبأنهم ما زالوا يمثلون جزءاً أساسياً من المؤسسة.

أما عن تعامل كبار السن مع مؤسسات المجتمع كمستفيدين فنجد أن كبار السن بشكل عام يحتاجون إلى خدمات كثيرة من المؤسسات الرسمية مثل العيادات

الصـــحية والمستشـــفيات ومكاتـــب الضـــمان الاجتماعي ودور المسنين والبنوك والمصـــارف ومؤسسات الرعاية الاجتماعية، وقد يعاني كبار السن من عدم قدرة بعـــض المؤسســـات عـــلى تفهـــم احتـــياجاتهم ونقص الوعي بالجوانب النفسية والاجتماعـــية المرتـــبطة بعملية التقاعد. فنجد على سبيل المثال أن بعض الموظفين الذيـــن يـــتعاملون مـــع كـــبار السن ونتيجة لقلة الفهم يتعاملون معهم من واقع الإنطـــباعات الشـــائعة Stereotype في المجتمع عن كبار السن والتي ينقصها الفهم وتســـتند في غالبية الأحيان على حقائق خاطئة يسودها التعميم Generalization، فـــنجد على سبيل المثال أن أحد الموظفين قد يعتقد أن جميع كبار السن يعانون من صـــعوبات في السمع فتجده يرفع صوته عندما يتحدث مع أحدهم. ويسبب هذا النوع من التفاعل في شعور كبار السن بالإحباط وعدم الاحترام أو التقدير لحياتهم وتجـــاربهم وقدراتهـــم العقلية، لذلك فإن هناك ضرورة للمؤسسات التي تتعامل مع كبار السن أن تراجع أساليب التعامل معهم وأن توفر المعلومات الكافية عن طبيعة المرحلة والتحديات التي تواجه هذه الفئة من الأفراد.

البيئة الاجتماعيـــة على مرحلة الشيخوخة:

لقـــد حدثت تغيرات كثيرة في العالم الذي نعيش فيه أثرت وبدرجة كبيرة عـــلى القـــيم والاتجاهات السائدة نحو كبار السن ومكانتهم ودورهم في المجتمع. وبشـــكل أساســـي فلقد ساعد ارتفاع مستويات المعيشة في كثير من بلدان العالم وانتشـــار التعليم وظهور برامج الرعاية الاجتماعية وانتشار مظاهر التقدم في العلوم الطبية والرعاية الصحية على زيادة معدلات العمر بين الناس، إلا أن زيادة الضغوط النفســـية والتوترات والسرعة التي تسير بها الحياة قد ساهمت بشكل أو بآخر في قلة الإحســـاس بـــالأمن وتفكـــك الروابط والعلاقات والدعم الاجتماعي بين أفراد المجتمعات الحديثة.

ولـــيس أدل على ذلك من ظهور وانتشار دور المسنين في المجتمعات الغربية وبعض المجتمعات العربية، حيث ينتقل إليها مجموعة من المسنين ليعيشوا فيها الفترة المتبقـــية من أعمارهم. وعلى كل فإن النظرة إلى المسنين ودورهم في المجتمع ترتبط بشـــكل كبير بنوعية المجتمع والثقافة والتقاليد الغالبة فيه، ففي كثير من المجتمعات العربية لا زال أفراد المجتمع يرون في كبار السن الخبرة والتجربة والقدرة على تحليل

الأمــور وفهمها بشكل عميق. ويعيش كثير من أصحاب هذه المرحلة بين أهلهم يتمتعون بالاحترام والتقدير حيث يتنافس الأبناء في تقديم الرعاية والدعم لهم.

وعلى الرغم من اختلاف هذه الرؤية مع المجتمعات الغربية حيث يعاني كثير من كبار السن من العزلة الاجتماعية وتفكك الروابط بينهم وبين أفراد أسرهم، إلا أن العــامل الاقتصادي ومستوي دخل كبار السن (معاش أو عوائد) يؤثر بدرجة كبيرة في الاحتفاظ بقدرتهم على الاستمرار في الحياة وارتفاع مستويات الرضا عن الحياة والتكيف مع الظروف الحياتية المحيطة. ولكن مع تطور الحياة وانشغال الأبناء في كســب الــرزق وتأدية الأعمال والمهام الحياتية، بدأت بعض البلدان العربية في إنشاء دور المسنين حتى تمنحهم الفرصة للمعيشة المستقلة والحياة الكريمة وتوفر لهم الــرعاية الصحية والاجتماعية التي قد لا تكون متاحة لهم عندما تتعثر قدرة الأبناء والأهل على توفيرها لهم.

وعلى أية حال فإن أفراد هذه المرحلة يتعرضون بشكل أو بآخر للتدهور في قدراتهــم الصــحية وكفــاءة الحواس، الأمر الذي يؤدي إلى اعتمادهم بدرجة أو بأخرى على أفراد الأسرة أو الأقارب في الاستمرار في الحياة. لكن هناك الكثير من أفــراد هــذه المرحلة يستطيعون الاستمرار في أداء واجباتهم العملية لفترات طويلة ومتقدمة من العمر، فضلاً عن أن كثيراً من أفراد هذه المرحلة قد يحتفظون بحواسهم وقدراتهــم على المشاركة في الأنشطة الثقافية والعلمية والإبداعية فيصبحون جزءاً أساسيا في مشروعات وأنشطة متعددة في المجتمع.

ويجــدر بــنا أن نشــير إلى دور البيئة في مساعدة أفراد هذه المرحلة على الاســتمرار في تحقــيق أهدافهــم، فعــلى المســتوى المادي نجد أن هناك برامج ومشــروعات تخصص لتوفير الرعاية الصحية والتأهيلية لكبار السن، ذلك بالإضافة إلى الــتقدم في التكنولوجيا والاختراعات التي توفر الأجهزة المعاونة والمساعدة لهم على أداء أنشطتهم بشكل فعال، فنجد الآن الكراسي الكهربائية المتنقلة التي تعطى لكــبار الســن الفرصة للتنقل بسهولة من مكان إلى آخر بالإضافة لأجهزة السمع وأجهــزة التذكر وما إلى ذلك، وهناك مشروعات خاصة للرعاية الصحية المرافقة لكبار السن والتي تسعى إلى تيسير اعتمادهم على الذات في تأدية مهامهم.

ويواجه أفراد هذه المرحلة ظاهرة نقص التفاعل الاجتماعي مع أفراد المجتمع وتقلص العلاقات الشخصية، لكن التقاليد والأعراف والقيم السائدة في المجتمع تشكل نوع الدعم والتأييد الذي يتلقاه أفراد هذه المرحلة والذي يعوض بصورة أساسية هذا النقص، حيث تهتم بعض المجتمعات على تشجيع كبار السن على المشاركة في الأنشطة الاجتماعية والثقافية والدينية التي تمنحهم الفرصة للقاء أصدقائهم والتجمع والاشتراك في المناقشات واسترجاع الذكريات والتفاعل الإيجابي. وهناك بعض أفراد هذه المرحلة الذين يتمتعون بالرغبة في العطاء فينضمون إلى الجمعيات الأهلية وجمعيات خدمة المجتمع فيتطوعون بجهدهم ووقتهم لرعاية الآخرين، ونراهم أيضا يزورون المدارس ويتحدثون مع صغار السن عن تجاربهم الشخصية وخبراتهم الأمر الذي يساعد على انتقال القيم وتواصل الحوار بين الأجيال. ومن هنا كان للدعم والتأييد الذي توفره المجتمعات دور كبير في الاستفادة من خبرات كبار السن وجعلهم يشعرون بالامتنان والفخر على ما قدموه من جهود في سبيل تحقيق التقدم والتنمية للمجتمعات والحياة المعاصرة. وعلى العكس فإن نقص الخدمات والرعاية المقدمة لأفراد هذه المرحلة، وقلة الوعي لأهمية جعلهم يشعرون بأنهم جزء أساسي من المجتمع وقلة التفاعل معهم سوف يجعلهم عرضة لكثير من الضغوط النفسية والاجتماعية الأمر الذي يؤثر في قدراتهم على الاستمرارية في الحياة والشعور بعدم التقدير والعزلة الاجتماعية والنفسية.

ملخص الفصل

ناقشنا في هذا الفصل طبيعة السلوك الإنساني خلال المرحلة المتقدمة من العمر (الشيخوخة)، وقد ركزنا على تقديم المعلومات والأفكار حول طبيعة مرحلة الشيخوخة والجوانب الشخصية والبيئية المرتبطة بها والتي تؤثر بدرجة كبيرة على الجوانب الانفعالية والسلوكية لكبار السن. ولقد اعتمدنا بشكل أساسي على المناقشات والأبحاث العلمية من أجل تزويد القارئ بفكرة واضحة وصحيحة عن المتطلبات المرتبطة بمرحلة الشيخوخة. فعلى سبيل المثال ناقش الفصل التغيرات الجسمية التي يواجهها كبار السن وتأثيرها على التكيف مع ظروف الحياة، حيث عرضنا بإسهاب موضوعات تتعلق بالجوانب الاجتماعية لمرحلة الشيخوخة مثل

التقاعد وفقدان الزوج أو الزوجة والجوانب الروحية ومراجعة الحياة والرضا عن التجربة الذاتية، حيث أثبتت الأبحاث أهمية هذه الجوانب ومدى ارتباطها بهذه المرحلة، ولقد استهدفنا تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة والاتجاهات السلبية التي يعتقدها البعض حول مرحلة الشيخوخة ومن ثم يصبح القارئ قادراً على تصحيح مفاهيمه وتصوراته نحو هذه المرحلة الجوهرية والمهمة.

ولقد تعرضنا أيضاً لأهمية الدعم المجتمعي وتأثيره على قدرة كبار السن على الاستمرارية في الحياة والتعامل مع متطلباتها في هذه المرحلة. فعلى سبيل المثال أوضحت الأبحاث احتمالية تعرض كبار السن للضغوط النفسية والإحساس باليأس والاكتئاب والذي ينتج عن نقص التفاعل والإهمال لاحتياجاتهم فضلاً عن تقلص العلاقات الاجتماعية والتفاعل مع أفراد هذه المرحلة في بعض المجتمعات. ولقد وضحنا العوامل التي تؤثر في رؤيا وتوجهات أفراد المجتمع نحو كبار السن، والتي تتضمن تأثير التغيرات الحديثة في مجال التكنولوجيا وسيطرة الجوانب المادية على كافة مجالات الحياة، وسرعة التفاعل والاندفاع نحو المصالح وما قد يترتب عليه من تناقص الاهتمام بتقديم الدعم الاجتماعي والنفسي لأفراد هذه المرحلة. وعلى كل فإن تقدم المجتمعات الآن ورقيها يقاس بالجهود والبرامج التي تقدمها لأفراد هذه المرحلة والاتجاه نحو رعايتهم وإشعارهم بأنهم جزء أساسي من المجتمع.

حالة دراسية

حالة السيدة صفية الشريف

حولت إدارة دار المسنين السيدة صفية الشريف المقيمة بالدار منذ (3) شهور على الأخصائية الاجتماعية نهلة وصفي لمراجعة حالتها وتقديم المساعدة اللازمة لها، قامت الأخصائية بمراجعة ملف السيدة صفية ومقابلتها عدة مرات للتعرف على ظروفها الصحية والنفسية والاجتماعية. تعرضت السيدة صفية إلى حالة ضعف وهزال شديد في الأسبوع الماضي الأمر الذي تطلب نقلها إلى المستشفى تحت الرعاية والملاحظة ولكنها أعيدت إلى غرفتها بالدار وهي الآن تحت الملاحظة والرعاية الصحية المستمرة . والسيدة صفية عمرها (68) عاماً عملت في حقل التربية والتعليم حتى تقاعدت منذ ثمان سنوات كمديرة لمدرسة ثانوية. وكانت السيدة صفية تقيم بشقتها المكونة من أربع غرف والتي عاشت فيها مع أسرتها لمدة (40) سنة على أن توفي زوجها منذ (5) سنوات وخروج الأبناء بزواجهم وانتقالهم إلى العمل في بلدان أخرى.

شخّص الطبيب حالة الضعف العام والهزال التي تعاني منها الحالة نتيجة فقدان الشهية وامتناعها عن تناول الطعام، ويرجح الطبيب اصابتها بحالة اكتئاب نفسي نتيجة التغيرات الاجتماعية والظروف النفسية التي تعيشها الحالة، فمنذ عام وبعد إلحاح كبير تركت السيدة صفية شقتها لابنها الأوسط ليحولها إلى شركة استيراد وتصدير نظراً لمساحتها وموقعها في وسط المدينة. ونتيجة لذلك انتقلت السيدة صفية لتعيش مع أسرة ابنها في ضاحية بعيدة مع زوجته وأبنائه ولكنها لم ترتح للطريقة التي عاملتها بها زوجة الابن والتي تشعر بأن السيدة صفية تضيق عليها حريتها. ولقد حدث ذلك بعد شجار بين السيدة صفية وزوجة الابن لانتقادها لسلوكياتها في الخروج من البيت إلى النادي وتركها الأطفال مع الخادمات بدون رعاية. انتقلت بعد ذلك السيدة صفية لتعيش مع أختها التي يعيش معها ابنها الأكبر وكانت فترة استقرار لها ولكن عندما بدأ ابن أختها الاستعداد للزواج والإقامة مع والدته فكرت السيدة صفية في ترك المكان والبحث عن مكان آخر.

رفضت السيدة صفية دعوة ابنها الأكبر الذي يقيم في كندا للسفر والإقامة مع أسرته، ولكنها رضخت لاقتراح الابن الأوسط بنقلها إلى دار المسنين ولكنها لم تشعر بالتآلف أو التأقلم مع الظروف المعيشية بالدار. تتمتع السيدة صفية بصحة جيدة ولكن شعورها بالوحدة وعدم الاهتمام من الأبناء وفقدانها للخصوصية سبب انعزالها عن الآخرين في الدار مما أدى إلى فقدان شهيتها وامتناعها عن الطعام.

يتعامل الأخصائيون النفسيون والاجتماعيون في مجال رعاية المسنين مع أنواع مختلفة من الحالات حيث يكون تركيز العمل على مساعدة أفراد هذه الفئة على التكيف مع الظروف الاجتماعية والبيئية التي يواجهونها، بالإضافة إلى تقديم الخدمات المتنوعة التي تساعد في تخفيف حدة المشكلات التي يواجهونها. ولذلك فإنه من المهم أن يتفهم الأخصائي الاجتماعي طبيعة وأنماط السلوك السائدة في الحالة وبواعث هذا السلوك سواء بالتركيز على الجوانب الشخصية أو الظروف البيئية والمجتمعية أو بالتركيز على درجة التفاعل بين هذه العوامل ومدى تأثيرها على سلوك العميل. وبالنظر إلى الحالة السابقة يمكننا أن نوضح بعض النقاط الأساسية المتعلقة بسلوك العميلة "صفية الشريف".

أ – الأبعاد الشخصية	ب – الظــــروف البيئـــية والمجتمعية	مدى التفاعل بين أ و ب
* تدهور الحالة الصحية نتيجة فقدان الشهية	*انشغال الأبناء بتأدية أعمالهم ومواجهة صعوبات الحياة	*صعوبات الحياة وقلة الوقت الكافي لرعاية الأم
* فقـــدان القدرة على اتخاذ القــرارات تــتعلق بحــياتها الشخصية	*عــدم توفــر فرص العمل والحاجة الى توفير مكان لبدء مشروع	*اهــتمام الأبــناء بحــياتهم وعلاقتهم برعاية الأم
*رؤية الأم الانتقادية لسلوك زوجة الابن	*النــزعة الى استقلالية الأسر وفقدان الترابط بين الأجيال	*خـــلاف شخصي بين قيم الأم وزوجة الابن
*رغـــبة الأم في البقاء في دار المسنين	*رؤية وتقبل المجتمع لانتقال الآباء للمعيشة في دور المسنين	*اخـــتلاف آراء الأبناء حول كيفية رعاية الأم

أسئلة تطبيقية (المناقشة في جماعات)

1- ما مدى تأثير التغيرات الجسمية والادراكية على سلوك كبار السن.

2 - ما هي العوامل التي تؤثر في آراء المجتمع الذي تعيش فيه نحو القيمة الاجتماعية لكبار السن ودورهم في المجتمع.

3 - ما هي أهم الجوانب التي تؤثر على العلاقات بين كبار السن وأفراد الأسرة.

4 - ما هي وجهة النظر السائدة في مجتمعك نحو انتقال كبار السن للمعيشة في دور المسنين وكيف ترى تقبل أعضاء المجتمع لهذه الظاهرة الاجتماعية.

5 - تســاهم التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية التي تحدث في العالم الآن إلى ظهـــور أنماط جديدة للتفاعل مع كبار السن، ناقش هذه العبارة استناداً إلى المعلومات المتعلقة بحالة السيدة "صفية الشريف".

6 - لقـــد طلب منك أنت ومجموعتك تصميم برنامج تنشيطي لمجموعة من كبار الســـن الذين يترددون على أحد الأندية الاجتماعية، ما هي أهم المعلومات التي يمكن أن تستند عليها من هذا الفصل كإطار نظري في تصميم هذا البرنامج.

الفصل التاسع

البيئة الاجتماعية والمجتمع العربـــي
Social Environment in the Arabic Society

إن دراســـة الســـلوك الإنساني ومفاهيمه في إطار البيئة الاجتماعية تتطلب تفهماً واقعياً لطبيعة المجتمع العربي وتوجهاته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتأثره بالـــتغيرات السياســـية والبيئية التي يشهدها العالم كل يوم، ذلك بالإضافة إلى دور التقنية الحديثة في تغيير الوسائل والأساليب التي يمارس بها الإنسان حياته. وقد شهد المجتمع العربي في الآونة الأخيرة تجارب وخبرات الانفتاح على العالم وما ترتب على ذلك من التعرض لتأثير التيارات الثقافية الخارجية التي تسود العالم الآن، لذلك فإن الـــنظرة التحليلـــية لأبعـــاد السلوك الإنساني في المجتمع العربي يجب أن تقوم على الدراســـة الواعـــية لطبيعة البيئة الاجتماعية ومجموعة العوامل التي تؤثر في طبيعتها وأشكالها ونماذجها.

الأهداف العملية للفصل Chapter Objectives:

عند انتهاء القارئ من دراسة هذا الفصل فإنه من المتوقع أن يتعرف على:

1 – التحولات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي تعرضت لها المجتمعات العربية.

2 – طبيعة ونماذج البيئة في المجتمع العربي.

3 – تأثير التغيرات الحديثة في المجتمع العربي على أنماط السلوك الإنساني.

أولاً: طبيعة البيئة في المجتمع العربي

لقـــد عبرت كثير من الكتابات والدراسات عن المقومات الإنسانية السائدة في المجتمعات العربية والسمات المشتركة التي تربط بين الأفراد والأسر والمجتمعات، ولقـــد تضـــمنت هذه السمات المظاهر المتميزة التي تظهر في البيئة الجغرافية حيث

يعيش أكثر من مائتين وثمانين مليون فرد في منطقة محددة وواضحة تمتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي في إطار من الوحدة التاريخية التي جمعت بين الشعوب التي تعيش في هذه المنطقة برباط وثيق، حيث شاركت بدورها في تطور الإنسانية من خلال الإبداعات والحضارات والفنون والثقافات المتميزة. وعلى الرغم من أن المجتمعات العربية قد عاشت وتطورت عبر السنين تحت مسميات وتكتلات سياسية مختلفة إلا أن الخصائص الإنسانية المشتركة مثل وحدة اللغة والثقافة قد دعمت هذا النوع من الارتباط الإنساني والاجتماعي حيث لم تستطع الحدود السياسية أو التقسيمات الإدارية أن تفرق بين شعوب المنطقة عبر التاريخ، ولقد دعم هذا الارتباط الإنساني ظهور الديانات السماوية ووحدة التقاليد والعادات والفكر المشترك والذي ظهر بصورة واضحة على هيئة سلوك واتجاهات وقيم وتفاعلات أساسية تجمع بين الأفراد والشعوب العربية عبر السنوات والأجيال المتوالية.

ولقد عبَرت المجتمعات العربية مرحلة مهمة وخطيرة في النصف الثاني من القرن العشرين تمثلت في التحرر من الخضوع والتبعية التي فرضتها عليها قوى الاستعمار والهيمنة السياسية التي استمرت لسنوات طويلة، حيث استطاعت المجتمعات العربية الحصول على الاستقلال وتكوين كيانات سياسية مستقلة. ولكن الانتماء الإنساني الذي يجمع بين المجتمعات العربية قد تم ترجمته إلى المشاركة في أشكال من التجمعات والكيانات السياسية كوسيلة للتعبير عن الانتماء ووحدة الفكر والثقافة المشتركة مثل جامعة الدول العربية، ومنظمة الوحدة الإسلامية ومجلس التعاون الخليجي.

وفي إطار العمل على تحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية قامت معظم المجتمعات العربية بوضع خطط طموحة لتطوير البنية التحتية والتوسع في المشروعات الصناعية والزراعية ونشر التعليم وتطوير الخدمات الصحية والثقافية والاجتماعية تحقيقاً لمبادئ المساواة والمشاركة في الثروة وتدعيم فرص الحياة للإنسان العربي، وقد أدى هذا بشكل أو بآخر إلى ارتفاع مستويات المعيشة للأفراد والأسر والمجتمعات وانتشار الوعي وبناء الأجهزة الإدارية والمشروعات القومية اعتمادا على نقل التكنولوجيا من الدول المتطورة وإعداد الكفاءات المحلية وتنمية العناصر البشرية، وقد صاحب هذا الاتجاه الدعوة إلى تنمية الفكر والإبداع

الإنســاني للمواطن العربي، الانفتاح على المجتمعات المختلفة مع الحرص على تعميق الثقافة والتقاليد العربية الأساسية والأصيلة.

ثانياً: التحولات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات العربية

عــلى الــرغم من التشابه الكبير في الخصائص الطبيعية والبيئية والثقافية التي تجمــع ما بين المجتمعات العربية، إلا أن هناك بعض الخصائص المتفردة التي يتميز بها كل مجتمع كنتيجة للطبيعة الجغرافية، والخبرات الاقتصادية والسياسية التي عاصرها كــل مجــتمع، والتجربة التنموية التي عاشتها بعض المجتمعات العربية، ولذلك فإن التعرف على بعض من نماذج التفاعلات والخبرات الاجتماعية وطبيعة التغيرات التي حدثــت في بعــض المجتمعات العربية سوف يساعدنا على فهم طبيعة التفاعل بين المجــتمع والبيــئة وأنواع السلوكيات السائدة في المجتمع. ولقد تم اختيار نموذجين واضــحين يمكن استخدامهما كأمثلة لتأثير البيئة الاجتماعية والظروف والخبرات والتجارب المعيشية على السلوك الإنساني في كل من المجتمعات الخليجية والمجتمعات العربية التقدمية.

أ. بيئة المجتمعات العربية النامية (نموذج مصر):

على الرغم من اختلاف التجارب التنموية التي عايشتها كثير من المجتمعات العربــية، إلا أننا يمكننا أن نشكل نموذجاً آخر يجمع بين عدد من المجتمعات العربية حيــث يمكنــنا اعتــباره كنموذج مستقل مثل نموذج المجتمعات الخليجية، ويجمع النموذج الثاني بين المجتمعات التي حصلت على استقلالها في النصف الثاني من القرن العشــرين واتجهــت نحــو تحقيق برامج التنمية والتطوير في مجتمعاتها، إلا أن هذه المجــتمعات قــد واجهــت تحديات كثيرة تمثلت في الاستقرار السياسي والتجربة الحكمــية والصراعات الداخلية التي أثرت على توجهاتها وسعيها نحو تحقيق التنمية الاقتصــادية والاجتماعية، حيث يندرج تحت هذا النموذج كل من مصر وسوريا ولبنان والأردن والسودان والجزائر وتونس والمغرب.

وبشــكل عــام فلقد سارعت هذه المجتمعات بعد تشكيلها وخروجها من التبعــية السياسية وتحقيق الاستقلال من نفوذ الدول الغربية نحو تنفيذ المشروعات والــبرامج القومــية الطموحــة لتحقــيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتوفير

الاحتـــياجات الأساســـية للمواطنين والتي تمثلت في توفير التعليم والسكن والرعاية الصحية والخدمات الاجتماعية والتوسع في مجالات الصناعة والزراعة والاستثمارات الـــتجارية، وقد نتج عن ذلك زيادة ملحوظة في مستويات المعيشة وتحقيق نوع من الاســـتقرار الاجـــتماعي والمساواة بين أفراد المجتمع (بركات، 2000). إلا أن هذه المجتمعات قد تعرضت بشكل أو بآخر لمجموعة من التحديات التي أثرت في قدرتها عـــلى تحقـــيق أهدافها وطموحاتها، ومن هذه العوامل نجد الحروب والاضطرابات الداخلـــية والفساد السياسي وإغفال الكفاءات التنفيذية والإدارية لأهمية استخدام الحقائق العلمية في عمليات تخطيط وتنفيذ وتقويم البرامج والمشروعات، ولقد سبب ضـــعف الوازع الوطني والشفافية والسعي نحو تحقيق المكاسب الشخصية في بعض المجتمعات في فشل بعض المشروعات والبرامج وتواضع نتائجها، حيث يرى البعض أن كـــل هذه العوامل قد تلازمت مع مجموعة من الاتجاهات السياسية التي سادت خـــلال هذه الفترة والتي قللت من فرص المشاركة الشعبية الحقيقية والجادة لكافة أفـــراد المجـــتمع، الأمر الذي أدى إلى عدم توظيف جزء مهم من كفاءات المجتمع وخسارة جهودها في المشاركة في تحقيق التنمية.

لقـــد نتج عن كل هذه الظروف التي سادت في كثير من هذه المجتمعات إلى تنفـــيذ السياسات والمشروعات اعتمادا على النوايا الحسنة والاجتهادات في معزل من الموضوعية والعملية والعلمية، حيث أثبتت التقارير الآن، على الرغم من تحقيق هـــذه المجـــتمعات لـــتطورات كبيرة في تطوير البنية التحتية والتوسع في الخدمات الاجتماعية والإنسانية التي استفاد منها كثير من الأفراد، وجود مشكلات اقتصادية واجتماعـــية عميقة نتجت عن تراكمات السياسات الغير واضحة من ناحية المنهج والتنفـــيذ، ممـــا ســـبب تعـــرض الأفراد والأسر والمجتمعات للمشكلات، وظهور منظومات من القيم والسلوكيات السلبية التي أثرت بشكل أو بآخر في قدرة الأفراد عـــلى التكـــيف مـــع الواقع والشعور المستمر بالضغوط والقلق وعدم الأمن تجاه المستقبل.

نموذج للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات العربية (مصر):

ســـعت ثـــورة يولـــيو 1952 نحو تحقيق الاستقلال وسيادة المجتمع المصري وتحقـــيق المساواة بين كافة المواطنين من خلال التوزيع العادل للثروة ورفع مستوى

المعيشة للمواطن المصري، ونتج عن هذه التوجهات تحقيق تغيرات جذرية في نظام الحكم والهيكل الاجتماعي والسياسي للمجتمع المصري، ولقد واكب ذلك وضع مجموعة من الخطط والبرامج الطموحة لرفع مستويات المعيشة وإشباع الاحتياجات الأساسية للمواطن، ونتيجة لمثل هذه التوجهات فلقد بدأت نهضة اجتماعية تمثلت في بناء المدارس والمصانع وتوفير السكن للأسرة والأفراد، وتم الاهتمام بالرعاية الاجتماعية والصحية عن طريق بناء المستشفيات والبرامج الخدمية مثل الضمان الاجتماعي والمعاشات وما إلى ذلك، إلا أن التوجهات السياسية القائمة على الاتجاه نحو الاشتراكية وتأميم القطاع الخاص قد تم تنفيذها بناء على قرارات سياسية وبعيداً عن التفكير والتحليل العميق فتمت بصورة متسرعة لم يكن المجتمع مستعداً لها أو متفهماً لأبعادها ونتائجها.

هذا بالإضافة إلى مشكلات نقص الخبرة والكفاءة لدى كثير من المسئولين عن وضع وتنفيذ السياسات العامة وعجز الجهاز الإداري والتنفيذي في تطوير ذاته واستخدام التقنيات والمفاهيم الحديثة في الإدارة، مما أدى إلى مواجهة مشكلات كبيرة قللت من مستويات تحقيق الأهداف المرتبطة بالخطط التنموية الموضوعة، ونتيجة أيضاً لدخول مصر في عدد من الحروب والصراعات، الأمر الذي أثر وبشكل كبير على توفر الموارد اللازمة للصرف على خطط التنمية والمشروعات القومية مما سبب في ظهور المشكلات الاقتصادية والاجتماعية العميقة.

ولقد واكب هذه التغيرات في بيئة المجتمع المصري ظهور بعض المشكلات التي أثرت ولازالت تؤثر في تحقيق البرامج التنموية والأهداف الاجتماعية منها:

أ. الزيادة المطردة في السكان:

تعد مصر من الدول ذات المعدلات المرتفعة في الخصوبة حيث يتراوح معدل الخصوبة ما بين 2,8% إلى 3%، وأثر في هذا اتجاهات وثقافة المجتمع الريفي والتي تميل نحو زيادة أفراد الأسرة الواحدة والاعتماد على الأبناء في زراعة الأرض، بالإضافة إلى بعض القيم القديمة التي تربط ما بين الأسرة الكبيرة وما يعرف بالعزوة أو المكانة والقدرة الاجتماعية. وعندما اتجهت مصر إلى التصنيع، في الستينات من القرن الماضي قامت الحكومة في ذلك الوقت بتنفيذ برامج الدعم القائمة على

الرعاية الشاملة لأفراد المجتمع والتي تضمنت التعليم والعلاج المجاني وتوفير الإسكان والتوظـيف، فلم يكن غريباً أن يحصل العامل أو الموظف على إعانة شهرية قدرها جنيهان على كل طفل جديد يضاف إلى الأسرة.

كل هذه التوجهات لم تعتمد على التخطيط لسياسة سكانية فعالة تقوم على تحديد الموارد البشرية المطلوبة ومشاركة أفراد المجتمع في تحمل المسئولية، الأمر الذي شجع على نمو الاتجاه الاعتمادي بين أفراد المجتمع. وتشير الإحصائيات إلى أن عدد أفـراد المجتمع المصري قد تضاعف في أقل من 30 سنة، حيث كان تعداد مصر في منتصـف الستينات 27 مليون نسمة ولكنه بلغ أكثر من ستين مليون في منتصف التسـعينات، الأمـر الذي يهدد فرص المجتمع المصري وقدراته على تحقيق الخطط التـنموية. وتشير الإحصائيات الأخيرة أن المجتمع المصري يزيد حوالي 1,2 مليون نسـمة كل عام، مما تسبب في شعور الأجهزة التنفيذية بالخطر والدعوة إلى تنشيط بـرامج تنظيم الأسرة وتشجيع أفراد المجتمع على المشاركة فيها، ذلك بالإضافة إلى الاتجاه لرفع الدعم عن البضائع والسلع لترغم المواطنين على تحمل المسئولية وإعادة حساباتهم وتوجهاتهم نحو تكوين أسرة كبيرة.

ب. تأثير سياسة الانفتاح الاقتصادي على المجتمع:

لقـد أحدثـت التغيرات الاقتصادية التي شاهدها المجتمع المضري في الربع الأخـير مـن القـرن الماضي تأثيرات متعددة شملت الجوانب الاجتماعية والثقافية والسـلوكية للأفـراد والأسر والمجتمعات الصغيرة، فلقد جنحت مصر نحو سياسة الانفتـاح الاقتصـادي والاندفـاع نحـو فتح مجالات الاستثمار والتجارة على مصراعيها. ويوجه كثير من الاقتصاديين انتقادات مختلفة لهذه السياسة، حيث يرى "عـبد العـاطي" (1998) أن التخطيط لعملية الانفتاح الاقتصادي قد حدث في غـياب للفكـر الوطني المستنير، تحقيقاً لمصالح ذاتية خدمت في النهاية أقلية طفيلية فرضـت على المجتمع قيماً وممارسات اقتصادية فاسدة كان لها بالغ الأثر على قيم وأخلاقيات أفراد المجتمع من ناحية، وفشل خطط وبرامج التنمية القومية من ناحية أخـرى، هذا فضلاً عن أن التنمية الوهمية التي تحققت في هذه المرحلة قد أدت إلى زيادة توزيع الدخل سوءاً وعمقت الفوارق بين فئات المجتمع (ص. 131).

ويلخص "عبد العاطي" المخاطر التي وقع فيها المجتمع المصري كنتيجة لتطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادي في:

1 - وقوع الاقتصاد المصري في دائرة التخلف والتبعية للدول الرأسمالية الغربية.
2 - ازدياد حدة التفاوت الطبقي الناتج عن الفجوة الشاسعة في توزيع الدخول.
3 - غزو الثقافة الوطنية من قبل الثقافة الغربية، وظهور بعض الممارسات الاقتصادية الفاسدة.

ويضيف "عبد العاطي" أن سياسة الانفتاح الاقتصادي قد ساهمت في ظهور مشكلات تهريب ونهب رؤوس الأموال المحلية وحدوث عمليات نصب واحتيال على البنوك القومية ودخول عمالة أجنبية أدت إلى غرس قيم دخيلة على المجتمع في مقابل محاولة اقتلاع جذور بعض القيم الأخلاقية والعادات التقليدية التي تميز الشخصية المصرية ضمن مخطط يهدف إلى تفريغ المجتمع المصري من محتواه القيمي والمادي والبشري.

ويعاني المجتمع المصري الآن من مجموعة من المشكلات الاقتصادية التي تتمثل في ارتفاع أسعار المواد الأساسية، والتضخم والعجز في توفير الاعتمادات بالإضافة إلى مشكلة التعامل مع الديون الخارجية واستقرار العملة الوطنية، وهناك جهود كبيرة تبذل من أجل تحقيق الإصلاح الاقتصادي والدفع نحو التنمية، ومعالجة التراكمات التي نتجت عن السياسات الاقتصادية السابقة. ومن الخطوات التي اتخذتها الحكومة لتحقيق الإصلاح الاقتصادي نجد برامج خصخصة القطاع العام وبيع شركات الدولة التي تحقق خسائر، إلا أن برامج الإصلاح يجب أن تأخذ في الاعتبار أهمية التعامل مع بعض القيم والاتجاهات السلبية التي ظهرت وأثرت بشكل كبير على انخفاض معدلات الإنتاج. وعلى المستوى الأصغر يصارع الآن أفراد الطبقات الفقيرة والمتوسطة من أجل توفير الاحتياجات الأساسية وإشباع الاحتياجات الضرورية، بينما يمارس أفراد الطبقة الغنية والمتيسرة سلوكيات الإسراف والتبذير، ولقد سببت الفجوة بين طبقات المجتمع فيما يتعلق بالسلوكيات والقيم والاتجاهات في ظهور مشاعر الحقد الاجتماعي وتعميق الإحساس بعدم المساواة والهامشية لدى أفراد المجتمع الأمر الذي يسبب كثيراً من الصراعات والخلافات من ناحية الانتماء والتقارب بين طبقات المجتمع.

جـ. غياب التخطيط للتنمية البشرية ومشكلة البطالة:

أدى إغفال أهمية الدراسة والتخطيط إلى التركيز على التصنيع في فترة الستينات، الأمر الذي سبب الإهمال الشديد لمجالات أخرى مثل الزراعة، ونتيجة لذلك فلقد تم افتتاح المصانع لتستوعب الآلاف من العاملين ولكن معظم هذه الصناعات قد تركزت في المدن الرئيسة أو بالأحرى في نطاق الأراضي الزراعية، التي تم تحويل الكثير منها إلى مصانع ووحدات سكنية وخدمية، ولقد كان من الأجدر توزيع المصانع في أماكن متفرقة بعيدة عن المدن والأرض الزراعية لتخفيف تكدس السكان على المساحة الضيقة التي تبلغ 3% من مساحة مصر. ونتيجة للتركيز على الصناعة عانت برامج ومشروعات استصلاح وزراعة الأراضي الصحراوية من الإهمال، مما سبب اعتماد الحكومة المصرية على استيراد القمح من الدول الغربية، الأمر الذي أثر على استقلالية المجتمع وتحقيقه للكفاية الذاتية.

ولقد نتج أيضاً عن ضعف التخطيط في السياسة التعليمية إلى التركيز على التعليم العام وإهمال التعليم المهني وغياب التفكير في تحقيق استثمار القوى العاملة حيث إن الجامعات والمعاهد العليا الآن تخرج الآلاف من الخريجين الذين هم غير مؤهلين لسوق العمل الحالية واحتياجاتها، ولقد أثرت البطالة بشكل خطير على مستوي القرية المصرية والمجتمع المصري حيث تتمثل هذه المشكلة في تعطل فئة كبيرة من أبناء المجتمع عن المشاركة في العمل الأمر الذي يؤدي إلى فقدانٍ كبير في الإنتاج.

وتتمثل الآثار الاجتماعية للبطالة في تصدع القيم والعادات والتقاليد الأصيلة حيث أدت مشكلة البطالة إلى انتشار الخلافات الأسرية بين العائلات نتيجة السلوك الاجتماعي المخل للعاطلين، وقد يمتد هذا الخلل إلى البناء الداخلي للأسرة حيث أصبح العاطل مصدراً للمشاكل الاجتماعية داخل الأسرة من حيث الضغط على الأسرة وبخاصة في الجوانب الاقتصادية، مع أن الدخل العام للأسرة كلها منخفض مما يهدد العلاقة بين الأب والأم والأبناء، لذلك نجد أن مشكلة البطالة قد ساهمت في حدوث خلل في الوظيفة الاجتماعية للأسرة نتيجة لتغير أدوار والتزامات العاطلين ووجود الفراغ الذي ساهم بشكل أو بآخر في ظهور

سلوكيات انحرافية مثل الإدمان والتطرف والجريمة وخاصة السرقة والرشوة والمشاجرات والاعتداء الجسدي على النساء والفتيات.

التغيرات في منظومات القيم والسلوك في المجتمع:

لقد ساهمت التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي يعايشها المجتمع المصري الآن في حدوث انقسام كبير في أساليب التفكير والاتجاهات بين فئات المجتمع المصري، فبينما تشعر الغالبية من أفراد المجتمع، الذين يكونون الطبقة المتوسطة والفقيرة، بالضغوط الاقتصادية والصراع في توفير الاحتياجات الأساسية، ينعم أفراد الطبقة الغنية بتحقيق احتياجاقم والمغالاة في الإسراف والمظهرية والتمتع بامتلاك المنازل الفاخرة والأجهزة والأدوات المادية وكل أساليب المتعة من سفر ورحلات وما إلى ذلك، ومن هنا فإن هذه الاختلافات في مستويات المعيشة والدخول قد سببت في ظهور فروق أساسية في السلوك والقيم. فلقد نتج عن معاناة الطبقات الفقيرة والمتوسطة الزيادة المطردة في الإحساس بالإحباط والتوتر والضغوط وعدم الشعور بالأمان والثقة في المستقبل، ولقد أدت المتناقضات والفروق الكبيرة بين مستويات الدخول إلى ظهور قيم الفردية والمصلحية وعدم الانتماء للمجتمع والرغبة في تغيير الواقع، فنرى على سبيل المثال أن بعض أفراد الفئات الغنية ينظرون بالشك والارتياب لكل القوانين والأنظمة التي يضعها المجتمع مثل الضرائب وقيود المعاملات، وأن يحاول التخلص من هذه القيود عن طريق التحايل والتهرب وما إلى ذلك.

ونجد أن مثل هذه التغيرات الاقتصادية والاجتماعية قد أثرت في شعور أفراد المجتمع بالانتماء والرغبة في تفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وظهور قيم النفعية واللامبالاة، كل هذه التغيرات في منظومة القيم قد ظهرت على هيئة مجموعة من السلوكيات والاتجاهات التي يمكن تحديدها بالنسبة للمراحل العمرية المختلفة:

أ- النشء وصغار السن:

لا شك في أن الفروق الكبيرة بين مستويات الدخل في المجتمع المصري قد سببت في انقسام الأطفال إلى عالمين، حيث إن الأطفال من الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة أصبحوا ينتمون إلى أسر تكافح من أجل إشباع احتياجاقم الأساسية،

كمـــا أن هـــناك فئات من الأسر الفقيرة تواجه صعوبات حقيقية وخطيرة لتوفير المصادر الكافية لرعاية الأبناء، ولقد انعكس ذلك على عدم قدرة الأبناء على متابعة التعليم وبدأت ظاهرة التسرب من المدارس تنتشر، حيث بدا الأطفال يتوجهون إلى العمـــل في سن مبكرة والتدريب على حرف أو صناعات تتيح لهم كسب الدخل ومساعدة أسرهم. وفي حقيقة الأمر فإن كثير من الأسر التي تصارع من أجل البقاء قد وجدت أن التعليم أصبح مكلف حيث يحتاج الطفل إلى نفقات ومستلزمات من كراريس وأدوات، ثم الدروس الخصوصية التي أصبحت واقعاً صعباً تعاني منه كافة طبقات المجتمع.

وكنتـــيجة للضغوط الحياتية والمشكلات الاجتماعية الأخرى فلقد عجزت بعـــض الأسر الفقيرة عن توفير الرعاية للأبناء، الأمر الذي أدى إلى خروج هؤلاء الأبـــناء في سن صغيرة إلى الشارع لمزاولة الأعمال المتواضعة مثل تنظيف السيارات ومـــا إلى ذلك، ولقد تفاقمت المشكلة بتسول هؤلاء الأطفال وهروبهم من أسرهم وبقـــائهم في الشوارع وما عرف عن هذه الفئة بـــ "أطفال الشوارع"، وإن كان الخطـــأ في هذا المسمى هو في الرغبة في التخفيف من آثار المشكلة وهروب المجتمع بهيـــئاته الرسمية وغير الرسمية من مسئولية تشرد هؤلاء الأطفال في الشوارع، وإلقاء اللوم عليهم وإنهم يبقون في الشوارع بسبب رغبتهم الشخصية، حيث إن المصطلح الحقيقي الذي يجب أن يطلق على هؤلاء الأطفال هو "أطفال بلا مأوى".

أمـــا عـــن أطفال الطبقة المتوسطة فتصارع أسرهم من أجل توفير الحاجات الأساســـية لهـــم والمحافظـــة علـــيهم وتزويدهم بالتعليم للحصول على الشهادات الدراســـية، وتـــبذل كـــثير من الأسر جهود كبيرة من أجل توفير الطعام والمواد الأساسية لهؤلاء الأطفال والتي تتضمن العمل في أكثر من وظيفة أو العمل لساعات طويلـــة، بالإضافة إلى أن معظم الأسر أصبحت مطالبة بتوفير موارد مادية للصرف عـــلى الـــدروس الخصوصية والتي أصبحت ظاهرة اجتماعية نتيجة لفشل البرامج التعليمـــية والمدرســـة في توصيل المعلومات وشرح المناهج الدراسية داخل الفصل، خاصة وان هذه المناهج لم تعد تتواءم مع متطلبات العصر من حيث تزويد الطلاب بالمهـــارات والقدرات التحليلية والابتكارية حيث انها تعتمد في غالبية الأحيان على مهـــارة الحفـــظ. ويعـــاني الأطفـــال، نتيجة حفظ كمية كبيرة من المعلومات الى

الضـــغوط، خاصـــة وأن المدرسة لم تعد قادرة على تقديم برامج وأنشطة اجتماعية وثقافية ورياضية فعالة يحتاجها الأطفال في هذه الفترة من حياتهم.

أمـــا أطفـــال الطبقة الغنية فإنهم يتمتعون بمزايا كبيرة مثل الالتحاق بمدارس خاصـــة، والانضـــمام إلى الأندية الاجتماعية والرياضية الخاصة والاستمتاع بتوفير الأســـرة لـــلموارد المطلوبة، ولكن كنتيجة للضغوط المختلفة لتوفير مستوى جيد اصبح الآباء يعملون لساعات أطول من أجل تحقيق التزامات ومسئوليات متعددة، الأمـــر الذي أثر على عملية التفاعل بين الآباء والأبناء نتيجة لغياب الأب في غالبية الأحيان نتيجة العمل لفترات طويلة.

المراهقون والشباب:

في إطـــار البحث عن تحقيق الذات والنجاح في المهمات، نجد أن المراهقين يمـــثلون طلاب المدارس في المراحل المتوسطة من الدراسة، ومن هنا فإنهم يواجهون تحديـــات الـــنجاح في الدراسة والحصول على الدرجات العلمية بمستويات عالية، ولقـــد ناقشـــنا طبيعة المناهج الدراسية والضغوط التي يعيشها الطلاب نتيجة للكم الكـــبير من المعلومات التي يجب عليهم أن يدرسوها سواء في المراحل الثانوية أم في الجامعـــات، هـــذا فضـــلاً عن عدم توفر البرامج الثقافية والاجتماعية الملائمة التي تســـاعدهم على اكتساب المهارات والخبرات، ونتيجة لذلك فإن كثيراً من هؤلاء الأفـــراد يشعرون بالإحباط والمعاناة من الضغوط والقلق، خاصة عند انتهائهم من الدراسة سواء في المرحلة الثانوية أم المرحلة الجامعية وصعوبات عدم الحصول على الوظيفة، حيث يصبحون قوة عاطلة تشكل عبئاً على الأسرة، وقد ينجح البعض في الحصـــول عـــلى أعمـــال لا تتلاءم مع مؤهلاتهم الدراسية ولكنهم يقبلونها نتيجة لحاجتهم إلى الاستقلالية وتحقيق الذات أو مساعدة الأسرة أو لتوفير النقود اللازمة لإشـــباع احتياجاتهم، وهناك البعض الآخر الذين قد توفر لهم أسرهم الموارد المادية ولكـــنهم يعجزون عن الحصول على الوظيفة ومن ثم فهم يشعرون بالفراغ والملل فينضمون إلى جماعات صغيرة تشعرهم بالانتماء والقبول، وقد يقضي بعضهم وقته في المقاهي ونوادي الكمبيوتر أو ما يسمي بـــ "الكافي شوب".

وتـــزداد المشكلة سوءا بالنسبة للفتيات عندما ينتهين من الدراسة ولا يجدن فـــرص ملائمـــة للعمل فيعيشن في فراغ ويتعرضن للشعور بالملل والفراغ ومن ثم

الاكتئاب، إلا أن بعضاً من الفتيات غير المتعلمات قد ينضممن إلى سوق العمل لممارسة مهن تدر عليهن دخلاً محدوداً يساعدهن على شراء المستلزمات الضرورية. ونتيجة لهذه التغيرات الاقتصادية وضعف فرص العمل، فلقد بدأ سن الزواج في التأخر، حيث لا يستطيع معظم الشباب توفير الإمكانات المادية التي تساعدهم على الزواج نتيجة لغلاء أسعار الشقق وضعف الموارد، الأمر الذي يتطلب في بعض الأحيان الاعتماد على مساعدة الآباء أو السفر والاغتراب لسنوات طويلة من أجل العمل في بلدان أخرى وتوفير الموارد اللازمة.

نموذج لمستقبل البيئة الاجتماعية في المجتمع العربي (مصر):

لقد نتج عن التغيرات الكثيرة التي عاشتها مصر في الفترات الأخيرة والتي أثرت على التركيبة الديموغرافية للسكان حيث بدأت الهجرة الداخلية من الريف إلى المدن في أثناء حركة التصنيع في منتصف الستينات، ولقد ساهمت الزيادة في معدلات السكان في نمو المدن الرئيسة وأصبحت مكتظة بالأسر والأحياء، سبب هذا نوعاً من التوسع الإسكاني وظهور أحياء فقيرة التصقت بالمدن الكبيرة، ولكنها ظهرت بطريقة تدريجية بدون تخطيط وقد عرفت بالأحياء العشوائية والتي تفتقر إلى الخدمات الصحية والطرق والرعاية الاجتماعية. وتعاني المدن الكبرى في مصر من التكدس السكاني نتيجة لافتتاح المصانع داخل المدن مما سبب الهجرة الداخلية وزيادة معدلات السكان على المتر المربع، ولذلك تضيق الشوارع في المدن الكبيرة نتيجة لزيادة وسائل المواصلات، الأمر الذي أثر على زيادة نسب التلوث، وانتشار الأمراض الناتجة عنها مثل الحساسية واضطرابات الجهاز التنفسي، وكنتيجة لانتشار المصانع داخل المدن وضعف الرقابة على انبعاث الدخان والمخلفات الغازية للهواء.

كل هذه المشكلات تتطلب حلولاً جذرية تعتمد على الدراسات العلمية والخطط والبرامج التي تقوم على الاستفادة المثلى من المساحات الصحراوية الواسعة بطريقة فعالة وبعيداً عن الاستغلال والانتفاعية، ويتطلب التعامل مع المشكلات البيئية أيضاً الاعتماد على الحلول الذاتية القائمة على الاستغلال الأمثل للإمكانات والخبرات المحلية والتعاون بين جهات وهيئات المجتمع من خلال التخطيط والتنفيذ والمراقبة من أجل حل المشكلات العميقة التي يعاني منها المجتمع المصري.

ثالثاً – البيئة والمجتمع العربي في منطقة الخليج

كان لظهور النفط في الفترة ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية في عدد من السبلدان العربية أثر كبير على طبيعة البناء الاجتماعي والإنساني لهذه المجتمعات، ولقد أثر ظهور هذه الثروة الطبيعية على التوجهات الاقتصادية لهذه المجتمعات مما أدى إلى حدوث تغيرات كبيرة في المقدرات الحياتية لأبناء هذه المجتمعات. وبشكل عام، فلقد استغلت معظم هذه البلدان تدفق عوائد النفط في إحداث تغيرات إنسانية مهمة وشاملة في البيئة المادية والاجتماعية تمثلت في حركة بناء وتطوير البنية التحتية والتي تضمنت شق الطرق وإنشاء شبكات المياه والكهرباء والاتصالات وبناء المدن السكنية والمطارات والمؤسسات الإدارية والخدمية، ولقد انعكس هذا التطور الكبير على حياة الأفراد والأسر من خلال مجموعة من البرامج والمشروعات الاجتماعية والثقافية التي تم تنظيمها وتقديمها لكافة الأفراد على هيئة خدمات التعليم والعلاج والإسكان والضمان الاجتماعي والتوظيف وتوفير فرص المشاركة في مجالات الاستثمار والتجارة وإتاحة الفرصة للنمو والتطور الذاتي لكافة الأفراد والجماعات.

ولقد ساهم التطور الكبير الذي عاصرته المجتمعات الخليجية في ظهور أنماط سلوكية وقيم وتعاملات جديدة تمثلت في الاتجاه إلى الانفتاح على العالم الخارجي والاستفادة من التطورات والاختراعات العلمية والتكنولوجية الحديثة من أجل بناء وتطوير المجتمع حيث تم بناء المدن باستخدام التكنولوجيا الحديثة وفتح مجالات التجارة وتنمية الصناعة واستخدام الأجهزة والعلوم الحديثة في تنمية الزراعة، ولقد تطلب ذلك الاعتماد على العمالة الخارجية الفنية والمدربة للمشاركة في حركة التنمية الاقتصادية في المجتمعات الخليجية.

وليس هناك شك في أن المجتمعات الخليجية قد شهدت حركة تنمية وإعمار كبيرة أدت إلى الاستمرار في التنمية الاقتصادية والاجتماعية مما أدى إلى إحداث تغيرات كبيرة انعكست بشكل إيجابي على مستويات المعيشة وتنمية المؤسسات العلمية والثقافية في المجتمع، الأمر الذي أدى إلى انتشار التعليم بين أبناء هذه المجتمعات واستخدام التكنولوجيا والاختراعات الحديثة في إشباع الاحتياجات الإنسانية وشعور الأفراد بالاعتبار الذاتي وتنمية أساليب التعامل مع المشكلات الإنسانية، وعلى نفس المنوال فإن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدها

المجتمعات الخليجية قد سببت في ظهور أنماط جديدة للتفاعلات الاجتماعية والسلوكيات الإنسانية. ويجب أن نتفهم أن هذه التفاعلات تعتبر جزءاً من حركة الإنسان وسعيه الدائب من أجل تحقيق التوازن في تفاعله مع البيئة ورغبته في تطوير ذاته وأساليب تفكيره من أجل تحقيق استمراريته على هذا الكون والسعي نحو تعلم أساليب جديدة لإشباع احتياجاته والعمل على حل مشكلاته بطريقة فعالة.

وسوف نقوم بعرض بعض التغيرات التي يعاصرها المجتمع الخليجي كمحاولة لتزويد القارئ بالمعارف التي تساعد على تفهم أساليب التفاعل بين الإنسان والبيئة:

أ - المقومات الإنسانية والتغير الاجتماعي والبيئي في مجتمع الخليج العربي

يرى أحمد وآخرون (1999) أن هناك أشكالاً مختلفة للتجانس تظهر في مجتمع الخليج العربي حيث تبدو في التشابه الكبير في النظم والعادات والتقاليد والأعراف. فبالرغم من اختلاف أنماط المعيشة الاجتماعية، إلا أن هناك قاسماً مشتركاً أعظم وينعكس في أهمية الأسرة وتغلب أشكال التكافل الاجتماعي والخدمات الاجتماعية والتبادلية التي تبدو في المناسبات الاجتماعية المختلفة كالزواج والميلاد والوفاة والاحتفالات بالأعياد الدينية والمناسبات الوطنية. ويضيف الباحث أن التجانس السياسي يعتبر أحد المقومات الإنسانية التي تميز مجتمع الإمارات العربية والذي يتمثل في التشابه الكبير في نظام الإمارة بكل تقاليده وأحكامه وأعرافه السياسية التي تستند على النظام القبلي والعلاقات القوية التي تربط أفراد المجتمع.

ويؤكد الشامسي (2000) أن الحياة القرابية تعتبر أحد المقومات الإنسانية السائدة في مجتمع الخليج والذي يعتبر كنظام اجتماعي يؤدي إلى تماسك العائلة من خلال العلاقات الاجتماعية اليومية داخل النسق الممتد الذي يصل الأطراف بعضها ببعض من خلال المصاهرة ورابطة الدم. إلا أن هذا النسق القرابي كما يقول الشامسي "قد تأثر بالتغير الاجتماعي والاقتصادي الذي طرأ على هذه المجتمعات على أثر الهجرة التي صاحبت ظهور النفط، حيث أصبح التباعد سمة عصرية فرضها الواقع الاجتماعي والاقتصادي على الأسرة الإماراتية وأصبحت العلاقات ثانوية

بعـــد أن كانت أساسية واهتمت الأسرة بالتعليم والتنشئة الاجتماعية المتطورة و لم تلتفت إلى ممارسة تعليم الأبناء الصلات القرابية التي تربطهم بأقربائهم من جهة الأم أو الأب إلا صلة الجدين وأبنائهما. ولهذا فلقد تمخض عن ذلك عدم معرفة الأبناء بالأقـــرباء إلا من خلال المناسبات النادرة وأصبحت العلاقات القرابية علاقة اسمية" (الشامسي، 2000، ص. 146).

ويتمثل التغير الاجتماعي الذي شاهده مجتمع الخليج في تدفق العائدات المالية مـــن النفط والتي تم استغلالها في مشاريع التنمية المختلفة مما ساهم في عملية التغيير ســـواء كان ذلك إيجابياً أم سلبياً، حيث انتقل المجتمع من مرحلة الفقر إلى مرحلة دولة الخدمات والرفاهية. ويضيف أحمد وآخرون إن " التحول في قيم المجتمع سواء في الجوانب الاجتماعية أم الاقتصادية والسياسية شكل تحدياً للقيم التقليدية السائدة التي ظل المجتمع يتعامل معها وكأنها مسلمات لا يمكن المساس بها" (أحمد وآخرون 1999، ص. 24).

ويـــري الشامسي أن التغير الاجتماعي والثقافي والاقتصادي قد أثر بشكل كـــبير عـــلى النسق القرابي السائد في مجتمع الإمارات حيث "لم تعد القرابة تأخذ شكلها التقليدي المتماسك المتضامن إنما أصبحت تشكل مجرد انتساب لعائلة أو جد واحد، وبدأ الاتجاه نحو الخصوصية بالنسبة للعمل الفردي بدلاً من العمومية داخل مجـــال العائلـــة فلم تعد الصلات القرابية ذات قوة إجبارية وذات تأثير على أفراد النســـق القـــرابي، ولهـــذا بدأت تنتهي العصبية القبلية السائدة في المجتمع التقليدي وبـــدأت تظهر المكانة الاجتماعية بجانب المكانة والمركز الاقتصادي الذي لا يفرق بـــين الأصل القبلي، إنما أساس ذلك القدرة المالية للفرد فهي المحك الذي يظهر في شـــكل المركـــز الاجتماعي والاقتصادي داخل المجتمع الإماراتي، ولهذا فقد بدأت تظهر حركة عكسية في المجتمع، إذ ان أبناء العائلات الفقيرة المتعلمين أصبحوا ذوي مراكـــز ومكانة اجتماعية واقتصادية واحتلوا مراكز قيادية في الإدارات الحكومية. وقـــد أثرت الحركة التجارية والاقتصادية وغيرها في تحسين المراكز الاجتماعية في المجـــتمع، كمـــا كـــان للأجور وسلم الرواتب في المؤسسات والدوائر والوزارات الحكومية دور بارز في رفع المستوى المعيشي للسكان" (الشامسي، 2000).

ولقـــد تأثرت القيم نتيجة للتغير الاجتماعي في مجتمع الخليج والذي تمثل في الهجرة الداخلية والنـــزوحات من المناطق البعيدة إلى مدن الساحل الرئيسية، حيث اســـتقرت في مجـــتمعات ســـكنية جديدة وبدأت تظهر قرى، وتمتد المدن الرئيسة لأعماق الصحراء وقد ساهم في تحول كثير من أبناء المدن والمناطق القديمة في المدينة إلى البناء والسكن في المناطق التي تقع في الأطراف (الشامسي، 2000). هذا التغير في البيـــئة المادية وأنماط السكن قد أدى إلى نوع من العزلة للأسرة بالمقارنة بالعائلة التقلـــيدية المفـــتوحة على النسق القرابي بشكل كبير حيث تغيرت الأسرة النواة في المجـــتمع الحديث نتيجة إلى السكن البعيد وتناثر مساكن النسق في مناطق متباعدة وربما في إمارات أخرى، أدى إلى عدم الاتصال والزيارة الدائمة، إنما تتحين الأسرة القرابـــية موعـــد العطلات والإجازات للقيام بزيارة النسق القرابي الموجود خارج الإمارة.

هـــذا الـــتغير في أنماط المعيشة قد سبب التباعد وضعف الاتصال الشخصي حيث بدأ تأثير التكنولوجيا والاختراعات الحديثة يظهر في عملية الاتصال على هيئة اســـتخدام وســـائل المواصلات كالسيارات والطائرات للربط بين الإمارات وزاد الاعتماد على الهواتف المحمولة والخطية كأسلوب للاتصال الإنساني بين أفراد نسق الأسرة القرابية للتعرف على الأخبار ومتابعة الأحداث التي يمر فيها الأقارب.

ويرى أحمد وآخرون (1999) أن التغير الاجتماعي السريع الذي تعرضت له مجتمعات الخليج نتيجة للانفتاح والاحتكاك بثقافات جديدة قاد إلى نشوء حالة من عـــدم الاســـتقرار القيمي أو ما يسمى "بصراع القيم" حيث برز إلى الوجود قيم وعادات وأعراف جديدة تحاول فرض نفسها، وزحزحة القيم والعادات القديمة التي لا تستســـلم بســـهولة بـــل تحاول الصمود لكل ما هو جديد. وكنتيجة لمثل هذا الصـــراع فـــإن هناك بعض المشكلات التي برزت إلى السطح وتفرض نفسها على المجـــتمع وأفـــراده. وتبدأ وسائل الإعلام المختلفة والمؤسسات الرسمية والأهلية في الحديـــث عـــن هذه المشكلات ومظاهرها وأسبابها بل في كثير من الأحيان تعقد المؤتمـــرات والـــندوات لمناقشـــة مشكلة معينة وتشخيصها ومن ثم وضع الخطط والبرامج الكفيلة بعلاجها أو التخفيف من آثارها السلبية (ص. 226).

ب. تأثير التغيرات البيئية على أنساق المجتمع الخليجي

أولاً - الأسرة وأنماط التفاعلات السلوكية:

يرى "عبيد" (1998) أن الأسرة الخليجية لا تختلف عن نظيراتها في المجتمعات العربية من حيث نشأتها ووظيفتها وخصائصها التي نهضت عليها، وهي التمسك بالقيم الدينية المستمدة من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف والتشبث بأنماط التقاليد العربية الأصيلة وقوامها عادات متوازنة من زمن طويل. ولكن الاختلاف بين الأسرة الإماراتية ونظيراتها من الأسر سواء في المجتمعات العربية أم منطقة الخليج العربي يرجع إلى الخصوصية الثقافية لكل مجتمع.

وبالنسبة للمجتمع الإماراتي على سبيل المثال فإن هذه الخصوصية الثقافية تتمثل في:

- الأصول القبلية والتي تعرضت إلى عوامل ومؤثرات ثقافية واقتصادية واجتماعية متماثلة ومتباينة أدت إلى تداخل أنماط الحياة الريفية (الرعوية) مع الحياة الحضرية مما أدى إلى ذوبان الكثير من القيم والعادات القديمة والمتوارثة ومن ثم إلى ظهور عادات وتقاليد جديدة لم تكن معروفة من قبل مثل ظهور الأسرة النواة وتقلص الأسرة الممتدة.
- ان الأسرة الخليجية بشكل عام بدأت تفقد تدريجياً مجموعة الوظائف الأساسية التي مارستها لأجيال طويلة مثل الإنجاب وتأمين الحاجات المعيشية لأفرادها وتنشئتهم في سياق العادات والتقاليد السائدة في المجتمع، فضلاً عن توفير الأمن والاستقرار الاجتماعي حيث كانت الأسرة الإماراتية بمثابة وحدة للاكتفاء الذاتي بحكم كونها وحدة منتجة ومستهلكة في ذات الوقت، ولكن نتيجة لعوامل التغير الاجتماعي بدأت الأسرة الإماراتية تفقد تدريجياً هذه الوظائف واحدة تلو الأخرى حتى أصبحت مجرد جماعة استهلاكية تعيش في ظل مجتمع الوفرة والرفاهية والخدمات.
- أنه على الرغم من الدعوة في معظم البلدان العربية إلى المطالبة بتنظيم الأسرة وخفض معدلات الإنجاب، نجد أن صغر حجم المجتمع الخليجي يعزز من ضرورة

تشجيع الزواج بغرض زيادة النسل. ويشير "عبيد" (1998) إلى أن هناك عوامل وراء قلـــة الســـكان في المجتمعات الخليجية بشكل عام ومجتمع الإمارات بشكل خاص:

- ظاهرة غلاء المهـــــور
- الاتجاه نحو الزواج من أجنبيات

وهناك بعض التغيرات الأساسية في خصائص الأسرة الإماراتية:

أ – أنـــه من الأعوام (1985 – 1995) زادت نسبة الطلاق بين المواطنين في مجتمع الإمـــارات خصوصاً بين فئات العمر (25 – 29) (30 – 39) وذلك في المناطق الحضرية وشبه الحضرية.

ب – أن نســـبة الزواج انخفضت أيضاً للسنوات 1985 – 1995 بين فئات العمر الشابة بين المواطنين والمواطنات وعلى مستوى جميع الإمارات ويرجع ذلك إلى ثلاثة عوامل:

1 – تفضيل الشباب مواصلة دراستهم الثانوية والعليا على الزواج.

2 – إقـــبال المواطنين الشباب على الزواج من أجنبيات لاعتبارات اقتصادية واجتماعية.

3 – انخـــراط المـــرأة في سوق العمل أتاح لها فرص الاستقلال الاقتصادي ومنحها قدراً من الحرية الاجتماعية لكنه يقلل من فرص زواجها.

جـــ. ارتفاع معدلات المواطنين والمواطنات العزاب في السنوات (1985 – 1995) خصوصـــاً في الفـــئة العمرية (30 – 34) وذلك على نطاق جميع الإمارات بالنسبة للشباب.

د. تشير الإحصائيات إلى ارتفاع سن العنوسة بين الحاصلات على درجة جامعية (عبيد، 1998، العصفور 1998).

ثانياً – أساليب تنشئة الأبناء ومشكلات المراهقين:

يـــرى "ســـنو" (1998) أنه كنتيجة للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي عايشـــتها مجـــتمعات الخليج بعد النفط والتحديات التي واجهتها الأسرة في عملية

تنشئة الأبناء التي تمثلت في اختلاف أساليب التربية وتأثير الإعلام والثقافات الغربية وضعف الارتباط بين الأبناء والآباء وتحويل معظم أدوار الأم في تربية الأبناء إلى الخدم والمربيات الأجانب، الأمر الذي أدى إلى تأثر سلوكيات الأبناء بدرجة كبيرة وظهور قيم واتجاهات مختلفة بين الأبناء على اختلاف أعمارهم:

1- المراهقون:

قام "سنو" (1998) بتنفيذ دراسة عن المراهقين في دولة الإمارات ولقد أظهرت الدراسة عدد المشكلات التالية:

أ- الذكور: أظهرت نتائج دراسة طبِّقت على مجموعة من المراهقين في مجتمع الإمارات تعرض الذكور منهم لمشكلات الانطواء والخجل وما تسببه من الانعزالية وعدم المشاركة في نشاطات المجتمع، والاضطرابات في العلاقات مع الآخرين ومع الجنس الآخر وفي المدرسة، ترجع إلى ضعف التنشئة الأسرية للولد وفقدان المحبة والحنان مما يؤدي إلى شعوره بعدم الثقة بالنفس ومن ثم عدم الثقة بالآخرين، وهناك سلوكيات العنف اللفظي الموجهة من الآباء إلى الأبناء والتي قد تقترن في بعض الأحيان بالعنف الجسدي (العقاب البدني) وقد ينتج عن هذا النوع من التفاعل بين الآباء والأبناء قيام الأبناء بكبت الغضب وتوجيه ردة الفعل إلى الداخل (إلي الذات) الأمر الذي قد يسبب تعرض المراهق لمشكلات انخفاض المستوى الدراسي وشرب الخمر والإدمان والهروب المؤقت من المترل. ويرى "سنو" أن مثل هذه الضغوط ربما تدفع المراهق إلى التمرد ضد الأسرة وتحدي قيمها وتقاليدها وقد تظهر الضغوط التي يعاني منها المراهق في سلوكيات سلبية في التعامل مع الجنس الآخر كالمعاكسة والوعود الكاذبة والاستهتار بالمشاعر والعواطف.

ب - الإناث: أما عن المشكلات التي ربما تعاني منها المراهقات فتتلخص، وفقاً للدراسة المشار إليها، في الانطواء والخجل والمعاناة من العنف اللفظي من قبل الوالدين والتعرض لأساليب التعامل السلبية من الأهل والأخوة وتحملهن لمسؤولية البيت ومسؤولية أخوتها القاصرين. ولقد وجد "سنو" أن 50% من المراهقات المشتركات في الدراسة يواجهن ضغوطاً اجتماعية ونفسية من قبل الأسرة والأهل، ويرى أن تفاعل هذه الضغوط قد يؤدي إلى الإحساس بالغضب من الذات والاستهتار بالعادات والتقاليد والخروج عليها على هيئة سلوكيات سلبية، مثل

معاكسة الشباب على الهاتف حتى ساعات متأخرة من الليل، الأمر الذي يؤثر على قـدرة المراهقة على تحقيق أهدافها التعليمية والتعرض لمشكلات في الأسرة (سنو، 1998، ص. 135 – 136).

2 – الشباب:

يشير لؤلؤ وخليفة (1996) إلى أن إجمالي الشباب الذين تقع أعمارهم ما بين 15 – 24 سـنة في منطقة الخليج يبلغ أكثر من خمسة ملايين شخص (حوالي 19% مـن تعـداد السـكان)، وهناك أيضاً ارتفاع في نسبة الشباب الأجنبي في الأقطار الخليجيـة حيث يصل إلى 78% في الإمارات و 75% في قطر ثم 53% في الكويت و43% في الـبحرين و29% في السعودية. ويرى لؤلؤ وخليفة (1996) "أن الثروة النفطية الهائلة بالإضافة إلى صغر حجم السكان قد ساهمت في تحقيق دخول فردية عالـية، وتوفـير خدمـات احتمالية كافية وزيادة قدرة الشباب المالية الأمر الذي جعـلهم يستسلمون للميول الاستهلاكية التي تنشرها تطلعات الطبقات الوسطى والعلـيا، ويسرفون في الإنفاق على الملابس والسيارات والسفر وغيرها، وان هذا السـلوك في حاجة إلى ترشيد، من ناحية، مع تبني قيم سلوكية إنتاجية – تتفق مع متطلـبات التنمـية المستقبلية من ناحية أخرى" (ص. 139). ويضيف الباحثان أن المتغيرات الحديثة في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والسياسية قد أبـرزت أهمـية اسـتغلال وقت الفراغ، ومن أهم تلك المتغيرات نجد زيادة وقت الفـراغ، وذلك نظراً للتشريعات الجديدة التي قللت من ساعات العمل الأسبوعية وزادت من الإجازات والعطلات السنوية، كذلك العطلات المدرسية الطويلة.

ثالثاً: المرأة والعمل في المجتمع الخليجي

يناقش الشامسي (2000) أوضاع المرأة في مجتمع الخليج حيث استطاعت أن تحظى بقدر كبير من التعليم مما أهلها للعمل جنباً إلى جنب مع الرجل، وإن كانت المجـالات التي انتظمت فيها المرأة تقتصر إلى حد ما على التعليم في مدارس البنات وفي وزارة الشئون الاجتماعية كأخصائيات وباحثات اجتماعيات وطبيبات نساء، ولم تظهر حتى وقتنا الحاضر بوادر الاختلاط في مجال العمل وإن كان هناك مجالات إداريـة تفرض على الموظفة الاحتكاك اليومي مع المراجعين من الرجال. ويضيف

لؤلؤ وخليفة (1996) أن هناك زيادة مضطردة في نسبة الخريجات بالمقارنة بالخريجين الذيـــن أكملوا الدراسة في المراحل التعليمية المختلفة. ويرى الباحثان أن تعليم المرأة في الإمـــارات على سبيل المثال له بعد خاص يتمثل في جانبين هما البعد الاجتماعي حيث إن المرأة يمكنها أن تساهم في عمليات التنمية الشاملة فتحد بذلك من الأيدي العاملـــة الوافـــدة، وبعد اقتصادي حيث يرتفع مستواها الاقتصادي بزيادة دخلها وبذلك تقدم خدمة وطنية وشخصية (ص. 190).

وعـــلى الـــرغم من الزيادة الكبيرة في أعداد الخريجات، إلا أن الإحصائيات تشـــير إلى أن نســـبة المرأة في سوق العمل لا تتعدى 6% من العاملين في المجالات المخـــتلفة في المجتمع، ويعرض لؤلؤ وخليفة (1996) مجموعة من المعوقات التي تمنع المرأة من المساهمة بفاعلية في سوق العمل:

أ - المعوقات الاجتماعية:

1 - عدم وجود قطاع خدمات متطورة لرعاية أبناء الأم العاملة.

2 - ضعف التعاون بين الرجل والمرأة داخل الأسرة.

3 - ضعف استيعاب بعض الرجال لدور المرأة في العمل.

4 - معارضة بعض الأسر لمشاركة المرأة في العمل.

ب - المعوقات الشخصية:

1 - عدم إقبال بعض النساء على العمل في مجال الخدمات الفنية.

2 - إحجام بعض النساء المتعلمات عن العمل.

3 - اشتراط بعض الشباب المتقدمين للزواج بترك الفتاة للعمل.

جـــ. المعوقات الثقافية:

1 - ضعف الوعي الثقافي عند المرأة بأهمية العمل.

2 - وسائل الإعلام ودورها في إبراز أهمية عمل المرأة.

3 - عدم اهتمام بعض المجلات بالقضايا المتعلقة بعمل المرأة.

د. المعوقات الاقتصادية والإدارية:

1 - التميز بين المرأة في الترشيح للترقيات.

2 - عدم وجود حوافز مادية لبعض المهن كالصحية والفنية.

3 - عــدم حصــول المــرأة على فرص عمل في بعض القطاعات كالعمل السياسي والدبلوماسي والنيابي.

4 - قلة فرص التطوير والتدريب.

هــ. المعوقات التخطيطية والتنظيمية:

1 - غــياب خطــة تنمية شاملة للقوى العاملة تساعد المرأة على المشاركة الفعالة في بناء المجتمع.

2 - عــدم وجود جهة مسئولة للاهتمام بمناقشة المعوقات التي تواجه المرأة العاملة.

3 - عدم وجود مراكز إرشاد وتوعية للخريجات الجدد.

و. المعوقات القانونية والدستورية:

1 - قصــور اللوائح التنظيمية لعمل المرأة والتي تيسر لها المزايا التي تستطيع الاســتفادة منها في الظروف الطارئة (إجازة الوضع المناسبة - إجازة أمومة وطفولة).

2 - ضعف المجال أمام المرأة للقيام بمشروعات خاصة.

وبعــد أن قــام لؤلؤ وخليفة بعرض تحليلي للمعوقات التي تمنع عمل المرأة يوضــح الباحــثان أن المجــتمع الإماراتي يتعرض لمخاطر اجتماعية سلبية من جراء استعانته بالعمالة الأجنبية لتنفيذ خططه التنموية، ولذا أصبح من الأهمية لتلافي كثير مــن الســلبيات الاعتماد على الأيدي العاملة المواطنة سواء كانت من الذكور أم الإنــاث، وحيث إن الإناث يشكلن نصف المجتمع، أضحي عمل المرأة المواطنة ذا خصوصية تختلف تماماً عن عمل المرأة في أي مجتمع من المجتمعات سواء النامية منها أم المتقدمة. إن عمل المرأة هنا يعتبر واجباً وطنياً بالدرجة الأولى ودفاعاً عن حياتها وأطفالها وأسرتها (ص. 191).

جـ. التغيرات في القيم الاجتماعية والأنماط السلوكية

كنتيجة للتغيرات العالمية بما تتضمنه من تكتلات اقتصادية وتغيرات تكنولوجية، فإن العالم يواجه الآن ظهور قيم جديدة وأنماطاً مختلفة من السلوكيات، وينطبق ذلك أيضاً على مجتمع الإمارات حيث إن التغيرات الاقتصادية والاندفاع نحو النمو والتطوير وتشييد البنية التحتية في المجتمع أدى إلى الاعتماد الكبير على العمالة الوافدة التي أثرت بشكل كبير على التركيبة السكانية والمهنية للمجتمع، والأطر الثقافية العائلية، بالإضافة إلى وسائل الإعلام ومضامينها المختلفة، الأمر الذي سبب ظهور اتجاهات وسلوكيات جديدة في المجتمع. فقد شهد المجتمع الإماراتي ظاهرة تأخير سن الزواج، بدلا من التبكير، وخاصة في القطاعات الحضرية، ويرجع "لؤلؤ وخليفة" (1996) ذلك إلى غلاء المهور وطريقة الاختيار في الزواج، وظاهرة الزواج من أجنبيات، الأمر الذي يحتاج إلى تعديل المفاهيم الثقافية السائدة على أسس تكوين الأسرة وطبيعة العلاقات السائدة بين الزوجين، إلا أن تعرض الأسرة لمشكلات أساسية نتيجة لأساليب التفاعل وقلة الوعي بالتغيرات التنظيمية المرتبطة بمفهوم الأسرة والمشاركة في الأعباء قد أثر في ارتفاع معدلات الطلاق بين الأسر الخليجية بشكل عام.

وهناك اعتقاد بين الباحثين (أحمد وآخرون، 1999) أن تفاقم مشكلة الطلاق في المجتمع الإماراتي يرتبط بالتغيرات التي شهدها المجتمع في فترة الستينات والتي أدت إلى ثراء الأفراد وتوافر الإمكانيات المادية اللازمة لهم والتي تمكنهم من الحصول على زوجة ثانية وثالثة، أو الاستغناء عن الزوجة السابقة. كما أدت التغيرات القيمية كذلك إلى انعدام التفاهم بين الزوجين، الأمر الذي ينتهي بالانفصال الكامل بينهما، كذلك أدى اختلاف معايير الاختيار وعد التكافؤ بين الزوجين إلى بروز المشكلة وتفاقمها، حيث لخصت إحدى الدراسات العوامل المرتبطة بتفاقم مشكلة الطلاق في المجتمع الخليجي في: أ) الفوارق التعليمية والثقافية، الجهل، وقسوة الرجل وضرب المرأة، والزواج من أجنبيات، وغلاء المهور، ب) الغزو الإعلامي، جـ) الخلافات الزوجية حول أساليب التنشئة الاجتماعية.

وعلى الجانب الآخر، ظهرت السلوكيات الاستهلاكية التي انتشرت بين الأسر الخليجية، إلا أن التغيرات الاقتصادية التي يشاهدها العالم الآن في مجال الطاقة واستخداماتها – مثل البحث عن مصادر جديدة للطاقة، وضرائب الكربون، والاكتشافات البترولية الجديدة- سوف تؤثر بشكل أو بآخر في استقرار عوائد البترول، الأمر الذي يتطلب من الأسر الخليجية ضرورة ترشيد الاستهلاك والاستعداد لأي تغيرات في الدخل الذي قد يحدث في المستقبل.. ويرى لؤلؤ وخليفة (1996) أيضاً أن التحولات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن اكتشاف النفط قد أفرزت بناء مهنياً جديداً يتركز على الخدمات، والأعمال الفردية الحرة والأعمال المكتبية مما سبب هجر العمل الزراعي وتقديس العمل المكتبي وإهمال العمل الفني واليدوي، ويري الكاتبان أن مثل هذه التغيرات في البناء المهني سيكون لها تأثير سلبي على مستقبليات التنمية وطبيعة الموارد البشرية الأسرية.

ويرى الباحثان أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المجتمع الخليجي قد سببت في ظهور أنواع جديدة من القيم والسلوكيات الفردية على حساب القيم الجماعية مما أوجد النزعة تجاه تحقيق المصلحة الفردية على حساب القيم الجماعية وانصراف الزوج أو رب الأسرة عن الاهتمام بالأبناء والإشراف على توجيههم – وترتب على ذلك أن بعدت الشقة بين الآباء والأبناء- وقد ساهم ذلك في زيادة مشكلات الانفصال الأسري وجناح الأحداث والمشكلات الأسرية المرتبطة بالإهمال وضعف الرقابة على الأبناء وتدليلهم بشكل مفرط.

ويرى أحمد وآخرون (1999) أن ظاهرة الزواج من أجنبيات قد أثرت في اختلال موازين الأسرة وما يترتب عليها من مشكلات بالنسبة لتماسك الأسرة وتنشئة الأطفال حيث تنتمي الزوجة الأجنبية إلى ثقافة مغايرة عن ثقافة المجتمع فلا يمكنها التواصل مع أسرة الزوج، ولقد تعرضت الأسرة في المجتمع الخليجي بشكل عام لأنماط سلوكية وقيم لا تنسجم مع النسيج الثقافي والأخلاقي للمجتمع نتيجة للمتغيرات التالية:

- التغيرات التكنولوجية الحديثة مثل الفضائيات والانترنيت.
- العمالة الوافدة والاعتماد على المربيات الأجنبيات في تنشئة الأطفال.

- ظهور قيم حب الثراء وما يترتب عليها من عمل الآباء بشكل متواصل مما يــؤدي إلى عــدم قدرتهــم على الإشراف على الأبناء وتنشئتهم التنشئة السوية.
- عمل المرأة وعدم تفرغها للاشراف التربوي.

ونتيجة للمبالغة في الاعتماد على المربيات الأجنبيات في تربية ورعاية الأبناء، فقــد أثــر ذلــك على التكوين اللغوي والثقافي عامة وعلى هوية الطفل خاصة، بالإضــافة إلى خطورة المؤثرات الثقافية العالمية من خلال وسائل الاتصال وخاصة التلــيفزيون الأمر الذي يزيد من جسامة المسئولية الأسرية والمجتمعية في التعامل مع المشكلة، لذلك يرى الباحثان ضرورة القيام بالتالي لمواجهة هذا الخطر:

- إعادة النظر في موضوع المربيات لدورهن وتأثيرهن الثقافي على الطفل وتشكيل هويته، إما بالتخلي التدريجي أو بزيادة مشاركة الأم المستمرة والفعالة المتمثلة في التنشئة الثقافية والاجتماعية وقصر مهمة المربيات على الأعمال المنزلية التقليدية والأساسية.
- تفعيل دور المرأة في ترشيد المشاهد الإعلامية، خاصة ما يتصل ببرامج الأطفال، فالطفل في مرحلة النمو، يحتاج إلى توجيه وإرشاد وليس من الممكن التخلي، ولا نقــول الانصــراف أو الابتعاد عن الإعلام، لكن الإشراف مهم في التوجيه إلى الإيجابــيات، وتفــادي السلبيات وهذا يتطلب مزيداً من التوعية الأسرية وبث الثقافة الأسرية بين الأمهات.
- زيــادة التفاعل بين الأبوين والأبناء ودعم القيم الروحية لدى الأطفال لمواجهة مؤثرات التحديث المادية، وهذان أمران هامان لدعم عاطفتي الأبوة والأمومة من ناحــية أو للمســاهمة في الــتكوين الخلقي والروحي للطفل، وإعداده لمواجهة المستقبل بعقلية أخرى من ناحية أخري.

ملخص الفصل

تعرضــنا في هذا الفصل إلى مناقشة مقومات البيئة في المجتمع العربي من أجل تفهــم تــأثير التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسلوكية التي عايشتها المجتمعات العربية في الزمن المعاصر وتأثير ذلك على ظهور قيم وأنماط سلوكية جديدة ساهمت

بشـــكل أو بآخـــر في حدوث عدد من التفاعلات والمشكلات التي تتعامل معها المجـــتمعات العربية حالياً، وفي هذا الإطار فلقد تم التعرض لبعض من هذه التغيرات ومناقشة طبيعتها من أجل التعرف على إيجابياتها وسلبياتها وكيفية تفهم التفاعلات والمؤثرات التي تسببها.

وفي إطار هذا العرض فلقد تم الاستعانة ببعض النماذج من المجتمعات العربية ومناقشة الظروف والأحداث التي مرت بها من خلال توضيح المقومات الخاصة لهذه المجـــتمعات وتأثير التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية على طبيعة وظروف هذه المجتمعات، ولقد قصدنا من هذا إعطاء طلبة الخدمة الاجتماعية فكرة متكاملة عـــن طريق تطبيق المنهج التحليلي عن أهمية تفهم التفاعل بين البيئة بمكوناتها المادية والبيـــئة وتأثيرهـــا على سلوكيات أفراد وجماعات المجتمع وانعكاساتها على الواقع القيمي في المجتمع، كل هذا تم في سياق الاعتماد على استخدام المعلومات والأفكار العلمـــية في تحلـــيل الواقـــع الاجتماعي والبيئي من أجل تفهم طبيعة التفاعل بين الإنسان والبيئة.

أسئلة تطبيقية

1- ناقش مع زملائك أهم التغيرات البيئية والاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في مجتمعك الصغير (الحي – القرية – المدينة) في السنوات العشر الماضية.

2 - حـــدد تـــأثير هذه التغيرات على سلوكك الذاتي والتفاعلات داخل أسرتك، وطبيعة العلاقات في مجتمعك الصغير.

3 - وضـــح وجهة نظرك نحو كيفية العمل على مواجهة الآثار السلبية التي سببتها هذه التغيرات من أجل حماية النشء وفئات الشباب في المجتمع.

4 - نـــاقش مسئولية المجتمع المحلي والجمعيات الأهلية والمؤسسات الرسمية في تحقيق التوازن الإيجابي والتكيف الفعال مع التغيرات التي تحدث في المجتمع.

References المراجـــع

- Ashford, J., Lecroy, C., & Lortie, K. (2004). Human behavior in the social environment, (2nd Ed.). Wadsworth Publishing.
- Bandura, A. (1991). Social cognitive theory of moral thought and action. In W. M. Kurtines & J. L. Gewirtz (Eds.), Handbook of moral behavior and development: Theory, research and applications (V. 1, pp. 71-129). Hillsdale, NJ: Erlbaum.
- Barker, L. (1995). The Social Work Dictionary, DC:NASW.
- Barkley, R. (1985). Developmental changes in the mother-child interactions of hyperactive boys: Effects of two dose levels of Ritalin. Journal of Child Psychology and Psychiatry, 26(5), 705-715.
- Beere, A. (1990). Gender roles: A handbook of tests and measures. New York: Greenwood.
- Berini, R., & Kahnim E. (1987). Human Behavior In The Social Environment: An Ecological view. Columbia University Press, New York,: Clinical Genetics Handlook. Otadess: Medical Economics Books.
- Bogdon, C. (1993). Childbirth practice in American history. In B. K. Rothman (Ed.) The encyclopedia of child-bearing. New York: Henry Holt, 1993.
- Bowlby, J. (1969). Attachment and loss: Vol.1. Attachment. New York: Basic Books.
- Bronfenbrenner, U. (1979). The ecology of human development. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Brown, L., & Pollitt, E. (1996). Malnutrition, poverty and intellectual development. Scientific American, 38-43.

- Butler, R. (1990). The effects of mastery and competitive conditions on self-assessment and different ages. Child Development, 61, 201-210.

- Case, R. (1991). The mind's staircase: Exploring the conceptual underpinnings of children's thought and knowledge. Hillsdale, N.J.: Erlbaum.

- Cates, W., & Rauh, L. (1991). Adolescence and sexually transmitted diseases: An expanding problem. Journal of Adolescence Health Care, 6, 1-5.

- Chess, A., & Norlin, M. (1991). Human Behavior and The Social Environment: Asocial System Model. Boston: Allyn and Bacon.

- Cole, M. (1990). Cultural psychology. In J. Berman (Ed.), Nebraska symposium on motivation, 1989: Cross-cultural psychology, (pp. 279-336), Lincoln, Neb.: University of Nebraska Press.

- DeCasper, J., Lecanuet, P., Busnel, C., & Granier-Deferre, C. (1994). Fetal reactions to recurrent maternal speech. Infant Behavior and Development, 17, 159-164.

- Erikson, H., & Erikson, M. (1981). Generativity and identity. Harvard Educational Review, 51: 249-269.

- Fischer, K., & Pipp, L. (1984). Processes of cognitive development: Optimal level and skill acquisition. In R. J. Sternberg (Ed.), Mechanisms of cognitive development (pp. 45-90). New York: Freeman.

- Frank, S. (1991). Shame and guilt in eating disorders. American Journal of Orthopsychiatry, 61, 303-306.

- Fraser, M. (2004). Risk and resilience in childhood. NASW Press, Washington DC.

- Fries, F., & Crapo, M. (1981). Vitality and aging. San Francisco: Freeman.
- Frey, S., & Ruble, N. (1987). What children say about classroom performance: Sex and grade differences in perceived competence. Child Development, 58, 1066-1078.
- Germain, C. (1991). Human Behavior in the Social Environment: An Ecological View. New York: Columbia University Press.
- Hepworth, H., & Larsen, A. (1993). Direct Social Work Practice: Theory and Skills. Pacific Grove. CA: Brooks/ Cole.
- Hetherington, M., Cox, M., & Cox, R. (1979). Play and social interaction in children following divorce. Journal of Social Issues, 35, 26-49.
- Hutchison, E. (2004). Dimensions of human behavior (2nd ed.), SAGE Publications, USA.
- Ingersoll, B., & Goldstein, S. (1993). Attention deficit disorder and learning disabilities: Realities, myths and controversial treatments. New York: Doubleday.
- Grossarth-Maticek, R., Eysenck. J., Uhlenbruck, G., Rieder, H., Vetter, H., Freesemann, C., Rackic, L., Gallasch, G., Kanazir, D., & Liesen, H. (1990). Sport activity and personality as elements in preventing cancer and coronary disease. Perceptual and Motor Skills, 71, 199-209.
- Klahr, D. (1989). Information processing approaches. In R. Vasta (Ed.). Annals of child development: V. 6. Six theories of child development (pp. 133-187). Greenwich, Conn.: JAI Press.
- Kohlberg, L. (1976). Moral stages and moralization: The cognitive-development approach. In T. Lickona (Ed.), Moral development and behavior. New York: Holt, Rinehart & Winston.

- Kramer, A. (1989). Development of an awarness of contradiction across the life span and the quesstion of post formal operations. In M. - L. Commons, J. D. Sinnott, F. A. Richards, & C. Armon (Eds.), Adult development models (pp. 133-159). New York: Praeger.
- Lozoff, B. (1989). Nutrition and behavior. American Psychologist, 44, 231-236.
- Macfarlane, A. (1977). The Psychology of Childbirth. Cambridge, Mass.: Harvard University.
- McCall, R. (1981). Nature-nurture and the two realms of development: A proposed integration with respect to mental development. Child Development, 52, 1-12.
- Milliken, M. (2004). Understanding human behavior (7th Ed.). Delmar Learning.
- Moran, E., Gillett-Netting, R. (2000). Human adaptability (2nd Ed.), West View Press.
- Newman, M., & Newman, R., (2002). Development Through Life: A Psychosocial Approach. Homewood, IL: Dorsey.
- Norlin, G., Chess, W., Dale, O., & Smith, R. (2002). Human behavior and the social environment (4th ed.). Allyn & Bacon.
- Piaget, J. (1983). Piaget's theory. In P. Mussen (Ed.), Handbook of child psychology, V. 1, New York: Wiley.
- Piaget, J., & Inhelder, B. (1967). The child's conception of space, New York: Norton.
- Rybash, J., Roodin, P., & Hoyer, W. (1995). Adult development and aging (3rd ed.). Madison: Brown & Benchmark.
- Schaie, W. (1996). Intellectual development in adulthood. In J. E. Birren, K. W. Schaie, R. P. Ables, M. Gatz, & T. A. Salthouse (Eds.), Handbook of psychology of aging. (4th ed., pp. 226-286). San Diago, CA: Academic Press.

- Schaie, W. (1994). The course of adult intellectual development. American Psychologist, 49, 304-313.
- Seifert, K., Hoffnung, R., & Hoffnung, M. (1997). Lifespan Development. Houghton Mifflin: New York.
- Serbin, A., Powlishta, K., & Gulko, J. (1993). The development of sex typing in middle childhood. Monographs of the Society for Research in Child Development, 58, (Whole No. 232).
- Skinner, F. (1938). The behavior of organisms. New York: Appleton- Century- Crofts.
- Shiao, R., Tao, X., McLeskey, S., Bano, M., Khera, S., Kern, F., Freter, C., & Vincent, T. (1995). Over-expression of IL-6 in MCF-7 breast cancer cells results in increased tumorigenicity in nude mice. Proceedings of the Amirecan Association for cancer Research Annual Meeting, 36, 255.
- Spirduso, W. (1995). Physical dimensions of aging. Champaign, Ill.: Human Kinetics.
- Steinberg, D., & Levine, D. (1990). You and your adolescent: A parent's guide to development from 10 to 20. New York: Harper & Row.
- Steiner, G. (1987). Spatial reasoning in small-size and large size environments: In search of early prefigurations of spatial cognition in small size environment. In B. Inhelder, D. de Caprona, & A. Cornu-Wells (Eds.), Piaget today. Hillsdale, N.J.: Erlbaum.
- Vaillant, E., & Vaillant, O. (1990). Natural history of male psychological health, XII: A 45-year study of successful aging at age 65. American Journal of Psychiatry, 147(1), 31-37.
- Vygotsky, S. (1978). Mind in society: The development of higher psychological processes. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

- Willis, L. (1989). Adult intelligence. In A. Hunter & M. Sundel (Eds.), Midlife myths: Issues, findings, and [ractice implications, Newbury Park, Cal.: Sage.
- Wodarski, J. & Dziegielewski, S. (2002). Human behavior and the social environment. Springer Publishing, USA.
- Woolston, J. (1993). Eating and growth disorder. Philadelphia: Sunders.
- Zastrow, C. & Kirst – Ashmman, K. (2004). Understanding Human Behavior and the Social Environment. Nelson Hall – Chicago.

فهرس المحتويات

2005/1/727

السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية
بين النظرية والتطبيق

يتعرض هذا الكتاب لقضية هامة ترتبط بكيفية تفسير السلوك وتفهمه، وبشكل عام فلقد حلل علماء النفس منذ فترة طويلة السلوك الإنساني وطبيعته وأوضحوا أن السلوك الإنساني يتأثر بطبيعة الشخصية ومكوناتها، إلا أن علماء الاجتماع أكدوا فيما بعد أن السلوك الإنساني هو محصلة للظروف الاجتماعية والبيئية التي يعيش فيها الإنسان بما تتضمنه من تقاليد وعادات وظروف اجتماعية وبيئية، وهو يهدف إلى تزويد القارئ بالحقائق العلمية والمفاهيم الأساسية التي ترتبط بالسلوك الإنساني والعوامل البيئية والاجتماعية والثقافية التي تدفع هذا السلوك وتوجهه.

وهذا الكتاب موجه إلى كافة المهتمين بدراسة السلوك الإنساني وطبيعته كذلك المتخصصين في الرعاية النفسية والاجتماعية والعاملين في مجال التربية والتأهيل النفسي والاجتماعي، وإلى الآباء لمعرفة كيفية سلوك الأبناء ودوافعه وإلى الصغار للتزود بالمعارف الأساسية عن طبيعة الإنسان ومراحل النمو، كما يُعد مرجعاً علمياً يشرح طبيعة التحديات والمتطلبات المتعلقة بمرحلة الشباب، ويتوجه أيضاً إلى الأفراد الذين يعيشون المرحلة المتوسطة من العمر وأخيراً إلى أعضاء المجتمع من كبار السن وكيفية مواجهة هذه المرحلة من خلال التعود على أنواع جديدة من السلوك تمنحهم الأمل والسعادة. وقد التزم هذا الكتاب بالمعايير الحديثة للكتاب الجامعي من نظريات وحقائق علمية مع تطبيقات واقعية من كل مراحل النمو المختلفة مع توضيح وتحليل الأبعاد الاجتماعية لها.



ISBN 9953-427-95-x

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع